تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف
جرجي زيدان

المجلد الأول

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

تاريخ التمدن الإسلامي

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

الجزء الأول

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مقدمة الناشر

عندما يذكر المؤرخون الاعلام العرب الذين حملوا مشعل النهضة الحديثة يجدون في مقدمة هؤلاء الاعلام باحثاً عظيماً كان له أكبر الأثر في ارساء قواعد هذه النهضة على الاسس السليمة التي يجب أن ترتكز اليها . وهذا الباحث ، المؤرخ ، والاديب الفذ هو « جرجي زيدان » ، فهو بالاضافة الى ما كان يتمتع به من موهبة أدبية جمالية وخيال خصب كان أكثر الباحثين جلدا وأقواهم صبراً على تقصي وقائع التاريخ وملاحقة دقائق حوادثه .

لقد عني جرجي زيدان عناية كبرى بالتاريخ العربي والاسلامي ، فبسط أخبار هذا التاريخ تبسيطاً فنياً ممتازاً في سلسلة من الروايات التاريخية باسم «روايات تاريخ الاسلام». وقد لاقت هذه السلسلة ولا تزال تلاقي رواجاً ممتازاً لدى قراء العربية ، لما تميزت به من أسلوب شيق ووقائع ثابتة . وكانت النافذة الامينة التي أطل منها القارىء العربي الحديث على تاريخ قومه ومزايا أبطالهم .

ولكن زيدان الباحث المفكر لم يكتف بنسخ الاخبار وعرضها مبسطة للقارىء ، بل هو أراد درسها ومناقشة أسبابها وبواعث وقائعها ، فانصرف الى كتابة « العرب قبل الإسلام » و«تاريخ التمدن الاسلامي» حيث ضمنه خمسة أجزاء . وكان اول من تعرض لهذه الدراسات التاريخية من العرب وفق المنهج العلمي الحديث . وقد لفتت دراساته نظر المستشرقين والمعنيين بشؤون الحضارة العربية الاسلامية في جميع انحاء العالم فترجمت جميع مؤلفاته فيها الى عدة لغات أجنبية ، واعتبرت مرجعاً رئيسياً من مراجع التاريخ العربي والاسلامي .

ولم يقف زيدان عند دراسة التاريخ وعرضه او محاكمة وقائعه ، بل تابع دراساته في تطور الوجدان العربي من خلال الآثار الادبية العربية ، فأصدر كتاباً في أربعة أجزاء باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » مما جعله بحق في مقدمة دارسي الادب العربي وفق الاساليب الحديثة .

ودار مكتبة الحياة ، إذ تقدم آثار جرجي زيدان في طبعتها الجديدة الخاصة بهـا ، فانما هي تضيفها باعتزاز الى مجموعاتها الثقافية التي اعتادت مفاجأة المكتبة العربية بها بين الحين والآخر ، فتضعها في صف واحد مع « الاعاني » و « محاضرات الادباء » و « عيون الانباء في طبقات الاطباء » و « شرح نهج البلاغة » و « معجم متن اللغـــة » و« الحلل السندسية » و « الضوء اللامع » والعشرات من الكتب والموسوعات الفكرية والادبيـــة المترجمة لامثال اشبنغلر ووايتهد وبرتراند رسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم .

وهكذا تواصل مؤسسة «دار مكتبة الحياة» رسالتها لخدمة الثقافة العربية المعاصرة.

الناشر

مقدمة الطبعة الأولى

لا مشاحة في ان تاريخ الاسلام من اهم التواريخ العامة ، لانه يتضمن تاريخ العالم المتمدن في العصور الوسطى ، او هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه اشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ اعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد اعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله .

ونظراً لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم — لانه تاريخ لسانهم وامتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم — ما فتئنا نختلس الفرص لنشر ما يسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيىء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم ، لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعاً في « الهلال » . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصاً في بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة . فلا بد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة . والروايات افضل وسيلة لهذه الغاية .

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف اهم وقائع التاريخ الاسلامي الى مقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان[1] . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقاً الى التوسع في هذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامي . ورأينا في افاضل كتابنا تطلعاً الى البحث في هذا التمدن والنظر في علاقته بالتمدن الاوروبي الحديث . وكتب الينا غير واحد من اهل الأدب يسألوننا رأينا في ذلك ، فرأينا ان

١ — بلغت الحلقات التي صدرت من هذه السلسلة الى صدور هذه الطبعة ١٩ حلقة .

نجعل تتمة السنه العاشرة من الهلال كتاباً في هذا الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد مع الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجي .

وتاريخ الامة الحقيقي انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها ، لا تاريخ حروبها وفتوحها ، وخصوصاً على ما تعوده مؤرخو العرب في تاريخ الاسلام . فانهم يسردون الوقائع على علاتها ، وقلما يشيرون الى الاسباب التي تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تعليلها والنظر فيها وترسخ في ذهنه حقيقة تلك الامة . على اننا نظنهم معذورين في ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض في اسباب تلك الوقائع ،واكثرها لا ينجو الباحث فيه من انتصار لاحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذراً آخر .

اما الآن فليس هناك ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب . وقد حاول غير واحد من المستشرقين ، من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن ، فلم يجدوا في كتب القوم ما يشفي غليلا ، لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما نشرنا في العام الماضي عن عزمنا على تأليف هذا الكتاب ، كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن .

والحق يقال اننا اعلنا هذا العزم ونحن لا نتوقع العثور على ما يزيد على صفحات تتمة السنة العاشرة من مجلة « الهلال » (١٦٠ صفحة) فشمرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع في مطالعة ما كتبه العرب في الادب والتاريخ والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة .

ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات البلاذري والمسعودي وابن الاثير وابن خلكان وابى الفدا وابن خلدون وابن طباطبا والسيوطي والمقري من المؤرخين ، وابن خرداذبة والاصطخري وياقوت الحموي من الجغرافيين. ومن كتب الأدب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والكشكول والمستطرف للابشيهي وسراج الملوك للطرطوشي وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازي والزمخشري وصحيح البخاري ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها .

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابي يوسف ، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، والاحكام السلطانية للماوردي والعقد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب في موضوعات اخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده فى هذا الموضوع ، وقد عثرنا فيها على فوائد جمة ، مثل حياة الحيوان للدميري

وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما. فضلاً عن المعاجم والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وكليات ابي البقاء وغيرهـا وكل ذلك في اللغة العربية .

ثم طالعنا ما يستطاع الوصول اليه مما الفه الافرنج في الاسلام وتاريخه وآدابه في اللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية. مثل كتاب جستاف لوبون الفرنسي في تمدن العرب[١] وكتاب ليبو في تاريخ الدولة الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية[٢] ومقالات في المجلة الآسيوية الفرنسية[٣] وكتاب فون كريمر بالالمانية في تاريخ تمدن المشرق[٤]، وكتاب مولر الالماني في تاريخ الاسلام في الشرق والغرب[٥] وكتاب ستانلي لين بول الانجليزي في الدول الاسلامية[٦] وكتاب ادوارد جيبون الانجليزي في اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها[٧] وغيرهم .

وقد زاد عدد ما طالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مائتي مجلد ... عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والموضوعات، مع ما رسخ في ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالي الاعوام ، فوفقنا بعـد كل ما تقدم الى ما يملأ أضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية في تاريخ ذلك التمدن العجيب، من الوجوه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بدا من تقسيم الموضوع الى اجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ، ثم نصدر ما يليه من الاجزاء تتمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله .

فالجزء الاول ، وهو هذا ، أساس ما يليه من الأجزاء . وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية في العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله ، والحكومة في الجاهلية وتاريخ الكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهور هذه الدعوة ، وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاموية الاندلسية

---

١ — La Civilisation des Arabes, par le Dr Gustave Le Bon.

٢ — Hist. du Bas-Empire par Lebeau, 30 vol.

٣ — Journal Asiatique.

٤ — Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremer.

٥ — Der Islam im Morgen und Abendland, von Dr. Mueller.

٦ — The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-Poole.

٧ — Decline and Fall of the Roman Empire, by Gibbon.

فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا في كل ذلك نظر الناقد ، فلم نذكر حادثة الا اسندناها الى عللها وأسبابها وبينا ما نتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها .. وخصوصاً فيما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية (البيزنطية) مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وهو بحث فلسفي لم يستوفه أحد في لغة من اللغات على ما نعلم — الا ماقد تراه في كتب الباحثين من الافرنج وأكثره مختصر لا يروي غليلا . ولا يعابون في ذلك والموضوع بعيد عنهم ولا علاقة له بأحوالهم ولا بأديانهم ولا بآدابهم ولا بتاريخهم الا قليلا - وانما اللوم علينا نحن ابناء هذ اللسان— وقد سبقنا الافرنج الى البحث في تاريخ بلادنا وامتنا وآدابنا وأخلاقنا.

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر في المملكة الاسلامية في إبان عزها وفي احصائها . ثم في الدولة الاسلامية وادارتها وكيف نشأت وتشعبت الى الوظائف المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال وبيت المال والجند وسائر الدواوين . ثم ذكرنا تاريخ كل من هذه الادارات والوظائف وما تفرع منها او الحق بها . وقد عانينا المشاق الكبرى في استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرأنا المجلد الضخم فلا نستفيد الا فقرة او فقرتين ، ولا تتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين او الثلاثة .

ومن امثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل اننا بعدما كتبنا تاريخ ولاية الاعمـــال وتاريخ القضاء في الدولة الاسلامية ، عمدنا الى البحث عن رواتب العمال ورواتب القضاة في زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا في فتــوح البلدان للبلاذري ان عمر بن الخطاب « بعث عمار بن ياسر على صلاة أهــل الكوفة وجيوشهم ، وعبدالله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم ، وعثمان بن حنيف على مساحة الارض الخ » لكنه لم يذكر مقدار عطاء أحـــد منهم ، ثم وجدنا في كتاب سراج الملوك للطرطوشي في باب سيرة السلطان في الانفاق من بيت المـــال وسيرة العمال قوله : « ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فأجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وعبدالله بن مسعود مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود . ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منهما ان راتب من يتولى الجيوش والصلاة في عمل من الاعمال ، كان على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم في الشهر . وعلمنا من قرائن اخرى ان الذي يتولى الصلاة والجيوش في أيام عمر هو العامل. ومن قرائن أخرى ان عماراً كان عاملاً لعمر على الكوفة، فتحققنا من مجموع ما تقدم ان راتب العامل كان على عهد عمر ستمائة درهم وراتب القاضي مائة درهم — وقس على ذلك .

وسنبحث في الجزء الثاني عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى اهلها وحضارتها وعلاقتها بالدول المعاصرة لها ، ووصف احوال الخلفاء في مجالسهم والعابهم واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخـــول عليهم وجلوسهم للناس .وقصورهم وبذخهم وركـــوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية والمدن الاسلامية الخ ...

والجزء الثالث يبحث في العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالهـــا في الشام والعراق قبل الاسلام ، وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره .

والجزء الرابـــع يبحث في الآداب الاجتماعية في تلك العصور الزاهرة على مـــا يقتضيه المقام [١]

وسنختم المقـــال ببيان نسبة التمدن الافرنجي الحديث الى التمدن الاسلامي ، ويكون الكلام في ذلك جليا واضحا بعد تفصيل عوامل هذا التمدن في الاجزاء السابقة [٢] .

فترى مما تقدم ان الموضوع شاق ووعر ، فضلا عن حداثته في عالم التأليف مع قصورنا في هذا الشأن . وفي ذلك تمهيد للعذر على ما قد يشوب هذا الكتاب من النقص . ونتقدم الى اهل الفضل ان يؤازرونا بملاحظاتهم وآرائهم للانتفاع بها فيما سيصدر من الأجزاء التالية ان شاء الله تعالى .

---

١ – تبين لنا بعد التقدم في تأليف الكتاب انه لن يتم الا أن يكون خمسة اجزاء كما سترى .

٢ – عدلنا عن هذا البحث في هذا الكتاب وأجلناه الى كتاب آخر .

مقدمة الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب منذ بضع عشرة سنة ، فتناوله الادباء والعلماء بالتقريظ والانتقاد في الصحف العربية وغيرها . وجاءتنا كتب اهل العلم من اقطار العالم الاسلامي ينشطوننا ويستحثوننا . وفيهم من جاهر صريحا انه لم يكن يظن تأليف مثل هذا الكتاب ممكنا لقلة المآخذ المساعدة على ذلك . فزادنا تنشيطهم ثباتا على هذا العمل حتى ظهر الكتاب في اجزائه الخمسة .

وكان له وقع خاص عند أدباء اللغات الاخرى ، فأخذوا في نقله كله او بعضه الى السنتهم . فنقل الى أهم اللغات الشرقية — نعني الفارسية والاوردية والتركية ، ظهر مطبوعا فيها كلها . ونقل الى أهم لغات أوربا ، نعني الانجليزية والفرنسية ، وقد ظهر جزؤه الرابع في الاولى وسيظهر جزؤه الاول في الثانية . وتضاعف الاقبال على الطبعة العربية حتى نفدت نسخ هذا الجزء منذ بضعة اعوام . ونحن نتحين الفرص لاعادة طبعه ، فلم نتمكن من ذلك الا الآن .

وما برحنا منذ صدور الطبعة الاولى ونحن نجمع ما يمر بنا من الفوائد التي يحسن ادخالها في هذا الكتاب عند اعادة طبعه . فاجتمع لدينا من ذلك شيء كثير اضفناه الى هذه الطبعة . ونظرنا فيما وصل الينا من انتقادات المنتقدين او ملاحظات الملاحظين مما نشر في الصحف أو الكتب أو جاءنا في الكتب الخصوصية . وتدبرناها كلها باخلاص وروية فأصلحنا ما صح عندنا وأغفلنا الباقي — وهو الأكثر — وانما توهم المنتقدون خطأه لانهم نظروا فيه من وجه غير الذي نظرنا منه نحن . او اننا اطلعنا عليه في مصادر لم يطلعوا عليها ، فاكتفينا في هذا الحال بذكر المصدر الذي عولنا عليه في ذيل الصفحة .

فجاءت هذه الطبعة اكبر من الاولى وأوفر مادة واحسن ترتيبا وأكثر صوراً وأشكالاً . وفي ما أضفناه اليه من الصور او الخرائط ما يزيد البحث ايضاحاً . فعسى أن يقع عملنا هذا موقع الاستحسان . وحسبنا اننا قمنا ببعض الواجب في سبيل آداب هذا اللسان .

مقدّمات تمهيديّة

البحث في تمدن الامة يتناول النظر فيما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من اسباب الحضارة وثمارها ، ويدخل في ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمها ، كالمدارس والمكاتب والجمعيات ، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء ، وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية . وذلك يستلزم وصف عادات الامة وآدابها الاجتماعية ومناحيها السياسية. واسناد ذلك الى أسبابه وبواعثه.

غيرا ان النظر في هذا التمدن على هذه الصورة ، لا يكون واضحاً وافياً الا اذا تقدمه البحث عن حال تلك الامة في بداوتها ، وكيف تدرجت الى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك . والبحث المشار اليه ضروري خصوصاً في تاريخ التمدن الاسلامي ، لان فيه عوامل خاصة به لا وجود لها في تمدن الامم الاخرى .

وبناء على ذلك لم نر بدا من تصدير هذ الكتاب بمقدمات تمهيدية ، نبسط فيها حال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وما تقدم الدعوة الاسلامية من احوال تلك الامة.. وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة، وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ.. وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالها الدينية في أيام الراشدين الى حالها السياسية في ايام الامويين فالعباسين فالفاطميين فغيرهم .

فاذا فرغنا من ذلك ، عمدنا الى الكلام في سعة المملكة وتاريخ اداراتها ومناصبها وغير ذلك .

فنبدأ بوصف حال العرب قبل الاسلام .

العرب والتمدن

زعم بعض الكتاب من الافرنج ان العرب لا فضل لهم في تمدنهم الاسلامي لانهم انشأوه على انقاض التمدنين البيزنطي والفارسي . فالتمدن الاسلامي عندهم عبارة عن مزيج من ذينك التمدنين ، مع بعض التعديل . وان العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة ، لانهم لم ينشئوا تمدنا من عند انفسهم في عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية. وعندنا ان العرب أكثر الامم استعداداً للحضارة وسياسة الملك ، لا يقلون في ذلك عن سواهم من الامم التي تمدنت قديماً او حديثاً واليك البيان .

قدماء العرب

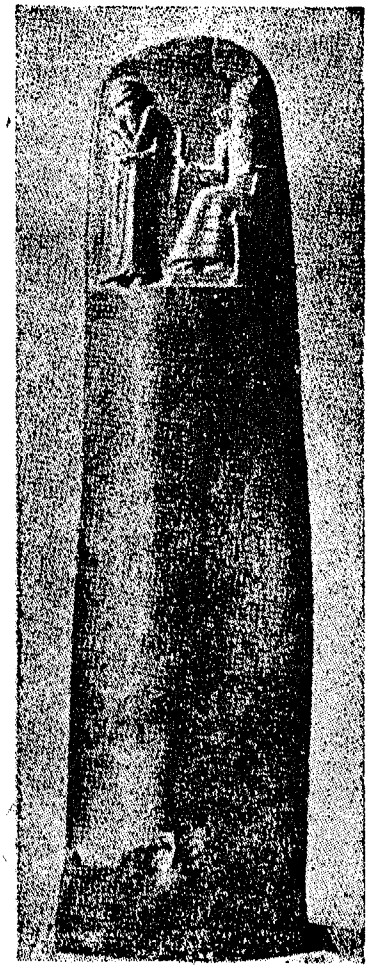
المشهور عند المؤرخين ان العرب يقسمون الى قسمين كبيرين : العرب البائدة كعاد وثمود ، والعرب الباقية . وان العرب الباقية يقسمون الى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها ، وهم ينتسبون الى قحطان أو يقطان بن عامر وينتهي بأرفخشاد الى سام . والاسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب ، وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امرأته هاجر ، ويسمون أيضاً مضرية ومعدية لمثل هذا السبب .

وقد بينا في كتابنا « العرب قبل الاسلام » ما كان للعرب من الدول القديمة فيما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرنا .. نعني دولة حمورابي واضع اقدم الشرائع الانسانية التي وصلت الينا ، وقد اتينا من هناك بالادلة التي ترجح كون دولته عربية ، وبينا ان تلك الامة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية . وكانت للمرأة فيها منزلة وحرية ، حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية[1] وتفرع من الحمورابيين بعد ذهاب دولتهم دول العمالقة المختلفة ، ومن فروعهم عاد وثمود والانباط وعرب تدمر وغيرها .

---

١ – انظر كتاب « العرب قبل الاسلام » .

ويلي الحمورابيين عرب اليمن وهم القحطانية . وقد تمدنوا قبل العرب الاسماعيليه ، لأن بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من بلاد هؤلاء ، فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل وأشور . وقد ظهروا بعد الحمورابيين بعدة قرون ، ذكرنا منهم الدول المعينية والسبإية والحميرية ، أصحاب مأرب وصنعاء وغيرهما .



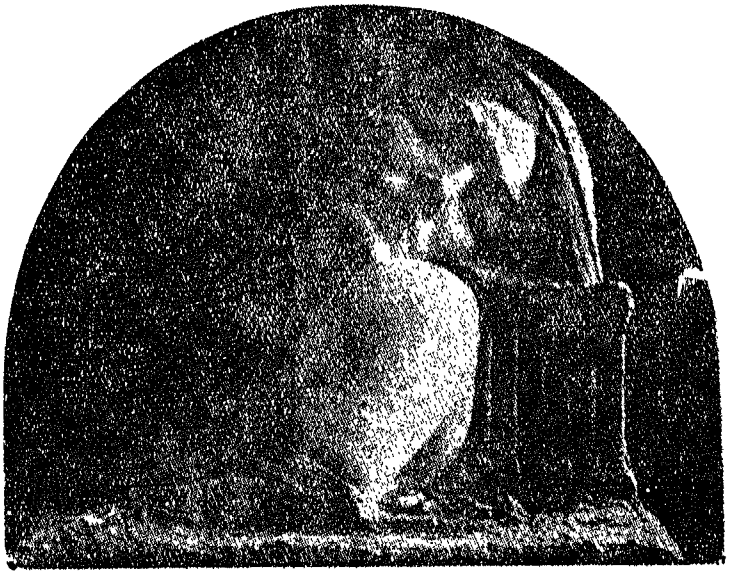
حمورابي ملك بابل واقفاً
بين يدي اله الشمس

أما العرب الاسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فأكثرهم أهل بادية : وقد ظهر منهم دول قبل الميلاد وبعده ، أشهرها دول القبائل صاحبة الوقائع التي جرت بينهم قبيل الاسلام التي تعرف بأيام العرب .

ثم ان العرب ليس في أرومتهم ما يمنع استعدادهم للحضارة ، لانهم اخوان الاشوريين والكلدانيين ، والفينيقيين، ولهم استعدادهم وأهليتهم .. فالذين أقاموا منهم في بلاد مثل بلاد ما بين النهرين أدهشوا العالم بمدنيتهم . والمقيمون في جزيرة اكثر بقاعها جرداء لا انهر فيها ولا جداول ، وانما يستقون من مياه المطر ، قضوا قرونا في البداوة.. فلما أتيحت لهم الاقامة في البلاد الخصبة بعد الاسلام، لم يكن تمدنهم فيها يقصر عن تمدن اولئك .

فالتمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة . فقد كان المعينيون والسبأيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة في ذلك الحين . فكانت تجارات الهند تحمل في البحر الهندي الى بلاد اليمن وحضرموت ، فيحملها أهل اليمن الى الحبشة ومصر وفينيقية وبلاد الأدوميين والعمالقة وبلاد مدين وبلاد المغرب . وكذلك كان الاسماعيليون ينقلون التجارة من اليمن وموانيء بحر العرب الى بلاد الشام .

وساعد العرب على التوسع في وسائل التجارة — فضلا عن توسط بلادهم — انهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات اكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين. لان اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظاً ومعنى . فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من اللغة الفصحى الآن . فكان العربي من حمير او مضر اذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني او الاشوري الى ترجمان . وكذلك اذا يمم فينيقية او



زنوبيا (الزباء) ملكة تدمر

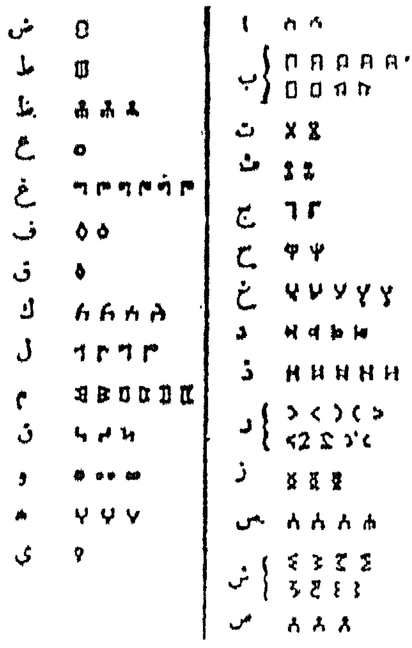
الحبشة فانه يفهم لسان اهلها كما يفهم الشامي لسان اهل مصر اليوم . ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزح من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط اهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم ا ـجم . وكذلك بنو اسرائيل في تيههم حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم ـوا اربعين سنة في اعالي جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين اهلها .

والمسافر في بلاد العرب اليوم يجد اكثرها رمالاً قاحلة ، لكنه لو نقب تحت تلك الرمال في بعض المواضع ، لوقف على آثار القصور وغيرها من بقايا المدنية . روى مؤرخو

العرب البائدة عما خلفه العاديون من الابنية الفخمة هناك مما نعده من الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التي زعموا « ان شداد بن عاد بناها في الاحقاف في بقعة مساحتها عشرة فراسخ في عشرة . فجعل جدرانها من الجزع اليماني وغشاها بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وبنى داخل المدينة مائة الف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت ، طول كل عمود مائة ذراع ، واجرى في وسطها انهاراً وعمل فيها جداول الى تلك القصور ، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الامكان . لكنه يشف عن حقيقة مهما قيل في تحقيرها ، فانها تدل على ان بعض ابنية العرب البائدة كانت مرصعة في بعض جدرانها او اساطينها بالحجارة الكريمة ، وهذا غاية ما يمكن ان يصل اليه البذخ والترف . ولا يكون ذلك الا في ابان المدنية .

عرب اليمن

اما عرب اليمن القحطانية ، فقد تمدنوا تمدناً لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن . واشهر دولهم عند العرب حمير وسبأ وكهلان . وتاريخ هذه الدول اقرب عهداً من عاد وثمود ، وقد اكتشف البحاثون بعض آثارهم ، واكثر ما اكتشفوه انقاض بعض الابنية في صنعاء وعدن وحضرموت . فاستخرجوا منها الواحاً مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) اكثرها دعاء ديني او نحوه . ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول اليها . ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب عن ابهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام . لكن اخبارها كانت الى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الاشوريين والمصريين والفينيقيين . فقد انشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة واتقنوا الزراعة . وقد



الحروف الحميرية (المسند)
وما يقابلها في العربية

ذكرهم هيرودوتس الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال : « ان في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن » وعدها من اغنى ممالك العالم في زمانه .

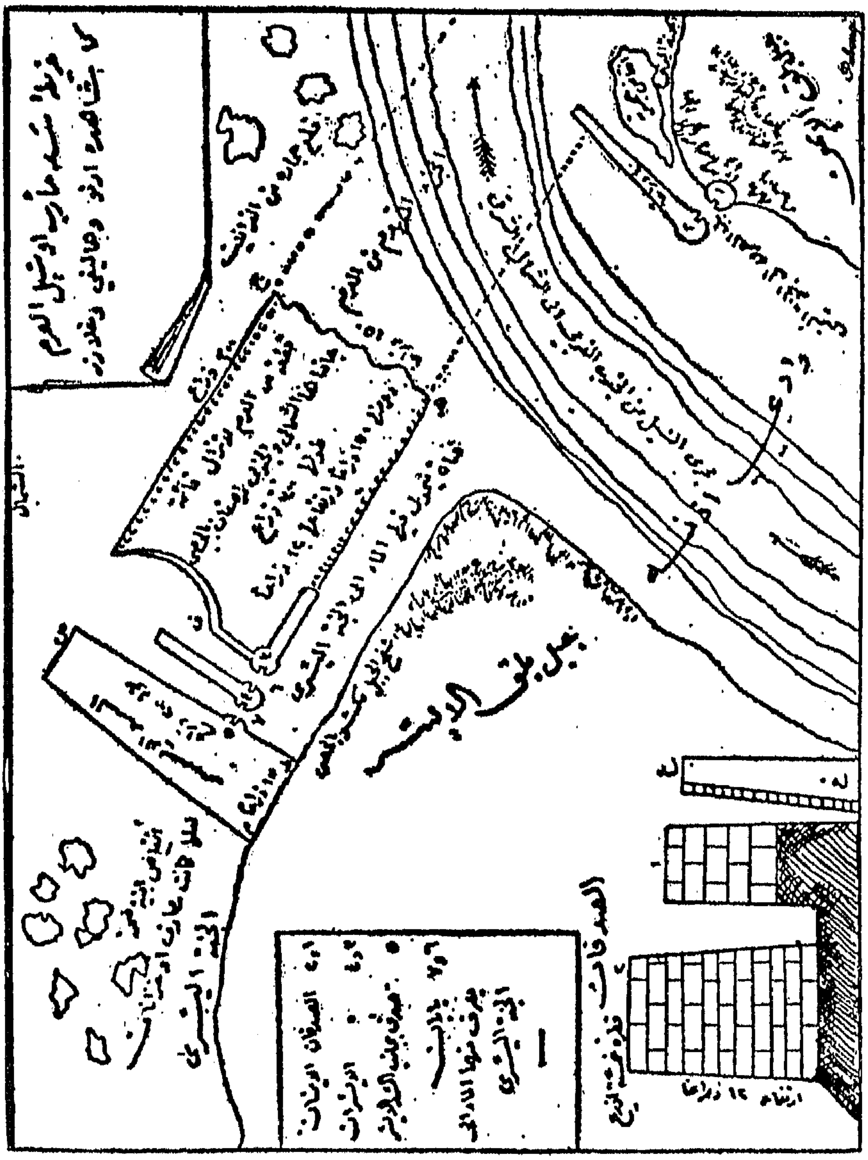
ومن آثار العرب في اليمن ، ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الابنية ، نعني بذلك السد المشهور بسد مأرب ، بنوه نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد علي (باشا) القناطر الخيرية في راس الدلتا ، وكما بنت الحكومة المصرية خزان اسوان .

سد مأرب

وسد مأرب هذا ، عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما ، فيرتفع ويروي السفحين الى اعلاهما . جعلوا فيه شعبا واقنية وساقوا اليه سبعين واديا تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة في الهندسة وهمة عالية ، وهو اقدم خزان للماء ذكره التاريخ ، وعرب اليمن اسبق الامم الى هذه الهندسة . وكان بناؤه متيناً صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون . ولما ضعفت الدولة عن تجديده واحسوا بقرب تهدمه اخذوا في المهاجرة من جواره ، في اواسط القرن الثاني للميلاد ، وتفرقوا في البلاد . والمشهور عند العرب ان الغساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق ، والأوس في المدينة ، والازد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم (اي من عرب الجنوب). ثم انفجر السد وطغت المياه فهاجر من بقي . وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم .

وذكر استرابون الرحالة اليوناني في القرن الاول قبل الميلاد ، ان مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة ، سقوف ابنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة . وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ماذكره العرب عن ارم ذات العماد .

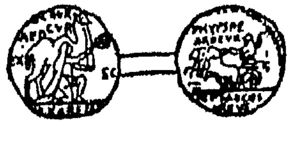
وفي اعتقادنا انهم لو بحثوا في انقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على احافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادي النيل عن تاريخ الفراعنة ، وكما كشفت آثار وادي الفرات عن اخبار ملوك اشور وبابل . ولا يتأتى ذلك الا بارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب .



الانباط

ومن الامم العربية التي تمدنت قبل الاسلام الانباط اصحاب مدينة بطرا Petra بين فلسطين وشبه جزيرة سينا . وقد امتدت سيطرتهم على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب الى الحجاز . وكان الانباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، وقد عاصروا الرومان في ابان مجدهم وكثيراً ما كانوا عوناً لبعض قوادهم في الحروب حتى تأتى لأحدهم وهو الملك الحارث الثالث ان يتولى دمشق برهة قصيرة في القرن الاول للميلاد قبل عهد الغساسنة بأجيال . وقد ضرب النقود باسمه واسم الحاكم الروماني هناك . وما زالت دولة الانباط سائدة الى اوائل القرن الثاني للميلاد فدخلت في حوزة الروم وضاعت فيها ولا تزال انقاضها في بطرا وعليها الكتابة النبطية يقرأونها كما يقرأون الكتابة الحميرية [١] .

ومن الامم العربية التي تمدنت قديماً العمالقة ، وقد تفرعوا من الحورابيين على ما نظن وهم مشهورن بشدة البطش . ومنهم الملوك الرعاة الذين فتحوا مصر وتولوها عدة قرون ، غير مستعمرات العرب في مشارف الشام والعراق ومن مدنهم بصرى في حوران للغساسنة ، والحيرة في العراق للمناذرة ..



نقود الحارث الثالث
واسكاوروس

أيقال بعد ما تقدم ان العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة ؟

التمدنان اليوناني والفارسي

على اننا لا ننكر ان التمدن الاسلامي قام على انقاض التمدنين اليوناني والفارسي ، لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى .. لان اليونان اقتبسوا اكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة ، حتى صار تمدناً معروفاً بهم . فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلاً طفيفاً جداً . وكذلك الفرس فان تمدنهم قام على انقاض تمدن الاشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم واخذوا أيضاً عن اليونان .

على ان تلك الامم لم تستطع الظهور في عالم الحضارة الا بعد اجيال متوالية. اما العرب

---

١ – جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام .



مسكوكات نبطية

فلم يمض على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم وبانت ثمار عقولهم . وفي القرن الثاني والثالث للهجرة ملأوا الأرض علماً وأدباً ومدنية وحضارة .

وزد على ذلك ان الجرمان الذين نشأ منهم فيما بعد عدد من اعظم دول الارض ، قضوا اجيالاً متطاولة وهم يغيرون على الدولة الرومانية قبل الاسلام وبعده ، وفتحوا كثيراً من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم في القرون الاولى غير النهب والقتل . واعتبر ذلك في غزوات الهون في القرن الخامس للميلاد ، فانهم اكتسحوا شمالي الدولة الرومانية وشرقيها ، وفتحوا المجر ورومانيا وسائر شرق اوروبا ، وانشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مائتي سنة – كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق لكن الهون لم ينشئوا تمدناً ولا خلفوا حضارة مع انهم اقرب الى مركز التمدن اليوناني من العرب . وغزا الصقالبة في القرن السادس للميلاد الدولة الرومانية الشرقية حتى طرقوا ابواب القسطنطينية ثم عادوا ولم يتمدنوا . الا يدل ذلك على ان في العرب استعداداً خاصاً للحضارة ؟

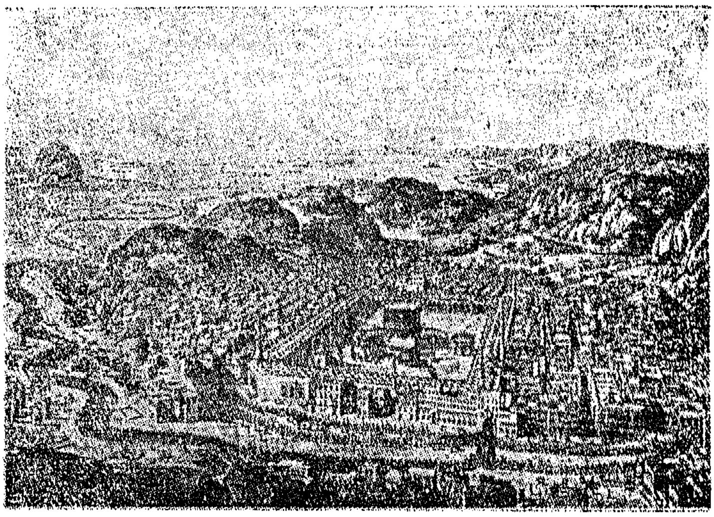
الحجاز في العصر الجاهلي

لجاهلية العرب عصران : الجاهلية الاولى في عهود من ذكرنا من امم العرب البائدة ومن خلفهم في اليمن وغيرها ، والجاهلية الثانية نريد بها حالة جزيرة العرب ولا سيما الحجاز قبل الاسلام بعدة قرون . وللحجاز شأن خاص في ذلك ، ففي الجاهلية الثانية تمدن العرب في جنوبي جزيرة العرب وفي شماليها وظل أهل الحجاز في اواسطها على بداوتهم ، لجدب أرضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول المتحضرة ، لتوسطها في الصحراء ووعورة المسالك اليها . حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، والاسكندر الاكبر في القرن الرابع قبله . وايليوس غالوس على عهد يوليوس قيصر في القرن الاول للميلاد . وامتنعت ايضاً على ملوك الفرس في ابان دولتهم فآل امتناعهم هذا الى اطمئنانهم وسكونهم . والانسان لا ينزع الى الاصلاح الا مضطراً بخطر او نحوه . ولكنه مفطور على الاثرة والمنافسة ، فقامت المنازعات بين العرب انفسهم واصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب .. فشغلهم ذلك عن الالتفات الى المصادر الاخرى .

على انهم كانوا على جاهليتهم اهل انفة وذمام وكرم ووفاء ، مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم .

قضى اهل الحجاز في جاهليتهم الثانية قروناً لا يعلم مقدارها إلا الله وهم في حال البداوة ، الا ما اقتبسوه ممن هاجر اليهم من جالية اليمن جيرانهم ، او من لجأ الى بلادهم من اليهود ، وخصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده ، فراراً من اضطهاد حكامهم الرومانيين ولا سيما بعد خراب بيت المقدس . وربما هاجر اليهم ايضاً قوم من الانباط وهم اهل تمدن كما تقدم ، فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان بهم . اما اليهود فكانوا يقيمون في يثرب على الاكثر .

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها ، فاقتبس العرب منهم اموراً كثيرة كانوا يجهلونها ، كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها . وعلموهم بعض اقاصيص التوراة وفصولا من التلمود ، ونشروا بينهم كثيراً من تقاليدهم وعاداتهم . وقد يكون بعض تلك الآداب او الطقوس متسلسلا اليهم مما كان عند اسلافهم في الجاهلية الاولى ، فضلا عمن هاجر الى الحجاز من اهل اليمن وغيرهم من الامم التي كانت تحيط بجزيرة العرب : كالكلدان والمصريين والاحباش وغيرهم ، فأصبح اهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين : اهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرحل . واهل المدن المقيمين في مكة والطائف والمدينة وهم الحضر .



مكة ومسجدها وفي وسطه الكعبة في القرن الثامن عشر للميلاد

وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها محجاً يؤمه الناس من اقاصي البلاد لزيارة الكعبة . فأصبحت بتوالي الاجيال مركزاً للتجارة لمن يتوافد اليها من الحجاج في المواسم كل عام . فطمحت اليها انظار اهل السلطة من القبائل القوية . وكانت في اوائل ازمانها في حوزة الحجازيين بني اسماعيل وهم سدنة الكعبة أي حجابها . ثم نزح اليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثاني للميلاد وتسلطوا عليها ، وغلبوا الحجازيين عليها بما تعودوه من السيادة في عهد دولتهم باليمن . وكان الاسماعيليون (او العدنانيون) يومئذ

ضعافاً لا يقوون عليهم ، ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة اجيال على بني خزاعة وضعف أمرهم ، وقوي أمر العدنانية . فتفرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قريش .

قصي بن كلاب والكعبة

ففي نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصي بن كلاب بن مرة ، وكان حكيماً عاقلاً ذا سياسة ودهاء . فتزوج ابنة ولي الكعبة (وهو من خزاعة) طمعاً في السدانة . فولد له اولاد اعتز بهم واشتغل بالتجارة حتى صار غنياً . ولما اقترب اجل حميه اوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصي فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب واغلاقه - وهو عمل سادن البيت عندهم — فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش او ابو غبشان ، كان ضعيفاً فابتاع قصي ذاك المنصب منه بزق من الخمر[١] .

فشق ذلك على خزاعة ، وحدثت بسببه حروب بينهم وبين قريش ثم تداعوا الى صلح والتحكيم ،فحكموا بينهم رجلا من قريش فقضى لقصي . وما زالت سدانةالكعبة في قريش حتى نجاء الاسلام .

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة . فجمع قصي أهله من قريش في مكة ، وحولها فملكوه عليهم . فقسم مكة أرباعاً بينهم . فبنوا المساكن وعمرت بهم واصبح هو سيدهم في كل شيء . وخلفه بعده ابنه عبد مناف . وكان في جملة اولاد عبد مناف ولدان : هاشم ، وعبد شمس . فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة لهما ثم انفرد بها هاشم . وكان لعبد شمس ابن اسمه امية (جد بني امية) حسد عمه على الرئاسة ، فآل ذلك الى المنافرة . فكره هاشم ان ينافر ابن اخيه فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضي امية وجعلا الكاهن الخزاعي حكماً بينهما . فاستفتياه فقضى لهاشم بالغلبة فأخذ هاشم الابل فنحرها واطعمها وغاب امية عن مكة بالشام عشرين سنة حسب الشرط . وكانت تلك اول عداوة وقعت بين هاشم وامية وتوارثها اعقابهما الى ايام الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم ابنه عبد المطلب جد النبي صاحب الشريعة الاسلامية .

---

١ — ابن الاثير ج ٢ ص ٩ .

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بني اسرائيل . ولهم مثل امتيازاتهم ، وهي تشبه امتيازات الكهنة في النصرانية . وكانوا لا يؤدون أتاوة ولا يتكلفون دفاعاً .. يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم احد .. وكانوا يتزوجون من اية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك ، وكانوا لا يزوجون احداً إلا اشترطوا عليه ان يكون متحمساً لدينهم – «التحمس التشدد في الدين» –[1] وقد فرضوا فروضاً الزموا الناس باتباعها .

---

١ – معجم البلدان ، ص ٦٢٠ ج ٤ .

حكومة العرب في الجاهلية

ونريد بالعرب خاصة عرب الحجاز وبالاخص قريش، لان منها ظهر النبي محمد (صلعم).

والحكومة في الجاهلية متشابهة عند سائر اهل البادية. فان المناصب التي تعد عند اهل العالم المتمدن بالعشرات، تجتمع عندهم في شخص شيخ القبيلة. فالشيخ هو الملك، والقاضي، وصاحب بيت المال، وقائد الجند وكل شيء. وكانوا يختارون لهذه الرياسة اقواهم عقلاً واكثرهم دهاء وسياسة بلا تواطؤ او تعمد. واذا تساوى عدة منهم في القوة والدهاء اختاروا اكبرهم سنا واوسعهم جاها. واذا اجتمعت عدة قبائل في محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا، اقترعوا بين اهل الرئاسة، فمن خرج سهمه رأسوه، كبيراً كان او صغيراً.

ذلك كان شأن العرب الرحل اهل الغزو والسطو. اما الحضر وهم اهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة ولما افضت السدانه الى قريش، صارت السيادة لهم في كل شيء.

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضرا اهل تجارة، وتجارتهم قائم اكثرها على الحجاج الذين يردون مكة في المواسم. فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج. وفي جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة، انه كان لكل قبيلة منها صنم خاص بها، تأتي في المواسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الاصنام في الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير والصغير، ومنها ما هو على هيئة الآدميين او على هيئة بعض الحيوانات او النباتات.

سوق عكاظ

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع اليها الناس في الاشهر الحرم ، فينصبون خيامهم بين نخيله، يبيعون ويشترون ويتبادلون، وهي سوق عكاظ المشهورة . وكان للعرب اسواق اخرى في اماكن اخرى. ولكن هذه كان يجتمع فيها اهل البلد المجاور لها .. واما عكاظ فكان يتوافد اليها العرب من كل جهة . وزادت قريش في بواعث الاجتماع اليها بأنهم جعلوهـا مسرحاً للأدب والشعر ، تتسابق فيه القبائل الى اظهـار نوابغها من الشعراء والخطباء ، فيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون . ومن كان له اسير سعى في فدائه . وكان لعكاظ في ايام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في مـا قد يقع من الخلاف أو نحوه . وكان الغالب ان يكون ذلك الحاكم من بني تميم . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا في عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون الى مواطنهم .

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين في العام : رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى بصرى في حوران بضواحي الشام . فكانت مكة واسطة عقد التجارة ، بين اليمن والشام . وكانت طرق التجارة خطرة ، الا عليهم لحفظ العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة. وكانوا كثيراً ما يسافرون الى بلاد فارس او الى الشام، فيأتون من الشام بالانسجة والاطعمة ، ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرهما .

فالكعبة كانت مصدر رزق اهل مكة ، ولولاها لما استطاعوا المقام في ذلك الوادي وهو غير ذي زرع . على ان اسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن في اطراف العراق والشام ، جعلتهم اوسع العرب علما ، واكثرهم خبرة ودراية . ونظراً لعـلاقة الكعبة بأسباب معائشهم بذلوا العناية في القيام على شؤونها ، وسهلوا على الناس القدوم اليها ، فأنشأوا فيها اماكن للسقاية واخرى للطعام وجعلوا ما يجاورها حرماً لا يجوز فيه القتال، وتولى بعضهم السقاية وبعضهم الرفادة وبعضهم غير ذلك . وما زالت تلك المناصب تتعدد حتى اصبحت قبيل الاسلام بضعة عشر منصباً ، هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونهـا ، واشهرها عشرة ابطن : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم . لكل من هذه البطون منصب او اكثر ، واليك هي :

مناصب القرشيين

١ ــ السدانة : وهي الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها .. بفتح بابهـا

للناس ويقفله ، ولها المقـام الاول عندهم . ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب . وقد جعـل صاحب « العقد الفريد » السدانة والحجابة منصبين .

٢ ـ السقاية : وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء في مكة فينشىء حياضاً من الجلد، توضع في فناء الكعبة تنقل اليها المياه العذبة من الآبار على الابل في المزاود والقرب . وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم . وكانت السقاية في بني هاشم .

٣ ـ الرفادة : وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من اموالها الى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاماً يأكله الفقراء . واول من اشـار بالرفادة قصي المتقدم ذكره . وكانت الرفادة في بني نوفل ثم في بني هاشم .

٤ ـ الراية : كانت لقريش راية تسمى « العقاب » فكانوا اذا ارادوا الحرب اخرجوها، فاذا اجتمع رأيهم على واحـد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وكانت الراية لبني عبد الدار .

٥ ـ القيادة : وهي امارة الركب ، وصاحبها يسير امام الركب في خروجهم للقتال او التجارة ، وكانت القيادة في بني امية ، وصاحبهـا منهم في اول الاسلام ابو سفيان والد معاوية .

٦ ـ الاشناق : وهي الديات والمغرم وصاحبهـا اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه فيه . وكانت لتيم .

٧ ـ القبة : هي قبة كانوا اذا خرجوا الى حرب ضربوها وجمعوا فيهـا ما يجهزون الجيش به ، اشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية .

٨ ـ الاعنـة : وهي اعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها في الحرب .

٩ ـ الندوة : وهي دار بناها قصي بجانب الكعبة للشورى فيجتمع فيها كبار قريش للمشاورة ، ولا يدخلها الا من بلغ الاربعين من عمره . وكان لا يتزوج رجل ولا امرأة الا في تلك الدار ، ولا يعقد لواء الحرب الا فيها ولا تدرع جارية من قريش الا فيهـا فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده . وكانوا يفعلون ذلك في بناتهم اذا بلغن الحلم . وكانت دار الندوة في ايدي بني عبد الدار .

١٠ ـ المشورة : وصاحبها يستشار في الامور الهامة ، وكانت في بني اسد . فلم تكن قريش يجتمعون على امر حتى يعرضوه عليهم .

١١ ـ السفارة : هي انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب ، وارادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً . وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوا السفير منافراً ورضوا به . وكان آخر سفراء قريش في الجاهلية عمر بن الخطاب قبل ان يسلم .

١٢ ـ الايسار : وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها اذا هموا بأمر عام من سفر او قتال، فكانوا يستقسمون بالازلام بما يشبه سحب القرعة عندنا، وكان يتولى ذلك رجل من بني جمح .

١٣ ـ الحكومة : وهي عندهم الفصل بين الناس اذا اختلفوا ، وتشبه القضاء في الاسلام او التحكيم .

١٤ ـ الاموال المحجرة : وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم ، وفيها النقد والحلي وربما اشبهت بيت المال . وكانت ولايتها في بني سهم .

١٥ ـ العمارة : ويراد بها ان لا يتكلم احد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته (١) .

فترى مما تقدم ان بعض هذه المناصب لا اهمية لها على الاطلاق . ولكن يظهر انهم اكثروها ليرضوا كل بطون قريش ، خوفاً من التحاسد واجلالاً لقدر الكعبة والمبالغة في تعظيمها .

وترى ايضاً انهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحرب ، ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، أو هو نوع من الحكومة لا ترى له شبيهاً بين الامم المتمدنة ، وربما اشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه، الا ان للشورى رئيساً كالملك اوالسلطان او رئيس الجمهورية ، وليس في هذه شيء من ذلك الا ما قد يكون لصاحب دار الندوة او السدانة من الرياسة .

---

١ ـ العقد الفريد ٣٨ ج ١ ، وهذه الوظيفة نستطيع ان نصف صاحبها بأنه المحافظ على حرمة الحرم.

النهضة العربية قبل الاسلام

اذا تدبرت تاريخ العرب قبل الاسلام على غموضه وابهامه ، تبين لك امور تدعو الى الاعتبار وإعمال الفكرة . منها ان العرب على اختلاف القبائل والبطون ، قلما نبغ فيهم شاعر او خطيب او حكيم او كاهن في عصورهم الجاهلية الثانية الا بعد دخولهم في القرن الاول قبل الهجرة . ولا يعترض بضياع اخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ ، فقد حفظوا اخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة ، وذكروا بضعة شعراء ظهروا قبل القرن الاول المذكور . فلو نبغ غيرهم من الشعراء او الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعاً تاماً . واما تاريخهم في جاهليتهم الاولى وهم في بابل او اليمن ، فلم يصلنا منه ما يشفي الغليل .

فتكاثر الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الاول قبل الاسلام دفعة واحدة هو ما عبرنا عنه بالنهضة العربية او الادبية . على انها لم تكن تقتصر على الادب والشعر ولكنها شملت الدين ايضاً . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات ، واصبح اهل الجاهلية لا يعرفون لمن يصلون ولا الى من يتوسلون . يذبح احدهم للصنم ويدعو الى الله . وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الاصنام . وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من انواع العبادات المتضاربة . وظهر في اثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام . واصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة . وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم . فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهمّ بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الاذهان الى امر الدين والتفكير في عواقب الاعمال .

سبب تلك النهضة

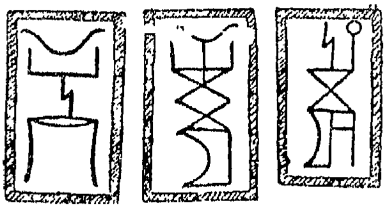
بينا في ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض واهليتهم للتمدن ، لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لاشتغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلى مع بعدهم عن العالم المتمدن . والانسان تظهر قواه بالاحتكاك او الضغط شأن القوى الطبيعية . فالفرد لا يسعى في طلب العلى غالباً الا اذا عضه الفقر فاحوجه الرزق او نافسه منافس في امر يبعث الى الاستئثار به .

اما الامم فانما يدعوها الى طلب العلى الحروب الخارجية او الثورات الداخلية .

والاولى اكثر تأثيراً لما يرافقها غالباً من الاختلاط بالامم الاخرى . وفي ذلك من الاحتكاك ما يدعو الى الاقتباس والمنافسة . وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك .

غزو الحبشة

ومن هذا القبيل ما اصاب العرب في القرنين الاخيرين قبل الاسلام . كان عرب الحجاز قبل الاسلام يدينون بالطاعة لدولة حمير اليمنية ، وكانوا يؤدون لها الاتاوة . ثم غزا الاحباش اليمن في القرن الرابع للميلاد وبعده ، وتغلبوا على الحميريين فقلت هيبتهم في قلوب العدنانيين .



خرطوش بحرف المسند فيه اسماء ابرهة واراحميس وزبيان من قواد الاحباش في اليمن

لكن هؤلاء ظلوا على الطاعة بعامل الاستمرار ، فاتفق ان الحميريين شددوا في طلب الاتاوة في سنة جدب وضيق فضاق العدنانيون ذرعاً وتحدثوا في الخروج عن الطاعة . واول من فعل ذلك قبيلة ربيعة في اواخر القرن المذكور واقتدى بها غيرها[١] فكان ذلك من بواعث استنهاض الهمم .

ثم غزا الاحباش الحجاز في اواسط القرن السادس للميلاد ، يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ الى عبدالمطلب جد النبي فجاء الاحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم ، وأهل مكة لم يتعودوا شيئاً من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في نفوس القبائل وغيرهم ، فلما رأوا الأحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر ، واحسوا بافتقارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب عنهم ، فدفعوا الاحباش وقد تنبهت اذهانهم واخذت مواهبهم في الظهور .

ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم انهم جعلوا يؤرخون به وهو ما

---

١ - العرب قبل الاسلام ٢٢٣ ج ١ .

يسمونه عام الفيل ، وكانوا قبل ذلـــك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة من مخزوم ، او هشام بن المغيرة[١] . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الادبية او الدينية ، لكنها انتجت رجالاً نبغوا في السياسة والقيادة والادارة وكانوا من اهم العوامل تأثيراً في سرعة انتشار الاسلام ، كما انتجت الثورة الفرنسية بونابرت ورجاله .

ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام في نهضة ادبية دينية تمهيداً لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها . ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية في الغالب استعداداً لقبولها .

١ ــ الاغاني ١١ ج ١٥ .

الدولة الإسلامية .. كيف نشأت ؟

فرغنا من المقدمات التمهيدية في حال بلاد العرب قبل الاسلام ، فنتقدم بعد ذلك الى الكلام في نشوء الدولة الاسلامية وكيف تكونت وتطورت، حتى صارت على ما عرفناه منها في اوج التمدن الاسلامي .

الدعوة الاسلامية

نشأة النبي الأولى

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية ودعا الناس الى التوحيد واظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره اربعون سنة ، ولا يتسع المقام لتفصيل سيرته ، وانما نذكر هنا ما يتعلق بالموضوع لبيان الاسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها .

ولد صاحب الدعوة الاسلامية وقد مات ابوه ، وبعد ست سنوات ماتت امه فكفله جده عبد المطلب ، وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وكان له مقام رفيع في قريش ، لكنه توفي بعد سنتين : فكفله عمه ابو طالب وكان وجيهاً محترماً ، فشب محمد في بيته كأحد اولاده ، وكان ابو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش ، فكان اذا خرج في تجارة اصطحبه في اسفاره ، فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السيرة حتى لقبوه بالامين واشتهر في مكة بهذا اللقب ، فعرفت بامره خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه في الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت اعجاباً بـه ، فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها فاتسعت حاله واصبح من اهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه .

الدعوة

ولما بلغ الاربعين من عمره مال الى الخلوة بالاعتزال عن الناس فأوى الى الجبال والشعاب كما يفعل النساك. واول ما ابتدىء به « الرؤيا الصالحة ». وفي رمضان من تلك السنة (يناير ٦١١ ميلادية) كان معتزلاً بنفسه في غار حراء بجبل النور على ثلاثة اميال من مكة[1]، فنزل عليه الوحي وقرأ عليه اول سورة من سور القرآن ودعاه الى ان يرددها وراءه، فرددها. واصابه الروع، واسرع الى زوجه خديجة وانبأها بما وقع وقال: — ان الملك «امره» «ان» يقول: « اقرأ باسم ربك الذي خلق » — الآية، فقرأها. وانه خرج الى وسط الجبل فسمع صوتاً من السماء يناديه: « يا محمد انت رسول الله وانا جبريل » فذعر وأسرع الى خديجة فأخبرها. وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرأ الكتب ونظر فيها وخالط اهل التوراة والانجيل وسمع اقوالهم، وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات، فذهبت اليه واخبرته بما كان فقال: « والذي نفس ورقة بيده، لان صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه نبي هذه الامة ».

فرجعت خديجة اليه واخبرته بقول ورقة فاطمأن باله، ولكنه لم ير اظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيها من تعييب آلهتهم وتحقير اصنامهم، وفي ذهاب تلك الاصنام ذهاب تجارتهم واموالهم وكل آمالهم. ولم يكن من الجهة الاخرى يتوقع اذا انبأهم برسالته انهم يصدقونه فعمد الى بث دعوته سراً بين اقرب الناس اليه. قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان لا يزال غلاماً وابوبكر الصديق وكان من وجهاء قريش وابو عبيدة بن الجراح وغيرهم. فهم بدعوة الناس جهاراً وبدأ بعشيرته الاقربين فكلف ابن عمه علياً ان يصنع لهم طعاماً يدعو اهله اليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب واولادهم وهم نحو أربعين رجلاً. فدعاهم الى بيت أبيه أبي طالب. فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان اهله قد سمعوا بدعوته سراً واستخفوا بها، فلما هم بالكلام علموا انه سيدعوهم الى ترك الاصنام وعبادة الله فابتدره عمه ابو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئاً.

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال: « ما أعلم ان انساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما

---

١ — ابن الاثير ٢١ ج ٢.

جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله تعالى ان ادعوكم اليه فأيكم يؤازرني في هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ »[١] فظلوا ساكتين وجل سكوتهم استخفافاً . فتقدم علي ابن عمه وقال : « انا يا نبي الله اكون وزيرك عليهم » فأخذ النبي برقبته وقال : « هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا » فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : « قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيعه » ثم انصرفوا.

النبي وقريش

على ان استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا ابعده عن قومه : فبدلاً من وقوفه عند ذلك الحد تهيباً وحذراً جاهر بسب الاصنام ونسب اهله وآباءهم الى الكفر والضلال ، فلما علموا بمجاهرته بسب الاصنام اجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا اذاه لكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك وهو في كفالة عمه ابي طالب .. فجاءوا عمه وفيهم ابو سيفان فقالوا له : « يا ابا طالب ان ابن اخيك عاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فانهه عنا او خل بيننا وبينه » فردهم ابو طالب رداً حسناً ووعدهم خيراً .

ثم رأوه لا يزال ماضياً في سب آلهتهم فعادوا الى ابي طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له : « ان لم تنه ابن اخيك والا نازلناك واياه حتى يهلك احد الفريقين » فعظم ذلك على ابي طالب وادرك عاقبة الامر فلما عادوا من عنده قال لابن اخيه : « يا ابن اخي ان قومك قالوا كذا وكذا » فظن ان عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال : « يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر » وبكى وهم بالانصراف فناداه عمه وقال له : « قل ما احببت ، فوالله لا اسلمك ابداً » .

وكانت دعوته في اثناء ذلك تذيع على مهل ، وقد اسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم في التاريخ الاسلامي منهم ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب . وكان لاسلام هذين الاخرين وقع حسن عند النبي لانهما كانا من اهل الوجاهة والقوة .

اما سائر اعمامه واهله فلما يئسوا من وساطة عمه ابي طالب ، رأوا ان يحتالوا في استرضائه بالحسنى ، فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة .. فجاء فاستقبلوه بالترحاب

---

١ – ابو الفداء ١١٩ ج ١ .

وقالوا له : « يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا. وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا. وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك اموالنا في طلب الطب ، حتى نبرئك منه او نعذر فيك » .

فقال لهم : « ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً ، وانزل علي كتاباً وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

فلما لم يروا سبيلاً اليه جعلوا يعذبون الذين اسلموا وصدقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب. حتى اذا اشتد اذى قريش لهم وضاقوا ذرعاً عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والاهانة ، اشار النبي على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم ان يخرجوا من مكة الى ارض الحبشة . فهاجروا اليها تباعاً فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلاً ما عدا النساء والاولاد ، وهي الهجرة الاولى . ولا يخفى ما تقتضيه الاسفار من مكة الى الحبشة من المشقة لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الازمان مع ما حملوه معهم من النساء والاطفال . فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالاسلام .

ويليق بنا الوقوف هنيهة في هذا المقام لابداء ما ارتسم في مخيلتنا من امر هذه الدعوة على اثر مطالعتنا الطويلة في تاريخها فنقول :

هل كان يعتقد صدق رسالته ؟

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام بهذه الدعوة طمعاً في السيادة ورغبة في ملاذ الدنيا .

واما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على انه انما قام بها عن صدق واخلاص . فلم يدع الناس الى الاسلام الا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته وان الله ارسله لبث تلك الدعوة . ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من

الاضطهاد وضروب العذاب . وقد رأيت انه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام اهل مكة كافة ، واهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء لما اكتسبه من اسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره بأموالها ، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه اهل مكة العداء وساموه انواع العذاب واهانوه . حتى نقموا على بني هاشم لانهم اهله فتعاقدوا ان لايناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة اودعوها في جوف الكعبة . فاضطر بنو هاشم ان ينفروا الى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة الا خفية — الا من جاهر منهم بعداوته للمسلمين كأبي لهب ونحوه .

ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت الا لاحتمائه بعمه ابي طالب، لاننا رايناه بعد وفاة عمه اكثر ثباتا منه في حياته، مع ان الناس اصبحوا اكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته، وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، فتتابعت بموتهما المصائب عليه، واستبدت به قريش ولا سيما عمه ابو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن ابي معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله ، فكانوا يلقون الاقذار في طعامه ، ويرمونه بها وقت صلاته .

حتى اذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم لجأ الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته . فلم يلق الا الاعراض والاذى ، فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته . ولم يكتف اهل الطائف باعراضهم عنه بل اغروا بعض سفهائهم وعبيدهم ان يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا ، فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا امره الى الله ، وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزيمته ، فلقيه قومه هناك وهم اشد وطأة عليه مما كانوا من قبل .

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً واكراماً كما صرحوا له جهاراً ، لكنه لم يكترث لشيء من ذلك ولا اهمه امر الدنيا .

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها وانه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على ذلك كله .

اهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في ايام الحج لعله يلقى فيهم

من يصغي اليه واهله يعترضونه ويقفون في سبيله ، وخصوصاً عمه ابو لهب فانه كان اذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الاسلام اعترضه وقال للناس : « انما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . ولكن ذلك لم يقعده عن دعوة الناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم ، حتى بايعه نفر من اهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الاسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة .

ولعل السبب في سرعة انتشار الاسلام هناك كثرة من في المدينة من اليهود وهم اهل كتاب يعتقدون الوحي ويدركون معنى النبوة. وليس فيهم من يخاف على تجارته اذا بطلت عبادة الاصنام. بل هم يفضلون ابطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصاً اذا هاجر اليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج اليها الناس بدلاً من حجهم الى مكة . واليهود كما لا يخفى اهل نظر في التجارة واصحاب فراسة في ابواب الكسب . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما في الانساب ، لان اهل مكة من العدنانية واهل المدينة من القحطانية عرب اليمن ؛ فنشطه اهل يثرب ودعوه اليهم على ان ينصروه ، فهاجر اليهم سنة ٦٢٢ للميلاد . وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم « المهاجرون » تمييزاً لهم عن الفئة الاخرى من الصحابة وهم « الانصار » أهل يثرب ، سموا بذلك لانهم نصروا النبي في مدينتهم ، وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن ، وقد سميت يثرب – عندما عم الاسلام اهلها – بمدينة النبي ، ثم اختصر الى المدينة ، ولزمها هذا الاسم الى الآن .

ولقي المسلمون في المدينة ترحاباً عظيماً فاشتد ازرهم وتحولوا الى محاربة اهل مكة ، فجعلوا يناوئونهم في اثناء مرورهم بتجاراتهم بين الشام ومكة وفي اماكن اخرى ، ووقعت بين الجانبين وقائع كثيرة هي الغزوات المشهورة . اعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها وكانت فاتحة انتصاراتهم في الغزوات الاخرى ، حتى اخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة واسلم القرشيون كافة ، فوجه النبي التفاته الى العالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما سيأتي .

الرّوم وَالفُرس عِندَ ظُهورِ الإسلَام

الروم

تأسست رومية (روما) سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وقامت معها الدولة الرومانية ، وظلت رومية كرسي تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن ، وقد فتحت العالم المعمور يومئذ كله . وفي مايو سنة ٣٣٠ اصبح انقسام الدولة الرومانية الى قسمين ، شرقي وغربي ، حقيقة واقعة بعد ان كان مجرد تقسيم اداري منذ سنة ٢٩٥ ميلادية . ذلك ان قسطنطين اتفق مع زميله ليسينيوس على اقتسام الدولة ، وتولى هو القسم الشرقي واتخذ بيزانطيوم عاصمة له ، وسماها القسطنطينية ، وهيأ لها كل مقومات العواصم الرومانية ، حتى لقد نقل اليها اعداداً من سكان روما واعضاء مجلس الشيوخ .

وبعد وفاته سنة ٣٣٧م اختلف اولاده الثلاثة ثم انفرد بالامر احدهم وهو قسطنطيوس ، ولكنه لم يستطع الاستمرار ، وصار الامر الى واحد منهم توفي سنة ٣٦٠ م ، فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٣٦٤ م ، ثم توفي هذا بعد بضعة اشهر ، فانتخب الرومان امبراطوراً اسمه فالنتيان . وبعد قليل نصب فالنتيان اخاه فالنس امبراطوراً على رومية . وتم انفصال المملكة الرومانية على اثر ذلك الى مملكتين احداهما شرقية وعاصمتها القسطنطينية والاخرى غربية عاصمتها رومية . وكانت الاولى اسعد حظاً واطول عمراً فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين للجزء الشرقي من الدولة الرومانية القديمة .

وكانت حدود الدولة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد غير ثابتة ، ولكننا نستطيع القول بصورة عامة انها كانت تنتهي في الغرب بالبحر الادرياتي وفي الشرق بضفاف دجلة . وتمتد حدودها الشمالية الى جنوبي ما يعرف اليوم بروسيا ، بما في ذلك شبه جزيرة القرم . وتنتهي في الجنوب الى بلاد النوبة . وارقى عصور هذه الدولة بعد قسطنطين الكبير عصر جستنيان (من سنة ٥٢٧ — ٥٦٥ م) تولاها ٣٧ سنة ، قضى الخمس الاولى

منها في محاربة الفرس الساسانية ، وانتهت الحرب بمعاهدة سموها« معاهدة الصلح الدائم» لكنها لم تدم . ومن حسن حظ هذا الامبراطور انه رزق بقائدين من اشهر قواد العصور الوسطى هما : بليزاريوس ونارسيس فتحا له ايطاليا ورفعا اعلامه فوق اسوار روما شمالي افريقية وغيرهـا . وكانا عونا له في سائر فتوحه وساعـده الاقوى فى توسيع نطاق مملكته .

الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان)قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد ، وسببها التنازع على السيادة في العالم لانهما كانتا اعظم دول الارض ، تلـك العصور ، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الاخرى ، واتصلت تلك العداوة الى زمن الاسكندر الكبير ثم اتصلت في عصور الرومان الى ايام الاسلام .

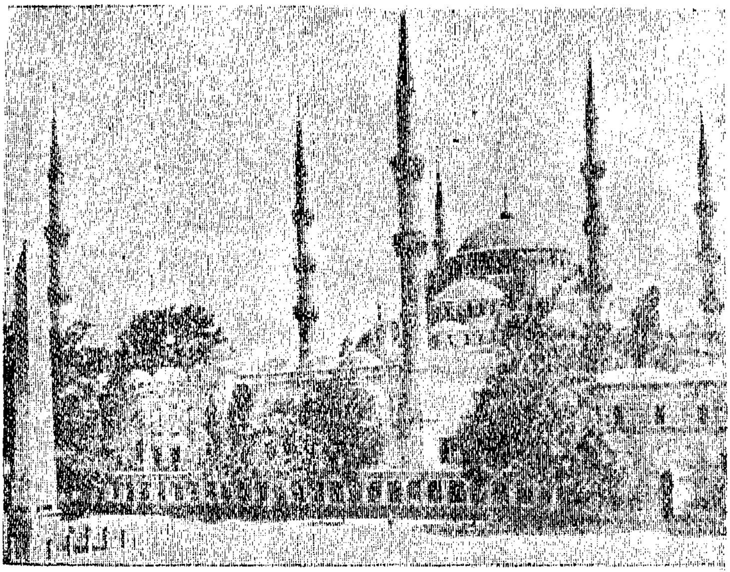


القائد بليزاريوس يقود جنوده في احدى المعارك ضد الفرس

وافضى عرش الفرس في ايام جستنيان المذكور الى كسرى انوشروان المشهور بالعادل، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله ، ففتح سوريا واحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى ، فبعث جستنيان اليه بليزاريوس فحاربه ورده على اعقابه ، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ الى ٥٦١ م) وقد مـل

الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضى فيه على جستنيان بجزية سنوية مقدارهـا ٣٠٫٠٠٠ دينار . وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب .

وللامبراطور جستنيان ذكر مجيد في تاريخ الدولة البيزنطية ، بسبب اتساع حدودها على ايامه واستعادتها للكثير مما كانت قبائل الجرمان قد استولت عليه من ولايات الدولة الرومانية ، وبسبب ما قام به من اعمال خلدت ذكره على مدى التاريخ ، منهـا اجتهاده في تكوين مجموعات القوانين الرومانية المعروفة ،وأشهرها المجموعة المعروفة إلى اليوم بمدونة جستينان التي كانت اساساً لما وضع بعدها من القوانين في اوروبا الى اليوم . وقد ادخل صناعة الحرير الى اوروبا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور ، واشهر ما يذكر به كنيسة ايا صوفيا ،التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لا يزال معروفاً بهذا الاسم الى اليوم .



كنيسة اياصوفيا التي بناها جستنيان ، وهي الآن جامع

ولكن الدولة المطلقة انما يكون حظها من السعادة او الشقاء كما يكون ملكها . فان كان عظيماً عظمت او كان حقيراً حقرت . فلما توفي جستنيان خلفه اناس لا يليقون بالملك فلم تعد تعرف السعادة بعده — خلفه ابن اخيه جستين الثاني ثم طيباريوس ثم الامبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف امر الدولة . فأراد هذا الامبراطور ان يقويهـا بفتح الشرق فناصب الفرس وحاربهم سبع سنين ، وقد توفي كسرى انو شروان سنة ٥٧٩ ،

وخلفه ابنه هرمز الرابع ، وكان عاتياً فثار عليه رعاياه ، فاشتغل باخماد ثورتهم ، والروم يوغلون في بلاده من العراق ، والتركان يسطون عليهـــا من الشمال والشرق ، حتى كادت تذهب فريسة الفاتحين لو لم يقيض لها الله قائداً شهيراً يعرف ببهرام فحارب العدوين وانقذ البلاد منهما ،فمال الفرس اليه فانزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى ابرويز ، فلم يقبل بهرام ، واذله ففر ابرويز الى القسطنطينية واستنجد الامبراطور موريس ،فأنجده بجيش تغلب به على بهرام واستعاد الملك ، فعرف ابرويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم الى وفاة موريس .

اما هذا الاخير فقد مات مقتولاً سنة ٦٠٢ م وخلفه الامبراطور فوقاس ، وكان فوقاس جلفاً جاهلاً فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه . وكان من جملة ولاة الامور يومئذ وال على افريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده اهل القسطنطينية ، فانفذ اليهم عمارة بحرية تحمل جيشاً يقوده ابنه ، وكان يسمى هرقل ايضاً ، فقتل فوقاس وتربع في دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي ايامه ظهر الاسلام .

بين الروم والفرس

ورأى ابرويز باباً لمناوأة الروم فادعى انه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤ م وناصره يهودها على البيزنطيين ، ففتحها وفتح مصر واستولى على انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن اخرى من سوريا وفلسطين ، ثم اباح لجنده نهب اورشليم (بيت المقدس) فنهبوها واحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي الى بلادهم ، وواصلوا القتل والنهب في سوريا سنة ٦١٦ م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس ، وارسلوا جنـــداً آخر الى آسيا الصغرى ففتحوهـــا وكان النصر حليفهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطىء البوسفور .

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بمـــا يهـدد مملكته . وكأنه لما تحقق وقوع الخطر نفض غبـــار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع ، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض اموال الكنائس على ان يعيدها بعد الحرب مع رباهـــا ، وحشد جنده وركب الى كليكيا في آسيا الصغرى

واحتل ايسوس فلقيه الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م ، وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة الى المدينة .

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى اوغل في بلادهم واضطر ابرويز ان يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته .



هرقل ملك الروم وحاشيته

اما هرقل فانه حاربه مرة اخرى سنة ٦٢٧ م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكساراً عظيماً . وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الاشوريين القديمة وهي اول مرة وطىء الروم فيها تلك المدينة . وكان ابرويز قد اصبح شيخاً طاعناً في السن فأوصى بالملك لابنه مردز . وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسده اخاه وعمد الى الكيد له ولابيه . فاستعان ببعض النـاس حتى قبض على من بقي من اولاد ابرويز وهم ثمانيـة عشر ولداً فقتلهم جميعاً بين يدي ابيه وزج اباه في السجن حتى مات .

وبموت كسرى ابرويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده الا ثمانية اشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى ، وادعى الملك تسعة ملوك في اربع سنوات . فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال .

ناهيك بما كان يهدد الروم في اوربا من هجمات برابرة القوط . وكان هؤلاء في اوائل الاسلام قد استولوا على غربي هنجاريا (المجر) . وزد على ذلك ان الهون كانوا في اثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق .

الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال في دولتي الروم والفرس مقصوراً على الوجهة السياسية والادارية ، ولكنه كان يتناول الاحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور ، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع ، لتعددالفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين . واكثر اختلافهم على الالفاظ والجوهر واحد .

فكان الامبراطور واهل دولته يقولون ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، واما رعيته في مصر والشام فكان اكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة . وفي زمن هرقل سعى البطريرك اثناسيوس بطريرك اليعاقبةفي منبج في التوفيق بينالطائفتين ، فخاطب الامبراطور في ذلك وذهب مذهباً متوسطاً بين القولين ، وهو ان للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة . فوافقه الامبراطور واستمهله ريثما يخابر بطريق القسطنطينية بيروس وهو سوري الاصل . وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الامبراطور : فنشر الامبراطور بهذا المعتقد منشوراً قبله اكثر الاساقفة الشرقيين الا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الاساقفة ، وفي مقدمتهم اسقف عمان وسائراهل الكنيسة الملكية . فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الروم ؛ فأصبح الانقسام مزدوجاً : الامبراطور وبطارقة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشيئتين ، واليعاقبة ومنهم الاقباط واهل حوران وسائر اهل داخلية سوريا ومصر حرب آخر ، والنساطرة وهم اهل العراق والجزيرة حزب ثالث . فضلاً عن طوائف اخرى غير هذه منهم الخياليون الذين يقولون ان المسيح لم يصلب حقيقة ، وانما صلب رجل آخر مكانه . والأكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج . ثم ان اليعاقبة ايضاً كانوا اقساماً مما يطول شرحه .

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل ذلك احياناً الى خروج أمم بأسرها من حـــوزة الروم الى الفرس ، كما حصل للارمن فأنهم لما حرم مجمع القسطنطينية بدعة الطبيعة الواحدة جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها ، والأرمن منهم ، فأفضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه .

التباغض بين الروم واليهود

ولا بد من الاشارة هنا الى ما كان بين اليهود والروم من تباغض قوي بسبب ما جرى عليه أباطرة الدولة الرومانية من اضطهاد اليهود في تلك الأيام. وقد بلغ هذا التباغض حده في ايام هرقل فثار اليهود في انطاكية وقتلوا بطريقها ومثلوا بجثته تمثيــلاً قبيحاً . فأرسل اليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً ، وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها ، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على ان يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى ، فاطلع مطران صور على المكيدة وأخبر الوالي بها فأمر الوالي الحامية والبوابين والحراس بأن يكونوا تلك الليلة على حذر . ولما جن الليل هجم اليهود من خــــارج السور فردهم الجند على أعقابهم ، فرجع اليهود الى الأديرة والكنائس القائمة بجوار المدينة فهدموهــــا وسلبوا آنيتها . وفعلوا مثل ذلك فيما جاورها من القرى ، فعاقبتهم الحكومة بقتل كل يهود صور .

وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فأرسل الملك اخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود ، فاشتد غيظهم على المملكة في كل انحائها ، وزاد الروم خوفــاً من اليهود وحذراً منهم أن بعض أهل التنجيم أنبأوا الملك ان رجلاً من أهل الختان سيأخذ المملكة منه ، ويقول العرب ان المراد بأهل الختان المسلمون . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم انهم اشتروا من الفرس ثمانين الفاً من أسرى النصارى وذبحوهم .

ولم يكن التباغض مقصوراً على ما بين اليهود والروم ، لكنه كان بينهم وبين النصارى على الاجمال . وكانت حكومات النصارى اذا سنت قانوناً خصصت بنوداً منــه لليهود لمعاملتهم بالاحتقار ، كما فعل القوط حكام اسبانيا قبيل زمن الفتوح الاسلامية فقد سموا اليهود اعداء الحكومة القوطية . وكانت المجالس الملية في تلك المملكة قد قررت الغاء

الديانة الإسرائيلية فأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم ، وأجبرتهم على النصرانية وضيقت عليهم تضييقاً شديداً حتى اضطروا للتظاهر بالنصرانيـة وقلوبهم ما زالت يهودية تكاد تنفجر حقداً وكظماً على ما نالهم من صنوف العذاب . ولم يكن القوط يجهلون تكتمهم ولذلك لم يكونوا يعاملون المتنصرين منهم معاملة المسيحيين الأصليين ، بل حرموهم من كل الحقوق المدنيـة وحظروا عليهم اقتناء العبيد وتمادوا في اذلالهم حتى منعوهم من القراءة . فهل نستغرب بعد ذلك اذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين ..؟

حالة الفرس الداخلية

اما الفرس فقد كانت حالتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الاسلام بمدة طويـلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب عن ماني ومزدك . ومن غريب دعوى هذا الاخير ان الهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والاموال بين الناس على السواء لأنهم اخوة اولاد اب واحد. وتبع هذا المذهب قباذ احد ملوكهم فجاء بعده من نقضه واقام غيره وتشعبت الآراء هناك وفسدت الاخلاق . وفيما كان الروم والفرس على ما ذكرناه من الانحلال كان العرب في ابان نهضتهم ، وقد اجتمعت كلمتهم واشتد أزرهم بمن كان يهاجر اليهم من رجال الروم والفرس أنفسهم فراراً من تغالب الأحزاب أو ضعف الحكام .

إنتشار الإسلام

يبدأ تاريخ الاسلام بالهجرة ، فقد هاجر المسلمون من مكة الى المدينة فراراً مما كان القرشيون يسومونهم اياه من الخسف والاهانة وهم قليلون لا يقوون على دفعهم ، وقد رأوا من اهل المدينة مؤازرة ونصرة بما أظهروه من البيعة المعروفة ببيعة العقبة ، فأمر النبي المسلمين بالهجرة الى المدينة فلاقاه اصحابه هناك بالترحاب وانزلوه وانزلوا الذين هاجروا معه على الرحب والسعة .

التعاهد بين المهاجرين والانصار

وأول عمل باشره بعد نزوله هناك المعاهدة بين اصحابه المسلمين (المهاجرين والانصار) وبين اليهود من أهل يثرب على الاتحاد والتكاتف في الدفاع عن المصالح العامة . وكتب بين الفريقين كتاباً يعترفون فيه انهم امة واحدة . وقد اورد ابن هشام نص ذلك الكتاب ، ثم خص المهاجرين من قريش والانصار من يثرب بعهود اخرى سموها المؤاخاة ، فآخى بين اصحابه المهاجرين والانصار بعهد وثيق. هذا هو الحجر الاول من اساس الدولة الاسلامية والمسلمون يومئذ بضع عشرات . وفرضت الزكاة والصيام واقيمت الحدود وفروض الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الاسلام ، ثم انضم الى المسلمين بعض وجهاء المدينة فتأيد الاسلام بهم كما تأيد من قبل بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب .

الغزوات

فلما فرغوا من ذلك فكروا في ما بينهم وبين اهل مكة من العداء ، فعمدوا الى مقاتلتهم لنصرة الاسلام فحدثت الغزوات المشهورة -- وهي اول الحروب الاسلامية — بدأت بالغزو والقتال على عادة العرب في جاهليتهم وانتهت بفتح المدن والممالك ، وأشهر

الغزوات واهمها غزوة بدر الكبرى ، لان فوز المسلمين فيها قوى عزائمهم ونشطهم على موالاة الغزو .

غزوة بدر الكبرى

بدر آبار بين مكة والمدينة ، تنزل عندها القوافل التجارية المسافرة بين مكة والشام ، وكان القرشيون اهل تجارة تسير قوافلهم الى الشام تحمل اليهـــا البضائع كما تقدم ، فعلم المسلمون في السنة الثانية للهجرة ان قافلة من القرشيين اهل مكة ، قادمة من الشام ومعها الاموال يخفرها ثلاثون رجلاً يرأسهم ابو سفيان بن حرب كبير أهل مكة يومئذ ، فانتدب النبي اصحابه لغزو القافلة واخذ أموالها . فبلغ أبا سفيان ذلـــك فعجل بارسال رسول يطلب النجدة من أهل مكة ، فجاءه منهم ٩٥٠ رجلا فيهم مائة فارس . وخرج المسلمون وهم ٣١٣ رجلا منهم ٧٠ من المهاجرين والباقون من الانصار ، ولم يكن معهم الا فرسان وسبعون جملا . وبلغهم بعد خروجهم من المدينه ان قافلة قريش قاربت آبار بدر ، فسبقهم المسلمون الى المكان وبنوا للنبي عريشاً جلس فيه ومعه ابو بكر ، وتهيأ اصحابه للحرب .

ثم رأوا قريشاً مقبلين وهم نحو ثلاثة امثالهم ، وفيهم نخبة رجال مكة الذين قاوموا الاسلام واهانوا النبي وفي جملتهم ابو جهل بن هشام ، وعـــلم النبي ان هذه الواقعة حد الفصلين : اما ان ينتصر المسلمون ويتأيد الاسلام اذا غلبوهم ، واما ان تعود العائدة عليهم اذا غلبوا . فلما رأى القرشيين قادمين في مثل هذا العدد نظر الى اصحابه فاذا هم قليلون فقال : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » .

وباشروا القتال بالمبارزة على جاري العادة ، ثم قتل ابو جهل فجاءوا برأسه الى النبي فسجد وشكر الله . ودارت رحى الحرب فكان النصر للمسلمين ، وقد قتل منهم اربعـة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار . وقتل من القرشيين سبعون رجلا وفيهم من اشراف بطون قريش كلها ، وخصوصاً بني أمية وبني مخزوم وبني اسد ، وأسر منهم سبعون رجلا فيهم عقبة بن ابي معيط فأمر بقتله لمـــا كان من اذاه النبي بمكة . وكان اكثر المسلمين جهاداً في تلك الواقعة علي بن ابي طالب ابن عم النبي وحمزة بن عبد المطلب عمه . وفر من بقي من القرشيين وفيهم ابو سفيان بن حرب رئيسهم وعمرو بن العاص الذي صار من اكبر قواد الاسلام فيما بعد ، ساروا يطلبون مكة وغادروا الاموال والأمتعة فاستولى

المسلمون عليها وتنازعوا في تفريقها ، ففرقها النبي عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً . ثم بعث القرشيون يفتدون أسراهم ، فاجتمع من ذلك مال كثير . وقد عاد أهل مكة مخذولين ، فانكسرت شوكتهم وعظم امر المسلمين . ومما زادهم تأييداً ان ابا لهب المشهور بمقاومة الاسلام ، لم يخرج يوم بدر من مكة ، لكنه ارسل من يحارب عنه على جاري عادتهم في من يتخلف عن الحرب . فلما اخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعد بضعة ايام . ولواقعة بدر شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، لانها كانت فاتحة الانتصارات الاخرى .

واقعة احد

ثم ان القرشيين عادوا بعد هذه الكسرة فاجتمعوا في السنة التالية ،وقائدهم ابوسفيان وعددهم ثلاثة آلاف فيهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فرس ، وتهيأوا للأخذ بثأر قتلاهم في بدر ، وساروا لمهاجمة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويندبن قتلى بدر ، ويحرضن الناس على مقاتلة المسلمين ، وكان في جملة رجال الحملة خالد بن الوليد الذي اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك . فلما اقبلوا على المدينة تشاور النبي واصحابه فكان رأيه البقاء في المدينة للمدافعة ، ورأى مثل ذلك ايضاً رجل من الصحابة اسمه عبدالله بن ابي بن سلول . ولكن اكثر الصحابة اشاروا بالخروج عليهم ، فاطاع النبي الاكثرية وخرج في الف منهم توسطوا بين المدينة وجبل احد . وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة « غزوة احد » . وكان ابن ابي هذا قد غضب لأن النبي خالف رأيه وأطاع الآخرين ، فلما توسطوا الطريق تقهقر هو وثلث الرجال واشاع القرشيون في الجند ان محمداً قتل ،ففشل المسلمون ولم يظفروا في هذه الواقعة ، وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وكان قتله سبباً في زيادة الفشل كما كان اسلامه مؤيداً للاسلام . وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجلاً ، واصيب النبي نفسه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر (الدرع) في الشجة فسال الدم . ومثل القرشيون بقتلى المسلمين تمثيلا شنيعاً ، فقطعوا الآذان والانوف حتى ان هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان (وأم معاوية) شقت بطن حمزة واخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع ان تبتلعها فلفظتها .

وكانت هذه الواقعة اشد ما اصاب المسلمين الى ذلك الحين ، لكنهم كانوا قد ذاقوا

لذة النصر فنسبوا هذا الفشل الى خيانة عبدالله بن ابي المتقدم ذكره ، وعادوا الى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق .

واقعة الخندق

وذلك ان قبائل العرب لما رأوا انتصار القرشيين في احد تحزبوا لاهل مكة وانضموا اليهم ، وفيهم قريش وغطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير من اليهود — وكان المسلمون قد اجلوهم عن اماكنهم كما سيأتي فحرضوا قريشاً على الحرب — وحملوا على المدينة في بضعة عشر الفاً ونحو اربعمائة فرس والف بعير ، وهم الاحزاب وبهم تعرف الواقعة ايضاً . وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثه آلاف ، فاضطربوا وخافوا ، وقد تعلموا من الواقعة الماضية أن لا يخرجوا من المدينة .

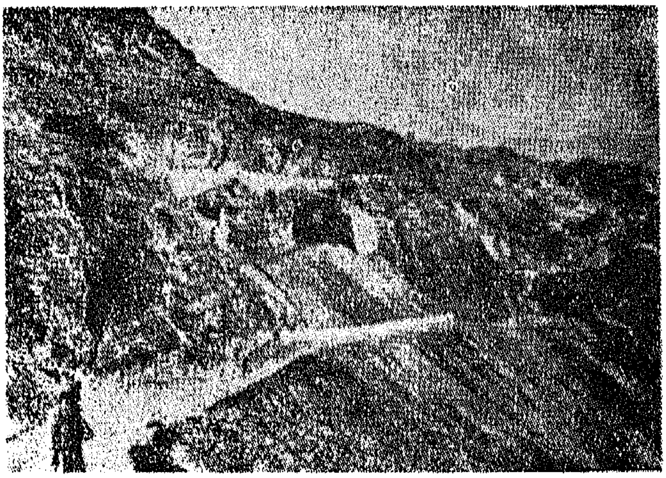
وكان في جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سلمان الفارسي ، فأشار على النبي بحفر الخندق — وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل . فقال له سلمان : «كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا» فان ذلك من مكايد الحرب» فاستحسن النبي ذلك وامر بالحفر . وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب ، ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بني قريظة ، فاحتفروا الخندق حول المدينة في بضعة عشر يوماً .

واقامت الاحزاب حول المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها ، فقضوا بضعة وعشرين يوماً لا يقاتلون الا بالمراماة بالنبال والحصى ، وقد هالهم امر الخندق وعلموا انها مكيدة جديدة ، على ان بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه ، فزاد الرعب في قلوب الاحزاب . فلما طال بهم الانتظار عمدوا الى البراز ، فخرج احدهم وطلب البراز فخرج اليه علي بن أبي طالب فغلبه علي . واتفق على اثر ذلك سقوط الامطار وهبوب الرياح ، فأثرت في خيام الاحزاب وكفأت قدورهم ، وأهل المدينة في منازلهم فلما اثرت فيهم الانواء ، فتشاءم اولئك وعادوا على اعقابهم ، فزال عن المسلمين عار احد بهذه الهزيمة .

الفتـــوح

كل ما تقدم من الحروب لا شيء من الفتح فيه وانما هو غزو ومقاتلة ، واما الفتوح الاسلامية فأولها فتح ارض بني النضير وهم يهود ، حدث حادث دعا الى مطالبتهم بالجلاء

عن بلادهم فطلب النبي ان يجلوا عنها فحاصرهم ستة ايام « سنة ٤ هـ »، فطلبوا اليه ان يخلي سبيلهم على ان يحملوا معهم ما حملت الابل من أموالهم الا السلاح ، فأجابهم الى ذلك فخرجوا وظل ما بقي من اموالهم فيئا للنبي خاصة يعطي منه من يشاء . وكذلك حصل في قريظة وخيبر ، وكان لخيبر حصون كثيرة فتحوها تباعاً .



حصن خيبر

اما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين ، فعقدوا معهم صلحاً في نحو السنة السادسة للهجرة مفاده « ان من شاء من اهل المدينة ان يقدم مكة للحج او العمرة او ان يجتاز بها الى اليمن او الطائف فهو آمن . ومن قدم من اهل مكة او من معهم من اهل الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن .

واقعة مؤتة

فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية ، وكان لفشل الاحزاب مع كثرة عددهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم الاسلام في نفوسهم ، فجعلوا يفدون الى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء انفسهم ، وفي جملة الوافدين رجلان لهما شأن عظيم في تاريخ الاسلام ، هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكلاهما من اشهر القواد فاعتز المسلمون بهما واتسعت آمالهم ، فأرسل النبي في السنة التالية رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام ، في جملتها

كتاب الى المقوقس والي مصر، وبعث (سنة ٨ هـ) جنداً لمحاربة الروم في الشام،فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران اسمها مؤتة . وتلك اول حروبهم مع الروم ، والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد ، فلم يفلحوا فعادوا الى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم زيد بن ثابت وعبد الله بن رواحة وجعفر بن ابي طالب اخو علي .



كتاب النبي الى المقوقس عثر عليه بعض الفرنسيين سنة ١٢٧٥ هـ (١)

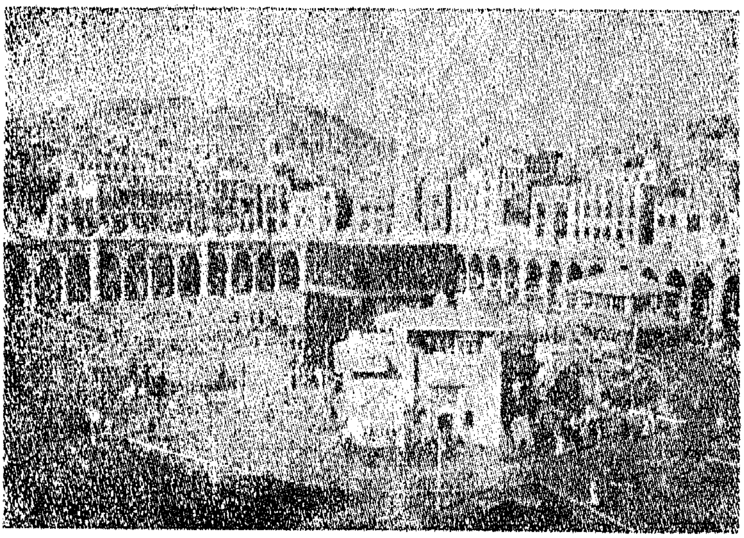
وحدثت في اثناء ذلك حادثة افضت الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش ، فرأى ابو سفيان انهم لم يعودوا يقوون على مناوأة المسلمين، فجاء بنفسه الى المدينة لتجديد العهد. وادرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يغفلوا عن هذه الفرصة ، فلما سألهم عن الصلح لم يجيبوه جواباً صريحاً عن قبولهم اياه[٢] فلما عاد الى مكة تجهزوا على عجل لكي يباغتوها قبل ان يتأهب

---

١ — تفصيل ذلك في الهلال صفحة ١٠٣ و ١٦٠ سنة ١٣

٢ — ابو الفدا : ج ١ ص ١٩٨

أهلها للدفاع . فساروا حتى اقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والانصار وقبائل من العرب المحالفة ، وكان أبو سفيان وبعض كبار قريش قد خرجوا من مكة يتجسسون ، فلقيهم العباس بن عبد المطلب عم النبي ، فسأله ابو سفيان عما هنالك ، فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزاز أمرهم ، فقال ابو سفيان : « لقد اصبح امر ابن اخيك عظيماً » فأشار عليه العباس ان يستأمن ، فلم ير لنفسه خيرا من ذلك ، فجاء معه الى معسكر المسلمين ، فاكرم النبي وفادته ومنع الصحابة من ايذائه لانهم كانوا ينوون الايقاع به ، وزاد في تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من اهل مكة يوم الفتح آمنا مثل من يدخل المسجد .



مسجد مكة وفي وسطه الكعبة

فعاد ابو سفيان واخبر اهل مكة بما كان ، فاستضعفوه وخذلوه وشتموه ، حتى ان امرأته هند بنت عتبة اخذت بشاربيه وقالت : « اقتلوا الحميت الدسم الاحمس .. قبحه الله من طليعة قوم » فلم يبال .

ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها، وسار النبي توا الى الكعبة فكسر الاصنام التي كانت في المسجد حولها وفي جوفها ، ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها، وكان ذلك آخر عهد مكة بالوثنية . وتحولت الكعبة من ذلك الحين الى مسجد يعبد فيه الله ،

واسلم اهل مكة كافة وفيهم ابو سفيان واولاده ، وفي جملتهم معاوية [١] بن ابي سفيان مؤسس دولة بني امية .

المؤلفة قلوبهم وغزو الطائف

وسمى النبي أشراف مكة الذين اسلموا بعد الفتح « المؤلفة » او « المؤلفة قلوبهم » ، اشارة الى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب اقوامهم تعزيزاً للاسلام ، وفي السيرة الحلبية ان من المؤلفة قلوبهم من تألفهم النبي ليسلموا مثل صفوان بن امية ، ومن تألفهم لدفع شرهم . وكان يتألفهم جميعاً بالعطاء فيميزهم به عن سائر الصحابة كما سترى ، وفي ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه .

وبعد فتح مكة بعث النبي سراياه الى ما حولها يدعو الناس الى الاسلام ، ثم غزا حنين والطائف ، وشتان بين مجيئه الى الطائف الآن ومجيئه في اول دعوته ، لقد جاءهم يومئذ مستنصراً وجاءهم الآن فاتحاً ، فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤٠٠٠ من الإبل و ٤٠٠٠٠ من الغنم و ٤٠٠٠ اوقية من الفضة ، فلما عمد الى تفريقها في اصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى ابا سفيان مائة بعير واعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيد مائة بعير واعطاهم الفضة ، فكان جملة ما اخذه ابو سفيان واولاده ثلاثمائة بعير ومائة وعشرين اوقية من الفضة ، فقال ابو سفيان : « بأبي انت وامي يا رسول الله لانت كريم في الحرب وفي السلم » .

عتب المهاجرين والانصار

وفعل النبي نحو ذلك في سائر الاشراف مثل الحارث بن هشام اخي ابي جهل المشهور وصفوان بن امية وغيرهما ، فشق ذلك على المهاجرين والانصار وهم دعامة الاسلام وأهل السابقة ، فكيف يتركون وتفرق الغنائم في من لم يسلموا الا مكرهين بعد ان غلبوا على مدينتهم ؟ فتشاكى الصحابة في ما بينهم وقالوا : « كيف يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم ؟ » فبلغ ذلك النبي فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب

---

١ ـ السيرة الحلبية ٨٠ ج ٣

قولهم ولكنه قال لهم : « اني لاعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر اتألفهم ليحسن اسلامهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم ، واما انتم فوكلتكم الى اسلامكم الثابت الذي لا يتزلزل . الا ترضون يا معشر الانصار انيذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا انتم برسول الله الى رحالكم ؟..» وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا .

ثم عادوا الى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز جانبهم وذاع امر سلطانهم في كل جزيرة العرب ، فجعل الناس يفدون على المدينة يدخلون في الاسلام .

محاولة فتح الشام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريباً ، عادوا الى توسيع دائرة الفتح ، فأمر النبي سنة ٩ ه بالتجهز لاعادة الكرة على الروم ، فجهزوا جنداً عدده ثلاثون الفاً فيهم عشرة آلاف فارس ، وتلك اكبر حملة استطاعها المسلمون الى ذلك الحين بذلوا فيها كل ما في وسعهم من المال والرجال . ولكنهم لقوا في الطريق شدة عظيمة من العطش ،فنزلوا قرية بينالمدينةوالشام اسمها تبوكوهم يظنون الروم يجتمعون اليها ومعهم عرب لخم وجذام ، فجاءهم صاحب ايلة (وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية. وفي اثناء هذه الحملة سطا خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق ، على سبع مراحل من هذه وهو عربي نصراني من كندة ، فأخذه خالد وقتل اخاه واخذ منه قباء من ديباج مخوصاً بالذهب وارسله الى المسلمين ، فلما رأوه تعجبوا منه لانه اول عهدهم بمثل هذه الملابس ، ثم عادوا الى المدينة ولم يفتحوا شيئاً من بلاد الروم .

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الاسلامية والاسلام لا يزال حديثاً ، فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم او وقف في سبيل اغراضهم فارتدت معظم قبائل العرب عنه ، الا اهل المدينة ومكة والطائف . واصبح الاسلام في خطر شديد ، لو لم يتداركه ابو بكر .

الخلفاء الراشدون

الخلاف بين المهاجرين والانصار

كان النبي في اثناء حياته امير المسلمين وقائدهم في الحروب ، وامـــامهم في الصلاة ، وقاضيهم في سائر الاحوال . فلما مات ولم يخلف ذكراً ولا اوصى بالخلافة لاحد — وأما قوله لعلي المتقدم ذكره انه وصيه فالائمة مختلفون فيه — اختلفوا عند موته في من يخلفه ، واولى الناس بخلافته اصحابه وهم المهاجرون والانصار ، فقـــال المهاجرون نحن احق بالخلافة ، لأننا اهل النبي واصحابه وقد تركنا اهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار بل نحن احق بذلك لأننا آويناه ونصرناه. واشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضي الى النزاع ، فذكرهم ابو بكر بحديث كان النبي قد قاله على مسمع منهم وهو : « قريش ولاة هـــذا الامر » فأذعنوا وتراجع الانصار .

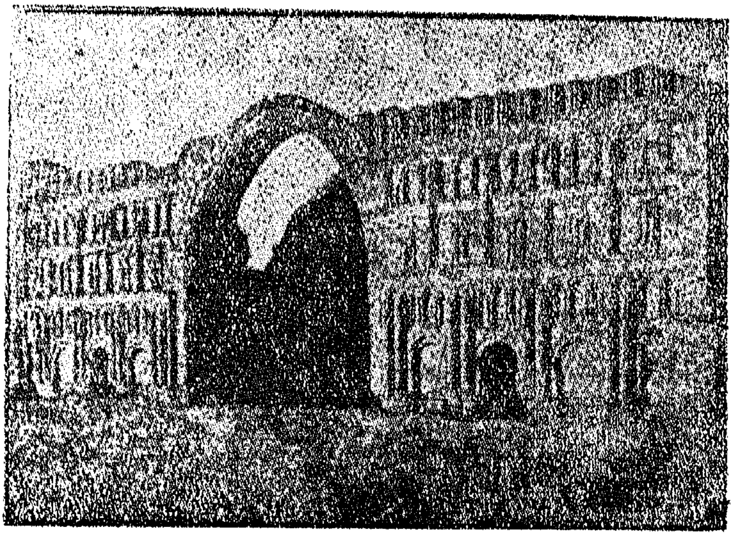
ولكن الخطر ما زال يهدد الاسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونـــه لذلك المنصب العظيم ، فأحس عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك ، وخاف الفشل لان الاسلام قام على الاتحاد ؛ فبادر الى ابي بكر فبايعه والناس ينظرون . وهم انما كانوا يخافونه اذا طلب الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته ، فلما رأوه سبقهم الى مبايعة ابي بكر بايعوا معه وانفض المشكل .

خلافة ابي بكر

اما مبايعتهم ابا بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبي وعلي بن ابي طالب ابن عمه وغيرهما من بني هاشم اهل بيته ففيه نظر ، والظاهر من اقوال عمر وغـيره في مواقف مختلفة انهم رأوا بني هاشم قد اعتزوا بالنبوة لأن النبي منهم فلم يستحسنوا ان يضيفوا اليها الخلافة ، ولعلهم فعلوا ذلك اقتداء بالنبي نفسه لأن عمه العباس طلب اليه مرة

ان يوليه عملا فأبى، وصرح بذلك بنو هاشم انفسهم وفي مقدمتهم الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية فقال: « أبى الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا » .

ومما ساعد على اختيار أبي بكر دون سائر المهاجرين من غير بني هاشم — مثل عمر وعثمان وطلحة والزبير انهم اعتبروا السبق في الاسلام لأن ابا بكر اسبق رجالهم اليه جميعاً . وهناك سبب آخر ذو شأن عند العرب من عهد جاهليتهم وهو السن ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والسيادة معاً ، وكانوا اذا تساوت المناقب في من يترشحون للامارة فضلوا كبيرهم سناً مع ملاحظة المقام الادبي — كذلك فعلت قريش في حرب الفجار الثاني فانها جمعت بطونها وعلى كل بطن رئيس ورأسوا عليهم جميعاً حرب بن امية .



بقايا ايوان كسرى في المدائن

قال ابن الاثير: « وولوه عليهم جميعا لمكانه من عبد مناف سنا ومنزلة ». وقد جمع ابو بكر الامتياز بالسن والوجاهة على سائر قريش ، وفوق كل ذلك فان النبي لما مرض انابه للصلاة في المسلمين وهي من حقوق الامامة ، فضلاً عما امتاز به من العلم وصدق العزيمة وقوة التدبير وعلو الهمة وغير ذلك من المناقب .

واول خطبة قالها ابو بكر بعد المبايعة تمثل حقيقة الاسلام ، وتبين السر الذي ساعد على سرعة انتشاره وتأييد سلطانه وهي : « ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان

احسنت فأعينوني وان اسأت فقوموني . الصدق امانة ، والكذب خيانة . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ان شاء الله تعالى . لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

الردة

تسلم ابو بكر الخلافة والاسلام في غاية الاضطراب بسبب الردة التي اشرنا اليها ، ومن اسبابها ان بعض القبائل دانت للاسلام ولم يتمكن الاسلام من عقولهم وقلوبهم ، فلما مات النبي تبادر الى اذهانهم ان الدعوة الى النبوة امر هين وظنوا انفسهم يستعينون على تأييد دعواهم بقبائلهم وهي اكثر رجالاً من قريش ، فكيف يستطيع هؤلاء السادة على جزيرة العرب كلها وهم قليلون ؟ فادعى النبوة غير واحد ، وفيهم طليحة الاسدي من بني اسد ، وسجاح التميمية من تميم ، ومسيلمة من بني حنيفة في اليمامة ، وغيرهم . واستعان كل منهم بقبيلته وانصاره ، فدعا ذلك الى اضطراب الاحـــوال في سائر القبائل ، فمنهم من رفض الاسلام وتابع اولئك الدعاة ، ومنهم من اكتفى بالامتنـــاع عن اداء الزكاة . والزكاة من دعائم الاسلام الاولية ، ولها شأن المال في الدولة ، والمال ضروري لقيام الدول في كل زمان ومكان ، وبعض العرب امتنعوا عن الزكاة لانهم عدوها من قبيل الاتاوة التي كانوا يدفعونها في جاهليتهم .

واشتد امر الردة واستفحل المرتدون ، حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين ، فهاجموها وكادوا يأخذونها لو لم يدافعهم ابو بكر دفاعاً جميلاً ، وقد تصرف في محاربة المرتدين تصرف الرجل الحكيم الحازم ، وبين يديه نخبة من القواد واهـل الحزم ، فعقد لهم الالوية للقتال ، وبلغ عدد ماعقده منها احد عشر لواء عقدت لاحد عشر قائداً في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهل وعمرو بن العاص .

فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتب الامر لابي بكر ، وعاد الناس الى ما كانوا عليه وسكنت الاحوال ، فحول التفاته الى الشام والعراق اقتداء بما اراده النبي ، فوجه اليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ وكانت سبباً في فتح الشام ، واشتد ازر المسلمين بها كما اشتد ازرهم بواقعة بدر الكبرى .

خلافة عمر

وتوفي ابو بكر في تلك السنة وقد اوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب ، وليس هـو اكبر المهاجرين سناً ، لكن الصحابة لم يكونوا مخيرين في خلافته لان ابا بكر اوصى له بهـا ، وكان عمر رجلاً حازماً عادلاً شديداً في الحق ، وفي ايامه تم فتح الشام والعراق واهم وقائعها واقعة القادسية سنة ١٤ هـ وهي من اشهر الوقائع الرئيسية التي فـاز فيها المسلمون . وفي ايامه فتح بيت المقدس واشترط اهلها ان يأتي عمر بنفسه لعقد الصلح على يديه ، وفتحت المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ثم اوغلت جنـــود المسلمين في فارس ، وفتحت الجزيرة وارمينيا سنة ١٧ هـ ، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص ، ثم فتحت برقة .

وهو الذي دون الدواوين ووضع الاعطية كما سنفصله ، وفي ايامه بنيت الكوفة والبصرة والفسطاط ، وبني المسجد الحرام بمكة ووسع فيه فأضاف اليه ما كان يجاوره من الارض ، ابتاعها من اصحابها .

وقتل الامـــام عمر سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان ، ونظراً لكثرة الفتوح في ايامه نذكر الاسباب التي ساعدت عليها .

الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام

للكتاب واهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الاسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس ، وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن اولئك ، مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدة ، والروم والفرس اعظم دول الأرض يومئذ وعندهما العدة والرجال والحصون والمعاقل ، وزد على ذلك ان العرب فضلاً عن قلتهم وسذاجة احوالهم جاءوا مهاجمين في بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها،واغرب من ذلك كله انهم فتحوا تينك المملكتين في مدة لا تتجاوز بضع عشرة سنة ، فكيف تأتى لهم ذلك ؟

اشهر اقوال اهل النقد في هذا الشأن ان العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين الا لما كان فيه الروم والفرس من التضعضع والضعف ، على اثر ما كان من الحروب بينهما قبيل الاسلام مما بيناه في فصل سابق . وعندنا ان ذلك التضعضع لم يكن وحده علة ذلك النصر، والا لكانت احدى الدولتين اولى بالاستيلاء على جارتها وعدوتها من امة صغيرة قليلة العدد ضعيفة العدد غلبت الدولتين جميعا . على اننا لا ننكر ما كان لتضعضع الروم والفرس من التأثير في تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علته ، وهناك اسباب أخرى سيأتي بيانها .

ما الذي جرأ العرب على الفتح ؟

لنبحث اولاً في الاسباب التي جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين ، وهم اهل بادية ما برحوا من اجيال متطاولة ينظرون الى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيب ، يضربون الامثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما ، فكيف تتجرأ شرذمة منهم على مناوأتهما ببضعة آلاف ليس على ابدانهم إلا غليظ الكساء ؟ واكثر طعامهم الشعير ،



وعدتهم الرماح مشدودة بعصب والسيوف معلقة بخرق . ولماذا لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟ والجواب على ذلك ان العرب اصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله : كانوا قبائل مشتتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد ، وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على هذا الامر العظيم ، وإنما ساعدهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها ، اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا في سبيل الدين ، وان الله يدعوهم الى نشر الاسلام في الأرض ، وان من مات منهم مات شهيداً ، وان العالم الآتي خير وابقى. هذا الاعتقاد هو الذي جر العرب على ركوب هذا المركب الخشن غير ما ذاقوه من حلاوة النصر في غزواتهم وسراياهم في ايام النبي ، والانسان اذا خدمه التوفيق في امر هانت عليه المخاطرة بكل ما له في سبيله .

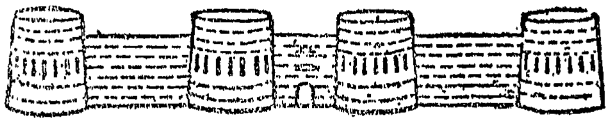
١ الاتحاد بالاسلام .

أما الاتحاد بالاسلام فأنه ظاهر في كل أعمالهم ، يشهد بذلك ما قدمناه من امر المعاهدة والمؤاخاة في اول سنة للهجرة ، ويؤيده ان الاسلام عنوان التوحيد كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث . ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء او الامراء في صدر الاسلام من الاشارة الى تلك الوحدة ، وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرق والتشتت ، وما يدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة ، وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الامام او من يقوم مقامه ، وفي ذلك من توطيد عرى الاتحاد والاجماع على الطاعة ما لا يخفى . ذكر البلاذري ان أبا سفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح – وهو لم يسلم بعد – رآهم قائمين للصلاة اذا ركع النبي ركعوا واذا سجد سجدوا فقال : « تالله ما رأيت كاليوم طواعية قوم جاءوا من ههنا وههنا ولا فارس الكرام والروم ذات القرون » .

٢ – اعتقادهم صدق الدعوة

وأما اعتقاد العرب صدق الدعوة وانهم كانوا يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من اقوالهم واعمالهم في اثناء الفتح ، كقول المغيرة لما قال له رستم القائد الفارسي في اثناء واقعة القادسية « انكم تموتون في ما تطلبون » فقال المغيرة : « يدخل من قتل منا الجنة

ومن قتل منكم النار ويظهر من بقي منـا على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر ، لما خوفه بجموع الروم وانهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل فقال عبادة :



حصن بابليون الذي فتحه عمرو بن العاص

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا اصحابك . أما ما تخوفنا به من جمـع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليـــه ، ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء اقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك . واننا منـكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين ، اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا . ولأنها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . وما منا رجـل إلا ويدعو ربه صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بـلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه اهله وولده ، وانما همنا ما امامنا . وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع لسعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لأنفسنا اكثر مما نحن عليه .. »

وأمثال ذلك كثير في تاريخ الاسلام حتى لقد كان المسلم يقاتل أباه وأخاه اذا كانا شركين ولا يبالي .. بل هو يعتقد انه يفعل خيراً . ويؤيد ذلك مـــا جاء في تواريخ لأديان الأخرى فان الانسان لا يستهلك في أمر ويعرض حياته للخطر من اجـــله إلا اذا كان من قبيل الدين ، وفي أحـاديث الشهداء عند النصارى وسائر الأديان الاخرى ما يكفي .

٣ – خصب البلاد المفتوحة

وقد زاد في رغبة العرب في فتح الشام والعراق ومصر مـــا علموه من خصب تلك الأرضين وكثرة خيراتها، وبلادهم قاحلة لا تفي بمطالبهم بعد تلك النهضة الدينية. وكانت بعض القبائل التي دخلت الاسلام ، تحارب لمجرد الكسب من الأسلاب والغنائم ، يستدل على ذلك مما أظهروه بعد غزوة حنين والطائف ، فقد كانت الامـــوال كثيرة والغنائم غزيرة كما تقدم ، فلما فرغوا من الحرب ورد السبايا « ركب (النبي) وتبعـــه الناس يقولون يا رسول الله قسم علينا فيأنا من الابل والغنم ، حتى ألجأوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : ردوا علي ردائي ايها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما الفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذوباً » .

ما الذي ساعدهم على الفتح ؟

ذلك ما جرأ العرب على الفتح ، أما ما ساعدهم عليه فهاك تفصيله :

١ – نشاطهم وخفة احمالهم

لأنهم اهل بادية تعودوا خشونة العيش فأصبحوا لا يبالون بالجـــوع ولا العطش ، اذا سافر احدهم الى حرب لا يحمل معه شيئاً يثقل كاهله او يشغل بعيره ، وقد لا يحملون طعاماً وانما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو في اثناء الطريق .

وللابل فضل كبير في تغلب العرب ، لانها كانت تقوم عندهم مقام المركبات والخيول والماشية عند الروم . فالعربي يركب ناقته ويحمـــل عليها اثقاله ويغتذي من لبنها ويستريح في ظلهـــا . وهي تقتات بالعشب في الصحراء ولو كان يابساً وتصبر على الجوع وتحتمل الظمأ اياماً . واما الرومي او الفارسي فلا يستطيع الانتقـــال الى الحرب الا بالأحمال والأثقال من المؤونة والذخيرة مما لا يقـــوى على حمله الا المركبات ، والمركبات تحتاج في جرها الى دواب ، والدواب تحتاج الى طعام ومياه . ويذكرنا ذلك بما شاهدناه في حرب الأنجليز وعرب السودان في اثناء الحملة النيلية التي انفذها سنة ١٨٨٤ لأنقاذ غردون باشا من الخرطوم ، فقد كان الأنجليزي لا يستطيع الانتقال الا ومعه الأحمال من البقسماط واللحوم المطبوخة والسكر والشاي والبن والشمع وفناطس الماء واحمـــال الخيم

والأمتعة واطعمة الخيـل ، وغير ذلك مما يحتاج الى الدواب الكثيرة . فكان رجال حملة « المتمة » ١٤٠٠ وجمالها اربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم ، وهي عبء ثقيل على كاهل الحملة . واما السوداني فقد كان في غنى عن كل ذلـك بجراب فيه شيء من الذرة الناشفة يتأبطه ويمشي .

٢ – اعتقادهم بالقضاء والقدر

وان الانسان لا يموت الا اذا جاء اجله ، فاذا اتت ساعته مات ولو كان على فراشه ، واذا تأخرت فلا يصاب بسوء ولو كان تحت مراهف السيوف. وكان هذا الاعتقاد متمكنا فيهم وهو علة معظم ما كان يبدو من بسالتهم في وقائعهم المشهورة ، وفي تاريخ الفتح شواهد كثيرة على ذلك .

٣ – مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال

فقد كانوا امهر من الروم والفرس فيهما ، وخيل العرب انجب من خيول اولئك ، وكانت اكثر وقائعهم بالمبارزة بين الأفراد على جاري العادة في تلك العصور ، فيختارون فارساً من كل جند فيتبارزان ، فمن غلب كان اصحابه الغالبين . وكان العرب يغلبون في المبارزة على الاكثر ، وكثيراً ما كان نصرهم متوقفاً على غلب في مبارزة أو رمي بنبلة صائبة إذا اصابت رئيس الجند احبطت رجاله. وسيأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن السلاح.

٤ – رجال صدر الاسلام

اختص صدر الاسلام برجال توفرت فيهم خصال النصر ، وقد امتـــاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم ، وقد نبـغ قواد نابليون على اثر الثورة الفرنسية ، كما نبغ قواد الصدر الاول للاسلام على اثر واقعة الفيل التي سطا بها الاحباش على الكعبة ، وحركت ساكن العرب فاظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك كما تقدم . فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة رجال العالم في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة ، كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وابي عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص ويزيد بن ابي سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن ابي طالب ، ممن تغلب عليهم البسالة ويحسنون قيـادة الجند ، ومثل عمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه من اهـل الدهاء والسياسة وابي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب من اهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة .

فنبوغ هؤلاء الرجال وامثالهم في اوائل الاسلام ، كان من اكبر العوامل في سرعة نجاحه ، وكان المسلمون يعلمون ذلك حتى ان النبي نفسه قال في اول ظهور الدعوة : « اللهم ايد الاسلام بأبي جهل بن هشام » ولما اسلم حمزة وعمر بن الخطاب قال : « قد تأيد الإسلام بحمزة وعمر » . وامثـــال ابي بكر وعمر وعلي وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من عظماء الناس الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم ، كما يتمثل الافرنج ببونابرت وكرومويل وبسمارك وغلادستون وغيرهم ، غير من ظهر من رجال الاسلام في عصر الامويين والعباسيين .

٥ — الصبر والمطاولة

اصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة وقد عرفوا قـــوة الروم وخبروا كثرتهم ، وعلموا ان قتالهم غير قتال اهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب ، فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم في حروبهم الصبر والمطاولة . والصبر هين عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم ، واذا قل زادهم عمدوا الى الغزو واقتاتوا بما تصل اليه ايديهم من الماشية او الحنطة او غيرهما .

وكانت حروبهم في اول خروجهم الى الشام والعراق اشبه بالغزو منها بالفتح ، بل تلك كانت قاعدتهم في اكثر فتوحهم ، كانوا يرسلون جمـــاعة منهم لغزو البلد الذي يريدون فتحه — وقد لا يكون قصدهم الفتح في بادىء الرأي — فيحومون حول البلد يغزون وينهبون حتى تتاح لهم فرصة الفتح فيغتنمونها . كذلك فعلوا في كثير من فتوحهم في صدر الإسلام وبعده ، فان موسى بن نصير انما ارسل طارقاً الى سواحل اسبانيا سنة ٩٢ هـ غازياً لا فاتحاً ، فاتفقت له اسباب ساعدته على الفتح تشبه الأسباب التي ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الأندلس . فلمـا بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه ان لا يكون هو الفاتح فبعث يستوثق منه ، الى آخر ما كان بينهما . هكذا كان شأنهم قبل ذلك في فتح افريقية وما يليها .

٦ — نجدة العرب

وكان الإسلام في اول امره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب حتى اصبح اللفظان مترادفين في كثير من الأحوال . وكان العرب اقرب الامم للدخول في الاسلام لما اختصهم

به دون غيرهم من الافتخار . وتمكن ذلك من الاذهان خصوصاً لما امر عمر باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب .



خريطة مشارف الشام والعراق

والمسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق رأساً ، ولكنهم قضوا زمناً طويلاً يغزون ضواحيها مما يلي البادية ، وسكان تلك البادية عرب مثلهم وفيهم الغساسنة في بصرى وغيرها من حوران على حدود الشام ، والمناذرة بنو لخم في الحيرة على حدود العراق . وكان الغساسنة عمال الروم في الشام ، وبنو لخم عمال الفرس في العراق . ولم يكن هؤلاء العرب يحبون الروم ولا الفرس ، وانما كانوا يخضعون لهم قسراً او طمعاً في الغنائم اذا حاربوا معهم . وخصوصاً بنو لخم ، فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على اثر مقتل النعمان ابن المنذر الملقب ابا قابوس. فان كسرى ابرويز قتله وحصلت بسبب قتله واقعة شهيرة بين الفرس والعرب في مكان يقال له « ذو قار » وبه تعرف الواقعة . فيها انهزم الفرس شر هزيمة ، وهي اعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم . ومن غريب الاتفاق انها حدثت في السنة التي جرت فيها واقعة بدر الكبرى ، والعرب فازوا في كلتيهما .

وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون ، وعرض عليهم خالد بن الوليد الاسلام او الجزية او السيف ، فاختاروا الجزية وصالحوه على ما يدفعونه كل عام . ووقع نحو ذلك في بصرى وغيرها من بلاد العرب والنصارى في ضواحي الشام ، وفي غيرها من بلاد العرب في حدود البادية بين العراق والشام ، كعين التمر وفيها قوم من كندة

واياد ، وقراقر وهو ماء لبني كلب ، وغيرهم من القبائل التي حاربها خالد في اثناء قدومه من العراق الى الشام . فكانت العرب اقرب سائر الامم الى نجدة الإسلام للاسباب التي قدمناها ، ولاسباب اخرى تختص بكل قبيلة على حدة ، كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الاسلام ، ثم تقلص ظلهم عنهم وانحسر الى البحرين . وكانت ربيعة تقيم في الجزيرة ببلاد الفرس ، وكانوا عوناً للعرب المسلمين على الفرس نكاية في هؤلاء .

وكثيراً ما كان هؤلاء العرب وغيرهم من اهل الشام الأصليين يضافرون المسلمين على الروم فراراً من اداء الجزية ، كما فعل الجراجمة في جبل اللكام . فان حبيب بن مسلمة الفهري غزاهم فبادروا بطلب الامان ، فصولحوا على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية .. ودخل من كان في مدينتهم من تاجر واجير وتابع من الانباط وغيرهم من اهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف .

٧ — خط الرجعة

ثم ان العرب كانت قاعدتهم في حروبهم هناك المحافظة على خط الرجوع ، فلا يقاتلون الفرس أو الروم الاوهم في حيطة . وكان حفظ ذلك الخط هينا عليهم لانهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهي ملجأهم ، فاذا اندحروا لا يستطيع الروم او الفرس اللحاق بهم اليها ولا يهمهم ذلك اللحاق ، ومتى عاد الروم الى مساكنهم عاد العرب عليهم . وهكذا حتى يقلقوا راحتهم ويضعفوهم بالمطاولة والصبر ، ولو كانوا اقل عدداً منهم ، وشأنهم في ذلك مثل شأن البوير مع دولة الانجليز لما حاربوها سنة ١٩٠٢ — كانوا نفراً قليلين فأقلقوا راحة الجيوش الانجليزية بضع سنوات ، وهؤلاء اكثر عدداً وعدة وعندهم الحصون والمعاقل . ولكن البوير انما اتعبوهم بالمطاولة والسطو حينا بعد حين ، ثم الرجوع الى مكامنهم بين الجبال حيث لا يستطيع الانجليز الذهاب اليها الا تحت الخطر الشديد .

وكانت هذه القاعدة مرعية عند العرب يحرضون بعضهم بعضاً عليها ، ومن هذا القبيل قول المثنى بن حارثة الشيباني ، احد قواد العرب لما علم بقدوم المسلمين لمحاربة الفرس في العراق فبعث اليهم يقول : « قاتلوا الفرس على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب ولا تقاتلوهم بعقر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وان كانت الاخرى رجعوا الى فيئة ثم يكونون اعلم بسبيلهم وأجرأ على ارضهم الى ان يرد الله الكرة عليهم » .

ويؤيد ذلك رغبة الخليفة عمر في بقاء المواصلة بين مركز الخلافة في المدينة وبين سائر اطراف المملكة الاسلامية بحيث لا يكون بينه وبين سائر المسلمين ماء . فقد كتب الى قواده في الاطراف بعد فتح فارس ومصر — وكان سعد بن ابي وقــاص مقيماً في مدائن كسرى وعمرو بن العاص في الاسكندرية — :

«لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت» فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط واقاما بجندهما في مضارب الخيام . ثم صارت تلك المضارب مدناً بعد ذلك .

٨ — واقعة اليرموك وواقعة القادسية

تلك كانت القاعدة في حروب العرب بالشام والعــــراق ، ثم جرت واقعة اليرموك الشهيرة (١٣ رجب ١٥ هـ — ٢٠ اغسطس ٦٣٦ م) التي بدأت في حيـــــاة ابي بكر . واليرموك واد بناحية الشام بجوار بصرى يسيل فيه المــاء حتى يصب قرب بحيرية طبرية واسمه اليوناني (Hieromax) [1] عربه العرب « يرموك » وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة الهائلة وهي ذات شأن عظيم في فتوح الشام ، لان فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصله الفتح واضعف عزائم الروم .

واذا تأملت في تفاصيلها رأيت سبب الفوز فيها سداد رأي عمرو بن العاص وشجاعة خالد بن الوليد ، وذلك ان الروم لما رأوا ما كان من مناوأة العرب لهم في ضواحي الشام ومطاولتهم ، جمعوا قواتهم وعزموا على الفتك بهم دفعة واحدة . وكان المسلمون متفرقين في ضواحي الشام والعراق ، فتكاتبوا بشأن ذلك فقال عمرو بن العاص: « ان الرأي عندي لمثلنا الاجتماع ، فاننا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة وان تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدونا » فكتبوا الى ابي بكر بذلك فأجاب مثل جــــواب عمرو . فاجتمع جند المسلمين من العراق والشام فلاقاهم الروم في اليرموك ، وعددهم على قول ابن الاثير ٢٤٠ الفاً والمسلمون ٥٠ الفاً بقيادة خالد بن الوليد ، فخطب خالد فيهم خطاباً حرضهم فيه على الثبات وجعل الجند كراديس على كل كردوس قائد، ولم تكن الحرب بالكراديس معروفة

---

(١) ورد الاسم بصور مختلفة : Hieromix, Hieromice

عند العرب كما سترى . والظاهر ان خالداً عبأ الجند تلك التعبئة لمقـــاومة الروم بمثل نظامهم .

وشعر خالد بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة الروم ، وسمع احدهم يقول : « ما اكثر الروم واقل المسلمين ! » فقال له : « ما اقل الروم واكثر المسلمين! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وبينما هم في القتال جاءهم الخبر بموت ابي بكر ، فكتموه وصبروا صبر الرجال لعلمهم ان الفشل في تلك الواقعة يذهب بكل اعمالهم ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ان النساء كن يقاتلن بالعصي ، فانتصر المسلمون . وكان هذا النصر مقدمة سائر ما نالوه في الشام . وكذلك واقعة القادسية في العراق ، فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس . وقد صبروا في هذه الواقعة صبراً جميلاً وطال امرها كثيراً .

٩ – نقمة الرعايا على حكامهم

قد علمت ما كان من انقسام الروم والفرس فيما بينهم ، وانحطاط الحالة الاجتماعية في بلادهم ، فضلاً عما كان من الشحناء بين الرعية اهل البلاد الاصليين وحكامهم ، وخصوصاً في مصر والشام . فان المصريين الاصليين وهم الاقباط كانوا قـــد عانوا سلطة الأجانب اجيالاً متطاولة (الفرس فاليونان فالرومان) وهان عليهم الانتقال من سلطان الى سلطان فراراً من الظلم او الضغط . وكذلك اهل الشام ، وهم اخلاط من الآراميين والسريان والأنباط واليهود وغيرهم ، وكان حظهم من ذلك مثل حظ جيرانهم المصريين وقـــد يئسوا من الاستقلال مثلهم ، فلا يهمهم اذا كان حاكمهم رومياً او عربياً وانما يهمهم ان يكون لهم راحة تحت سلطانه . وربما فضلوا العرب لأنهم اقرب اليهم لغة ونسباً واخلاقـــاً . وزد على ذلك ان المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد اكثر من القريب . ويتوسم الخير في القادم المجهول اكثر مما يتوسمه في الحاصل المعلوم ، وعلى الخصوص اذا كان الفرق بينهما ظاهراً مثل ظهوره بين الروم والعرب . فالروم كانوا يومئذ في دور انحطاطهم وقد فسدت احكامهم وآدابهم ، والعرب في دور نموهم وفي ابان نهضتهم وقد جعلوا العدل والمساواة وجهتهم ، فضلاً عما كان بين اهل هذين القطرين وبين حكامهم الروم من الانقسامات الدينية الـــتي قدمناها ، حتى هان عليهم الرضوخ لأية دولة كانت ، ولم يروا بأساً في ان يكونوا عوناً لها على حكامهم .

١٠ – اليهود

كان الروم مع انقسامهم الى طوائف واحزاب قد اجمعوا على اضطهاد اليهود كما تقدم . ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت أقصاها حتى هان على اليهود ان يخسروا اموالهم – مع رغبتهم في الأموال – في سبيل الانتقام من الروم . وفي الواقع انهم كثيراً ما كانوا عوناً للعرب عليهم وكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم اليها ، كذلك فعلوا بقيسارية بعد ان حاصرها المسلمون سبع سنين ولم يقووا عليها لقوة جندها ومناعة حصونها ، فكان يحرس اسوارها كل ليلة مائة الف جندي ، وكان قائد المسلمين هناك يومئذ معاوية بن ابي سفيان ، فجاء يهودي من اهلها واسمه يوسف دلهم على طريق في سرب فيه الماء الى حقو الرجل على شرط ان يؤمنوه واهله ، فدخل المسلمون المدينة وفتحوها .

وقس على ذلك مدناً أخرى سلمها اليهود نكاية في الروم حكامهم ، وخصوصاً في الاندلس للاسباب التي قدمناها .

١١ – عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم

كان لتلك المناقب تأثير عظيم في من يدخل تحت سلطان المسلمين من رعايا الروم او الفرس ، وتلك كانت الوصية الأولى التي يتزودون بها اذا خرجوا للفتح ، واليك وصية أبي بكر لاسامة يوم خروجه بالمسلمين الى الشام قال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعقروا نخلا او تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » .

وفي حكاية بناء الفسطاط ورفق عمرو بن العاص باليمام الذي كان معششاً في فسطاطه ما يدل على رغبتهم في الرفق .

١٢ – التسوية بين الناس

ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم ، ومن اوضح الأدلة على ذلك ما كان من امر جبلة بن الايهم ملك غسان لما اسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله ، وقد فرح عمر باسلامه وخرج أهل المدينة للنظر الى موكبه وفيه

الخيول المعقودة أذنابها وفي أعناقها سلاسل الذهب، وعلى رأس جبلة تاج مرصع بالجوهر . على ان ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد عليه ، لما وطىء احد بني فزارة ازاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشم انف الفزاري، فاشتكاه الفزاري الى عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال له : « ما هذا ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، انه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف» . فقال عمر : « قد اقررت على نفسك ، فإما ان ترضي الرجل واما ان اقيده منك فآمره بهشم انفك كما فعلت به » فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك ؟ » فقال : « الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله إلا بالتقى والعافية » فلم ير جبلة مخرجاً من حكم عمر إلا بالفرار ، فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب .

ومثلها حكاية القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص وذهب الى عمر بن الخطاب في المدينة فاستعاذ به ، فبعث عمر الى عمرو فاستقدمه وابنه ، فلما جاء اعطى الخليفة للقبطي سوطاً وأمره ان يضرب ابن عمرو فضربه ، وأراد ان يضرب اباه عمرواً فقال عمرو : « إنما ابني الذي ضربه » ، فقال له : « يا عمرو ، منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير في تعجيل الفتح ، لأن اهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم إياهم ، فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم .

١٣ – استبقاء الناس على احوالهم

كان العرب اذا فتحوا بلداً أقروا اهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم او معاملاتهم او احكامهم المدنية او القضائية او سائر احوالهم . كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص ، فانه جعل امور الاقباط لأنفسهم يحكم في مصالحهم قضاة منهم ، وفعلوا مثل ذلك في معظم ما فتحوه من البلاد .

وكان المسلمون يفرضون على من يقبل البقاء على دينه من اهل البلاد المفتوحة ضريبة تسمى الجزية في مقابل حمايتهم وتأمينهم ، وكان الروم قد تعودوا اداء مثل هذا المال للعرب المقيمين في حدود الشام من الغساسنة وغيرهم ، يبتاعون به نصرتهم على الفرس ، كما كان الفرس يؤدون المال الى عرب العراق لينصروهم على الروم .

واما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملاً بنص الآية : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، وكانوا مع ذلك يتعهدون بحماية الذين يدفعون الجزية اي يعتبرونهم في ذمتهم ، ولهذا فقد سموا أهل الذمة . والغالب ان يراد بها حماية اهل البلاد الاصليين من حكامهم الروم لأنهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم .

وترى ذلك واضحاً في كلام عبادة بن الصامت للمقوقس حاكم مصر ولسائر القبط لما دعاهم الى الاسلام فقد قال لهم : « وان ابيتم إلا الجزية فأدوها الينا عن يد وانتم صاغرون . وان نعاملكم على شيء نرضى به نحن وانتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ... الخ ». ومثله كتاب خالد بن الوليد الى ابن نسطونا في العراق ، وغيره من كتب العهود لأهل الذمة وهي كثيرة . ويؤيد ذلك ان المسلمين لما دعوا الى الاجتماع في اليرموك ، وكانت حمص في ذمتهم ، ردوا الى اهلها ما كانوا قد اخذوه منهم من الجزية وقالوا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » ، فقال أهل حمص : « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » وكثيراً ما كانوا يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم ، وأكثر ما يكون ذلك مع العرب النصارى ، ولكنه وقع مع غير العرب كالجراجمة وغيرهم .

فلم يكن استيلاء المسلمين ثقيلاً على الناس ، بل كان الاهالي كثيراً مايفضلونهم على حكامهم الاصليين ، والجزية التي يتكلفون دفعها الى المسلمين اقل كثيراً من مجموع الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الروم او الفرس .

الخلاصة

وجملة القول ان المسلمين لم يجرئهم على الفتح ويساعدهم عليه الا الدين وشدة الاعتقاد بالنصر ، مع ما كان من مهارتهم في الفروسية ورمي النبال ، وقوة ابدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة ، مع المطاولة في الحرب ونبوغ افراد منهم في الرأي والشجاعة ، فضلا عن عدلهم ورفقهم واختلال احوال الروم والفرس . فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا

الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن عمر بن الخطاب ، وتواصل الفتح في ايام عثمان بن عفان ومن بعده .

عود الى الخلفاء الراشدين

الفتنة

وفي زمن عثمان حدثت الفتنة ، ثم استشرى امرهـا بقتله سنة ٣٥ ﻫ فغيرت طور التاريخ الاسلامي . وسببها ان عمر لما طعنه ابو لؤلؤة سنة ٢٣ ﻫ واحس بدنو الاجل اهمه امر المسلمين بعده ، فعمد الى طريقة لانتخـاب من يتولاهم بعده بالاكثرية ، فسمى نفراً من الصحابة فيهم عثمان بن عفان وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وعلي ابن ابي طالب واوصاهم ان يجتمعوا في بيت عائشة زوج النبي ويختاروا واحداً منهم يتولى الخلافة بعده ، فاختاروا عثمان بن عفان وهو من بني امية واكبرهم سناً .

وكان بنو امية اوفر بطون قريش عدداً وقوة ، لكن اكثرهم لم يدخلوا في الاسلام الا بعد فتح مكة وبعد ان اسلم ابو سفيان زعيمهم ، فلم يكن لهم جـهاد في الغزوات التي قامت عليها دعائم الدولة الإسلامية . فلما تولى ابو بكر لم يولهم الاعمال ، الا قليلاً منهم ، وربما كان السبب في ذلك انه لم يكن يثق بصدق اسلامهم لحداثة عهدهم فيه ، او لانهم اسلموا مضطرين ، فطالبوه بزيادة نصيبهم في الولايات فقال لهم : « ادركوا اخوانكم في الجهاد » . وانفذهم لحروب الردة ، ثم بعثهم عمر لحروب الشام ، وهم مع ذلك يرون انهم اولى بطون قريش بالسلطة ، لانهم اعز من بني هاشم جانباً واكثر عدداً ، وكانت القيادة في الحروب قبل الاسلام اليهم كما رأيت في كلامنا عن مناصب الجاهلية ، وزاد نفوذهم بعد موت ابي طالب عم النبي . وكانت بين الهاشميين والامويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية .

فلما تولى عثمان بن عفان اعتزوا به ، وكان رجلاً صالحاً لكنه كان يؤثر اقرباءه فجعل يوليهم الاعمال في الامصار ويعهد اليهم بمصالح الدولة ، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الاعمال اليهم من قبل . وحدثت اسباب اخرى يطول شرحها آلت الى نقمة اهل الامصار على عثمان ، فجاءوا الى المدينة وفيهم اهل مصر والكوفة واهل البصرة وطلبوا اليه ان يخلع نفسه ، فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطخ قميصه بالدم .

علي وطلحة والزبير

فلما قتل عثمان اختلفوا في من يخلفه من كبار الصحابة ، وكان غرض اهل مصر في علي بن ابي طالب ، وغرض اهل البصرة في طلحة بن عبيد الله ، وغرض اهل الكوفة في الزبير بن العوام – وهم اكثر الصحابة تطلعا الى الخلافة – وكان اكثر مسلمي الشام مع بني امية ، وهم يريدونها لعثمان او من يخلفه منهم . واما اهل المدينة فكانوا يريدونها لعلي ابن ابي طالب ، جرياً على عادتهم في نصرة بيت النبي منذ هاجر النبي اليهم . وانضم الى اهل المدينة في نصرة علي ربيعة واليمن وغيرهما . فكان دعاة علي اكثر عدداً من سائر الاحزاب ، لكنهم كانوا لفيفاً من قبائل شتى واكثرهم من المدينة . وبين اهل مكة والمدينة منافسة قديمة تمكنت بعد الإسلام ، لما رأيته من نصرة اهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة ، حتى تأيد امرهم بهم وعادوا ففتحوا مكة . وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحولت اليها التجارة والنفوذ وضعف امر مكة . فلما بايع اهل المدينة عليا بايعه طلحة والزبير مكرهين ، وخرجا الى مكة فنصرهما اهلها نكاية في اهل المدينة . ثم شخصا الى العراق للاعتزاز بأحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده . فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة ، فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي . فنقل عاصمة المسلمين من المدينة الى الكوفة ، وقد اخطأ في تخليه عن احزابه بالمدينة واعتماده على اهل العراق .

علي ومعاوية

وظن علي ان الجو قد خلا له ، وما درى ان في الشام رجلاً عظيماً يطلب البيعة لنفسه – نعني معاوية بن ابي سفيان – وقد رأيت أن ابا سفيان واولاده لم يدخلوا في الإسلام الا بعد ان يئسوا من الفوز ، فلما قتل عثمان كان معاوية بالشام وحوله نخبة الرجال من قريش ، وكلهم يستهلكون في سبيل نصرته لما ذكرناه من كثرة بني امية وقوتهم ايام الجاهلية . وقد شق عليهم في اول الاسلام ان تكون النبوة في بني هاشم فنقموا عليهم . ولما خرج بنو هاشم من مكة بالهجرة خلا الجو في مكة لبني امية ، وصارت الرياسة اليهم في اثناء محاربتهم المسلمين في وقائعهم المشهورة في بدر وغيرها ، ورئيسهم في كل ذلك ابو سفيان والد معاوية . ولما تولى ابو بكر وارسلهم للجهاد تولى ولاية الشام منهم يزيد بن ابي سفيان ، ثم مات فخلفه اخوه معاوية في زمن عمر ، فلما تولى عثمان اقره عليها ومعظم جنده من

قريش . فاتصلت رياسة بني امية — وخصوصاً بيت ابي سفيان — على قريش في الاسلام كما كانت قبله ، واستقل بنو هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا .

التحكيم

فلما قتل عثمان رأى معاوية سبيلا لالتماس الخلافة ، فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم في مسجد دمشق ودعا الناس للمطالبة بثأره لأنه من رهطه ، واتهم علياً وأصحابه بقتله . ثم رأى الحرب منتشبة في العراق بين علي وطلحة والزبير ، فظن هذين يكفيانه مؤونة الحرب . فلما قتلا وفاز علي عمد معاوية للمطالبة بدم عثمان ، واستنجد رجالاً من دهاة العرب فيهم عمرو بن العاص ، وكان عثمان قد عزله عن مصر ، فاستدناه معاوية ووعده بولايه مصر اذا هو فاز . فحارب معه في واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ هـ وكادت رجال علي تظفر بمعاوية واصحابه فيها ، فاستنبط ابن العاص حيلة اخرجت الخلافة من اهل البيت الى بني امية .

وذلك انه امر رجال معاوية برفع المصاحف على اسنة الرماح اشارة الى طلب الهدنة للمخابرة ، فانخدع اصحاب علي بذلك فألحوا عليه ان يوقف القتال ففعل . وبعد المخابرة توافقوا على التحكيم ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار اصحاب علي ابا موسى الاشعري : وشتان بين الرجلين في الدهاء والذكاء . ورضي الفريقان بما يحكم به هذان وعينوا يوماً لسماع الحكم ، فاحتال عمرو على ابي موسى حيلة غلب بها على عقله . اظهر انه يريد خلع علي ومعاوية معاً ليختار المسلمون واحداً سواهما . فقبل ابو موسى ذلك . لكن عمرواً طلب اليه ان يتكلم قبله لأنه ارفع منه منزلة واكبر سناً . فانخدع ابو موسى فوقف وقال : « أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لأمرها ولا الم لشعثها من أمر اجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا . وإني قد خلعت علياً فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه اهلا » .

ثم وقف عمرو وقال : « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وانا اخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية ، فانه ولي عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فلما سمع الناس ذلك أيقنوا انها حيلة قد عملت ، ولو انها آلت الى خلافة معاوية فقط لهان أمرها ، ولكنها اوجبت انقسام رجال علي عليه ، لأن بعضهم لاموه على قبول

التحكيم وخرجوا من حكمه وهم الخوارج . فأصبح علي بين عدوين ، والخوارج اشدهما خطراً عليه لأنه قتل بطعنة من أحدهم في السنة ٤٠ للهجرة في مسجد الكوفة .

فبايع اهل الكوفة ابنه الحسن ، ومعاوية لا يزال يطالب بالخلافة لنفسه فرأى الحسن انه لا يقوى على حربه فتنازل له عنها حقناً للدماء . فبويع معاوية في الشام وانتقل كرسي الخلافة من الكوفة الى دمشق ، وكان ذلك آخر العهد بدولة الخلفاء الراشدين .

احوال الخلفاء الراشدين

نرى مما تقدم ان دولة الخلفاء تأسست على التقوى وشيدت بالعدل ، وكان خلفاؤها في أبسط احوال العيش . وكانت الخلافة على عهدهم أشبه بالرتب الدينية منها بمصالح الدولة ، وكان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ (الكرباس القطن الأبيض) وفي رجليه نعلان من ليف ، وحمائل سيفه ليف ، ويمشي في الأسواق كبعض الرعية . وإذا كلم أدنى الناس سمع منه اغلظ من كلامه ، وكانوا يعدون ذلك من قبيل الدين ويحكمون الناس بالتقوى والعدل والقدوة الحسنة .

كان طعامهم أدنى من أطعمة فقرائهم ، وهم لم يتقللوا منه لفقر او عجز ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مؤاساة للفقراء من رعيتهم ، فقد كان لعلي بن أبي طالب ارتفاع طائل من املاكه يخرجه جميعه على الفقراء .

ولم يكونوا يعبأون بالمال ، وكان ذلك شأن سائر الصحابة في أيامهم . ولعل السبب في ذلك قربهم من عهد النبوة ولا تزال رهبتها آخذة بمجامع قلوبهم ، فلما بعد عهدها زالت تلك الرهبة من قلوبهم فعكفوا على مطالب الدنيا . ويظهر ان ذلك بدأ فيهم في أواخر عهد الراشدين ، فقد ذكر المسعودي انه « في ايام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور . فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار ، وخلف ابلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ،وخلف الف فرس والف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ،ومن ناحية السراة اكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم ،

وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين الفاً . وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة الف دينار . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناهـــا بالجص والآجر والساج . وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها واوسع فضاءها وجعل على اعلاها شرافات . وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى بن منبه خمسين الف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة الف درهم » .

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية ، حتى وطئت خيل العرب ما بين افريقية في الغرب الى اقاصي خراسان في الشرق وعبرت النهر الى سمرقند .



دولة بني أُميّة

بينا في اواخر كلامنا عن الخلفاء الراشدين كيف انتقلت الخلافة الى بني امية واولهم معاوية ابن ابي سفيان . وتمتاز الخلافة في عهد بني امية بانها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة ، ويستدني الناس بالارهاب ويؤيد سلطانه ببذل الاموال . والسبب في ذلك ان مؤسس هذه الدولة لم يستطع تأييدها لولا ما في الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة ، فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ببذل الامـوال ، وكان يبذلها خصوصاً لبني هاشم تخفيفاً لما في أنفسهم من النقمة عليه لانتزاعه الخلافة من أيديهم . وكان اذا وفد احدهم عليه بالغ في إكرامه وارضائه وقضاء حوائجه ، وكثيراً ما كانوا وهم في حضرتـه يذكرون حقهم بالخلافة ويعرضون باغتصابه إياها ، وهو يغضي عن ذلك ويقطع السنتهم بالمال والحلم مما هو مأثور عنه .

واقتبس معاوية من الروم أسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في ابهة الملك ، فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه اذا مشى او قام للصلاة ، وبنى لنفسه قصراً نصب فيـه السرير وأوقف الحاجب ببابه ، وبنى مقصورة في المسجد اذا جاء للصلاة صلى فيهـا . ولعله اتخذ هذه الوسائل خوفاً من أن يغتاله أحد كما اغتالوا علياً وكادوا يغتالونه هو . وقلد الروم في لبس الخز والديباج ، وهو الذي وضع البريد على مثال ما كان عند الفرس والروم وأنشأ ديوان الخاتم ، مما سيأتي تفصيله .

ومما استحدثه معاوية في الاسلام انه جعل الخلافة وراثية في نسله ، بعـد ان كانت انتخابية . وهو أول من استطاع ذلك من المسلمين فبايـع لابنه يزيد وحمل الناس على بيعته بولاية العهد ، ولا عبرة في بيعة الحسن بعد أبيه علي ، فـإن الناس بايعوه من عند انفسهم ولم يوص له ابوه بالخلافة .

الخلافة وبنو أمية

ولا بد من النظر في الأسباب التي اعانت معاوية على اخراج الخلافة من أهل البيت وحصرها في قبيلته . وكان هو وكل الذين بايعوه يعتقدون ان أهل البيت احق بها منه ، والأسباب عديدة ذكرنا بعضها في ما تقدم . ومنها أيضاً ان معاوية استخدم في شد ازره رجالاً هم أشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالأطماع ، منهم عمرو بن العاص فقد أطمعه بمصر فساعد على مبايعته كما قد رأيت ، ومنهم زياد بن ابيه وهو رجل لا يعرف ابوه ولكنه ذو دهاء وسياسة فانتحل معاوية حكاية استلحقه بها بنسبه وزعم انه اخوه من أبيه أبي سفيان وسماه زياد بن أبي سفيان، فكان زياد هذا من أكبر اعوان معاوية وله فضل كبير في تأييد هذه الدولة في العراق وغيره ، وابنه عبيد الله بن زياد هو الذي قتل الحسين بن علي قتلته المشهورة على يده ، وما زال آل زياد يعدون من قريش حتى رد نسبهم الخليفة المهدي (سنة ١٩٥ ﻫ) الى رجل اسمه عبيد الرومي من ثقيف . وممن استخدمهم معاوية في تأييد خلافته المغيرة بن شعبة ، وهو الذي شجعه على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة وحصر الخلافة في نسله وساعده أيضاً في استدناء زياد بن أبيه .

والمؤرخون يعدون هؤلاء الأربعة اعظم دهاة العرب ، ومن ذلك قول أحدهم : « ما رأيت أثقل حلماً ولا اطول اناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سراً بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج من ابوابها كلها » .

ومما ساعد معاوية على الفوز أن علياً لم يكن يرى الاحتيال في الملك ولا يعرف الدهاء في السياسة . يدلك على ذلك ما فرط منه من هذا القبيل لما بويع بعد مقتل عثمان ، فجاء المغيرة يومئذ وأشار عليه باستبقاء معاوية وسائر العمال، كما كانوا في زمن عثمان حتى يستتب له الأمر وتجتمع على بيعته القلوب وتتفق الكلمة ، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء وهو رأي رجل حازم . فعده علي من قبيل المداهنة في الدين فلم يعمل به . ونصحه أيضاً مثل هذه النصيحة ابن عمه عبدالله بن عباس فأبى ، فقال له ابن عباس : « يا امير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب ، أما سمعت رسول الله (ص) يقول : الحرب خدعة ؟ » فلم يقتنع[١] .. أما المغيرة فلما رأى ضياع نصيحته معه عمد الى مسايرته وعاد اليه في

١ – ابن الاثير ٩٧ ج ٢

الغداة وحسن له ما رآه ، ولو عمل برأي المغيرة وابن عباس لما نقم هؤلاء عليه ولا خرج المغيرة ولا غيره من احزابه ولا كانت واقعة الجمل ، وربما لم يصل الأمر الى بني أمية .

بذل المال

وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بني أميـة في تأييد سلطانهم ، نعني به « المال » . فقد كانوا يصطنعون به الاحزاب ويستدنون به الأعداء ، فيبذلونـه للشعراء والوافدين ، ففازوا به على علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده ، على حين ان هؤلاء كانوا يعدون استخدام المال في هذا السبيل رذيلة يجلون أنفسهم عنها ، ويعتقدون ان الحق وحده يكفي لتأييد دعوتهم . وقد صح زعمهم في أوائـل الاسلام والناس في دهشة النبوة قبل ان تغلب عليهم أهواؤهم ، فلا نظن أهل الكوفة نكثوا بيعة الحسين إلا بالمال . حتى آل الأمر الى قتله فكأنهم قتلوه بالمال . وهم لم يقتلوا عبدالله بن الزبير إلا بالمال. ولو بذل عبدالله هذا المال مثلهم لكانت الخلافـة في نسله لا في بني أميـة ،ولكنه استنكف ان يعطي الناس من اموال الكعبة فأضر بنفسه ، وقد صرح بذلـك خصمه عبدالملك فقال وهو على فراش الموت : « ما أعلم احداً اقوى على هـذا الأمر (الخلافة) مني . ان ابن الزبير طويل الصلاة كثير الصيام لكنه لبخله لا يصلح للسياسة » .

وكان أخوه مصعب بن الزبير مع ذلك ينفق الأموال الطائلة على نفسه وأهله ، حتى انه بذل مليون درهم في زواج سكينة بنت الحسين . وكان الجند في ضيق يطلبون مـالاً ولا يعطى لهم . فكتب عبدالله بن همام الى عبدالله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنـين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألـف الف كامل ... وتبيت سادات الجنود جياعا
ولو لأبي حفص أقول مقالتي ... وأبث ما ابثثتكم لارتاعـا

وقد كان عبدالملك من أكثر بني أمية بذلاً للمال في سبيل تأييد سلطانه ، فان عامله الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة وفيها ابن الزبير أمر رجاله ان يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا ، فجاء بكرسي وجلس عليه وقال : « يا أهل الشام ، قاتـلوا على أعطيات عبدالملك » ففعلوا .

وكثيراً ما كان عبدالملك يرد أذى الأحزاب عنه بالمال ، ينثره على الناس فيشتغلون به عنه ، ومن ذلك ما فعله مع رجال عمرو بن سعيد بن الأشدق لما طمع بالشام دونـه

وخاف عبدالملك على نفسه فأمنه ، واحتال في استحضاره الى ديوانه وقتله غـــدراً ، ثم علم أصحابه بمقتله فتجمهروا حول المجلس ، وخاف عبد الملك العاقبة فأمر رجلاً ان يرمي رأس عمرو الى الناس ، واخذ ابنه عبد العزيز المال في البدر وجعل يلقيها اليهم ، فلما رأى الناس الرأس والأموال اشتغلوا بالأموال وتفرقوا .

وكان للمال تأثير اعظم من ذلك في ايام العباسيين ، فان سلطانهم كان يقوى او يضعف بنسبة ما يبذله الخليفة من الامــوال للجند ، وخصوصاً لما استبد الاتراك في امور الدولة فكانوا يبيعون نصرتهم بالمـــال ، وكانوا اذا تولى الخليفة طالبوه بحق البيعة وقد يفرضون عليه رزق سنة او غير سنة .

الدهاء والحزم

ومن الاسباب التي ايدت سلطان بني امية انهم كانوا يعولون في تأييده على الدهـــاء والسياسة والحزم ، ولو كان فيها خرق لحرمة الدين او اهانة لاهله ، فانهم قتلوا ابن بنت النبي ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، ولعنوا ابن عم النبي وصهره على المنابر ، وقتلوا من لم يلعنه . وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر .

خلفاء بني امية

قلنا ان معاوية جعل الخلافة وراثية في نسله ، لكنها لم تتعد اولاده ولم يخلفه منهم الا يزيد الذي بويع بولاية العهد في حياته . ولم يحكم الا بضع سنين ارتكب في اثنائها اموراً كباراً في جملتها مقتل الحسين بن علي . ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة . وكان له ابن اسمه معاوية (الثاني) ولوه وهو لا يرى الخلافة حقاً لهم . ومات بعد قليل ، فبايع بنو امية شيخاً اموياً من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، تولى الخلافة بضعة اشهر ومات ثم انحصرت الخلافة في نسله وكل خلفاء بني امية من ولده اشهرهم عبد الملك بن مروان المتقدم ذكره تولاها من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ .

عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

ولعبد الملك ذكر حسن في تاريخ التمدن الاسلامي ، لانه عمم اللغة العربية في دواوين الممالك الاسلامية ، وكانت لا تزال الى ايامه تكتب بلغـــات اهلها ويتولاها اناس من

الوطنيين : فالديوان المصري كان يكتب بالقبطية ويتولى اعماله جماعة من قبط مصر ، والشامي يكتب باليونانية وامـوره بأيدي اناس من نصارى الشام ، والعراق بالفارسية . ويكتبه بعض اهل العراق . فأمر عبد الملك ان تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها الى المسلمين ، ولا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم في تأييد الدولة الاسلامية ، لانه جعل اللسان العربي لساناً عاماً في سائر انحاء المملكة ، فأصبح اهلها بتوالي الاجيال وقد نسوا جنسياتهم وصاروا يعدون انفسهم عرباً ، وساعد على ذلك ان العربية هي لغة الدين ايضاً (١) .

ومن اعمال عبد الملك انه ضرب النقود الذهبية بالعربية ، ونقل الطراز من الرومية الى العربية ، وسيأتي تفصيل ذلك . وكان عامـل عبد الملك على العراق الحجاج بن يوسف المشهور بدهائه وغلظته ، وكان نصيراً له على تأييد دولته فحارب عبد الله بن الزبـير ، وكان هذا يدعو الناس الى بيعته دون بني امية فحاصره الحجاج في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ، ثم قتله واستخلص الخلافة لعبد الملك .

قال ابن الاثير : « وهو (عبد الملك) اول من غدر في الاسلام ، واول من نهى عن الامر بالمعروف ، فانه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير : ولا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه » (٢) .

ومنهم الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٦ — ٩٦) وفي ايامه فتحت الاندلس وامتدت فتوحاته من جهة تركستان وبعض جزائر البحر المتوسط ، واتسعت حال بني امية في بناء القصور واتخاذ المصانع والضياع .

عمر بن عبد العزيز

ومن اشهر خلفاء بني امية عمر بن عبد العزيز بن مروان (حكم سنة ٩٩ — ١٠١ ﻫ) وكان اقربهم جميعاً الى سيرة الخلفاء الراشدين، ولعله كان كذلك لقرابته من عمر بن الخطاب لانه ابن حفيدته ، فلما تولى الخلافة جعل جده عمر قدوته بالزهد والعدل . وكان بنو امية منذ جاهروا بطلب الخلافة فرضوا لعن علي على المنبر فرأى عمر ان ذلك لا يوافق روح

---

١ — ابن خلدون ٢٠٣ ج ١ والمقريزي ٩٨ ج ١ .

٢ — ابن الاثير ٢٥١ ج ٤ والفخري ١١٠ .

الاسلام فأمر بابطاله [١] فلم تقع اعماله هذه موقعاً حسناً لدى بني امية ، وخصوصاً لانه منعهم من اقتناء الاملاك ، وكان عمر بن الخطاب قد نهاهم عن ذلك فلم يسمعوا فأعاده هو ، فخافوا اذا طال حكمه ان يخرج الخلافة منهم فعجلوا به .

يزيد بن عبد الملك

وخلفه ابن عمه يزيد بن عبد الملك ، وكان من اهل اللهو والطرب فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة ، وتسلطت حبابة على عقله وقلبه فأصبحت المملكة طوع ارادتهما ، تولي من شاءت وتعزل من شاءت ، وهو لا يعرف من امور الدنيا شيئاً ، فلامه اخوه مسلمة وقال له : « توليت هذا الامر بعد عمر بن عبد العزيز وعدله ، فتشاغلت بهذه الجارية عن النظر في الامور ، والوفود واصحاب الظلامات يصيحون وانت غافل عنهم » فتأثر لقوله وقال: « صدقت » وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة اياماً ، فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها : « ان خرج امير المؤمنين للصلاة فاعلميني » فلما اراد الخروج اعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت :

الا لا تلمه اليوم ان يتبلدا　　　فقد غلب المحزون ان يتجلدا

فغطى يزيد وجهه وقال : « مه . لا تفعلي ! » . ثم غنت :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي　　　وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك ان عدل اليها . قال : « صدقت والله .. قبح الله من لامني فيك ! . ياغلام ، مر مسلمة ان يصلي بالناس » . واقام معها يشرب وتغنيه وعاد الى ما كان عليه [٢] .

وما زال يزيد في ذلك حتى مات بعد موتها حزناً عليها . وخبر موتها انه نزل ببيت رأس بالشام ومعه حبابة وقال في نفسه : « زعموا انه لا تصفو عيشة لاحد يوماً الى الليل الا كدرها شيء عليه ، وسأجرب ذلك » . ثم قال لمن معه : « اذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب » ، وخلا هو وحبابة واتيا بما يأكلان ويشربان ، فأكلت حبابة رمانة فشرقت بحبة منها فماتت !

---

١ – ابن الاثير ٢٠ ج ٥ وابو الفداء ٢١٢ ج ١ والمسعودي ١٢٠ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ٥٧ ج وابو الفداء ٢١٤ ج والمسعودي ١٢٥ ج ٢ .

فأقام يزيد ثلاثة ايام لا يدفنها حتى تغيرت وانتنت ، وهو يشمها ويرشفها ، ولم يتركها حتى عابه اهله وعاتبوه فأذن بدفنها . ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوماً ثم مات ودفن بجوارها سنة ١٠٥ هـ .

هشام وبقية خلفاء بني امية

وتولى الخلافة بعده اخوه هشام (من سنة ١٠٥ – ١٢٥ هـ) وكان غزير العقل لكنه كان بخيلاً . والبخل مضر في دولة تأسست بالكرم .

وخلفه الوليد بن يزيد ، وكان قبل الخلافة منهمكاً في اللهو والشراب والغناء مثل ابيه وله اشعار في ذلك . فلما افضت الخلافة اليه زاد انهماكاً في اللذات واستهتاراً بالمعاصي ، وزاد على ذلك انه اغضب اهله واساء اليهم فهجموا عليه مع اعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك .

وكان يزيد هذا عاقداً النية على اصلاح الاحـــوال ، ولكن الامر كان قد استفحل وبدأت الدعوة العباسية واضطرب حبل بني اميه .

وفي ايام خلفه مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من ايديهم سنة ١٣٢ هـ رغم ما كان عليه مروان هذا من الرغبة في استبقائها والهمة في سبيل الدفاع عنها ، لكنه جاء متأخراً وقد قضي عليها بالزوال .

بنو العبّاس

الدعوة العباسية

قلنا في عرض كلامنا عن خلافة أبي بكر ان المسلمين لم يشاءوا أن يجمعوا في بني هاشم النبوة والخلافة فبايعوا غيرهم من قريش . وأما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولاً عن الحق وانهم اولى الناس بـذلك الامر وجعلوا يسعون في سبيله . والهاشميون المطالبون بالخلافة أصناف : منهم العلويون من اعقاب علي بن أبي طالب ، وهم فئتان : احداهما تدعو لنسل فاطمة الزهراء ، والأخرى تدعو لمحمد بن الحنفية (ابن علي من غير فاطمة). ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبي . وكان كل من هـؤلاء يدعو الناس الى نفسه فيبايعونـه سراً ويظل صاحب الدعوة مستتراً لا يظهر . فلما ظهر ضعف بني أميـة واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم ، وخصوصاً لأنهم لم يخضعوا للأمويين إلا طمعاً او خوفاً وأكثرهم يعتقدون ان بني هاشم اولى بالخلافة منهم .

ووفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسي من أهل خراسان ذي بطش وبسالة اسمه ابو مسلم الخراساني ، فأنفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان لبعدها عن مركز الخلافـة الأموية فوفق الى ذلك توفيقاً عجيباً ، فحارب وجاهد حتى ادنى الخلافة من بني العباس وسلم أزمتها الى ابي العباس السفاح اول خلفائهم سنة ١٣٢ هـ . ولأبي مسلم فضل في تأسيس الدولة العباسية أعظم من فضل عمرو بن العاص في خلافة معاوية ، لأن عمروانصر معاوية برأيه وأما ابو مسلم فأنه نصر العباسيين بسيفه وقومه .

الدولة العباسية

مهما قيل في دولة بني أمية فهي تمتاز عن دولة العباسيين بأنها عربية حقيقية ، لأن عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عرباً ، الا بعض الكتبة والأطباء ونحوهم . وأمـا

بنو العباس فقــد غلب في العصر الأول من دولتهم العنصر الفارسي لأن الفرس هم الذين سلموا اليهم مقاليد الأحكام كما رأيت فاتخذوا منهم الوزراء ، وهم اول من اتخذ الوزراء ، اقتبسوا هذا المنصب من الفرس كما سيأتي .

أول خلفائهم ابو العباس السفاح ، وكان له عدة اخوة واعمام استخدمهم في تأييــد سلطانه . وكان مقر السفاح في الانبار على الفرات غربي بغداد ، وما زال فيها حتى مات ولم يحكم إلا بضع سنين .

المنصور وخلفاؤه

فخلفه أخوه ابو جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٧ ﻫ وهو من أعظم رجال الاسلام دهـاء وسياسة وشجاعة ، بنى مدينة قرب الكوفة سماها الهاشمية ثم اتفق له فيها حرب مــع جماعة يقال لهم الراوندية فكرهها لذلك ولقربها من الكوفة ، وكان يخاف اهل الكوفـة لأنهم قتلوا علياً والحسين ، فخرج منها وبنى مدينة بغداد وهي اشهر عواصم المسلمين ، ثم رأى ان بقاء أبي مسلم يجعل مركزه في خطر لأنه اقدر الناس على اخراج الملك من ايدي العباسيين كما سلمه اليهم فقتله غيلة . وعذره في ذلك انه كان عقبة في سبيله فأزالهـا ، كما فعل محمد علي بالأمراء المماليك وكما فعل السلطان محمود الثاني بالأنكشارية بعد ذلك باحـد عشر قرناً . وأيام المنصور كلها حروب وفتوح .

وخلفه ابنه محمد الهادي فهارون الرشيد ثم ابنا الرشيد الأمــين فالمأمون ، وفي ايام الرشيد والمأمون بلغت الدولة أوج مجدها ومعظم سلطانها ، وزهت فيها العلوم والمعارف وترجمت الكتب وتفجرت ينابيع الثروة مما سنأتي على تفصيله في اماكنه.

قتل المنصور ابا مسلم الخراساني خوفاً من طمعه في السلطة وهــو فارسي ، لكنه استخدم في بلاطه رجالاً من الفرس ، وفعل خلفــاؤه مثله وقدموهم في مناصب الدولة ومنها الوزارة وهي ارفع هذه المناصب عندهم ، فآل ذلك الى استفحال امرهم في ايام الرشيد وزاد سلطان البرامكة ، فلما رآهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور .

المعتصم والاتراك

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨ ﻫ فأكثر من استخدام الاتراك ، وكان صبيان

الأتراك يحملون الى بلاط الخلفاء في أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الأمصار في تركستان ، وكان الخلفاء ينتقون أحسنهم خلقاً واقواهم بنية لاستخدامهم في قصورهم وكانوا يسمونهم المماليك ، وكانوا يدخلون في الاسلام ويتعلمون ويتثقفون فظهرت مواهبهم فولاهم الخلفاء كثيراً من مناصب الدولة ، وأخذوا يرتقون بحسب اقتدارهم حتى وصلوا الى أعلى مناصب الامارة والجند ، فأصبحت مقاليد السلطة تتنازعها قوتان متوازنتان الترك والفرس وسنعود الى تفصيل ذلك .

واصطنع المعتصم قوماً من أهل الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) واستخدمهم في جنده وسماهم المغاربة ، وجمع خلقاً من سمرقند واشروسنة وفرغانة سماهم الفراغنة فكانوا من أصحابه وحاشيته ، فضلاً عما كان عنده من الجند العربي ، واصطنع غيره بعده اناساً آخرين من امم اخرى فتعددت العناصر وكثرت الأيدي الأجنبية المتعارضة ، فآل ذلك إلى ضعف الخلفاء واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم .

تفرع الدولة العباسية

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى اقتصرت على السواد بين الفرات ودجلة ، ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضي بالله (٩٣٤/٣٢٢ — ٩٤٠/٣٢٩) .

الولايات	حكامها
البصرة	في يد محمد ابن رائق بالاضافة الى امرة الامراء
خوزستان ، الاهواز	« أبي عبدالله البريدي
فارس	« عماد الدين ابي الحسن علي بن بويه
كرمان	« أبي علي محمد بن الياس
الري واصفهان والجبل	« ركن الدولة ابو علي حسن به بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	« بني حمدان
مصر والشام	« محمد بن طغج الأخشيد
خراسان وما وراء النهر	« السامانية
طبرستان وجرجان	« الديلم
البحرين واليمامة	« القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الأمر استفحالاً ان الخدم والأجناد أصبحوا مطلقي الأيدي في قصور الخلفاء، يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء اصناف الأهانة وانواع العذاب ، كما فعل جند المغاربة والاتراك في المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لأنه قصر في عطائهم ، فإنهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس ، فكان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدة الحر ، وبقي بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وادخلوه حجرة واحضروا ابن ابي الشوارب القاضي وجماعة فأشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سرداباً وجصصوه عليه فمات[١] ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للأتراك ولا لغيرهم من عرب قريش ان ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس .

فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقي من اهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم. وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعاً نيفاً وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق أولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون في مصر .

١ – ابن الاثير ج ٧ ، ص ٦٨ – ٦٩ (وابن طباطبا : الفخري ، ص ٢٢٠ – ٢٢١) .

الدّولة الأمويّة في الأندلس

اول من دخل بلاد الاندلس من المسلمين طريف بن زرعة ثم اعقبه طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ في عهد الدولة الاموية بالشام ، فافتتحاها وتولاها الامراء باسم الخلفاء الامويين . فلما افضت الخلافة الى بني العباس واعمل ابو العباس السفاح السيف في بني امية قتلهم جميعاً الا نفراً قليلاً منهم فيهم شاب اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبدالملك نجا وفر الى بلاد المغرب واجتاز البحر الى الاندلس . وكان عليها امير اسمه عبد الرحمن بن يوسف الفهري ، فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمناً قصيراً [1] ثم قطع الدعوة عن العباسيين ودعا لنفسه سنة ١٣٨ هـ واقام في قرطبة عاصمة الاندلس في ذلك الحين . وخلفه حكام من بيته كانوا يلقبون انفسهم بالامراء الى آخر القرن الثالث . حتى صار الامر الى عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فسمى نفسه خليفة سنة ٣١٧ هـ وهو اعظم خلفاء بني امية في الاندلس : حارب الافرنج مراراً وردهم على اعقابهم ، فلما مات خلفه بضعة عشر خليفة ليس فيهم من يعدل به .

حكم الناصر خمسين سنة تعد العصر الذهبي للسلطان السياسي للاسلام في الاندلس ، وقد ساد عبد الرحمن شبه الجزيرة الايبيرية كله ودانت له بالطاعة الممالك والامارات التي قامت في شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقي ، ونشر سلطانه على شمالي مراكش الحالية وراسله اباطرة الدولتين البيزنطية والأتونية في المانيا .

وخلفه في الحكم المستنصر ، وهو اعلم خلفاء بني امية الاندلسيين : عنى بالعلوم والآداب ، وانشأ مكتبة القصر التي تعد اعظم مكتبة عامة انشئت في العصور الوسطى .

وبعد حكم المستنصر صار الامر الى ابنه هشام الثاني الملقب بالمؤيد ، وكان شاباً ضعيفاً خامل الذهن محدود الذكاء ، فسيطر عليه الحاجب ابو محمد بن ابي عامر الملقب

---

١ — ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ .

بالمنصور واصبـــح صاحب السلطان الاعلى في البلاد ، ويعتبر المنصور من اعظم السياسيين ورجال الحكم الذين انجبهم الاسلام في شتى عصوره ، وقد ارتقى من صفوف الشعب الى اعلى المناصب بالذكاء وسعة الحيلة وبعد النظر والمثابرة على العمل ، وجمع زمام الامور كلها في يده وحرص ان يواصل نشاط الحملات على الممالك والامارات الاسبانية الشمالية حتى كاد يقضي عليها . وقد تمتع الاندلس في عهده برخاء لم يعهده في اي عهد مضى .

وعندما مات خلفه ابنه عبد الملك المعروف بالمظفر ، فسار على سيرة ابيه دون ان تكون له كفايته ، ولكنه استطاع ان يحتفظ بما خلفه له ابوه سبع سنوات ، وعاجلتــه المنية سنة ١٠٠٨ فخلفه اخوه عبد الرحمن ولقب نفسه المأمون ، وكان شاباً مضطرب العقل مستغرقاً في هواه ، لم يكتف بأن يحكم باسم الخليفة هشام المؤيد ، واراد ان يجعل نفسه ولياً للعهد ، فبدأت سحب الثورة تتجمع في سماء الاندلس ، ثم انفجرت دفعة واحدة فأطاحت بملك بني عامر ،وبدأت الفتنة العامة التي تسمى في تاريخ الأندلس بالفتنة الكبرى .



ابو عبدالله آخر ملوك الاندلس
كما صوره الاسبان

بدأت هذه الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس من اوائل القرن الخـــامس الهجري ، فانقسمت الاندلس الى امارات يتولاها رؤساء او امراء اشهرهم بنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء (٤٠٨/١٠١٧ – ٤٤٩/١٠٥٧) وبنو عباد في اشبيلية (٤١٤/١٠٢٣ – ٤٨٤/١٠٩١) وبنو زيري في غرناطة (٤٠٣/١٠١٢ – ٤٨٣/١٠٩٠) وبنو جهور في قرطبة (٤٢٢/١٠٣٠ – ٤٦١/١٠٦٨) وبنو ذي النون في طليطلة (٤٢٧/١٠٣٥ – ٤٧٨/١٠٨٥) والصقالبـــة العامريون في بلنسية (٤١٢/١٠٢١ – ٤٧٨/١٠٨٥) وبنو هود في سرقسطة (٤١٠/١٠١٩ – ٥٣٦/١١٤١) وبنو مجاهد العامريون في دانية (٤٠٨/١٠١٧ – ٤٦٨/١٠٧٥) ، ويعرف

هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف. وتنازعوا وتغالبوا فيما بينهم وحاربهم الافرنج لأنهم طمعوا فيهم على اثر ذلك الانقسام .

وضاق بنو عباد ذرعاً في حرب الفونس السادس ملك ليون ، فاستنجدوا ملك المرابطين من المغرب ، فأقبلوا بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وانضم اليهم عدد كبير من ملوك الطوائف وجنودهم وتمكنوا من الانتصار على الفونس السادس في موقعة الزلاقة عام ١٠٨٦/٤٧٨ انتصاراً حاسماً انقذ دولة الاسلام في الاندلس الى حين . ثم عاد يوسف ابن تاشفين الى المغرب حاسباً ان امراء الطوائف سيصلحون من احوالهم ، ولكنه تبين انهم عادوا الى ما كانوا فيه ، فرجع الى الأندلس مرة اخرى واستنزل ملوك الطوائف جميعاً عن عروشهم . عدا بني هود اصحاب سرقسطة ، وجعل ما بقي بيد المسلمين من الأندلس جزءاً من دولة المرابطين . وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١١٤٥/٥٤٠ عندما تغلب الموحدون على المرابطين في المغرب وازالوا ملكهم وحلوا محلهم ، وانشأوا امبراطورية واسعة شملت المغرب الاسلامي كله وما بقي بأيدي المسلمين من البلاد الاندلسية .

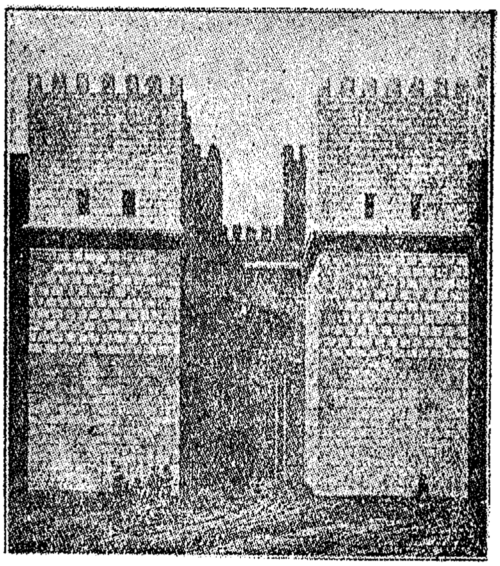
ونشأت في نهاية العصر الموحدي امارات صغيرة في بلنسية ومرسية وغيرهما من قواعد الاندلس ، اهمها في غرناطة الدولة النصرية او دولة بني الاحمر ، نسبة الى مؤسسها ابي عبدالله محمد بن نصر الملقب بابن الاحمر .. وكان اول امره فارساً يعمل في خدمة بني هود اصحاب شرق الاندلس ، ثم ضبط قاعدة ارجونة وحصنها وانتهز فرصة ضعف بني هود فاستقل عنهم ، واخذ يوسع حدود مملكته ، فاستولى على جيان وأطاعته بياسة ووادي آش ومالقة وغرناطة ، ثم نقل مركز دولته الى ذلك البلد الأخير ، واختار ضاحية من ضواحي غرناطة تقوم على تلال حمراء على ضفة نهر حداره احد نهيرات نهر شنيل المتفرع من الوادي الكبير ، وهناك أنشأ حصوناً وقصوراً وزودها بكل ما يلزم المدن ، وتلك هي المعروفة بالحمراء . ونقل الى الحمراء مركز الحكم ، وادار عليها وعلى غرناطة سوراً ، وتكشف عن كفاية ادارية وعسكرية مكنت له من تدعيم اسس الدولة التي انشأها وقدر لها ان تكون آخر معاقل الاسلام في اسبانيا ، واستمرت تقاوم عناصر الفناء المحيطة بها والمتأصلة في كيانها ٢٥٤ سنة ابتدأت من سنة ١٢٣٨ وانتهت في يناير سنة ١٤٩٢ ، وانتهى معها سلطان الاسلام في شبه الجزيرة الايبيرية بعد ان دام ٧٨١ سنة .

وقد زهت الاندلس في ايام بني نصر وظهر فيها الشعراء والأدباء على نحو ما كانت عليه في ايام عبد الرحمن الناصر . لكن الاسبان ما زالوا يهاجمون المسلمين ويناوئونهم وهم يدافعونهم الى اواخر القرن التاسع للهجرة فهاجم غرناطة فرديناند وايزابلا سنة ١٤٩٢/٨٩٧ ففر ملكها ابو عبد الله وهو محمد الحادي عشر من تلك الدولة ، فانقضت بفراره دولة المسلمين في الاندلس .

وللاندلس شأن عظيم في التاريخ الاسلامي ، فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وانشئت فيها المدارس والمكاتب وشيدت الابنية والقصور ، وسنأتي على كل شيء في مواضعه .

الدولة الفاطمية

نشأت هذه الدولة في بلاد المغرب ، وهي تنتسب الى السيدة فاطمة بنت الرسول (صلعم) عن طريق جعفر الصادق . واول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي في اواخر القرن الثالث للهجرة ، ولذلك فهي تسمى ايضاً العبيدية . وقد اعانهم على نيل الخلافة رجل اسمه ابو عبد الله الشيعي نحو ما فعل ابو مسلم مع العباسيين ، فلما استتب لهم الامر قتلوه كما فعل المنصور بأبي مسلم ، وامتد سلطانهم في اواسط القرن الرابع الى مصر على يد القائد جوهر الصقلي ، وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ. وسميت القاهرة المعزية نسبة الى المعز لدين الله اول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين . وتناوبها خلفاؤه بعده حتى اصابهم ما أصاب الدولة العباسية في بغداد من الاستكثار من جند الاتراك والمغاربة والسودان ومن اليهم .



باب النصر من ابواب القاهرة

وقد بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بدءاً طيباً وعرفت في ايام المعز لدين الله (٩٥٢/٣٤١ — ٩٧٥/٣٦٥) والعزيز بالله (٩٧٥/٣٦٥ — ٩٩٦/٣٨٦) والحاكم بأمر الله ٩٩٦/٣٨٦ — ١٠٢٠/٤١١) رخاء عظيماً واستقراراً لم تعرفه منذ سنوات طويلة ، واتسعت

حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة ، بالاضافة الى افريقية (تونس) التي كانت تدين بالولاء للفاطميين . وقد استمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة المستنصر بالله (٤٢٧/١٠٣٥ – ٤٨٧/١٠٩٤) ، ثم توالت عليها الازمـــات والمتاعب بسبب سوء السياسة الاقتصادية التي جرى عليهـا الفاطميون من ناحية ثم اسرافهم في استخدام جند الاتراك والمغاربة والسودان ، وتنازع طوائفهم فيما بينهم ، حتى انتهت البلاد الى حال من الضعف والاضطراب لم تعرفه فيما سلف من عصورها الاسلامية ، واضيفت الى ذلـــك كوارث طبيعية كانخفاض مستوى الفيضان سنين متوالية ، مما ذهب بالرخاء جملة ، فتوالى الغلاء والمجاعات ، وعجز الناس عن دفع الضرائب وازدادت مطالب الجنود وفتك بعضهم ببعض ، مما هوى بالبلاد الى درك سحيق من الفوضى والفقر البالغ .



قلعة القاهرة

واحتاجت الدولة الى من يضبـط الامـر ، فاستعان الخليفة المستنصر ببدر الجمالي والي عكا ، وكان من اصل ارمني ، فأقبـل وتولى الامر ، واظهر كفـاية عظيمة ، وضرب على ايدي الجند ، وساعفته المقـــادير ، فتحسنت حالة الفيضان ، وبـدأت البـلاد تخرج بفضل حزمه وادارته الرشيدة من الهاوية التي تردت فيها .

بيد ان الخلافة الفاطمية اخـذت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، فقد انتقل السلطان بصورة نهائية الى الوزير ومن يستعين بهم في ضبط الامور ، وتعاقب الوزراء على السلطان واتخذوا لقب الوزراء العظام ، واولهم الافضل بن بدر الجمالي وآخرهم صلاح الدين يوسف بن ايوب .

وكان معظم اولئك الوزراء على جانب كبير من المهارة والقدرة ، ولكن اكبر جانب من اهتمامهم كان منصرفاً الى المحافظة على مراكزهم بالاستكثار من الجند المرتزقة ، وارهاق

الاهالي بالضرائب حتى يستطيعوا دفع رواتب الجنود ، ووجد خلفاء الفاطميين بعد المستنصر ان سلطانهم قد تلاشى تماماً ، فمضوا يكيدون للوزراء ويدبرون المؤامرات للقضاء عليهم كما فعل الخليفة الآمر اذ دبر اغتيال الافضل بن بدر الجمالي ، واستعان بنفر من الباطنية على ذلك ، وتم اغتياله عام ٥١٥/١١٢١ وتولى الوزارة بعده كبير المتآمرين المأمون البطائحي ، واستمر النزاع بين الخلفاء والوزراء الى آخر ايام الدولة الفاطمية ، وقد خسر الخلفاء المعركة وفقدوا كل سلطان ابتداء من عهد الخليفة الظافر ٥٤٤/١١٤٩ — ٥٤٩/١١٥٤ ، بل ان احدهم وهو طلائع بن رزيك اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح ، وهو امر له دلالته .

وآخر خلفاء الفاطميين هو العاضد الذي بدأ حكمه باغتيال طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦/١١٦١ واقام مقامه ابا شجاع العادل ، وفي سنة ٥٥٨/١١٦٣ نازعه في الوزارة شاور والي الوجه القبلي وغلبه وقتله وتولى الامر مكانه ، ولم يدم له الامر اذ نافسه فيه ضرغام ، وكان اميراً لفرقة من فرق الجند تسمى البرقية ، وطال النزاع بين الرجلين ، فاستنجد شاور بنور الدين محمود واستنجد ضرغام بعموري ملك بيت المقدس ، وانتهى الامر باستيلاء نور الدين على مصر وتعيينه اسد الدين شيركوه وزيراً ، فلما مات خلفه ابن اخيه صلاح الدين ، فوزر لنور الدين السني وللعاضد الشيعي في وقت واحد ، ولكنه تمكن بحسن سياسته من التخلص من العاضد ، واستخلاص مصر لنفسه بعد موت نور الدين المبكر ، وقد مات العاضد في سنة ٥٦٧/١١٧١ وبذلك انتهت الدولة الفاطمية وبدأت الدولة الايوبية .

وتعتبر الدولة الايوبية من اقصر الدول التي حكمت مصر عمراً ، فلم تتعد مدة حكمها واحداً وثمانين عاماً (٥٦٧/١٦٧١ — ٦٤٨/١٢٥٠) ولكنها تعد من اخطرها شأناً ، لان الذي انشأها كان صلاح الدين الايوبي اعظم شخصية سياسية وعسكرية في تاريخ مصر الاسلامية ، ولانها نجحت في الخلاص بمصر والدولة الاسلامية عموماً من اكبر خطر تهددها خلال هذه العصور وهو خطر الصليبيين.

كانت الدولة الايوبية دولة عسكرية في طبيعتها ووظيفتها ، وقد قامت للغرض الواحد الكبير الذي ذكرناه وانتهت بتلاشي الخطر . وقد دفعتها الظروف التي عاشت في ظلالها الى طلب الجند بأي ثمن والاستكثار من المماليك ، وخاصة في ايام سابع سلاطينها الصالح نجم الدين ايوب ، فقد اشترى منهم آلافاً اسكنهم بجزيرة الروضة فسموا

لذلك بالبحريين ، وكان من الطبيعي ان يحوزوا الدولة عندما ضعف امر السلاطين ، وهذا هو الذي حدث بعد موت الصالح نجم الدين ايوب ومقتل ابنه توران شاه ، اذ عجزت عصمة الدين ام خليل شجرة الدرعن مدافعة المماليك ، فغلبها ايبك التركماني وتولى السلطنة سنة ٦٤٨/١٢٥٠ ، وبدأت بذلـــك دولة المماليك الاولى المعروفين بالمماليك البحرية وقد حكموا مصر ١٣٦ سنة (٦٤٨/١٢٥٠ - ٧٨٤/١٣٨٢) واعظمهم عز الدين ايبك وسيف الدين قطز وركن الدين بيبرس والمنصور سيف الدين قلاوون . وكان البحريون على الجملة قواداً عسكريين ممتازين واداريين قادرين ، وقد عـــلا اسم مصر في ايامهم واتسعت امبراطوريتها وزاد رخاؤها واصبحت مركز العلوم والآداب في العالم الاسلامي كله .

واعقب المماليك البحرية على ملك مصر مماليكهم المعروفون بالبرجية ، وأولهم الملك الظاهر ابو سعيد برقوق وآخرهم طامان باي الثاني ، وقد حكموا مصر ١٢٩ سنة من ٧٨٤/١٣٨٢ الى ٩٢٣/١٥١٧ وكانوا قادة عسكريين ممتازين ولكنهم لم يظهروا اي كفاية ادارية او مالية ، وقد ضعفت مصر في ايامهم شيئاً فشيئاً ، واضطربت ماليتها بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، واظهروا قصر نظر مخجل فيما يتعلق بموقفهم من الخطر العثماني ، مما انتهى بسقوط مصر في ايدي الاتراك العثمانيين سنة ٩٢٣/١٥١٧ .

سائر الدول الإسلامية

في انحاء العالم

ولو اردنا ذكر الدول الاسلامية التي نشأت في العالم لطال بنا الكلام ، فنكتفي بجدول نبين فيه اسمـــاء الدول الاسلامية وعواصمها وعدد ملوك كل منهـا وسني ولايتهم ، واليك هو :

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى سنة ١٩١٤

اسم الدولة	كرسي ملكها	عددملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	المدينة	٤	١١	٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٤١	١٣٢
العباسية (في بغداد)	بغداد	٢٧	١٣٢	٦٥٦
العباسية (في مصر)	القاهرة	١٧	٦٥٩	٩٢٣
الأموية بالأندلس	قرطبة (الأندلس)	١٦	١٣٨	٤٢٢
بنو حمود العلويون	مالقة »	٩	٤٠٧	٤٤٩
«	الجزيرة »	٢	٤٣١	٤٥٠
بنو عباد	إشبيلية »	٣	٤١٤	٤٨٤
بنو زيري	غرناطة »	٥	٤٠٣	٤٨٣
بنو جهور	قرطبة »	٣	٤٢٢	٤٦١
بنو ذي النون	طليطلة »	٣	٤٢٧	٤٧٨
الصقالبة العامريون	بلنسية »	٥	٤١٢	٤٨٣
بنو تجيب وبنو هود	سرقسطة ولاردة وتطيلة } »	٩	٤١٠	٥٣٦
مجاهد العامري وأولاده	دانية والجزائر الشرقية } »	٢	٤٠٨	٤٦٨
بنو نصر (بنو الأحمر)	غرناطة »	٢١	٦٢٩	٨٩٧
بنو صمادح	المرية	٢	٤٣٣	٤٨٠
الأدارسة	وليلي ثم فاس (بمراكش الحالية)	١٢	١٧٢	٣٧٥
الأغالبة	القيروان والمهدية ورقادة	١١	١٨٤	٢٩٦

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
بنو زيري الصنهاجيون	القيروان	٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حماد بالمغرب الأوسط	قلعة بني حماد	٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش	٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالي افريقية	١٣	٥٢٤	٦٦٨
بنو حفص	تونس	٢٤	٦٢٥	٩٨١
بنو زيان	تلمسان بالمغرب الأوسط (الجزائر الحالية)	٢٥	٦٣٣	٩٦٢
بنو مرين	فاس	٢٧	٥٩٢	٨٣١
الشرفاء ثم السعديون	مراكش	٢٥	٩٥٥	لا تزال
الطولونيون	القطائع (مصر)	٥	٢٥٤	٢٩٢
الإخشيدية	الفسطاط (مصر)	٥	٣٢٣	٣٥٨
الفاطمية	القيروان والقاهرة	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الأيوبيون في مصر	القاهرة	٩	٥٦٤	٦٤٨
« في دمشق	دمشق	١٢	٥٨٢	٦٥٨
« في حلب	حلب	٥	٥٧٩	٦٣٤
المماليك البحرية	القاهرة	٢٥	٦٤٨	٧٩٢
« البرجية	«	٢٤	٧٨٤	٩٢٢
أسرة محمد علي	«	١٠	١٢٢٠	١٣٧١
بنو زياد	زبيد (اليمن)	٩	٢٠٤	٤١٢
بنو يعفور	صنعاء «	١٠	٢٤٧	٣٨٧
بنو نجاح	زبيد وجند «	٧	٤١٢	٥٥٣/٥٥٤
الصليحية	صنعاء وغيرها «	٣	٤٢٩	٤٩٢
الهمذانيون	« « «	٨	٤٩٢	٥٦٩
بنو مهدي	زبيد «	٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن «	٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	زبيد وغيرها (اليمن)	١٣	٦٢٦	٨٥٨
بنو طاهر	عدن وزبيد (اليمن)	٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة من بني رسى	صعدة وصنعاء «	١٧	٢٨٠	٧٠٠
الحمدانيون في الموصل	الموصل (سوريا)	٩	٢٩٣	٣٢٣

اسم الدولة	كرسي ملوكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
المرداسيون في حلب	حلب (سوريا)	٧	٣٣٢	٤٠٦
العقيليون	الموصل وغيرها «	٥	٣٨٦	٤٤٨
المروانية	ديار بكر «	٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة «	٨	٤٠٣	٥٤٥
بنو دلف	كردستان (فارس)	٦	٢١٠	٢٨٥
بنو الساج	الري «	٢	٣٠٦	٣١٤
العلوية (الزيدية)	آمل وسادية في طبرستان (فارس)	٢	٢٥٠	٢٧٠
بنو طاهر	خراسان	٦	٢٠٥	٢٦١
الصفارية	نيسابور (فارس)	٥	٢٦١	٣٩٥
السامانية	الري وشيراز بخراسان	١٢	٢٠٤	٣٠٨
خانات ايلك (آل أفرازياب)	تركستان	٢٧	٣١٥	٦٠٧
الزيارية	جرجان وغيرها	١٠	٣١٥	٤٧١
بنو حسنويه	كردستان	٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه	بغداد	١١	٣٣٤	٥١٣
بنو كاكويه	أصبهان وهمدان	٥	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	أصبهان بايران والعراق والشام وكرمان	٣١	٤٢٩	٦١٩
الدانشمندية	سيواس وملطية	١٢	٤٥٥	٥٦٧
الأتابكة من بني بوري	دمشق	٦	٤٩٧	٥٦٤
« الزنجيون	الموصل ودمشق وحلب	٢٠	٥١٦	٦٦٠
بنو بكتكين	إربل	٣	٥٣٩	٦٣٠
بنو ارتق	حصن كيفا وآمد وخرتيرت وماردين	٣٠	٤٩٥	٨١١
شاهات أرمن	خلاط بأرمينية	٨	٤٩٣	٦٠٤
أتابكة أذربيجان	أردبيل	٥	٥٣١	٦٢٢
بنو سلغر	فارس	١١	٥٤٣	٦٨٦

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
بنو هزراسب	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٨	٦١٩	٧٠٣
آل عثمان	الآستانة وغيرها	٣٥	٦٩٩	١٩٢٣
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٩٢
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٤
خانات العشائر الذهبية	قاراختيتاي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
« القرم	القرم	٤٥	٨٢٣	١٠٩٧
« جاغتاي	تركستان	٤٤	٦٢٤	٩٧٨
آل جلائر	العراق وغيره	٩	٧٣٦	٨٢٧
المظفريون	فارس وكردستان وكرمان	٧	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خرسان ودامغان	١٣	٧٣٧	٧٨٣
آل كرت عمال دنيسابور	هراة وبلخ وسرخس	٨	٦٤٣	٧٩١
أمراء القراقيونلو	أذربيجان (تبريز)	٦	٧٨٠	٨٧٣
أمراء آق قيونلو	الموصل وبغداد ثم أذربيجان	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	إيران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال
التيموريون	سمرقند	١٣	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	سمرقند	١٣	٨٣٢	١٠٠٧
المنغيتيون	بخارى	١٠	١١٧٠	١٣٢٩
خانات خيوة	خوارزم	٣٥	٩٢١	١٢٩٠
« خوقند	«	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	بخارى (استرخان)	١١	١٠٠٩	١٢٠٠
الغزنويون	أفغانستان وبنجاب	٢١	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	« وهندستان	١٤	٤٩٣	٦٥٨
سلاطين دهلي	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٧٥
حكام البنغال وسلاطينها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
ملوك الشرق بجونبور	بيهار ، اوذوقنوج ، بهرايج، جونبور (الهند)	٦	٧٩٦	٨٨١

اسم الدولة	كرسي ملكها		عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
« مالوا	مالوا	الهند	١٠	٨٠٤	٩٦٨
« كجرات	كجرات	»	١٤	٧٩٣	٩٩١
الفاروقيون ملوك خاندش	برهانبور(خاندش)	»	١٣	٨٠١	١٠٠٨
البهمنيون	الدكن	»	١٨	٧٤٨	٩٣٣
بنو عماد شاه	برار	»	٥	٨٩٠	٩٨٠
بنو نظام شاه	أحمد نجر	»	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
بنو بريد شاه	بيدر	»	٧	٨٩٥	١٠٩٧
بنو العادل شاه	بيجابور	»	٨	٨٩٥	١٠٩٧
بنو قطب شاه	كولكندا	»	٧	٩١٨	١٠٩٨
أباطرة المغول	هندستان	»	١٧	٩٣٢	١٢٧٤
ولاة المغول العظام	بنغالة	»	٢٣	٩٨٤	١٠٨٨
أمراء وملوك افغانستان	أفغانستان		١٥	١١٦٠	لا يزالون

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التي ظهرت من اول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤساها نحو ١٢٠٠ رئيس ، فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم ، من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم ، ومن عواصمهم المدينة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والآستانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها .

هذه مقدمات تاريخية في كيفية تأسيس الدولة الاسلامية وانشاء التمدن الاسلامي تمهيداً لما سيأتي من تاريخ ذلك التمدن .

وقد رأيت انهم انشأوا دولاً كثيرة تمدنت في عصور مختلفة ، ولما كانت الدول العباسية اشهرها جميعاً واسبقها الى المدنية فسنجعل ما يأتي من وصف التمدن خاصاً بها على الاكثر .

الدّولة الإسلاميّة

سعتها واعمالها

تأسست الدولة الاسلامية في المدينة في السنة الاولى للهجرة والمسلمون قليلون وكل ارض خارج حدود المدينة لاتدخل في زمامهم وكل رجل من غير الصحابة والمهاجرين والانصار عدو لهم . وحدود تلك الدولة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها . وكانت دار الحكومة والقضاء يومئذ المسجد او بيت النبي او بيوت الصحابة ، وما زال ذلك شأنها الى السنة الرابعة للهجرة فأضافوا اليها ارض بني النضير ، وفي السنة التالية ارض خيبر ثم فدك ، فوادي القرى فتيماء ، ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ، ثم مدوا حدودهم شمالاً الى تبوك وايله وجنوباً الى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة .

ولما توفي النبي سنة ١٠ للهجرة كانت سطوة الاسلام قد اظلت كل جزيرة العرب . وشاهد النبي دولة الاسلام تمتد من تبوك وايلة شمالاً الى شواطىء اليمن جنوباً ومن خليج العجم شرقاً الى بحر القلزم غرباً .

سعتها في زمن الخلفاء الراشدين

فلما تولى ابو بكر وفرغ من الردة بعث الجند لفتح الشام والعراق ، واتم فتحهما عمر ابن الخطاب وفتح مصر ، وكانت اكثر الفتوح في عصره. وخلفه عثمان ففتح بلاداً اخرى ، وشغل المسلمون عن الفتوح بعد مقتله بالفتنة التي شبت بينهم . حتى اذا انقضى عصر الخلفاء الراشدين وضع معاوية يده على ازمة الخلافة ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وافريقية والعراق وفارس وارمينية واذربيجان وجرجان وطبرستان والاهواز وغيرها .

وكان الخليفة يقيم في المدينة (او الكوفة) ويرسل عماله الى الاعمال (الولايات) ، واكبر اعمال المملكة الاسلامية يومئذ الشام وتحتها اجناد حمص وقنسرين والاردن

وفلسطين والثغور ، ثم العراق واعظم اعماله السواد وهو ما بين دجلة والفرات وعاصمته الكوفة على الفرات ، وما عـدا السواد البصرة وقرقيسية والري واصفهان ونهاوند واذربيجان وحلوان وهمدان وغيرها ، وفي بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء ، وفي قارة افريقيا مصر وما يتبعها من افريقية في بلاد المغرب والنوبة في اعـالي وادي النيل . وكان الخلفـاء يرسلون عمالهم الى هذه الاعمـال رأساً من المدينة (او الكوفة) الا الشام فقد كان عاملها يقيم في دمشق وهو يولي عمالاً على ما تحتها من الاجناد . وكذلك مصر ، كان عاملها في الغالب يرسل العمال من تحت امرته الى افريقية والنوبة .

وكان عامل الشام في ايام عمر بن الخطاب الى آخر عصر الخلفاء الراشدين معاوية بن ابي سفيان ، ثم صار خليفة ونقل مركز الخلافة الى دمشق كما تقدم ، وتخلفت جزيرة العرب كلها عن بيعته وظلت على بيعة علي ثم اولاده . وبعد مقتل الحسين ظلت الجزيرة على بيعة ابن الزبير ، حتى قتله الحجاج في ايام عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فانضمت الى دولة بني امية .

سعتها في ايام بني امية

وفي ايام بني امية زادت الدولة الاسلامية اتساعاً ففتحت الاندلس وسائر المغـرب غرباً ، واوغل بنو امية في اوربا من وراء اسبانيا فقطعوا جبال البرت — وهي المعروفة بالبرانس— ودخلوا فرنسا واوغلوا فيها الى نهر الرون سنة ١١٤هـ. ، فارتعد الافرنج لذلك وخافوا ان يصيبهم ما اصاب اسبانيا ، فتكاتفوا لدفعهم بكل جهدهم ، فحصلت بين الفريقين وقائع دموية دامت بضعة ايام والحرب سجال ، وانتهت بهزيمة العرب في مـكان يسمى بلاط الشهداء بين بلدتي تور وبواتييه في وسط فرنسا الحالية . ولم يذكر العرب من اخبار هذه الوقائع الا اشارات مختصرة ، واما الافرنج فانهم فصلوها مع ما يقتضيه المقام من اعجابهم بالعرب وبسالتهم ، وان كانت الوقائع كما سجلها مؤرخوهم مضطربة اسطورية الطابع . وكان يقود الفرنجة في معركة بلاط الشهداء ملكهم شارل مارتل جد الامبراطور شارلمان . ولم ينسحب العرب من غالة (وهي فرنسا الحالية) بعد موقعة بلاط الشهداء ، وانما ظلوا مسيطرين على جزء كبـير من الجنوب نحو ٣٠ سنة بعد هذه الموقعة (سنة ٧٣٢) وكانت عاصمتهم في هذه النـاحية مدينة اربونة (نربون) حتى تخلوا عنها سنة ١٣٣/٧٥١ .

وقد ورد في تاريخ ابن الاثير ذكر هذه الحروب فقال : ان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي امير الاندلس خرج غازياً سنة ١١٤ هـ (وهي تقابل سنة ٧٣٢ تقريباً) ببلاد الافرنج فقتل هو ومن معه شهداء . وهذه هي الحملة التي حاربها شارل مارتل المذكور .



شارل مارتل يحارب العرب بين تورس وبواتييه بفرنسا

ومما يستدعي الاعتبار والتأمل ان العرب لو فازوا في هذه الواقعة لانتشر الاسلام في فرنسا ثم سائر اوربا ، لان الفرنجة ، سكان غالة اذ ذاك وهي فرنسا الحالية ، كانوا اقوى امم اوروبا النصرانية على مدافعة العرب يومئذ ، ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وافريقيا وسائر العالم الاسلامي .

وامتدت فتوح الامويين في بلاد فارس فخراسان وما وراءها الى حدود الهند ، وهاك اقسام المملكة الاسلامية في زمن بني امية :

اعمال المملكة الاسلامية في زمن بني امية

١ ــ الشام وتقسم الى اربعة اجناد
٢ ــ الكوفة

٣ - البصرة وتشمل فارس وسجستان والبحرين وعمان	٧ — افريقية
٤ — ارمينية	٨ — مصر
٥ — مكة	٩ — اليمن
٦ — المدينة	١٠ — خراسان

اعمالها في زمن العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بني العباس ترتبت الولايات على هذه الصورة :

١	الكوفة والسواد	٧	خراسان
٢	البصرة ومهرجان قباد الى كور دجلة وما وراءهـا جنوبا الى البحرين فعمان	٨	الموصل
		٩	الجزيرة (بين النهرين وارمينية واذربيجان)
٣	الحجاز واليامة	١٠	الشام
٤	اليمن	١١	مصر وافريقية
٥	الاهواز (خوزستان)	١٢	السند في حدود الهند
٦	فارس	١٣	الاندلس

ثم اتسع نطاق المملكة الاسلامية على عهد العباسيين حتى صارت الى اوسع مـا بلغت اليه في زمن الاسلام حتى الآن . ولا عبرة بخروج بعض الاعمـال من سيطرة العباسيين كالأندلس ، لما تولاها بنو أمية ، واستقلال بعض الدول الثانوية كالطاهرية والسامانيـة والأغلبية والطولونية ونحوها ، فقد كان امراء هذه الدول كلهم يخطبون للخليفة العباسي (إلا الاندلس) ومهما اختلفت الدول فالمملكة اسلامية وحكامها مسلمون .

وقد بلغت حدود هذه المملكة شمالاً إلى اعالي تركستان في آسيا وجبال البرت (وهي المعروفة اليوم بالبرانس) في شمالي اسبانيا ، وجنوباً الى بحر العرب والمحيط الهنـدي وقاصية الصحراء الافريقية الكبرى ، وشرقاً الى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهنـد ، وغرباً المحيط الأطلنطي ، وزادت مساحتها بذلك على ضعفي مساحة اوروبا .

ولبيان عظمة تلك المملكة الواسعة نأتي بأسماء أعمالها ثم نبين مقدارها :

السواد	مهرجان قذق	الموصل
الاهواز	الايغارين	ديار ربيعة
فارس	قم وقاشان	أرزن وميافارقين
كرمان	اذربيجان	طوران
مكران	الري	طريق الفرات
اصبهان	قزوين	قنسرين والعواصم
سجستان	طبرستان	حمص
خراسان	تكريت	دمشق
همذان	شهر زور	الاردن
ماسبذان	الدامغان	فلسطين
مصر	حلوان	ارمينية
جيلان	الكوفة	آمد
برقة	البصرة	ديار مضر
افريقية	زنجان	اليمن
مكة والمدينة	قومس	اليامة والبحرين
الجزيرة والديارات والفرات وموقان وكرخ	جرجان	عمان

هذه أعمال الدولة الاسلامية العباسية ما عدا مملكة بني أمية في الاندلس ، وكانت معاصرة لها وقد فتحت صقلية ومالطة وغيرهما من جزر البحر المتوسط وكان على كل عمل من هذه الأعمال وال او عامل يوليه الخليفة او وزيره او نائبة كما سترى . فبلغ عدد هذه الاعمال — او الولايات في اصطلاح هذه الأيام — ٤٨ ولاية ، لكل منها بيت مال وديوان خراج وقاض او أكثر . وسكانها هم معظم العالم المتمدن في ذلك الحين ، وفيهم العرب والفرس والاتراك والاكراد والمغول والتتر والأفغان والهنود والأرمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوبة والبربر وغيرهم . وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والأرمنية والقبطية والبربرية وغيرها . فمنهم من اصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغاتهم الأصلية كأهل

الشام ومصر والمغرب والعراق . ومنهم من اختلطت العربيه بلغاتهم الأصلية كأهل فارس وتركستان والهند والافغان وغيرها . ولا تزال كثير من أمم آسيا وافريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن اثراً لذلك التمدن العظيم .

احصاؤها

وكان يحسن بنا في هذا المقام النظر في احصاء هذه البلاد في تلك الايام ، ولكن ذلك غير مستطاع لأن العرب قلما اهتموا بتعداد سكان ممالكهم . وانما ننظر في احصاء سكان هذه البلاد اليوم فنأتي بما يقابلها واسم الدولة التي هي تابعة لها وعدد سكانها ثم نقابل بين احوالها سنة ١٩١٤ واحوالها في تلك الأيام ، وهذا هو احصاؤها :

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها	عدد سكانها
ايران كلها	مستقلة	٩٥٠٠ ٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٤٥٠٠ ٠٠٠
السند وبلوخستان	انجلترا	٣٥٠٠ ٠٠٠
تركستان	روسيا	٦٠٠٠ ٠٠٠
القوقاز	روسيا	١١٠٠٠ ٠٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٢٥٠٠ ٠٠٠
العراق والجزيرة	تركيا	٢٥٠٠ ٠٠٠
سوريا وفلسطين	تركيا	٣٧٦٥ ٠٠٠
جزيرة العرب	تركيا	٥٠٠٠ ٠٠٠
القطر المصري	تركيا	١٢٠٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٢٠٠٠ ٠٠٠
طرابلس الغرب	ايطاليا	١٠٠٠ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	٥٢٣١ ٠٠٠
تونس	فرنسا	١٥٠٠ ٠٠٠
مراكش	مستقلة	٥٠٠٠ ٠٠٠
اسبانيا	مستقلة	٢٠٠٠٠ ٠٠٠
قبرص	انجلترا	٢٦٠ ٠٠٠
كريد	تركيا	٣١٠ ٠٠٠
		٩٥٢٧٦ ٠٠٠

مقدار العمارة

هذا هو تعداد سكان تلك البلاد لغاية ١٩١٤ ولكن كثيراً من المدن الاسلامية اصبح خراباً بعد ذلك ، في اواخر العصور الوسطى بالقياس الى ما كان عليه في عهد الدولة الاسلامية ، وخصوصاً العراق او السواد ، وعلى الأخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق . وقد وصف الاصطخري مدينة البصرة وصفاً يمثل ما كانت عليه أرض العراق من العمارة في عصره قال :

البصرة

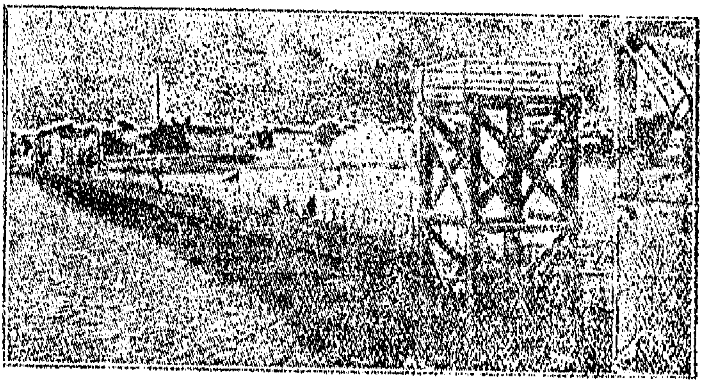
« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في ايام العجم وانما مصرها العرب ... وليس فيها مياه إلا انهاراً . وذكر بعض اهل الاخبار ان انهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر يجري فيها الزوارق . وقد كنت انكر ما ذكر من عدد هذه الانهار في أيام بلال ، حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها . فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » .

فاعتبر المسافة التي تحفر فيها ٠٠٠و١٢٠ نهر او ترعة كم يمكن ان يكون سكانها ؟ وهذا مستغرب عند أهل هذا الزمان لكنه يدل على كل حال على عمران تلك الأرض .

بغداد

وناهيك ببغداد مدينة الخليفة ودار السلام ، فقد ذكر الاصطخري ايضاً في وصفها كما شاهدها في ايامه في القرن الرابع للهجرة ، قال : « وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال ، وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ » الخ .

ثم قـــال : « وبين بغداد والكوفة (او بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق اليه انهار من الفرات » ثم عدد الانهر التي تمتد من الفرات الى دجلة .



بغداد وجسرها ممتد فوق دجلة

فأين هذه العمارة مما صارت اليه بغداد عند اضمحلالها ابان العصر التركي ؟ فان احصاء ولاية البصرة كلها قبيل الحرب العالمية الاولى ٢٠٠ ٠٠٠ نفس ،

وتعداد ولاية بغداد ٨٥٠٠٠٠ ، ونظن احصاء الولايتين جميعاً اذ ذاك اقل كثيراً مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها .

وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التي ضعف امرها اليوم . وهناك مدن اخرى كانت يومئذ في ابان مجدهـــا فأصبحت الآن اسماً بلا مسمى : مثل الفسطاط في مصر ، والكوفة في العراق والقيروان في افريقية ، وبصرى في حوران ، وغيرها مما لا محل للكلام فيه هنا .

مصر

واما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخي العرب انها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ » ثمانية آلاف الف (٨٠٠٠ ٠٠٠) منهم في الاسكندرية وحدها ٣٠٠ ٠٠٠ ، فاذا اضفنا الى ذلك عـــدد الاناث والاطفـــال والشيوخ زادت جملته على ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ، وهو نحو ثلاثة امثال سكانها اليوم .

وقد يطعن في صحة هذه الرواية ، ولكن يستدل من مجمل اقوالهم في مصر أنها كانت في رغد ورخاء ، وكان عمرانها بالغاً حد النهاية .

وذكر ياقوت في معجم البلدان « ان المقوقس قد تضمن مصر من هرقل بتسعة عشر الف الف دينار ، وكان يجبيها عشرين الف الف دينار ، وجعلهـا عمرو بن العاص عشرة آلاف الف دينار اول عام ، وفي العام الثاني اثني عشر الف الف دينار ، ولما وليها في ايام معاوية جباها تسعة آلاف الف دينار ، وجباها عبد الله بن سعد بن ابي سرح اربعة عشر الف الف دينار [1] . وقد اجمع المؤرخون المحدثون تقريباً على تقدير سكانها في تلك الايام بنحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ نفس .

قال المقريزي : « ان هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٧ هـ) امر عبيد الله بن الحبحاب عامله على خراج مصر ان يمسحها ، فمسحها بنفسه فوجد مساحة ارضها الزراعية مما يركبه النيل ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ فدان » [2] مع ان مساحة الارض الزراعية في وادي النل (١٩١٤ . مع ما تبذله الحكومة في العناية في اخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان كثيراً) ومساحة وادي النيل كلها اي الوجه البحري والصعيد على جانبي النيل لا تزيد على هـذا القدر الا قليلاً . فيستحيل ان تكون مساحتها في اوائل الاسلام خمسة اضعاف ذلك .

ولكن يظهر ان العرب زرعوا ما يجاور هذا الوادي من الشرق نحو البحر ومن الغرب الى وادي النطرون ، لان مساحة مصر بما فيها من الواحات في صحراء ليبيا والارض بين النيل والبحر الاحمر وبينه وبين بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) الى العريش تزيد على ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوي نحو ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة اذن ان يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان ، وان يكون سكانها ٣٠ مليون نفس .

ويؤيد ذلك ان مؤرخي العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ما تقدم تقريباً . قال المقريزي : « وآخر ما اعتبر حال ارض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوماً ومساحة ارضها ٠٠٠ ٠٠٠ ١٨٠ فدان ، يزرع منـــها في مباشرة ابن المدبر (في اواسط القرن الثالث

---

١ - معجم البلدان ٢٥٢ ج ٤ ٢ - المقريزي الخطط ، ج ١ ص ٩٩

للهجرة) ٢٤٠٠٠٠٠٠ فدان ، وانه لا يتم خراجها حتى يكون فيها ٤٨٠ ٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائماً .. » الخ [١]

واعتبر نحو هذا العمران ايضاً في مدن الاسلام الكبرى في الاندلس ، مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة ، وفي العراق والشام بلاد لا تحصى كانت في تلك الايام مدناً كبرى واصبحت الآن قرى صغيرة .

فاذا اعتبرنا كل ما تقدم لا نستبعد ان يكون احصاء المملكة الاسلامية في ابان عمرانها نحو ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس الى ٣٠٠ مليون وهو نحو تعداد سكان اوربا كلها الآن . وسنعود الى ذلك في كلامنا عن ثروة المملكة .

١ — المقريزي : الخطط ، ج ١ ص ١٠٠

مناصب الدولة الإسلامية

انتهينا من الكلام في نشوء الدولة الاسلامية وتكونها فننتقل الى الكلام في تنظيمها الاداري ودواوينها وادارات حكوماتها وتاريخ كل منها . وخصوصاً الكلام في كيفية نموها وتفرعها الى تلك المناصب .

نمو الدوله الاسلامية

نشأت الدولة الاسلامية في المدينـــة في السنة الاولى للهجرة ، والمسلمون يومئذ من الصحابة لا يزيد عددهم على بضع عشرات ، بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الانصار ، فجعلوا اساسها المساواة والمؤاخاة والتعاون . فقد ذكرنا ان النبي آخى بين المسلمين ومكن المؤاخاة بأن جعل أموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدل من قوله : « من ترك كلا[1] فالينا ومن ترك مالاً فلورثته » . وقد كان ذلك الاشـــتراك في المصالح داعياً الى زيادة الاتحاد ، واعمال الدولة يومئذ محصورة في النبي وتشمل السياسة والادارة والدين ، ففرضت الصلاة والزكاة وغيرهما من الفروض التي تعد من قبيل الدين ، ولا نبحث فيها الا من حيث دخلها في تأسيس الدولة .

اما صلاة الجماعة فكانت تبعث على الاتحاد والنظام والطاعة للنظام العام من الناحية الاجتماعية . واما الزكاة فقد كانت من اول الامر مظهراً من مظاهر التساند الاجتماعي بين طبقات الامة : ولم تعتمد عليها الدول الاسلامية كمصدر رئيسي من مصادر الدخل ، فقد تركت الدول امرها للناس ولم تجمعها للخزانة ، الا في حالات قليلة .

ولا يخفى ان للدول نظماً مختلفة ، ففيها الملكي والجمهوري والمطلق والمقيد ، ولكل دولة قوانين تختلف عما للاخرى مما يحصره وصف . ولكنها ترجع كلها الى امرين اساسيين

---

١ ــ الكل (بفتح الكاف) اليتيم .. والعيال والثقل والذي لا ولد له ولا والد والضعيف

تشترك فيها جميعها ، وهما المـــال والجند . وما من دولة مهما كان نوع نظامها الا وفيها الجندية والمالية ، اذ لا قوام لها بدونهما ، وربما كانت الحاجة اليهما في اوائل الدولة اشد مما بعدها . والمسلمون هم الجنـــد والزكاة والضرائب المختلفة التي تقررت شيئاً فشيئاً هي الموارد المالية التي تقـوم بتكاليف الدولة ، فكأن اساس الدولة الاسلامية هذه الآية : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » .

الزكاة

الزكاة توطد عرى الاتحاد بين افراد المجتمع الاسلامي ، والاتحاد هو اساس الاسلام . ذلك لأنها تؤخذ من أغنياء المسلمين ممـــا يزيد من اموالهم وتعطى للفقراء منهم . وتسمى الزكاة في كثير من الاحيان صدقة ، وقد بدأ المصطلحان بمعنى واحـــد ، ثم اختلف استعمالهما بعض الشيء فيما بعد ، وللائمة والفقهاء في ذلك آراء تعني من يدرسون الاصول ، ولكن المؤرخ يهتم بناحية الزكاة الاجتماعية وبأهميتها كمورد من موارد الدخـل الاجتماعي للدول الاسلامية . وقد أشار الى معناها الاجتماعي رسول الله عندما قـال لمعاذ حين بعثه الى اليمن اذ قال له : « انك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله إلا الله وان رسول الله . فان هم اطاعوا لذلك فأعلمهم ان الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم ، فان هم اطاعوا فأعلمهم ان الله فرض عليهم صدقة تؤخـذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم اطاعوا لذلك فاياك وكرائم اموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانـــه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وفي فرض الزكاة على الأغنياء واعطائها للفقراء حكمة عالية ، لأنها تسترضي الفقراء وهم الجمهور الأكبر وخصوصاً في عصور الجاهلية ايام الاستبداد والاستئثار . وقد جـ الاسلام لنصرة الضعيف والمساواة بينه وبين القوي ، ولذلك كان خصوم الدعوة المحمدية من كبار القوم الذين ساءهم ان يشاركوا فقراءهم بأموال وان يكونوا اخوة لهم .

وبعد واقعة بدر الكبرى سنة ٢ هـ حدثت الغنائم والجزية كما سيأتي ، فاصبحت موارده الدولة في العهد النبوي وعهد أبي بكر منحصرة في الزكاة التي تجمع من أغنيـاء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، والغنائم المكتسبة بالغزو وتقسم في المحاربين ، ومـا فرضوه على من دخل في ذمتهم من اليهود والنصارى في بلاد العرب من الجزية ونحوها . ويتولى ذلك كله النبي او خليفته . وكانت الاموال التي ترد من الغنـــائم تفرق فيهم على السواء ، الصغير

والكبير ، الحر والعبد ، الذكر والانثى . فاذا جاء المدينة مال من بعض البلاد احضر الى المسجد وفرق على ما يراه النبي او الخليفة بلا قيد ولا ضبط ولا يبقى منه باق .

الديوان

ولما فتحت البلاد في زمن عمر بن الخطاب ، واختلط العرب بالروم والفرس ، واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعددت مصادر الدخل ، اضطروا الى ضبط ذلك وتقييده وتعيين ما يدخل وما يخرج منه . فرأى عمر ان يضبط الوارد في الدفاتر ، فيدفع منه رواتب معينة في العام الى كل على قدر استحقاقه ، والذي يبقى من الاموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة . فشرع في ذلك في السنة العشرين للهجرة (وقالوا في السنة الخامسة عشرة) وهو ما يعبر عنه بالديوان اقتداء بما كان عند الفرس والروم .

ونظر عمر فيمن حوله من المسلمين فاذا هم طبقات ودرجات ، باعتبار ادوارهم في انشاء الدولة وتوسيع سلطانها ، فرأى ان يجعل عطاء كل واحد منهم على قدر خدمته ، ولكنه اعتبر ايضاً القرابة من النبي فميز اهله بشيء خاص كما سنفصله ، واستناب عنه في تدوين ذلك كاتباً يتولى ضبطه .

ولما تكاثرت موارد المال الى المدينة أنشأ عمر خزانة او داراً سماها «بيت المال»،وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء ، وان كنا نرى ذكر بيت المال في عهد ابي بكر فما هو إلا من قبيل القياس ، لأن أبا بكر لم يفضل عنده مال يحفظه في خزانة او بيت .

فانقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) واصحاب المناصب فيها : (١) الخليفة (٢) عماله في الامصار (٣) كاتب يكتب له الكتب ويتولى امر الديوان (٤) خادم خاص كانوا يسمونه الحاجب[١] (٥) خازن يتولى بيت المال (٦) قاض يقضي في الخصومات .

فلما افضت الخلافة الى بني أمية واصبح الأمر ملكاً سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للأعاجم ، جعلت تلك الأدارات تتفرع وتتوسع بناموس الارتقاء العام ، واضافوا اليها مناصب اقتبسوها من الروم والفرس . وقضى عليهم الترف وابهة الملك ان يتخذوا الخدم والحشم والحجاب والحراس ، فحدث في عهد بني امية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج مما سيأتي بيانه .

---

١ – الدميري ٢١٠ ج ٢ (نقلا عن المهذب)

لما آل الأمر الى بني العبا .ادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء الى الترف والرخاء ، فاستنابوا من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، فاستحدثوا منصبي الوزارة والحسبة وغيرهما، وتفرعت المناصب الأولى وتشعبت على مقتضيات الاحوال، ثم احدثت كل دولة من دول الاسلام مناصب اقتضتها احوالها ، فاختلفت في بغداد عما في قرطبة ، وفيهما عما في القاهرة مما لا محل لتفصيله .

تشعب المناصب

كان الخليفة في عهد سذاجة الدولة هو الذي يراقب اعمال الدواوين بنفسه ، وكان عماله لا يزالون من اهل الزهد والتقوى لا يحتاجون الى من يراقب اعمالهم او يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة اموال خاصة ولا ضياع تحتاج الى كتاب او حساب ، وكان اذا كتب الى احد عماله سابا ختمه بخاتمه بيده ، وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم ، وتبدلت وجهة الخلافة من الدين الى السياسة ، ومال الخلفاء الى التقاعد وتقليد القياصرة والاكاسرة ، استخدموا من يقوم بتلك الاعمال ، فأقاموا من يباشر امور الدولة عنهم وهم الوزراء ، ومن يراقب تصرف العمال في الامصار وهو صاحب ديوان البريد ، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم اصحاب ديوان التوقيع او الخاتم ، ومن يتولى النظر في ضياعهم واملاكهم وهم عمال ديوان الضياع ، ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم وهم عمال ديوان الخاص . واقتضت حضارتهم ان يضربوا النقود ويتخذوا الطراز ، فأنشأوا دار الضرب وديوان الطراز ، ودواوين اخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك ، مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز ، وهذا كان يشبه الباب العالي .

وكان الكاتب في عهد الخلفاء الراشدين هو الذي يتولى الديوان على ما وضعه عمر ، فيدون ما يرد من اموال الخراج والجزية وغيرهما ، وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ، ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت اعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج ، والى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة ، والى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع وديوان المعادن ، والى ما يختص بتدوين اسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند . وتفرع عن ديوان الجند ديوان الاساطيل وديوان الثغور وغيرهما . وافردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديواناً خاصاً هو ديوان الرسائل او الانشاء .

وكان بيت المال مخزناً عاماً لكل اموال المسلمين ، فتفرع في ايام الامويين والعباسيين الى عدة فروع ، بعضها لاموال الصدقات ، وبعضها لامــوال المظالم ، وبعضها لاموال الورثة ، وبعضها لغير ذلك. وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الاخرى ، فتفرع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره .

وشأننا في هذا المقام النظر في نشأة الدواوين الاساسية وتاريخها وسائر احوالها . ولا ينجلي ذلك الا اذا نظرنا في اصولها وكيف تكونت وتفرعت ، والاحوال التي دعت الى ذلك . فنبدأ بالخلافة وتوابعها وملحقاتها ، فولاية الاقليم ، فالوزارة ، ثم نفرد لكل من الجند والمال وغيرهما بابا خاصاً .

الخلافة

ماهيتها وشروطها وحقوقها

ماهيتها

الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن في سواه من قبل ، وهي من قبيل السلطة الملكية المطلقة ، ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والاكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية ، فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، واما تلك فتنحصر في حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية .

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيراً ومرجعهما الى مبدأ واحد ، لان الذي يتأتى له ان يتولى امور الناس ويحكم فيهم حكماً مطلقاً ، اما ان يسير بهم على قانون مفروض ، او على مقتضى ميوله واغراضه . واكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة واكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على احكامها ، كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام ، وكان هذا شأن الملوك المطلقين في اوربا الى عهد قريب ، بل كذلك شأن الديموقراطيات التي يتولى الحكم فيها ملك يرث العرش عن آبائه ، او رئيس جمهورية ينتخبه الشعب ، وفق قواعد مقررة في الدستور ، ويقوم بالحكم في حدود يعينها الدستور ايضاً .

واما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها امته ويحمل الناس على احكامها بالنيابة عن النبي صاحب تلك الشريعة ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة ، وقد سموا الخليفة اماماً تشبيهاً بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به .

شروط الخليفة

للخلافة اربعة شروط يشترط توفرها في الخليفة • وهو العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي اي ان لا يقوم خليفة الا من قبيلة قريش ، فامتنع حينئذ ان يتولى امور المسلمين اعجمي باسم الخليفة . واصل هذا الشرط حديث ، احتجت به قريش لما طلب الانصار الخلافة لهم كما تقدم في الكلام على بيعة ابي بكر ، وكان هذا الشرط مرعياً كل الرعاية في سائر احوال الدولة الاسلامية ، والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين قط . ومع كل ما انتاب الخلفاء في اواخر الدولة العباسية من الضعف واستبداد الامراء فيهم حتى جردوهم من كل قـــوة دنيوية وانشأوا الدول دونهم ولقبوا انفسهم بالسلاطين ، رغم ذلك كله لم يخطر لاحد منهم ان يدعي الخلافة او ان ينصب نفسه خليفة .

هذه دول بني بويه والسلاجقة والغزنوية والطاهرية والايوبية وغيرهم ، قد استقلوا في الاحكام ، وفيهم من غلب على الخلفاء ، ولكنهم لم يسموا انفسهم الا سلاطين ، بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم في الحكم . وكذلك فعل صلاح الدين الايوبي في مصر ، فانه تناول ازمة الملك في مصر من آخر خليفة فاطمي — وليس من يطالبه اوينافسه على السلطة وبيده مقاليد البلاد — فلما اراد الاستقلال بالملك دعا على المنابر للخليفة العباسي ، ولم يسم نفسه خليفة بل اكتفى بلقب السلطان . واول من تولى الخلافة الاسلامية في غير قريش السلطان سليم الفاتح العثماني سنة ٩٢٢ هـ ، وحجة الائمـــة الحنفية في صحة خلافة بني عثمان ان الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق وهي :

حقوق الخليفة عند الحنفية

١ — حق السيف . ومعنى ذلك ان طالب الخلافة يجب ان يقوم بدعوته انصار لايقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض ، وقد كان ذلك شأن السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر .

٢ — حق الانتخاب اي مصادقة اهل العقد ، وهو مجلس من الائمـــة والعلماء ، وحجتهم في ذلك ان هذا المجلس كان في اول عهد الاسلام بالمدينة ، ثم نقل الى دمشق ، ثم الى بغداد ، ونقل من بغداد الى القاهرة ، فيجوز ايضاً نقله من القاهرة الى القسطنطينية .

فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الازهر ، واضاف اليهم عدة من علماء الاتراك ، والف من الفئتين مجلساً صادق على انتخابه وسلموه السيف . وكانت هذه هي العادة الجارية في تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من ايدي العلماء وكانوا يفعلون ذلك في جامع ايوب بضواحي الآستانة .

٣ — الوصاية : وهي وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . وقد اوصى المتوكل آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الاتراك للسلطان سليم بالخلافة .

٤ — حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين — الا سبع سنوات تولاهما فيها ائمة صنعاء في القرن العاشر ، وسبع سنوات اخرى تولاهما فيها الوهابيون .

٥ — الاحتفاظ بالامانات : وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الآستانة ، وهم يقولون ان الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد ، فحملها الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة ، وما زالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية ، وهي محفوظة الى الآن في صندوق من الفضة في غرفة بالسراي القديمة « طوبقبيو » سيأتي ذكرها .

مُبايعة الخلفاء

نوع المبايعة

لم تجر ولاية الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين على نظام واحد ، فقد كان المفروض ان تكون انتخابية ، ولهذا لم يوص رسول الله (صلعم) بمن يخلفه ، بل ترك الامر في ذلك للمسلمين ، فاختاروا ابا بكر . ولم يشأ ابو بكر ان يدع الامـــر للناس ليختاروا من يشاءون ، فأوصى لعمر بن الخطاب ، وعندما حضرت عمر الوفاة لم يدعها شورى خالصة ، ولا انتخابية خالصة ، بل اوصى لستة نفر من كبار الصحابة ليجتمعوا ويختاروا الخليفة من بينهم ، وسمى ابنه عبد الله في جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه ، فاختـــاروا عثمان بن عفان ، فلما قتل دون ان يوصي اختار الناس عليا بلا شورى ، فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لانهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين في الامصار لم يشهدوا بيعة علي ، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس . ثم كان ما كان من امر الفتنة المشهورة .

فلما قتل علي ارادت شيعته حصر الخلافة في نسله ، باعتبـــار انهم بضعة من النبي ، فسألوه وهو على فراش الموت : « انبايـــع الحسن ؟ » فقال : « لا آمركم ولا انهاكم ، انتم ابصر » ، امـــا هم فبايعوا ابنه الحسن ، وهذا تنازل عنها لمعاوية بن ابي سفيان ، فصارت في بني امية .

فطريقة الخلفاء الراشدين في انتخاب الخلفاء من افضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن ، وهي جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى ، اما الجمهورية فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهـــور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لان الانتخاب يكون بالشورى ، وهي مطلقة لان الخليفة اذا قبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا اضفت الى ذلـــك شروطها الاربعة التي ذكرناها كانت افضل انواع الحكومات على الاطلاق ، لان الحاكم المطلق اذا كان عادلاً مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن اقدر

منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه ، هذا الى جانب ما في طريقتهم هذه من ادلة التقوى والزهد في الدنيا ، كما يتضح ذلك من مراجعة سير الخلفاء الراشدين .

فلما افضى الامر الى بني امية واختلطوا بالروم في الشام ، واطلعوا على طرق الحكومات عندهم ، وفي جملتها توالي الملك في الاعقاب ، رأى معاوية ان يجعله كذلك في نسله ، ولكنه تهيب لعلمه بما فيه من مخالفة سنة الراشدين ، فاستشار بعض خاصته ، فشجعه المغيرة بن شعبة .

وقد زاده اقداما ما خافه من افتراق الكلمة اذا ترك الامر بعده فوضى فيتطلبه بنو هاشم ، ولا يرضى بنو امية تسليمه الى سواهم ، فيؤول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة ، وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية . فتجنبا للفتنة بايع ابنه يزيد وخوفاً من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة في حياته ، وتربص ليرى ما يبدو من الناس فلم ير شراً . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده - الا عمر بن عبد العزيز — فانه أراد الرجوع الى طريقة الخلفاء الراشدين ، ولكنه لم يوفق الى ذلك لتغلب العامة عليه ، فلم تطل مدته ، فعادوا الى طريقة معاوية .

واراد مثل ذلك ايضاً المأمون في الدولة العباسية ، فعهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق من نسل الامام علي وسماه « الرضى » ، فعظم ذلك على بني العباس ونقضوا بيعة المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي . ولو لم يبادر المأمون الى ملافاة الامر لخرجت الخلافة من يده ، فعاد الى الخلافة بالارث ، وجرى عليها العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين .

البيعة

البيعة هي العهد على الطاعة ، فاذا بايع الرجل اميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك ، وانه يطيعه فيما كلفه به من الامر على المنشط والمكره . وكان العرب اذا بايعوا اميراً جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري ، فسمي «بيعة » مصدر « باع » . وصارت البيعة مصافحة الايدي ، وهو مدلولها بعرف اللغة ايضاً . واقدم بيعة في الاسلام بيعة العقبة ، ومنها ايمان البيعة التي كان الخلفاء يستحلفونها على العهد ويستوعبون الايمان كلها .

وكانت العادة اذا هموا بمبايعة خليفة بايعه اولا كبار الدولة ، ثم من يليهم من أصحاب المناصب. وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة الجند والقواد وقضاة بغداد. وكان كاتب الجيش هو الذي يتولى استحلافهم على الغالب ، ويدعوهم بأسمائهم ، ويقف الوزير او من يقوم مقامه فيعمم الخليفة بيده ويلبسه البردة . ومتى تمت المبايعة يعرضون على الخليفة القاباً فيختار لقباً منها . وهذه الألقاب حادثة في الاسلام ، وكانت في اوائل الدولة العباسية بسيطة ، كالأمين والمأمون والرشيد . فلما كانت ايام المعتصم اضاف اسم الجلالة الى لقبه فسموه « المعتصم بالله » ، وصارت تلك عادة في من خلفه من بني العباس .

فاذا بويع في داره جاءوه بموكب الخلافة ، وهي افراس مسرجة ولكل دابة سائس بالالبسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ، ويمشي بين يديه رجل بالحربة ، ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الخليفة ، وهي دار العامة في بغداد . ثم ترد عليه وفود المهنئين من الامصار على مقتضى الاحوال .

يمين البيعة

يختلف نص يمين البيعة باختلاف الدول والاحوال ، وان كان مرجعها واحداً . فلما بايع الانصار النبي بالعقبة قالوا : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا. فإذا وصلت فانك في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا » وهناك نص آخر تمت به البيعة بالعقبة يعرف ببيعة النساء ، وهي : « بايعنا على ان لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف فان وفيتم فلكم الجنة ، وان خشيتم من ذلك شيئاً ، فأمركم الى الله عز وجل ، ان شاء عذب وان شاء غفر » .

ويمين بيعة بني العباس منذ طلبها لهم ابو مسلم الخراساني هي : « ابايعكم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله الحرام على ان لا تسألوا رزقاً ولا طعماً حتى يبتدئكم به ولاتكم » .

وقد اختلفوا في نص يمين البيعة وفي كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ، ولكن

الجوهر واحد ، وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيته بالسير على مـــا يقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك . وكان شأنهم في المبايعة الاختصار كما تكون الدول في أبسط احوالها. وكانت البيعة تتلى شفاها ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت كلمات قليلة فصارت سطوراً عديدة بما ادخلوه فيها من الحشو والاطناب ، لما اقتضاه استغراق القوم في الترف من الميل الى التفخيم والتبجيل والتطويل ، شأن الدول في ايام بذخها .

وقد تغيرت صورتها ، فبعد ان كان الرجل يخاطب الخليفة بالبيعة ، أصبح احـــد الوزراء ممن يأخذون البيعة للخلفاء يخاطبون المبايع ويشترطون عليه الشروط ، كما فعل ابو مسلم . وهذا نص بيعة الخلفـاء العباسيين في اواسط دولتهم ، وفي نشرها ما يغني عن الاسهاب :

« تبايع عبدالله الامام امير المؤمنين بيعة طوع وإيثار ، ورضى واختيار ، واعتقاد واضمار ، واعلان واسرار ، واخلاص من طويتك ، وصدق من نيتـك ، وانشراح من صدرك ، وصحة من عزيمتك ، طائعاً غير مكره ، ومنقاداً غير مجبر ، مقراً بفضلهـا ، مذعناً بحقها ، ومعترفاً ببركتها ، ومعتداً بحسن عائدتها ، وعالماً بما فيها ، وفي توكيدهـا من صلاح الكافة ، واجتماع كلمة العامة والخاصة ، ولم الشعث وامن العواقب ، وسكون الدهماء ، وعز الأولياء ، وقمع الأعداء — على ان فلانا عبدالله وخليفته ، المفترض عليك طاعته ، الواجب على الأمة امامته وولايته ، اللازم لهم القيام بحقه ، والوفاء بعهده ، لا تشك فيه ، ولا ترتاب به ، ولا تداهن بأمره ولا تميل . وانك ولي اوليائه ، وعـــدو اعدائه ، من خاص وعام ، وقريب وبعيد ، وحاضر وغائب ، متمسك في بيعته بوفـاء العهود وذمة العقد ، سريرتك مثل علانيتك، وضميرك فيه وفق ظاهرك ، على ان اعطاءك هذه البيعة من نفسك ، وتوكيدك اياها في عنقك لفلان امير المؤمنين عن سلامة من قلبك ، واستقامة من عزمك ، واستمرار من هـواك ورأيك ، في ان لا تتأول عليه فيها ، ولا تسعى في نقض شيء منها ، ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ، ولا تدع النصح له في كل حال راهنة او حادثة ، حتى تلقى الله موفياً بها ، مؤدياً للامانة فيها ، اذ كان الذين يبايعون ولاة الامر خلفاء الله في الارض انما يبايعون الله ، ويد الله فـوق ايديهم . فمن نكث فانما ينكث على نفسه . عليك بهذه البيعة التي طوقت بها عنقك، وبسطت لها يدك، واعطيت فيها صفقتك ، وما شرط عليك فيها من وفاء وموالاة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة ، عهد الله ان عهده كان مسئولاً ، وما اخـذ الله علي انبيائه

ورسله عليهم السلام ، وعلى من اخذ من عباده من مؤكدات مواثيقه ومحكمات عهوده ، وعلى ان تتمسك بها فلا تبدل ، وتستقيم فلا تميل . وان نكثت هذه البيعة ، ومتى بدلت شرطاً من شروطها ، او عفيت رسماً من رسومها ، او غيرت حكماً من احكامها ، معلناً او مسراً او محتالاً او متأولاً ، او زغت عن السبيل التي يسلكها من لا يحقر الامـامة ، ويستحل الغدر والخيانة ، ولا يستجيز حل العقود وختل العهود ، فكل ما تملكه من عين او ورق او آنيـة او عقار او سائمة او زرع ، او غير ذلك من صنوف الامـلاك والاموال المدخرة ، صدقة على المساكين يحرم عليك ان ترجع شيئاً من ذلك الى مالـك بحيلة من الحيل ، على وجه من الوجوه وسبب من الاسباب ، او مخرج من مخارج الايمان ، وكل ما تستفيده في بقية عمرك من مال يقل خطره او يجل فصدقة في سبيل الله ، الى ان تتوفاك منيتك ويأتيك اجلك . وكل مملوك لك اليوم من ذكر او انثى وتملكه الى آخر ايامك احرار سائبون لوجه الله . ونساؤك يوم يلزمك الحنث ومن تتزوج بعده في مـدة بقائك طوالق ثلاثاً طلاق الحرج والسنة لا مبتوتة ولا رجعة . وعليك المشي الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافياً راجلا لا يرضى الله منك الا بالوفاء بها ، ولا يقبل الله لك صرفاً ولا عدلاً . وخذلك يوم تحتاج اليه وبرأك من حوله وقوته وألجأك الى حولك وقوتك . والله عز وجل بذلك شهيد وكفى بالله شهيداً »[١]. وبلغت المبايعة التي كتبت للحاكم بأمر الله العباسي في اواسط القرن الثامن للهجرة بمصر ما يملأ اربع صفحات من هذا الكتاب . ونشر السيوطي في حسن المحـاضرة مبايعة احد الخلفاء العباسيين بمصر في سبـع صفحات كبار [٢] .

بيعة ولي العهد

ذكرنا في كلامنا على الخلافة بعد ان صارت وراثية ان الخلفاء كانوا يبايعون لاولادهم بولاية العهد او لغيرهم من ذوي قرابتهم ، وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعـة الخلفاء . وكثيراً ما كانوا يعرضون عزمهم في ذلك على اهل الرأي ، كما فعل المنصور لمـا اراد البيعة لابنه المهدي . وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقامت الخطباء فتكلموا وقامت الشعراء فأكثرت في وصف المهدي فرجحت بذلـك بيعة المهدي .

---

١ – Zeitschft der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft 1853
نقلا عن تذكرة ابن حمدون

٢ – حسن المحاضرة للسيوطي ص ٧٠ ج ٢

وكانوا اذا رأوا غير واحد من أولادهم او اخوانهم أهلا للخلافة بايعوا لأحدهم وشرطوا ان يخلفه فلان او فلان، كما فعل يزيد بن عبد الملك لما أراد ان يبايع بولاية العهد، وكان ابنه لا يزال صغيراً فبايع أخاه هشاماً على ان يخلفه ابنه الوليد بن يزيد ، وكثيراً ما كانوا يغيرون في شروط المبايعة بعد حين اذا رأوا لزوماً لذلك . وقد يبايع الخليفة بولاية العهد لأحد اولاده ويذكر من يخلفه ويخيره في استخلافه ، كما فعل الرشيد لما كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل أمره للمأمون ان شاء اقره وان شاء خلعه .

والعهد كتاب يكتبه الخليفة او من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم اهل بيته ، ويدفعه الى ولي العهد او من يتولى امره فيحفظه الى حين الحاجة . وقد يحفظه في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة ، كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لأولاده بولاية العهد ، احدهما للأمين والآخر للمأمون وبعد هذا للقاسم .

ويدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، فيقولون بعد الدعاء للخليفة : «اللهم وبلغه الأمل في ولده فلان ولي عهده في المسلمين ، اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه في الاقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالغي والعناد ، اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ من نابذ الحق وانصاره » .

علامات الخلافة

علامات الخلافة ثلاث : البردة ، والخاتم ، والقضيب .

البردة

اما البردة فهي بردة النبي ، وما زال النبي يلبسها حتى اعطاها الى كعب بن زهير بن ابي سلمى الشاعر المشهور . وكان كعب قد هجا النبي وفر من وجـه المسلمين ، فلما فتح المسلمون مكة كتب اليه اخوه بجير بن زهير : « ان رسول الله (ص) قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه ، فان كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله (ص) فانه لا يقتل احداً جاءه تائباً » . فلم ير كعب مفرجاً الا رجوعه وتوبته ، فجاء المدينة وسلم نفسه الى النبي ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » .

فاكرمه النبي ، واراد بعض الصحابة قتله فمنعهم ، وبالغ في اكـــرامه فخلع عليه بردته . فظلت البردة عند اهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن ابي سفيان في اثنـاء خلافته بأربعين ألف درهم (١٦٠٠ جنيه) وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون . وذكر ابو الفداء انها انتقلت من العباسيين الى التتر ، لكنها الآن في جملة المخلفات النبوية في السراي القديمة في الآستانة . ولعل ابا الفداء وهم بما علمه من غزو التتر بغـداد وفرار العباسيين الى مصر ، فظن البردة كانت في جملة ما انتهبوه من قصر الخليفة ، والظاهر ان العباسيين حملوا البردة معهم الى مصر فأخذها السلطان سليم مع الخلافة .

الخـــاتم

واما الخاتم فقد اتخذه الخلفاء تشبها بالنبي ، لانه لما اراد ان يكتب الى قيصر وكسرى يدعوهما الى الاسلام قيل له ان العجم لا يقبلون كتاباً الا ان يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » . وانتقل هذا الخاتم الى ابي بكر ، ثم الى عمر ، ثم الى عثمان ، ووقع من يد عثمان في بئر اريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك ، فاصطنع عثمان خاتماً مثله . وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خـاتماً يختمون به الكتب في اسفل الكتابة وفي اعلاها بالطين او المداد ، ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . واول من فعل ذلك معاوية تجنباً للتزوير ، لانه كتب مرة الى زياد ابن ابيه عامله بالكوفة لمن يدفع لعمر بن الزبير مائة الف درهم وسلم الكتاب الى عمر ليحمله الى زياد ، فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له ، ولما رفع حسابه الى معاوية بان التزوير ، فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها او لفها .

وذكر البلاذري ان زياداً اول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم في اثناء ولاية العراق امتثالاً لما كانت الفرس تفعله . وانه كان لملوك الفرس قبل الاسلام عدة خواتم يستخدم كل منها لغرض : خاتم للسر ، وخاتم للرسل ، وخاتم للسجلات والاقطاعات ، وخاتم للخراج ، وكان الذي يتولاها يسمى صاحب الزمام .

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى من ايام معاوية الى اواسط دولة بني العباس فأسقط ، لان مباشرة الاعمال تحولت الى الامراء والوزراء والسلاطين وغيرهم. ولما اراد الرشيد ان يستوزر جعفر بن يحيى بدل الفضل اخيه قال لابيهما يحيى : « يا ابت اني اردت ان احول الخاتم من يميني الى شمالي » فكني بالخاتم عن الوزارة .

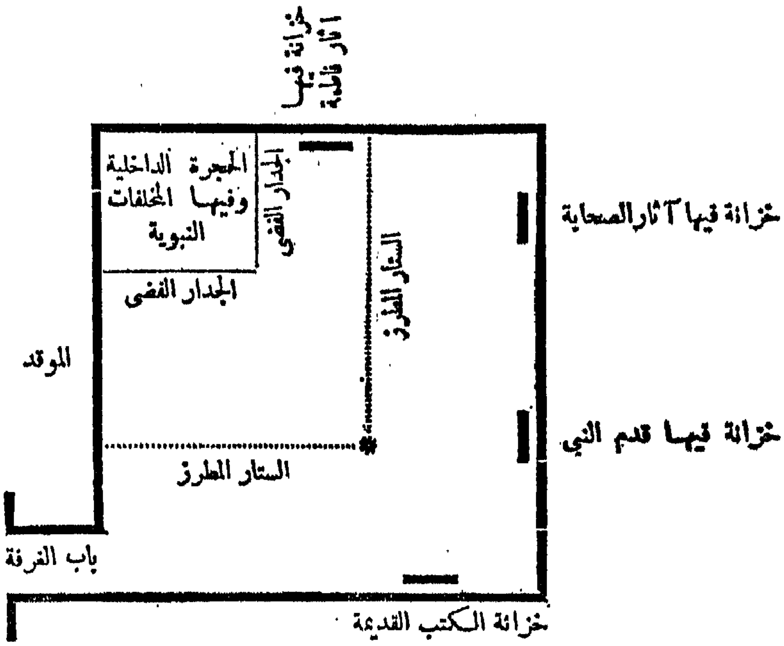
وكان لخاتم الخلفاء عندهم مقام عظيم ، اذا تناوله الوزير او غيره ليختم به كتاباً وقف على رجليه تعظيماً للخلافة . وكانوا اذا ختموا كتاباً دافوا الطين او المداد وطبعوه على صفح القرطاس او على جسم لين كالشمع حتى ترتسم صورة الختم عليه . وقد يكون ذلك في آخر الكتاب او في اوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح او اسم الخليفة او شيء يعنونه ، ويكون ذلك اشارة الى صحة ذلك الكتاب ويكون الكتاب بدونه ملغى ، ويسمون الختم ايضاً علامة .

ولما نسأت السلطنات جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة ، وسموهـا الطغراء . وهي نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها القاب الملك ، وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده . وكانت الدولة السلجوقية تسمي ديوان الانشاء ديوان الطغراء .

والطغراء سمي بها الحسين ابو اسماعيل الطغرائي صاحب لامية العجم المشهورة ، كان وزيراً للسلطان مسعود السلجوقي وكان خطه جميلا ويكتب تلك الطغراء بخط جميل فلقبوه بها ، ويقال انه اول من كتبها (قتل سنة ٥١ هـ) .

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم ، ولكنهم كانوا ينقشون عليها عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم ابي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظا ياعمر » وخاتم عثمان « لتصـبرن او لتندمن » وخاتم علي « الملك لله » ، وجرى على نحو ذلك خلفـاء بني امية وبني العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . والغالب ان يكون بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد كان نقش خاتم المأمون « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » ، وختم الواثق « الله ثقة الواثق » ، وختم المتوكل « على الله توكلت » ، والمعتمد « اعتمادي على الله وهو حسبي » ، وقس على ذلك .

وكانوا يعبرون عن علامات الخلافة ايام الخلافة العثمانية بالمخلفات النبوية ، وكانت محفوظة في الآستانة في صندوق من الفضة في غرفة بقصر طوب قبو . وهي : البردة ، وسن من اسنان النبي ، وشعرات من شعره ، ونعاله ، وبقية من العلم النبوي ، واناءان من حديد يقال ان ابراهيم الخليل كان يشرب بهما من بئر زمزم ، وجبة الامـام ابي حنيفة ، وذراع سيدنا يحيى . ويحتفلون بزيارة هذه المخلفات في ١٥ رمضان من كل سنة ، فيخرج السلطان بموكبه الى السراي المذكورة ، فيؤدي فروض الزيارة والتبرك بها ومعه كبـار رجال الدولة ، وقد وصفنا هذه الغرفة في السنة الثامنة عشرة من الهـلال ورسمها في الصفحة التالية .



اما القضيب فهو ثالث علامات الخلافات ، واذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب . وظل الامر على ذلك في بني امية وبني العباس .

شارات الخلافة

وشارات الخلافة ايضاً ثلاث : الخطبة ، والسكة ، والطراز .

الخطبة

هي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة ، وأصلها ان الخلفاء كانوا يتولون امامة الصلاة بانفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي والرضى عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا اليها العمال ، صار الولاة يتولون امامة الصلاة في ولايتهم ، فكانوا اذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . وأول من فعل ذلك منهم عبدالله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الامام علي ، فانه وقف على منبر البصرة وقال : « اللهم انصر علياً على الحق »[1] واتصل العمل على ذلك فيما بعد ، وصار الدعاء للخليفة في بلاد علامة سلطانه عليها . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين والأمراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون اسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقلون في الدعاء لأنفسهم ، ولا يزال الدعاء على المنابر لأولي الأمر الى اليوم .

السكة والنقود

ومن شارات الخلافة — او هي شارات الملك على الاطلاق — الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة او السلطان ويقال لها السكة . وهي لازمة للدولة واليك خلاصة تاريخها :

نقود العرب قبل الاسلام

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر ، وهي الدراهم والدنانير . وكانت الدنانير على الاجمال نقوداً ذهبية ، والدراهم نقوداً فضية ، بما يقابل الجنيه والريال عندنا . وكانوا يعبرون عن الذهب بالعين ، وعن الفضة بالورق . وكان عندهم ايضاً نقود نحاسية ، منها الحبة والدانق . ومرجع قيمة هذه النقود الى الوزن ، لأن المراد بالدينار

---

١ — ابن خلدون ٢٢٥ ج ١ .

قطعة من الذهب وزنها مثقال عليه نقش الملك او السلطان الذي ضربه . والمراد بالدرهم وزن درهم من الفضة ، ويسمونه الوافي. ويقدرون الدينار بثمانية واربعين قرشاً مصرياً ، وكان الدينار عندهم عشرة دراهم ، وربما اختلفت قيمته الى ١٣ او ١٥ درهما او اكثر ، على حسب الاحوال . فكان الدرهم يقابل أربعة قروش ونصف في المتوسط .

الدراهم

وقد ذكر صاحب الأحكام السلطانية ان الدراهم الفارسية كانت ثلاثة اوزان : منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطاً وهي الدراهم البغلية ، ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ، ودرهم وزنه عشرة قراريط . وذكر غيره دراهم وزن الواحد منها ستة مثاقيل ويسمونها الدراهم السمرية الثقال ، ودراهم وزنها خمسة مثاقيل وهي السمرية الخفاف ، وكلها فارسية .



الدينار الرومي

الدنانير

وكانت الدنانير عند العرب قبل الاسلام صنفين : دنانير هرقلية او رومية ، ودنانير كسروية او فارسية . وكذلك كانت الدراهم ،ولكن الغالب ان تكون معاملتهم بالدنانير الرومية والدراهم الفارسية . ولذلك كانت الهرقلية أعز عندهم وارغب ، حتى ضربوا المثل بجمالها وزهوها .

والدينار لفظ لاتيني ، والاصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوي عشرة آسات ، والآس درهم من دراهم الروم . والدينار ضرب اولا لهذه الغاية ،وهو مشتق عندهم من(Deni) أي عشرة ، وكان وزنه سبع الاوقية الرومانية او جزءاً من مائة من الرطل (الليبرة) ، اي انهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضة الى مائة دينار ثم ضربوه من



الدينار الفارسي

الذهب ، فصار عندهم ديناران : الواحد من الفضة ، والآخر من الذهب . وعنهم اخذ الفرس فضربوا نقوداً مثلها وسموها باسمها .

النقود الاسلامية

وما زال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم ، فكان في جملة عوامله السكة ، فضربوا الدراهم والدنانير اولاً مشتركة بينهم وبين الروم والفرس ، منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة ، وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك ، وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية Xaved وهـذه الاحرف (Bou) ، ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني ناقل هذا الرسم انها مقتطعة من « ابو سليمان » كنية خالد بن الوليد .



نقود خالد بن الوليد

وهناك قطعة اخرى ضربت باسم معاوية ، ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله إلا اسم معاوية عليه ، وقد نقلنا رسمه عن الدكتور مولر المشار اليه ايضاً .



نقود معاوية بن أبي سفيان

وذكر الدميري في كتاب «حياة الحيوان» ضرباً من النقود يقال لها البغلية ، قال ان « رأس البغل » ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية « نوش خور » اي كل هنيئاً .

وذكر المرحوم جودت (باشا) انه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين ، اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ في قصبة هرتك طبرستان ، وعلى دائرها بالخط

الكوفي « بسم الله ربي » ، ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هـذه العبارة ايضاً، ونقداً ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته « عبدالله بن الزبير أمير المؤمنين » بخط بهلوي.
وقال المقريزي :

« واول من ضرب المعاملة في الاسلام عمر بن الخطاب في سنة ثماني عشرة من الهجرة على نقش الكسروية وزاد فيها « الحمد لله محمد رسول الله » ، وفي بعضها « لا اله الا هو » وعلى جزء منها اسمه « عمر » . وعبد الله بن الزبير ضرب بمكة دراهم مستديرة ، وهو اول من ضرب هذه الدراهم ونقش بدائرها « عبد الله » وبأحد الوجهين « محمد رسول الله » وبالآخر « امر الله بالوفاء والعدل » .

عبد الملك والنقود

على ان هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية في الدول الاسلامية ، بل كانت اكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية . فاتفق في ايام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ — ٨٦ هـ) ان هذا الخليفة اراد تغيير الطراز من الرومية الى العربية كما سيجيء ، فشق ذلك على ملك الروم ، فبعث اليه يهدده بأن ينقش على دنانيره شتم النبي فعظم هذا الامر على عبد الملك ، فجمع اليه كبار المسلمين واستشارهم ، فأشار عليه احدهم بمحمد الباقر احد الائمة الاثني عشر من الشيعة وكان يقيم في المدينة ، فــلم يشأ عبد الملك ان يستنجد احد ائمة بني هاشم وهم مناظروه في الملك — لكنه لم ير بداً من استقدامه ، فكتب الى عامله في المدينة ان « اشخص إلي محمد بن علي بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة الف درهم لجهازه و٣٠٠٠٠٠لنفقته، وارح عليه في جهازه وجهاز من يخرج من اصحابه » فلما قدم محمد الى دمشق استشاره عبد الملك فيما ينويه ملك الروم في الاساءة بالاسلام ، فقال محمد: « لايعظم هذا عليك . ادع هذه الساعة صناعاً فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانــير ، وتجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) احدهما في وجه الدرهم او الدينار والآخر في الوجه الثاني ، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيهــا تلك الدراهم والدنانير ، وتعمد الى الوزن ثلاثين درهماً عدداً — من الاصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل ، وعشرة منهــا وزن ستة مثاقيل ، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون اوزانها جميعاً واحداً وعشرين

مثقالاً — فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل ، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل » .

ففعل ذلك عبد الملك ، وبعث نقوده الى جميع بلدان الاسلام ، وتقدم الى الناس في التعامل بها ، وهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها ، وان تبطل تلك وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكة الاسلامية .

هذا ما قال الدميري ، ولكن ابن الاثير ينسب هذا الرأي الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وغيره ينسبه الى غيره . وتسمى دنانير عبد الملك الدنانير الدمشقية . وامر الحجاج عامله في العراق ان يضرب الدنانير على ١٥ قيراطاً من قراريط الدنانير ، ثم صار امراء العراق يضربون النقود لبني امية في الاكثر .

نقش النقود

ونقش نقود بني امية على احد الوجهين في الوسط « لا اله الا الله وحده لا شريك له » وحول ذلك « بسم الله ضرب هذا الدرهم في بلد كذا سنة كذا» وفي الوجه الآخر بالوسط « الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » وحولها محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء .

وابطل المسلمون استخدام النقود الرومية والفارسية وغيرها من ذلك الحين . واجود نقود بني امية الهبيرية التي ضربها لهم عمر بن هبيرة، والخالدية نسبة الى خالد بن عبد الله البجلي ، واليوسفية التي ضربها يوسف بن عمر ، وكلهم من عمال العراق لبني امية .



نقود عبد الملك بن مروان

فلما افضت الخلافة لبني العباس لم يكن المنصور يقبل في الخراج من نقود بني امية سواها .

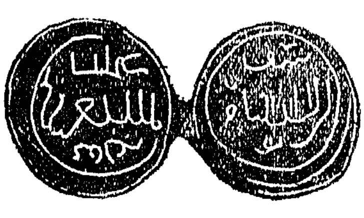
وللنقود الاسلامية تاريـــخ طويل لا محل له هنا . وفي كتابنا « تاريخ مصر الحديث » رسوم اكثر النقـــود الاسلامية واسماء ضاربيها ، ولكننا نقول بالاجمال ان المسكوكات الاسلامية ضربت في كل عواصم الاســـلام وفي اشهر مدنها في العراق والشام والاندلس وخراسان وصقلية والهند وغيرها ، وهي تختلف رسماً وسعة ونصاً باختلاف الدول والعصور .



نقود اسلامية صقلية

وكانت الكتابـــة على النقود تنقش بالحرف الكوفي ، ثم تحولت الى الحرف النسخي الاعتيادي سنة ٦٢١ هـ في ايام العزيز محمد بن صلاح الدين الايوبي بمصر .

ويظهر انهم لم يكونوا يذكرون اسم البلد الذي ضربت النقود فيه الى اوائل القرن الثاني للهجرة . وكانوا اذا ذكروا تاريخ الضرب سبقوه بلفظ « السنة » ثم ابدلوها بلفظ « عام » ، وكثيراً ما كانوا يقولون شهور سنة كذا او شهور عام كذا او في ايام دولة فلان . وكان يكتب التاريخ اولا بالحروف على حساب الجمل ثم كتب على حساب الأرقام ، واقدم ما عثروا عليه مؤرخاً بالارقام سنة ٦١٤ هـ .



نقود العزيز بن صلاح الدين

دار الضرب

وكانت دار الضرب ضرورية للدولة كما نراها ضرورية في هذه الايام ، اذ لا تخلو دولة من دول الأرض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود . وكان ذلك شأن الدول الاسلامية في كل ادوارها ، ولم تكن تخلو عاصمة او قصبة من دار للضرب ، في بغـــداد والقاهرة ودمشق والبصرة وقرطبة وغيرها شيء كثير . وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من النقود يسمونها ثمن الحطب واجرة الضراب ، ومقدار ذلك درهم عن كل مائـة

درهم اي واحد في المائة ، وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، فكان للدولة من ذلك دخل حسن .

وأما مقدار ما كان يضرب في الدولة من النقود فيختلف كثيراً ، ويتعذر تقديره لاختلاف احوال السكة عندهم ، فقد يمر على الدولة اعوام وهي تتعامل بنقود دولة اخرى ولا دار للضرب عندها ، او ربما كانت تضرب نقوداً في عاصمتها وتتعامل بنقود غيرها ايضاً مما لا يمكن ضبطه ، ولكننا نأتي بما اتصل بنا من هذا القبيل على سبيل المثال. فقد ورد في نفح الطيب للمقري ان دار السكة في الاندلس بلغ دخلها من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بني أمية في القرن الرابع للهجرة ٢٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة وصرف الدينار ١٧ درهماً . فاذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد في المائة عن المال المضروب ، بلغ مقدار ما كان يضرب في الاندلس وحدها من ممالك الاسلام ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار او نحو عشرة ملايين جنيه ، وذلك نحو ضعفي ما كانت تضربه انجلترا قبل الحرب العالمية الاولى وهي في ابان قوتها الاقتصادية وثبات عملتها . فاذا اضيف اليها ما كان يضرب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية ، وفي غيرها من المدن الاسلامية يومئذ ، كان مبلغ ذلك شيئاً كثيراً .

وكانت صناعة ضرب النقود في تلك العصور لا تزال في ابسط احوالها ، وهي عبارة عن طابع من حديد تنقش فيه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ، ثم يقسمون الذهب او الفضة اجزاء بوزن الدنانير او الدراهم ، ويضعون الطابع فوق تلك القطعة ويضربون عليها بمطرقة ثقيلة حتى تتأثر وتظهر الكتابة عليها . وكانت هذه الحديدة تسمى اولاً « السكة » ، ثم نقل هذا المعنى الى اثرها في النقود والنقوش ، ثم نقل الى القيام على ذلك العمل والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة ، فصار علماً عليها . ويدخل في دار الضرب كثير من الوظائف ، وفيها عدد كبير من العمال ، من الوازن والضارب وصاحب العيار وغيرهم .

الطراز

ومن شارات الخلافة ايضاً الطراز ، وهو قديم في الدول من عهد الفرس والروم . وذلك ان يرسم الملوك والسلاطين اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة

للباسهم من الحرير او الديباج او الابريسم ، كأنها كتابة خطت في نسيج الثوب لحاماً وسدى بخيط من الذهب ، او بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، ما يحكمه الصباغ بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، للدلالة على ان لابسها من اهل الدولة من السلطان فما دونه ، كما هي الحال في لباس اجناد هذه الأيام ، فترى على بعضهم شرائط القصب والازرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب ، كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها .

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم واشكالهم ، او صور اخرى تشير الى الملك . فلما استقر المسلمون على عرش الاكاسرة والقياصرة وعظمت دولتهم احبوا الاقتداء بهم ، ولم يستحسنوا اتخاذ الصور فاعتاضوا بكتابة اسمائهم وكلمات اخرى تجري مجرى الفأل او الدعاء .

الطراز العربي

واول من نقل الطراز الى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الاموي ، لان الخلفاء الراشدين ظلوا على سذاجة البداوة كما تقدم . فلما افضت الخلافة الى بني امية وخالطوا الروم ، وساروا على خطواتهم في اكثر شؤون دولتهم . وكان في جملة ذلك الطراز على اثوابهم وستور منازلهم وقراطيسهم (والقراطيس برد مصرية كانوا يحملون بها الآنية والثياب) فاتخذ المسلمون الطراز كما كان عند الروم والكتابة عليه بالرومية ، وظلوا على ذلك ايام عبد الملك بن مروان فجعله في العربية ، وبدأ بالقراطيس وكانت تنسج بمصر ، واكثر من في مصر لا يزال على النصرانية ، فكانوا يطرزونها بالرومية وطرازها : « بسم الاب والابن والروح القدس » . فظهر الاسلام وفتحت مصر والشام والطراز باق على ما كان عليه . وكيفية تنبه عبد الملك لذلك ، انه كان يوماً في مجلسه فمر به قرطاس فرأى عليه الطراز بالرومية ، فلاح له ان يستطلع فحواه فأمر ان يترجم بالعربية ، فلما وقف على الترجمة اكبر امرها وقال : « ما اغلظ هذا في امر الدين والاسلام ، ان يكون طراز القراطيس وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل مصر تدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت على هذه الصورة » . ثم كتب الى اخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر بإبطال ذلك الطراز ، على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وغير ذلك ، وان يستبدلوا تلك العبارة بصورة التوحيد : « لا اله الا هو » ففعل . وظل هذا طراز القراطيس في سائر ايام الدول الاسلامية ، ولم يغير شيء من جوهره . وكتب عبد الملك الى عمال الآفاق

جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم، ومعاقبة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل .

فلما حملت هذه القراطيس الى بلاد الروم ، وعلم الامبراطور بخبرها وعلم ترجمة ما فيها انكره واستشاط غيظاً ، فكتب الى عبد الملك : « ان عمـــل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم ، فان كان من تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطأت ، وان كنت قد اصبت فقد اخطأوا ، فاختر احد الحالتين » وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك الهدية واخـــبر الرسول ان لارد عنده ، فأعاد اليه اضعافها وطلب الجـــواب ، فلما لم يرد عليه جواباً غضب الامبراطور وبعث يهدد بنقش سب النبي على النقود ، فكان ذلك داعياً الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود الاسلامية الحقيقية كما تقدم .

ذلك ما كان من امر القراطيس ، والظاهر ان المسلمين تنبهوا للطراز على الاثواب من ذلك الحين ، فجعلوا على ملابس اجنادهم ورجال دولتهم شارة الخلافة، وهي اسم الخليفة او لقبه نحو ذلك . وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها ، فاذا اراد احد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبة له واسقط اسمه من الطراز ، كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان اخاه الامين نكث بيعته .

دور الطراز او الكسوة

وانشأ الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم تسمى دور الطراز ، لنسج اثوابهم وعليهـــا تلك الشارة . وكان القائم على النظر فيها يسمى « صاحب الطراز » ، وهو ينظر في امور الصباغ والآلة والحاكة فيها ويجري عليهم ارزاقهم ويشارف اعمالهم. وبلغت تلك الدور افخم احوالها في ايام الدولتين الاموية والعباسية ، وكانوا يقلدون اعمـــال هذه الدور لخاصة دولتهم وثقات مواليهم . وكذلك كانت الحال في دولة بني أميـــة بالاندلس ، وفي الدولة الفاطمية بمصر ، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم .

ومن هـــذا القبيل ما كان يسمى في الدولة الفاطمية بدار الكسوة ، وكان يفصل فيها جميع انواع الثياب والبز وقيمة ما كان يخرج منها من الكسى ٦٠٠ ٠٠٠ دينار في العام ، وكانت خلعهم على الامراء الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب . وكانت قيمة طراز الذهب والعمامة خمسمائة دينار . وكانوا يفرقون الكسوات مرتين في العام ، مرة لتفريق

كسوة الصيف ومرة لتفريق كسوة الشتاء ، على جميع اهل الدولة من الخدم والحواشي من العمامة الى السراويل. وقدروا عدد القطع التي صدرت منها سنة ٥١٦ ﻫ فبلغت ١٤٣٠٥ قطع . وفي المقريزي فصل خاص في تعداد ضروب الألبسة التي كانت تفرق في تلك الدار .

وما زالت دور الطراز في الدول الاسلامية على نحو ما تقدم ، حتى ضاق نطاق تلك الدول وضعف امرها وتعددت فروعها ، فتعطلت هذه الوظيفة من اكثرها . ولكن الطراز نفسه لم يبطل في ملابسهم ، على انهم لم يعودوا يصنعونه في دورهم ، بل صاروا ينسجون ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعة من الحرير او من الذهب الخالص ،ويسمونه المزركش ويرسم اسم السلطان او الامير عليه . كذلك فعل السلاطين المماليك بمصر . ويشبهه في الدولة العثمانية رسم الطغراء العثمانية ، والشرائط المزركشة على البسة الضباط وغيرهم من رجال الدولة ، والعلامات الاخرى في الدول الاخرى .

واما الهلال في الدولة العثمانية فلم نقف على ما يقابله في دول الخلفاء سوى ما كان يؤخذ من الوان الرايات عندهم ، واختصاص كل لون بدولة كما سيجيء . والظاهر انهم كانوا يطرزون اسماء الخلفاء او القابهم على راياتهم واسلحتهم ، كما كانوا يضربونها على نقودهم .


اسم السلطان بيبرس

فقد ذكر ابن خلكان في ترجمة العزيز بالله الفاطمي ، ان مملكته اتسعت وفتحت له حمص وحماه وشيزر ، وخطب له المقلد بن المسيب صاحب الموصل بالموصل وضرب اسمه ، السكة والبنود. وفي كلام ابي الفداء عن استيلاء بجكم على بغداد انه اتصل بخدمة ابن رايق وانتسب اليه حتى كتب على رايته « الرايقي » ، فالظاهر ان تطريز الاسم على الرايات والبنود بعد ان كان خاصاً بالخلفاء في اوائل الاسلام شاع في اواخر الدولة بين الأمراء وكل ذي سلطان .

وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضاً السرير والمنبر والتخت والكرسي ، وذكروا من شارات الخلافة الآلة وهي الالوية (وهي الاعلام) والرايات والموسيقى ، وسيأتي الكلام عليها في باب الجند .

وِلايةُ الأعمال

الولايات قبل الاسلام

يراد بالولاية الامارة على البلاد ، فيولي السلطان او الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات ، وهي الأعمال في اصطلاحهم . وهذا النوع من الحكومة قديم . وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق ، وتقسم الى ١١ اقليماً تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قصبة . وهاك اسماؤها واسماء قصباتها وعدد المدن التابعة لها :

اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها	اسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها
١ سوريا الاولى	٩	انطاكية	٦ بلاد العرب حوران	١٤	بصرى
٢ « الثانية	٧	حماه	٧ الجزيرة او بين النهرين	١٣	دياربكر
٣ « الثالثة	١٣	منبج	٨ اسروانا	١٢	اورفا
٤ فينيقية الاولى او البحرية	١٢	صور	٩ فلسطين الاولى		قيسارية
			١٠ « الثانية	٦	بيسان
٥ فينيقية الثانية	١٣	دمشق	١١ « الثالثة		بطرا

وكان لكل اقليم حاكم او عامل ، والغالب ان يكون بطريقاً ، والبطريق patricius عند الروم غير البطريرك ، وانما هو لقب جماعة من شرفاء المملكة الرومانية نشأوا بنشوء مدينة رومية ، وكان لهم نفوذ عظيم في دولة الرومان . وكانوا بعد انقسام الدولة الرومانية قد انحط شأنهم ولم يعد لهم عمل في الحكومة ، فلما امتدت تلك المملكة الى افريقية وسائر المشرق ، رأت الحكومة ان هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هيبة

وسطوة ، فجعلوا يولونهم الحكومـــات في تلك المستعمرات ، وفي جملتها الشام ومصر وما يليهـا .

فكان على كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم في قصبته ومعه الجند في القلاع ، وكان على كل من هذه الاقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ، ولهذا الحاكم ان يولي ويعزل من يشاء من حكام الاقاليم . وهو يتولى جباية الخراج والانفـاق على الجند وسائر اعمال الولاية . وكانت مصر ايضاً على نحو هذا النظام من حيث الانقسام الى اقاليم وبلاد ، وحاكمها العام كان يقيم في الاسكندرية .

وكانت العراق وبلاد فارس هكذا ايضاً ، وربما كان ولاتها اكثر تقيداً من ولاة الشام ومصر لقرب دار الملك منهم .

الولايات في الاسلام

فلما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح ، كانوا اذا ارسلوا قائداً الى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه . او شرطوا عليه اذا فتحه فهو امير عليه . وكان ذلك شأنهم من ايام النبي ، فانه ارسل في السنة الثامنة للهجرة ابا زيد الانصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما : « ان اجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » . وكان ذلك (١) .

فلما تولى ابو بكر وبعث البعوث لفتح الشام ، كان اذا عقد لاحدهم لواء على بلد او اقليم ولاه قبل ذهابه لفتحه . هكذا فعل في اول بعث بعثه وولى عليه ثلاثة من كبار قواد الدولة اذ ذاك ، فعقد لواء لعمرو بن العاص وامره ان يسلك طريق ايلة عامــداً الى فلسطين ، وعقد لواء آخر ليزيد بن ابي سفيان وامره ان يسلك طريق تبوك الى دمشق ، وعقد لشرحبيل بن حسنة على ان يسير في طريق تبوك أيضاً الى الاردن . وولى كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم : « اذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله » .

---

١ — البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص ٧٦

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى ابا عبيدة بن الجراح أمر الشام كله وامرة الأمراء في الحرب والسلم ، فأشبه عمله هذا ما كانت عليه الشام قبل فتحها ، وهي ان يكون على كل اقليم عامل ، وعلى عمال الأقاليم وال عام كما رأيت . ولكن حاكم الروم العام كان يقيم في انطاكية ، فاختار المسلمون دمشق بدلاً منها لبعدها عن البحر وقربها من بلاد العرب، عملاً برغبة عمر بن الخطاب ان لا يقيم المسلمون في مكان يحول بينه وبينهم مـاء كما تقدم .

الاحتلال العسكري

وكانت ولاية الاعمال في بادىء الرأي اشبه بالاحتلال العسكري منها بالتملك . وكان العمال او الولاة ، عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة او الحامية . وكانت الجنود الاسلامية تنقسم الى قوات تقيم في قواعد عسكرية بأماكن اقرب إلى طريق الصحراء منها الى السواحل للأسباب التي قدمناها .

وكانت كل قاعدة عسكرية تسمى جنداً ، فيقال جند دمشق وجند قنسرين وجند الاردن ، وكان سلطانها يشمل زماماً واسعاً يعادل زمام الولاية الرومانية او البيزنطية التي تقع فيها القاعدة، ومن هنا فقد اطلق على هذه الولايات التي يحكمها قائد قاعدة عسكرية : الجند، فالجند على هذا الاعتبار هي الولاية العسكرية ، وكانت اكثر ما تكون على الحدود.

فكانت عساكر الشام اربعة اجنـاد تقيم في دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وقوات العراق كانت تقيم في الكوفة والبصرة . وقوات مصر في الفسطاط وضواحي الاسكندرية : ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن ولا يختلطون بالاهلين اول الامر ، وقد منعهم الخليفة عمر بن الخطاب من اتخاذ الزرع ، وشدد عليهم في ذلك ، فكانوا يقيمون في معسكراتهم الى زمن الربيـــع ، فيسرحون خيولهم بالمرعى في القرى يسوقها الاتباع ومعهم طوائف من السادات . وكانوا كثيري العناية بتربية خيولهم واسمائها ، ومن اقوال عمرو بن العاص لجنده في مصر : « لا اعلمن ما اتى رجلاً قد اسمن جسمه واهزل فرسه ، واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك » .

انتشار الاسلام في البلاد المفتوحة

وكان عمرو بن العاص اذا جاء الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم الى حيث احبوا ، فتتفرق العرب في القرى على حسب راياتهم وقبائلهم ، وخصوصاً في منوف وسمنود واهناس وطحا . وكانت قرى مصر كلها في جميع الاقاليم يسكنها القبط والروم ، ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة الاولى من تاريخ الهجرة ، ثم تضاعف في اواسط المائة الثانية . ولم يقووا الا في المائة الثالثة – يؤيد ذلك ان المسلمين لم ينشئوا في القرى مساجد قبل ذلك الحين ، وان القبط كانوا اذا انتقضوا اتعبوا المسلمين ولا يهون على هؤلاء اخضاعهم . وما زالوا في ذلك حتى اوقع المأمون بهم سنة ٢١٦ ﻫ وجعل الاسلام ينتشر في القرى .

وقس على ذلك حال الاندلس لما فتحها المسلمون سنة ٩٢ ﻫ ، فانهم اقروا اهلها على ما كانوا عليه ادارياً وسياسياً ودينياً ، وتركوا لهم اعمال الحكومة وادارة شؤونها ، وانما ابقوا لانفسهم الرئاسة العامة وقيادة الجند . هكذا كانت حال الاعمال الاسلامية في اوائل الاسلام ، الا ما قرب منها من مركز الخلافة كالشام في ايام بني امية ، والعراق في ايام بني العباس .

فكان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الاعمال ، وواجباتهم الرئيسية مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج . وقد رأيت في غير هذا المكان ان اعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق ظلت سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح ، الى اواسط ايام بني امية . وبدأت ولايات الاعمال تتحول الى حكومات محلية من اواخر دولة الراشدين ، حتى كانت ايام عبد الملك بن مروان ، فأتم السيطرة الاسلامية بنقل الدواوين الى اللغة العربية ، واخرج منها من لم يعرف لغة العرب فاجتهد اهل البلاد في تعلم اللغة العربية حتى يحتفظوا بهذه الوظائف ، وبذلك كان هذا الاجراء الذي قام به عبد الملك بن مروان من اهم ما قام به خلفاء الاسلام ، فقد كان له اثر حاسم في تعريب ادارة الدولة الاسلامية وفي نشر اللغة العربية ، ثم تنوعت الولايات وصارت درجات متفاوتة ، على ما اقتضاه الزمان والمكان ، ولكنها ترجع الى امارتين : امارة عامة ، وامارة خاصة . والامارة العامة ضربان : امارة استكفاء ، وامارة استيلاء .

الامارة العامة

١ ـ امارة الاستكفاء

فامارة الاستكفاء او امارة التفويض ، هي التي كان يعقدهـا الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع اهله و ويجعله عام النظر في كل اموره. ويشتمل نظره فيه على سبعة امور :

١ ـ تدبير الجيـوش وترتيبهم في النواحي ، وتقدير ارزاقهم (الا اذا كان الخليفة قدرها) .

٢ ـ النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ ـ جباية الخراج ، وقبض الصدقات ، وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها.

٤ ـ حماية الدين والدفاع عن الحريم .

٥ ـ اقامة حدود الشرع .

٦ ـ الامامة في الصلوات .

٧ - تيسير الحج .

واذا كان الاقليم المشار اليه متاخماً لعدو « ترتب على العامل امر ثامن هو جهاد ذلك العدو ، وقسمة الغنائم في المقاتلة ، واخـذ خمسها لاهل الخمس ، كما هو مفصل في باب الجند والمال .

وكان اكبر ولايات الاسلام على هذه الصورة ، وخصوصاً لما بعد منها عن مركز الخلافة ، كالعراق في بني امية ومصر والشام في بني العباس وخراسان في كليهما .

عمال الاستكفاء في زمن بني امية

ومن عمـال الاستكفاء في ايام بني امية في العراق زياد بن ابيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر ابن هبيرة ، وخالد بن عبيد الله القسري ، ويوسف بن عمر الثقفي ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عمر بن هبيرة . وكانت تسمى امارة كل منهم « امارة العراقين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة .

فكان كل امـــير من هؤلاء يتصرف في امارته تصرف الملوك المستقلين بالكيفية التي قدمناها ، فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته ، ويجبي الامـــوال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور وحفر الترع ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده الى بيت المال في الشام .

وكانت الحال نحو ذلك في مصر ، فقد كان عاملها من عمال الاستكفاء من عهد عمرو ابن العاص فما بعده . وربما كان عامل مصر اكثر استقلالاً من سواه ، وخصوصاً عمرو بن العاص لما تولاها المرة الاخيرة بأمر معاوية بعد ان نصره على علي . وربما فعل معاوية مثل ذلك بزياد بن ابيه لما ولاه خراسان، وبالمغيرة بن شعبة لما ولاه الكوفة رغبة منه في ارضاء اطماع هؤلاء الدهاة كما تقدم .

عمال الاستكفاء في ايام العباسيين

ولما افضت الخلافة الى بني العباس ساروا على نحو هذه الخطة، لكنهم قلما كانوا يجعلون امر العراق مفوضاً للعمال ، لقربه من مركز الخلافة . على انهم كانوا يفوضون العمال في الاقاليم البعيدة ، كالشام ومصر وخراسان وسائر ما وراء العراق نحو الشرق الى اقصى بلاد الترك وما وراء النهر . ولما تمكن البرامكة من الدولة وغلب نفوذهم فيها، ولى الرشيد احدهم — جعفر بن يحيى — الغرب كله ، من الانبار الى افريقية ، وقلد اخاه — الفضل ابن يحيى الشرق كله ، من شروان الى اقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ هـ ، فأقام جعفر بمصر، وأرسل العمال بأمره الى الشام وافريقيا وغـــيرهما . واما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل الى خراسان ، فأصلح وبدل واستخلف عمالاً ، وعاد الى العراق .

وكثيراً ما كان الخلفاء يفوضون إلى بعض خاصتهم عملاً من الاعمال ، فيرسل هذا من يقوم مقامه في ذلك العمل ، ويبقى هو في بلاد الخليفة . واكثر ما كان يقع ذلك في الدولة العباسية ، في عصرها الثاني .

وكانت امارة الاستكفاء هـــذه من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة ، لان الوالي كان يقيم في ولايته كانه ملك مستقل . الا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج الى الخليفة ، والخطبة له ، وضرب النقود باسمه ، وامور اخرى لا تضغط على ارادته . فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً ، جمع اهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله ، اما استقلالاً تاماً واما على مال معين يبعث به الى الخليفة ببغداد،

او على شروط اخرى . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة في افريقية ، وبنو طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر ، ولكن تلك الاقاليم ظلت تعد امارات عباسية من الناحية النظرية على الاقل .

٢ — امارة الاستيلاء

ويراد بامارة الاستيلاء ان يعقد الخليفة لأمير على إقليم اضطراراً ، بعد ان يستولي الأمير على ذلك الاقليم بالقوة . فكان الخليفة يثبته في إمارته ، ويفوض اليه تدبير سياسته فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير ، ويكون الخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين . ولهذه الامارة شروط تفرض على الأمير في مقابل ذلك وهي :

١ — حفظ منصب الامامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الملة .
٢ — الزام الناس بالتزام اشراط العقيدة .
٣ — جمع الكلمة على الالفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم .
٤ — ان تكون عقود الولايات الدينية جائزة والاحكام فيها نافذة .
٥ — ان يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها
٦ — ان تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق .
٧ — ان يهتم الأمير في حفظ الدين .

ولأمير الاستيلاء ان يستخدم الوزراء وغيرهم . ومن هذه الأمارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعب وظهور الدول الصغرى فيها ، كالدولة الحمدانية والبويهية والغزنوية والأخشيدية وغيرها ، وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر ، وتضرب السكة باسمه ، وترسل اليه مالا معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه ، وهو الذي يثبت امراءها ، ويكون الحكم متسلسلاً في أعقابهم .

الامارة الخاصة

واما الامارة الخاصة ، فهي ان يكون الأمير فيها مقصوراً على تدبير الجيش، وسياسة الرعية ، وحماية البيضة ، والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له ان يتعرض للقضاء او الأحكام او لجباية الخراج او الصدقات في شيء ، حتى الامامة في الصلاة ، فربما كان القاضي اولى بها منه . والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده ، فالجباة

يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي ، وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه . والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية .

رواتب العمال

اما رواتب العمال فقد قدرها عمر بن الخطاب ، بعد تدوين الدواوين وتعيين ارزاق الجند . واول ما فعل ذلك لما وجه عمار بن ياسر الى الكوفة وولاه صلاتها وجيوشها ، فجعل له ستمائة درهم في الشهر . وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يقوم بالأمر معه . فبعث عثمان بن حنيف على مساحة الأرض ، وعبدالله بن مسعود على قضاء الكوفة ، وشريحاً على قضاء البصرة . واجرى على عثمان ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم ، وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم في السنة . واجرى على عبدالله مائة درهم في الشهر وربع شاة في اليوم . واجرى على شريح مائة درهم وعشرة اجربة في الشهر . فترى مما تقدم انه فضل عمار بن ياسر عليهم اجمعين ، لأنه كان على الصلاة والجند وهي الإمارة يومئذ . ولما ولى عمر معاوية بن أبي سفيان على الشام ، جعل له الف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال ، فاذا رآهم ربحوا مالاً من شيء قاسمهم واخذ النصف لبيت المال .

وأما بنو أمية فقد نال عمال الأقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة ، منحهم اياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائه . فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد، وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر .

وجرى العباسيون على نحو ذلك ، فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ٣٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته واهميته .

الوزارة وما يتبعها

١ - الوزارة

الوزارة اسمى الرتب السلطانية ، وليست من محدثات الاسلام بل هي فارسية الأصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية . أما اذا اريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره او يعاونه في الحكم ، فهي تتصل بصدر الاسلام . لأن النبي (صلعم) كان يشاور اصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويختص ابا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى ان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الاسلام كانوا يسمون أبا بكر وزيره. وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر ، وشأن علي وعثمان مع عمر . ولكن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين في سذاجة الدولة .

على ان بني أمية لما جعلوا الخلافة ملكاً ، واصبح معولهم في استبقاء ملكهم على السياسة والدهاء ، احتاجوا الى من يستشيرونهم ويستعينونهم في امور القبائل والعصائب واستئلافهم واصطناع الاحزاب منهم ، فاستخدموا اناساً لنحو ذلك الغرض ، وهي الوزارة بمعناها ، ولكن يظهر انهم لم يكونوا يسمون صاحب هذه الرتبة الوزير ، فانقضت دولة بني أمية دون ان يتخذ الخلفاء وزراء ، ودون ان تظهر الوزارة في نظم الاسلام .

ولكن دولة بني أمية عرفت نظام الكتّاب او كتّاب الخلفاء ، ووظيفة الكاتب هي الأصل الذي تطور فيما بعد الى وظيفة الوزير . وقد عرف الاسلام الكتّاب من أول أمره ، وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من الصحابة . وكان لكل واحد من الخلفاء الراشدين كاتب او اكثر يكتب عنه . وعلى هذا النظام مضى بنو أمية .

ولم يكن الكاتب اول الأمر كاتب الدولة بل كاتب الخليفة اي امين سره وصاحب ديوانه وسجلاته ، ثم صار مع الزمن كاتباً للدولة أي أميناً عاماً لها . وقد حدث هذا التطور على ايام عبد الملك بن مروان .

فلما أفضت الخلافة الى بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه ، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، واضيف الى الوزارة النظر في ديوان الحساب ، ثم النظر في المكاتبات لصون اسرار الخليفة . فأصبحت الوزارة شاملة لخطتي السيف والقلم .

واول وزراء بني العباس ابو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العباس السفاح وهو اول من سمي وزيراً في الاسلام ، قال ابن خلكان : « ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها » . وكان ابو سلمة يسمى وزير آل محمد ، كما يسمى ابو مسلم الخراساني أمير آل محمد ، وكلاهما فارسيان . والعباسيون اول من عول على الوزراء ، فسلموا اليهم امور الدولة ، واكثرهم من الفرس . وأشهر وزرائهم البرامكة ، وقد استفحل أمرهم في الدولة حتى اضطر الرشيد الى الفتك بهم في نكبتهم المشهورة .

وتقلبت على الوزارة احوال شتى في أيام بني العباس ، ففي القرن الرابع للهجرة اضيف الى اسم الوزير لقب « صاحب » ، واول من لقب به منهم ابو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس ، وكان اولا وزير مؤيد الدولة بن بويه وعرف بالصاحب ، وصار كل من تولى الوزارة بعده يسمى الصاحب .

وأخذ نفوذ الوزارة في بني العباس يتقلص بتقلص نفوذ الخلفاء ، حتى استبد العمال في الاعمال وتفرعت المملكة العباسية ، فأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى ، فأسقطوها وأبدلوها بامرة الأمراء .

٢ ـ امير الأمراء

عندما عجز خلفاء بني العباس عن ضبط الامور ، بسبب استبداد امراء النواحي بما تحت ايديهم وضعف الخلفاء عن السيطرة على جندهم ، بسبب قلة الجباية والتوقف عن دفع الاعطيات ، اخذوا يستبدلون الوزراء واحداً بواحد ، باحثين عن شخصيات تستطيع القيام بشؤون الدولة ومواجهة المشاكل العسيرة التي واجهتها ، وقد عين الخليفة الراضي سنة (٣٢٢/٩٣٤–٣٢٩/٩٤٠) خمسة وزراء واحداً بعد الآخر ، وكان آخرهم سليمان بن الحسن ابن مخلد . وعندما ضاقت به الحيل اتجه ببصره الى اكبر القواد العسكريين في ايامه ، وهو

ابن رائق ، وكان والياً على واسط والبصرة ، فاستدعاه وسلم اليه مقاليد الامور ولقبه امير الأمراء .

فاستحدث بذلك وظيفة كبرى كانت قاضية على الوزارة ، وكان لها اثر بعيد في الهبوط بمستوى الخلافة ، وفي ذلك يقول ابن طباطبا : « واستبد ابن رائق امير الامراء بالامور ، ورد الحكم في جميع الأمور الى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم » — (الفخري ، ص ٢٥٣) .

ويقول مسكويه ان الراضي « عرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله امير الامراء ، ورد اليه تدبير اعمال الخراج ، والضياع واعمال المعادن في جميع النواحي ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك .. » — (تجارب الامم ، ج ١ ص ٣٥٦) .

ويبدو ان ابن رائق لم يكن اول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه ان الخليفة المقتدر منح هذا اللقب لمولاه مؤنس الخادم ، ولقبه بمؤنس المظفر ، ولكن هذه الوظيفة لم تأخذ مظهرها الحقيقي إلا في ايام ابن رائق . وعندما استبد بنو بويه بأمور الخلافة على يد معز الدولة بن بويه ابتداء من سنة ٩٣٢/٣٢٠ انتقل اليهم هذا اللقب .

وما زال هذا اللقب في بني بويه الى سنة٤٤٩ ه ، فانتقل الى السلاجقة الاتراك واولهم طغرل بك ، ثم صار خلفه الب ارسلان من اعظم ملوك زمانه . وظل هذا اللقب في السلاجقة الى سنة ٥٤٧ ه وسقط بسقوط دولتهم في بغداد .

وكان بنو بويه لما استفحل أمرهم يولون امير الأمراء من عند انفسهم ، ولم يتركوا للخلفاء إلا نائباً يسمى « رئيس الرؤساء » ، ثم عاد الخلفاء في ايام السلاجقة الى تولية امير الأمراء .

ومن يتدبر تاريخ منصب الوزارة في الدولة العباسية ، يتبين له انها كانت من جملة أسباب انحلال هذه الدولة ، لأن الخلفاء سلموا مقاليد الحكومة الى وزرائها وتقاعدواعن امور السياسة ، فأصبحوا بتوالي الاجيال عاجزين عنها .

وأما الدول الاخرى ، فالدولة الفاطمية بمصر اول وزرائها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله سنة ٣٦٣ ه . والدولة الأموية في الاندلس كانت الوزارة فيها كما كانت في ايام

أمويي الشام : كانت مشتركة في جماعة يعينهم الخليفة للاعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير في دولة بني العباس ، فيسميه الحاجب ثم سمي الوزير . وكانت هذه الرتبة عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة ، كما كان شأن البرامكة في بغداد .

وزارة التفويض

كانت الوزارة وزارتين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل امارة الاعمال . فوزارة التفويض ان يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الأمور برأيه وامضاءها على اجتهاده، فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة إلا ثلاثة اشياء :

١ – ولاية العهد فان للخليفة ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير .

٢ – للخليفة ان يعزل من قلده الوزير وليس للوزير ان يعزل من قلده الخليفة .

٣ – للخليفة ان يستعفي الامة من الامامة وليس ذلك للوزير .

ومن وزراء التفويض آل برمك ، ويحيي بن اكثم ، وابن الفرات وغيرهم في الدولة العباسية،وأمير الجيوش في الدولة الفاطمية . وقد بلغ من تفويض بني العباس لوزرائهم انهم كثيراً ما كانوا يسلمون اليهم خاتم الخلافة يختمون به الكتب دونهم،وفي حكاية الرشيد مع جعفر والفضل يوم اخذ الخاتم من جعفر وسلمه الى الفضل دليل على مقدار نفوذهم .

وناهيك بحكاية جعفر بن يحيى البرمكي مع عبد الملك بن صالح دليلا على ذلك : كان جعفر في مجلس فدخل عبد الملك بن صالح (ابن عم الرشيد) عليه وهم في الطرب ، فقال له جعفر : « هل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت ؟ » . قال « بلى ان في قلب أمير المؤمنين تغييراً علي فتسأله الرضى عني » . فقال جعفر : « قد رضي عنك أمير المؤمنين » . قال : « وعلي عشرة آلاف دينار » فقال جعفر : « هي حاضرة لك من مالي ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » . قال : «واريد ان اشد ظهر ابني ابراهيم بمصاهرة امير المؤمنين » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « وأحب ان تخفق الولاية على رأسه » قال : « قد ولاه امير المؤمنين مصر » ثم انصرف عبدالملك . وقد اقدم جعفر على ذلك كله من غير استئذان .

وفي الغد دخل جعفر على الرشيد فقال له الرشيد : «كيف يومك يا جعفر بالامس؟». قال جعفر : « فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك بن صالح ، وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً وقال: « لله أبوك ! ما سألك ؟ » . قلت : « سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال : « بم اجبته ؟ » . قلت : « قد رضي عنك امير المؤمنين » . قال : « قد رضيت عنه ثم ماذا ؟ » . قلت : « وذكر ان عليه عشرة آلاف دينار فأجبته : قد قضاها عنك امير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه . ثم ماذا ؟ . » . قلت : « ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة منه ، فقلت له قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية » . قال : « قد أجبته الى ذلك . ثم ماذا ؟ » قلت : « قال واحب ان تخفق الالوية على رأسه ، فقلت قد ولاه امير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته اياها » . ثم انجز له جميع ذلك من ساعته .

وكثيراً ما كان الخلفاء يقلدون وزراءهم مع الوزارة منصباً آخر مهماً ، كما تقلد الفضل ابن سهل رئاسة السيف مع الوزارة ، فسموه ذا الرئاستين .

وزارة التنفيذ

اما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على تنفيذ ما يراه الخليفة ، فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية ، فيمضي ما يأمره الخليفة به من تقليد الولاة ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم . خلافاً لوزير التفويض ، فانه يولي ويعزل كما يشاء ، ويقضي ويمضي بلا حد ولا قياس . ويجوز للخليفة ان يستوزر وزيري تنفيذ : احدهما للحرب مثلاً والآخر للخراج ، ولكنه لا يستوزر الا وزيراً واحداً تفويضيا .

راتب الوزير

اما راتب الوزير فقد كان يختلف باختلاف العصور واختلاف الاشخاص . ولكن الوزراء لم تكن نفقاتهم تقتصر على رواتبهم ، لان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاخوتهم واولادهم وحواشيهم ، وقد فرض المقتدر بالله العباسي لوزيره علي بن عيسى خمسة آلاف دينار في الشهر . واليك راتب الوزير في الدولة الفاطمية وما يلحقه من رواتب اهله واتباعه :

الوزير	راتبه في الشهر	٥٠٠٠ دينار
لكل واحد من اولاده واخوته	« « «	من ٢٠٠ — ٣٠٠ «
لكل واحد من حواشيهم	« « «	من ٣٠٠ — ٥٠٠ «

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع اليهم في المواسم من الهدايا وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها فربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما ياحقهم من الاقطاع نحو ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ دينار في السنة . وسنعود الى الرواتب في الجزء الثاني من هذا الكتاب في الكلام عن مالية الدولة .

السلطان

كان هذا المنصب في اوائل امره لقباً لوزراء الدولة العباسية ، يلقبون به على سبيل التفخيم بأمر الخلفاء كما تقدم ، وذكر ابن خلدون ان جعفر بن يحيى دعي سلطاناً ، ويظهر من بجمل ما نقرأه في كتبهم انهم يطلقون لفظ السلطان على والي بغداد او والي الشام ، ولعله رئيس الشرطة او ما يشبه المحافظ اليوم . وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه ، وكل ذلك على سبيل المجاز . ولم تصر السلطنة رتبة رسمية الا في ايام محمود الغزنوي بن سبكتكين ، وهو اول سلطان في الاسلام ، سمي به في اواخر القرن الرابع للهجرة بدلاً من لقب أمير الامراء الذي ذكرناه . وكأنه ابتذل كما ابتذل اسم الوزير قبله ، فأبدلوه بلقب سلطان . وصار بعد ذلك لقباً لملوك الاتراك والاكراد والجراكسة ، وغيرهم من السلاجقة والايوبية والمماليك والعثمانيين . والوزارة لم يكن الارث شرطاً فيها ، فلما صارت الى السلطنة صار الارث شرطاً فيها ، والسلطان يعهد الى ولي عهده قبل موته .

وذكر ابن خلكان في ترجمة الرازي الطبيب أن الملوك السامانية كانوا يسمون ملوكهم « سلطان السلاطين » [(١)] — والملوك السامانية قبل الغزنوي — فالظاهر ان هذا اللقب كان معروفاً من قبل ، فاذا صح ذلك كان لقب الغزنوي موروثاً عنهم . ولكننا رأينا لبعض الباحثين كلاماً في شأن هذا اللقب يرجح قولنا الاول ، والا فربما كان ذلك اللقب عند السامانية قبل اعتناقهم الاسلام ، فيكون محمود اول سلطان في الاسلام والله اعلم .

وكان الخلفاء هم الذين يولون السلاطين ، وان كانت القوة في ايدي هؤلاء ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك من وجهه الديني . وكانوا يحتفلون بتولية السلطان احتفالاً شائقاً ،

فيخلع عليه الخليفة سبع خلع ، ويلبسه طوقاً وتاجاً وسوارين ، ويعقد له اللواء ، ويقلده السيف ، ويخطب له .

ومن أمثلة ذلك احتفال الخليفة المستظهر بالله بتولية محمد بن ملكشاه في بغداد بحضور أخيه سنجر[١] ، فأن الخليفة جلس لهما في قبة التاج على سدته ، وعلى كتفه بردة النبي ، وعلى رأسه العمامة ، وبين يديه القضيب ، وافاض على محمد بالخلع والبسه الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له اللواء بيده وقلده سيفين وأعطاه خمسة افراس بمراكبها ، وخطبوا له بالسلطنة في جامع بغداد .

وكانوا يلقبون السلاطين يوم الاحتفال بتوليتهم القاباً تشير الى تأييد الخلافة بهم ، مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك .

---

١ - ابن خلكان ٧ ٤ ج ٢

الجند وتوابعه

تاريخ الجند

اصل الجند ونظامه

كان الناس في اوائل ادوار تمدنهم قبائل جندها رجالها ، اذا احتاجت الى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب ، وينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة بطشه ، فلما تحضر الناس وتقاسموا الاعمال ونشأت الدول كان من اقدم المهن عندهم الكهانة والجندية .

واول دولة نظمت الجند الدولة المصرية الفرعونية ، فقد جندت جيشاً من الزنوج والاحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، اخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر . ثم انتشر امر التجنيد في الدول القديمة في أشور وبابل وفينيقية واليونان والرومان والاسلام .

فالفراعنة اسبق الامم الى تنظيم الجند ، وكان نظامه عندهم الصفوف المتعاقبة المتراصة ، وعلى آثارهم كثير من صور هذه الصفوف . والمشهور ان رعمسيس الثاني هو منظم الجند المصري على النظام المعروف لأنه كان يحب الحرب ، وبلغ عدد جنده ٦٠٠٫٠٠٠ راجل و ٢٤٠٠٠ فارس و٢٧٠٠٠ مركبة وعمارة بحرية . واقتبس البابليون والفرس هذا النظام مع بعض التعديل على مقتضيات الأحوال ، وبه تغلب قورش وقمبيز في حروبهما مع اليونان وغيرهم .

جند الروم

وأما اليونان فانهم اقتبسوا نظام الجند المصري ونوعوه ، فأنشأوا الكتائب ويعبر عنها في لسانهم بلفظ Phalanx وهو ان تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة ، وكانت الكتيبة

تتألف من ٤٠٠٠ رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة اقدام في صفوف متعاقبة ، الواحد وراء الآخر . فجعلها فيليب المقدوني ضعفي ذلك ، ثم جعلها ابنه الاسكندر اربعة اضعافه ، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تماس اكتافهم وتترابط تروسهم . واصطنع لهم رماحاً طول بعضها ٢٣ قدماً . وتكون رماح الصف الامامي قصيرة ، ورماح ما وراءه اطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة اقدام نحو الامام . وكان فيليب قد نظم فرقه من الفرسان ، فأضاف ابنه اليها آلات الحرب وفي جملتها المنجنيق ، وبهذا النظام تغلب الاسكندر على العالم في القرن الرابع قبل الميلاد .



كتيبة الاسكندر في اثناء المعركة وقد فتكت رماحها بالاعداء

جند الرومان

فلما نشأت دولة الرومان اقتبست نظام الكتائب عن اليونان وأدخلته في جندها ، وكان الجيش الروماني في ابان الدولة مؤلفاً من فرق عدد رجال كل منها ٦٠٠٠ تتألف من ثلاث طبقات من الرجال .

١ ــ الشبان ومنهم يتألف الصف الأول من الكتيبة في الحرب .

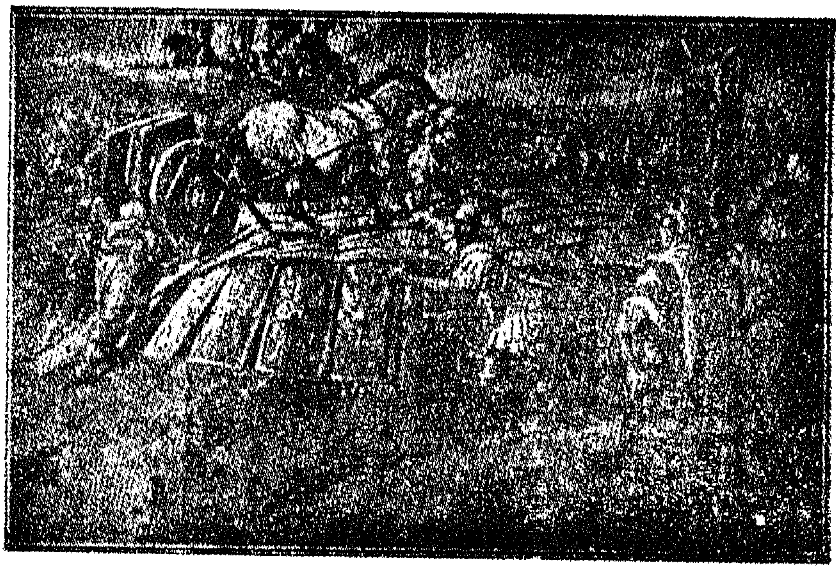
٢ ــ الكهول في الصف الثاني .

٣ ــ اهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث .

وكان يلحق كل فرقة عندهم كوكبة من الفرسان تتقلد السهام والمقاليع والمزاريق لمشاغلة الاعداء عن حرب المشاة .

ثم قسم الرومان الفرق الى كراديس ، والكراديس ثلاثة اقسام ، وكل قسم فصيلتين عدد رجال كل منهما مائة رجل . وهذا النظام يخالف نظام الكتائب المتقدم ذكره بأن لا يتقيد الجند بصف واحد او كتيبة واحدة ، بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منها كردوس . وظل نظام الجند الروماني في حروبه على هذه الصورة الى الفتح الاسلامي .

ولما ظهر الاسلام كانت جنود الروم ١٢٠٫٠٠٠ ، يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب ان يكون بطريقاً ، وتحت البطريق ضابطان يسمى كل منهما طومرخان يتولى قيادة ٥٠٠٠ ، وتحت الطومرخان خمسة طرنجارية Drungarii كل واحد يقود الف رجل ، وتحته خمسة قوامس واحدهم قومس Comes يتولى قيادة ٢٠٠ جندي ، وتحت القومس قمطرخ Centuriones ، وتحته الدمرداخ ، وهذا تحته عشرة رجال . وترى في هذا النظام مشابهة كلية بنظام جند هذه الايام .



قواد الروم وأجنادهم وآلاتهم واسلحتهم

واما الفرس فقد كان جندهم اربع طبقات : الاولى طبقة القواد العظام ويسمى واحدهم ميرميران ، تحته أربعة قواد يسمى كل منهم اصفهبذ ، وتحت كل اصفهبذ اربعة

مرازبة ، وتحت كل مرزبان اربعة سالارية ،وتحت كل سالار عشرة اساورة (وهم الفرسان المفردة) وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة .

جند العرب

اما العرب قبل الاسلام فقد كانوا اهل بداوة لا نظام للجند عندهم ، وانما كانوا قبائل اذا ارادت احداها حرباً جردت رجالها، وفيهم الفرسان والمشاة ومعهم الاسلحة المعروفة في الجاهلية ، كالقوس والرمح والسيف .. الا ما كان من نظام الجند في الدول العربية التي تمدنت قبل الاسلام ، كالتبابعة ملوك حمير والمناذرة ملوك الحيرة : فقد ذكروا للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى احداهما الدوسر والاخرى الشهباء . واما عرب الحجاز فقد كانوا قبل الاسلام على الفطرة البدوية كما قدمنا .

فلما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب ، واتحدوا بجامعة الدين يداً واحدة في محاربة اعدائهم ، فكانوا كلهم جنداً كبيرهم وصغيرهم . واول جنود المسلمين المهاجرون، فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالانصار وصاروا جميعاً جنداً واحداً قائدهم النبي بنفسه ، ورابطتهم المعاهدة والمؤاخاة وعددهم يومئذ قليل جداً .

جند العرب في دولة الراشدين

ثم جعلوا يزدادون بالفتح والغزو في ايام النبي وابي بكر ، بمن انضم اليهم من قبائل العرب في الحجاز واليمن ونجد واليمامة كباراً وصغاراً ، تجمعهم جامعة الاسلام ، حتى تكاثروا فتكاتفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ، ففتحوا البلاد ومصروا الامصار ، وانقسموا الى اجناد يقيم بعضها في مصر وبعضها في الشام وبعضها في العراق ، في محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون ، فكان جند البصرة مثلاً خمسة اقسام تسمى الاخماس ، يقيم في كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم : الازد وتميم وبكر وعبد القيس واهل العالية « قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة » وكانوا يسمون اهل العالية والكوفة اهل المدينة، وكان على كل خمس امير من امراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر اجناد المسلمين في الكوفة والفسطاط مما مصره

المسلمون ، او في غيرهما من مدن العراق والشام ومصر ؛ فقد كان لهم في كل إقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية .

كل ذلك والمسلمون كلهم جند محارب لا يعمل احد منهم عملاً . وقد نهاهم عمر بن الخطاب عن الزرع ، كأنه رآهم بعد ان فتحت لهم الامصار ورأوا خصب الارض قد مالوا الى الرخاء والتقاعد عن الحرب ، فأمر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعون ، ولعله أراد بذلك ان لا يتوطنوا في بلد ، اذ ربما مست الحاجة الى تجنيدهم لنجدة إخوانهم في بلاد اخرى او لحماية بعض الامصار فلا يثقل عليهم ذلك .

تنظيم جند العرب

في ايام بني امية

اما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين ، فقد بدأ في ايام عمر عند تدوين الدواوين كما سيأتي ، وتم في ايام بني امية . ويظهر ان التجنيد الالزامي بدأ في اواسط هذه الدولة ، وكان الناس من قبل يذهبون الى الحرب جهاداً في سبيل الله فيصيبون الغنائم والفيء ، فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥ هـ) اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة ، وكل طائفة تندفع الى ذلك دفاعاً عن رأيها واعتقادها بأنها تدرأ عن الحق . فلما افضى الامر الى بني امية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضعفت قوة الاحزاب بتغلب العنصر الاموي ، لم يعد الناس يرون ما يدفعهم الى الحرب طوعاً ، فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء الى التجنيد بالالزام .

ولعل اول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . وكانت الدولة الاموية قد بلغت ذروة مجدها ، وكثر المسلمون ومالوا الى العمل في الارض واطلق لهم السراح . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب في ايام معاوية ، فغلبهم بدهائه وعطائه . فلما تولى ابنه يزيد ، ثم معاوية الثاني ، ثم مروان بن الحكم — ولم يكن فيهم من يملك القلوب او الاعناق — تجرأ الجند على التقاعد . فتولى عبد الملك الخلافة والجند على ما تقدم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك الى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له : « يا امير المؤمنين ، ان في شرطتي رجلاً لو قلده امير المؤمنين عسكره

لارحلهم برحيله وانزلهم بنزوله يقـــال له الحجاج بن يوسف » فأطاعه عبد الملك وقلد الحجاج امر العسكر .

وكان الحجاج شديداً عاتياً، فلم يعد احد يتخلف عن الرحيل والنزول الا اعوان روح ابن زنباع ، فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام ، فقال لهم : « ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟ » فقالوا له : « انزل يا ابن اللخناء فكل معنا ! » فقال : « هيهات ! ذهب ما هنالك ! » . ثم امر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وامر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار ، فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له : « مالك ؟ » فقال : « يا امير المؤمنون ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي واحرق فساطيطي » . قال : « علي به » . فلما دخل عليه قال : « ما حملك على ما فعلت ؟ » . قال : « ما انا فعلته يا امير المؤمنين » . قال : « ومن فعله ؟ » . قال : « انت والله فعلته ! انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين الا ان يخلف على روح بن زنبـــاع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له » فأخلف الخليفة لروح بن زنباع ما ذهب له ، وتقدم الحجـــاج في منزلته ، وكان ذلك اولما عرف من كفايته .

فيشبه ان يكون ذلك اول تاريخ التجنيد الالزامي ، ثم صار التجنيد سنة واصبـــح الجند الاسلامي فئتين : المرتزقة والمتطوعة ، وكلاهما عرب يرجعون في انسابهم امـــا الى قحطان وهم اليمنية ، او الى عدنان وهم المضرية ، وفيهم جماعة من الموالي او العبيد .

جند الاعاجم في الاسلام

١ — في الدولة العباسية

فلما تولى بنو العباس واحتاجوا الى مؤازرة الاعاجم في تأييد سلطانهم ، دخـــل في جند العرب جماعات منهم ، واول من دخل في الجند الاسلامي منهم آل خراسان، لأنهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم ،وسلموا اليهم ازمة الخلافة بقيادة ابي مسلم الخراساني، فكانت فرق الجند في ايام المنصور ثلاثاً : اليمنية ، والمضرية ، والخراسانية ، ثم اضيف اليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص ، اتخذها الخلفاء خوفاً مما كانوا ينصبونه لهم من الحبائل او يقيمونه عليهم من الثورات . ومن غريب هذه الأعمـــال ان الأمر الذي اراد الخلفاء ان يحفظوا سلطانهم به كان علة خروج ذلك السلطان من ايديهم ...

ولما أفضت الخلافة الى المعتصم بالله (سنة ٢١٨ هـ) كانت العناصر الاجنبية قد تمكنت من الدولة ، وزاد الخلفاء خوفاً على انفسهم . فخاف المعتصم من جنده على نفسه ، فاصطنع قوماً من الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) استخدمهم في حاشيته ، وسماهم المغاربة — لأن مصر غربي بغداد — ولعل فيهم بعض اهل المغرب ، وجمع خلقاً من اشروسنة وسمرقند وفرغانة ابتاعهم من اسواق بغداد تدريجاً وجند منهم جنداً سماه جند الفراغنة ثم سموا الأتراك . وقد كانوا اشد خطراً على الدولة العباسية من سائر فرق الجند، وآل الأمر بهم الى الاستبداد بأهل الدولة ، واحتقار الجند العربي الأصلي واساءة سائر أهل بغداد ، حتى



جند من المسلمين باعلامهم وابواقهم في القرن الثامن للهجرة نقلاً عن مخطوط قديم

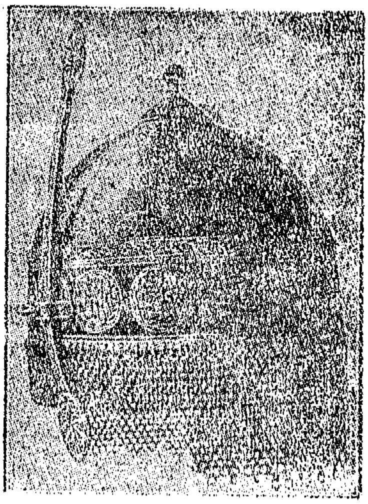
انهم كثيراً ما كانوا يركبون الدواب في شوارع بغداد ويركضونها ، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي ، فتأذى الناس وشكوا أمرهم الى المعتصم، فلم ير سبيلاً الى ملافاة ذلك إلا باخراج جنده من بغداد ، فبنى لهم سامرا (سنة ٢٢١ هـ) واقام معهم فيها .

وكانت خلافة المعتصم بدء نفور العرب من خلفائهم وشكواهم منهم . وكانوا يعبرون بالجند يومئذ عن الأتراك وغيرهم من الأعاجم ، « وبالحربية » عن جند العرب وكلهم مشاة ، ثم المتطوعة وهم الذين يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم ، ويغلب ان يكون المتطوعة في الحروب خارج حدود المملكة الاسلامية . وكان من فرق الجند عند الخلفاء النشابون الذين يرمون النشاب ، والنفاطون الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء ، والمنجنيقيون رماة المنجنيق وهم مثل مدفعية هذه الايام، والعيارون وهم رماة الحجارة من المخابي . وكان للجند أطباء وصيادلة يرافقونه في الحرب والسلم ، كما تفعل الدول المتمدنة اليوم .

ثم نشأت فرق أخرى من جند الاتراك وجعلوا يتنازعون النفوذ في الدولة ، وكان في جملة تلك الفرق فرقة الشاكرية .. ظهرت في ايام المهتدي واستفحل أمرهـا في ايام المستعين بالله ، ونشأ في أثناء ذلك ضرب من الحرس الخاص في قصور الخلفاء يسمونهم الغلمان الحجرية ، وكان في دولة الفواطم بمصر فرقة منهم ، وتحول قسم كبير من جند المشاة العرب الى فرقة عرفت بالرجال المصافية ، ثم تشكلت فرقة عرفت بالفرقة الساجية نسبة الى ابن الساج احد عمال المقتدر بالله ، وهناك فرق اخرى من الأتراك وغيرهم نقرأ اسماءهم عرضاً في تاريخ الدولة العباسية كالبلالية والسعدية وغيرهما . وكانت كل فرقة تستعمل نفوذها في الدولة على ما يبلغ اليه جهدها ، وكثيراً ما كانت تقوم الفتن فيما بينها وبين حرس الخلفاء ، حتى آل الامر الى خروج الاحكام من العرب على الاجمال، ونسي أمر قريش والعرب كما سيأتي . وصارت الاحكام الى الاتراك ونحـوهم ، فنشأت منهم الدول المشهورة . وتقلبت نظم الجند بعد قيـام دول الاتراك الكبرى على احوال شتى ، نذكر منها نظامهم في زمن السلاطين المماليك بمصر ثم العثمانيين .

٢ — جند السلاطين المماليك بمصر

كان جند المماليك اخلاطـاً من الاتراك والجركس والروم والاكراد ، واكثرهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات اعلاها الامراء ومن يليهم الى الجندي البسيط . وامـا الامراء فهم كالضباط في هذه الايام ، ومنهم من له امرة مائة فارس او اكثر الى الـف فارس ، وهؤلاء من الامراء يسمون اكابر النواب ، وتحتهم امراء الطبلخانات ولكل منهم امرة اربعين فارس الى السبعين ، ولا تكون الطبلخانة لاقل من ٤٠ فارساً ، يليهم امراء العشرات من عشرة الى اربعين ، ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل اربعين منهم مقـدم ليس له حـكم عليهـم إلا اذا خرج العسكر ، وكانت قيادتهم اليه وكانت رواتبهم تعطى بالاقطاع كما سيجيء .



خوذة احد السلاطين المماليك بمصر

وكان لهم في الجند مناصب تتفاوت رفعة ونفوذاً ، اهمها امير السلاح وصاحبها يتولى حمل السلاح للسلطان ، والدوادار لتبليغ الرسائل عن السلطان وهو من امراء المئين ، والحاجب يقف بين الامراء والاجناد ، وامير جاندار كالمتسلم للباب ومن اراد السلطان قتله كان على يده ، والاستاذ دار يتولى امر بيوت السلطان ونفقاتها ، ونقيب الجيش لاحضار من يطلب السلطان احضارهم ، والوالي وهو صاحب الشرطة[١] . وقد تولدت هذه المناصب في دولة المماليك بالتدريج حسب الاحوال ، ومن اكثر السلاطين عملا في ذلك السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري ، فانه من كبار المؤسسين لهذه الدولة .

ولهم في تدريب ذلك الجند طرق خاصة بهم ، يبدأون به منذ دخول المملوك في ملك السلطان : اذا قدم تاجر عرض مملوكاً على السلطان يشتريه ويجعله في طبقته ، ويسلمه الى الطواشى برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكانت كل طائفة لها فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات والاذكار . وكان الرسم اذ ذاك ان لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه واقرأه في مقدمة. فاذا صار الى سن البلوغ اخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح او رمي النشاب لا يجسر جندي ولا امير ان يحدثهم او يدنو منهم ، فينقل عند ذلك الى الخدمة وينتقل في اطوارها رتبة بعد رتبة ، الى ان يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل .

ولما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ ضعف أمر المماليك ، لكنهم ما زالوا محافظين على جنديتهم يتوارثون تقاليدها اجيالاً . حتى تولى محمد علي ففتك بالمماليك في قلعة القاهرة سنة ١٨١١ واباح قتلهم حيثما وجدوا ، فلم ينج من امرائهم الا مملوك اسمه امين بك وثب بجواده من امام باب القلعة في اثناء المذبحة فقتل جواده ونجا هو ، وانقرض المماليك وجندهم من ذلك الحين[٢] . وكان جند محمد علي من الالبانيين ، ثم اتخذ الجند النظامي من المصريين .

---

١ – السيوطي ١١٢ ج ٢ .   ٢ – تاريخ مصر الحديث ج ٢ .

الجند العثماني الانكشارية

وللجند العثماني تاريـخ طويل ، يبدأ منذ تأسيس الدولة العثمانية ، وقد بني على نظام جند السلاجقة . ثم نشأ جند الانكشارية المشهور ، انشأه قره خليل احد كبار رجـال الدولة العثمانية في زمن السلطان اورخان . وقد نظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعثه على التمرد [١] وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثر اهلها مسيحيون ، فيدخل في حوزتهم من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، فارتأى ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية ، ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه التمرد . لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملاً غير الجندية ، ولا دينا غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحـاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ، ليدعو لهم ، فدعا لهم وسماهم : « يكي جري » اي الجند الجديد .

ولم يكن قره خليل هـذا اول من جند غلمان النصارى ، كما يظن اكثر مؤرخي الاتراك . فان الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية ، وهو متوجه الى دمشق سنة ٥٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس ، فنزل بلداً اسمه قارا بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب اهلها النصارى وقتل كبارهم ، لانهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سراً للصليبيين ، واخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الاتراك في الديار المصرية ، فنشأوا على الاسلام وتجندوا في الجيش التركي .

على ان قره خليل جعل شروطاً للانكشارية لم يسبق لها مثيل ، فقسمهم الى وجاقات ، واحدها وجاق . والوجاق يقسم الى اورط ، احداها اورطة . ولكل اورطة عدد تعرف به ، ولبعضها اسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل اورطة حسب العصور من ١٠٠ الى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الاورط في الوجاق ، وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكـبر يسمى « آغا » تحته سكبان باشي ، تحته غيره فغيره ، على هذه الصورة :

الاغا	قائد الوجاق ، ويقابل اللواء في هذه الايام .
سكبان باشي	ينوب عن الاغا في الآستانة ويقابل القائمقام اليوم .
قول كخيا او كخيابك	نائب الاغا او السكبان باشي .

---

١ – راجع تاريخ الانكشارية في الهلال ٨ ٤٥ سنة ١٧ .

سمسونجي باشي	قائد اورطة رقم ٧١ .
زغرجي باشي	قائد الاورطة رقم ٦٤ .
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم .
خصكي	ينوب عن الاغا في القيادة على الحدود .
باشجاويش .	قائد الاورطة الخامسة .
كخيايري	ينوب عن الوجاق لدى الاغا .
الافندي	الكاتب .

ولكل اورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها على هذه الصورة :

١ ــ الجوربجي	رئيس الاورطة ، يشبه الكولونيل .
٢ ــ اوده باشي	نائب الجوربجي في المناورات العسكرية وغيرها .
٣ ــ وكيل الخرج	يتولى امر الطعام والشراب .
٤ ــ بيرقدار	يتولى الاعلام والبيارق .
٥ ــ باش اسكي	يتولى قيادة القراقولات .
٦ ــ اشجي	الطاهي

قوانين الانكشارية

قد رأيت ان جند الانكشارية تشكل في زمن السلطان اورخان ، لكن الفضل الاكبر في تنظيمه وترتيبه للسلطان مراد الاول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ ــ الطاعة المطلقة لقوادهم وضباطهم او من ينوب عنهم .

٢ ــ الاتحاد بين سائر الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة .

٣ ــ التجافي عن كل ما لا يليق بالجندي الباسل من الاسراف او الانغماس ، ويكون معولهم على البساطة في كل شيء .

٤ ــ الاخلاص في الانتماء الى الحاج بكطاش من حيث الطريقة ، مع القيام بفروض الاسلام .

٥ ــ لا يقبل في سلك الانكشارية الا الذين يشبون من غلمان الاسرى على التربية الخاصة بين الغلمان الاعاجم .



ابراهيم بن محمد علي في ثوبه العسكري عند اول تشكيل الجند النظامي

٦ ــ ان الحكم عليهم بالاعدام ينفذ بشكل خاص .

٧ ــ يكون الترقي في المراتب على حسب الاقدمية .

٨ ــ لا يجــوز ان يوبخ الانكشارية ولا يعــاقبهم غــير ضباطهم .

٩ ــ اذا عجز احدهم عن العمل يحال على المعاش .

١٠ ــ لا يجوز لهم ارسال لحاهم .

١١ ــ لا يجوز لهم ان يتزوجوا .

١٢ ـ لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .

١٣ ــ لا يجوز لهم ان يتعاطوا عملاً غير الجندية .

١٤ ــ يقضون اوقاتهم في الرياضة البدنية والتمرين بالحركات العسكرية .

فاذا تدبرت هذه القوانين ، هان عليك تصور الاعمال العظيمة التي اتاها هذا الجند في مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام . وقد يتبادر الى الذهن ، لاول وهلة ، ترفع الناس عن الانتظام في هذا الجند ، لانه مجموع لقطاء لا يعرف لاحد منهم اب ولا ام ، لكنك تفهم من البند الخامس من قوانينهم انهم يحظرون على غير اللقيط او المملوك الانتظام في جندهم ، وكان السلاطين يتوخون تعظيم هذا الامر في عيونهم .

وما زال جند الانكشارية معول الدولة العثمانية في حروبها ، حتى صار عقبة في سبيل اعمالها لتمكنه من النفوذ . وقاسى السلاطين منه عذاباً شديداً ، الى ان فتك به السلطان محمود الثاني في اوائل القرن الماضي ، وتم تشكيل الجند النظامي .

ديوان الجُنْد

تأسس ديوان الجند في المدينة ، أسسه عمر بن الخطاب ودون فيه اسماء الرجال وفرض اعطياتهم . ولم يكن هذا الديوان يومئذ بديوان الجند ، لكنـــه كان يسمى « الديوان » فقط . وكان يشمل اسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ، ومقدار اعطياتهم تبعاً للنسب النبوي والسابقة في الاسلام . وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه، ورواتب لأهله واولاده . فكأنه ديوان المسلمين ، باعتبار ان المسلمين كانوا كلهم جنداً في ذلــك الحين . وظل العطاء باعتبار النسب والسابقـــة ، حتى انقرض اهل السوابق ، وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها ، فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء في الحرب .

وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط منها انمن اراد الانتظامفي الجندية يقدم طلباً الى صاحب ديوان الجند ، وهو ينظر في اهليته لها ، ولا يكون اهلا لذلك إلا اذا كان حراً ، بالغاً ، مسلماً ، سليماً، مقداماً . فاذا استوفى هذه الشروط قبل ، ودوّن اسمه في دفاتر الجيش ، مع نسبه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره ، لئـلا تتفق الاسماء .

طبقات الجنود

أما ترتيب الجنود في الديوان ، فظلوا يراعون فيه ما وضعه عمر من السابقة والنسب ، فيترتب الجند اولا باعتبار القبائل والاجناس ، حتى تتميز كل قبيلة من غيرها ، وكل جنس من غيره ، فلا يخلو الجند من ان يكونوا عرباً او عجماً . فان كان عرباً تترتب قبائلهم على حسب القربى من النبي، فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوي ، ثم بما يتفرع عنه ، فالعرب مثلاً عدنان وقحطان ، فيقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر ، فتقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم . ومضر تجمع قريشاً وغير قريش ، فتقدم قريش لان النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وبني أمية وغيرهم ، فيقدم بنو هاشم لأن النبوة فيهم . فــكان بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم من يليهم من أقرب الانساب كما تقدم . وان كانوا عجماً لا يجتمعون على نسب ، فكانوا يجمعونهم على الجنس ،

كالترك والهند ، او على البلد كالخراسانيين والفراغنة والمغاربة . ثم اذا كان لهؤلاء الاعاجم سابقة ، ترتبوا عليها في الديوان ، والا فيترتبون بالقرب من/ولي الامر . فان تساووا في ذلك ، ترتبوا بالسبق الى طاعته . وكان لديوان الجند فروع ، بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقات ، او لغير ذلك مما يختلف باختلاف الاحوال والازمان .

اعطيات الجند

في دولة الراشدين

ويراد بأعطيات الجند رواتبهم التي يستولون عليها في اوقات معينة من العام . وكانت تلك الاعطيات في ايام النبي غير محدودة ، فتتبع ما يقع في ايديهم من الغنائم او الفيء . فكان يفرد خمسه لله ، ويتولى رسول الله انفاقه في مصالح الجماعة الاسلامية حسبما يرى ، ويفرق الاربعة الأخماس الباقية في الصحابة على السواء، بلا تميز في السابقة او النسب . وجرى على ذلك ابو بكر . فلما تولى عمر ووضع الديوان ، ميز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة ، فرتبهم طبقات . وقد ميز راتب كل منهم باعتبار نسبه من النبي ، او سابقته في الاسلام ، او غير ذلك على ما تراه في هذه الجريدة ، وهي عبارة عن رواتب الجند السنوية في صدر الاسلام :

	درهم
لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى	٥٠٠٠
لكل من المهاجرين والانصار الذين لم يشهدوا بدرا	٤٠٠٠
لكل من ازواج النبي	١٢٫٠٠٠
العباس عم النبي	١٢٫٠٠٠
الحسن والحسين	٥٠٠٠
عبدالله بن عمر بن الخطاب بن الخليفة	٣٠٠٠
كل من ابناء المهاجرين والانصار	٢٠٠٠
كل واحد من اهل مكة	٨٠٠
كل واحد من سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم	٣٠٠ — ٥٠٠
لكل من نساء المهاجرين والانصار	٢٠٠ — ٦٠٠

تلك هي اعطيات المسلمين ، او رواتب الجند على عهد عمر – مع اختلاف طفيف ببعض الروايات[١]. فاذا اعتبرت مقادير هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الأيام، رأيت الفرق عظيماً . فاذا قدرنا الدرهم بأربعة قروش ونصف القرش – وهي قيمته على وجه التقريب – كان راتب اعظم رجال الاسلام لا يزيد على خمسة آلاف درهم ، اي نحومائتي جنيه في السنة . واذا اعتبرنا المسلمين كلهم جنداً ، كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند ومنهم عمر نفسه . واما الجنود فهم الذين عبرنا عنهم « بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم » . ورواتب هؤلاء اقل كثيراً من رواتب اولئك ، فانها تختلف من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . وبناء عليه تكون رواتب ضباط الجند الاسلامي – على عهد عمر ... من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم في العام ، ورواتب العساكر من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، غير ما كان يدفع لنسائهم واولادهم ، وما فرض لهم من الحنطة ، وهو جريبان لكل واحد في الشهر ، والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ويراد به ما ينبت في تلك المساحة . وخلاصة ذلك ان رواتب صغار الجند في اوائل الاسلام كانت تزيد على رواتب جنود هذه الايام ، وبعكس ذلك رواتب ضباطهم .

اعطيات الجند في الدولة الاموية

وظلت اعطيات الجند على هذا القدر في ايام الراشدين ، فلما طمع بنو أمية في الملك واحتاج معاوية الى الاعتزاز بالعرب ، كان في جملة ما استخدمه في سبيل اجتذابهم الى جانبه المال ، فزاد اعطيات الجند . وكان جنده ستين الفاً ، ينفق عليهم ستين مليون درهم في العام ، فيلحق كل رجل الف درهم وذلك اكثر من ضعفي ما فرضه عمر .

وكان في مقدمة القبائل التي اخذت بيده وحاربت عنه وايدت دعوته قبائل اليمن ، وهي انما فعلت ذلك رغبة في العطاء لأنه كان يحارب بهم عربا آخرين ، فلم يكن الجهاد دافعهم الى الانضمام اليه . فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس ، وفرض لهم عطاء مضاعفاً ، وجعلهم جنداً مستقلا لا يختلطون بسواهم ، وكان يستشير امراءهم ويقربهم . فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على دولة بني أمية ، وانهم لو شاءوا لأخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو أمية) فندم معاوية على اختصاصهم

---

١ – المقريزي ٩٢ ج ١ ، الاحكام السلطانية ١٨٩ .

بذلك الامتياز ، وقرب منه القيسية واعطاهم مثل عطائهم ، وصار يغزو البحر باليمنية والبر بالقيسية . فشق ذلك على اليمنية ، لأن القيسية من مضر ، فعاتبوه فجمع بين القبيلتين واغزاهم معاً .

ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط ، بل كان يستخدمه في اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه ، فكان كثيراً ما يأمر عماله بزيادة اعطيات اناس يعرف انهم على غرض علي . وكان عماله لا ينفذون اوامره لقصور ادراكهم عن غرضه ، ومن هذا القبيل ان اهل الكوفة كانوا من اشد الناس تعصباً لعلي ، فأمر معاوية عامله عليها — النعمان بن بشير — ان يزيد في اعطيات اهلها عشرة دنانير ، فأبى النعمان ان ينفذها لهم فلم ينفعه ذلك .

وظل هذا شأن العطاء ايام يزيد ومروان وعبد الملك ، وكان عبد الملك يبالغ في الانفاق ، تأييداً لأحزابه في مقاومة دعاة الخلافة في ايامه . فان الحجاج سير الجند الى رتبيل باذن عبد الملك ، وكان عددهم اربعين الفاً انفق عليهم مليوني درهم سوى اعطياتهم ، فضلاً عما اعطاه لكبارهم . ولما تولى الوليد بن يزيد زاد العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ، ولعله فعل ذلك ارضاء للجند ، لما كان هو فيه من الاعوجاج والاسراف . وفي اواخر دولة بني امية قلت الرواتب ، حتى صارت في آخرها خمسمائة درهم .

اعطيات الجند في الدولة العباسية

فلما آلت الخلافة الى بني العباس جعل السفاح رزق الجندي ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) فكأنه ارجعه الى ما كان عليه في اوائل بني أمية ، وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه ويظهر ان الرواتب لم ترتفع بارتقاء الدولة العباسية بل هي اخذت في التناقص ، فصارت في ايام المأمون عشرين درهماً في الشهر للراجل واربعين للراكب . فكان جيش عيسى بن محمد بن ابي خالد عام ٢٠١ ﻫ ١٢٥ الف فارس ، فاعطى الفارس اربعين درهماً والراجل عشرين . وزد على ذلك ان قيمة الذهب كانت قد ارتفعت عما كانت عليه في اوائل الاسلام ، وكان الدينار في ايام عمر يساوي عشرة دراهم فأصبح في ايام المأمون يساوي ١٥ درهماً .

فرأيت مما تقدم ان الرواتب زادت في دولة بني أمية عما كانت عليه في ايام الراشدين ، ثم نقصت في ايام بني العباس . والسبب في ذلك ان بني أمية زادوها ترغيباً لقبائل العرب

في خدمتهم ، لتأييد سلطانهم كما تقدم . واما في ايام بني العباس فكان العرب قد انتشروا في انحاء البلاد واختلطوا بالأعاجم ، وعمل العباسيون على الاستكثار من هؤلاء لأنهم ساعدوهم على انشاء دولتهم ، فأصبحت الدولة العباسية مخيرة في استخدام من شاءت من الفئتين في جندها . وكان الاعاجم يرضون بالراتب القليل ، ومع ذلك فهو اضعاف ما كان يدفعه الروم لجندهم اذا صح ما نقله ابن خرداذبه ، فقد ذكر ان راتب الجندي عندهم كان يختلف من ١٨ الى ١٢ ديناراً في السنة ، وكانوا لا يستولون على رواتبهم الا كل ثلاث سنوات او اربع ، واما رواتب جند العرب فقد كانت تدفع في اوقاتها ، الا في اواخر الدولة العباسية فقد كانت تتأخر وتتراكم ، ويفوز بالخلافة من من يتمكن من ارضاء الجند ، شأن الدول في دور انحطاطها .

عطاء الجند في الدولة التركية

وما زال العطاء يدفع نقداً الى ايام الدولة السلجوقية ، فصار يعطى إقطاعاً . واول من من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي سنة ٤٨٥ ﻫ) وكان رجلاً عظيماً وزر للدولة السلجوقية وادخل فيها اصلاحات جمة . وهو اول من انشأ المدارس في بغداد ، وله فيها المدرسة التي تعرف باسمه (المدرسة النظامية) . وكان وزيراً لالب ارسلان ثم لابنه ملك شياه المشهور ، فصار امر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد . فأقام على ذلك عشرين سنة ، وكان عاقلاً حسن القصد ، ورأى الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فأحب ان يحفظها بالاقطاع ، فحولها الى اقطاعات سلمها الى الجند ، لاعتقاده ان تسليم الارض الى المقطعين يضمن عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها ، بخلاف ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد ، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد . ففعل نظام الملك ذلك ، وعمرت المملكة وكثرت الغلات . واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك والسلاطين الى اوائل القرن الماضي .

واختلفت غلات الامراء من اقطاعاتهم ، فقد بلغت غلة اقطاع بعض اكابر امراء المئين في دولة المماليك نحو ٢٠٠٫٠٠٠ ، ويليهم من غلتهم نصف ذلك او ربعه . واما امراء العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار ، الى ما دون ذلك . اما جند الخليفة فمنهم من يبلغ اقطاعه ١٥٠٠ دينار وما دون ذلك الى ٢٥٠ ديناراً [١] . وسيأتي الكلام في الاقطاع .

---

١ ـ السمهودي ٢١٠ ج ٢ .

عدد الجند

قلنا ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام كلهم جنداً ، فعددهم يومئذ هو عـدد الجند الاسلامي . فالجند كانوا في السنة الاولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون في المدينة ، ثم ازدادوا بمن اعتنق الاسلام من قبائل العرب . وفي حديث اخرجه البخاري أن النبي قال: « اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام فكتبنا له الفاً وخمسمائة » .

وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة — وهي آخر الغزوات — بلغ عدد المسلمين ثلاثين الفاً ، ومعهم عشرة آلاف فرس . فذلك عدد جند العرب في اواخر ايام النبي ، ثم تزايد عددهم في ايام ابي بكر وعمر ، حتى زادوا على مائة وخمسين الفاً . وتضاعف ذلك العدد في اواخر ايام الراشدين .

وفي اوائل بني امية بلغ عدد من في البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠ر٠٠٠ ،منهم ٨٠ الفاً في البصرة و ٦٠ الفاً في الكوفة ، ومعهم من العيال ٢٠٠ر٠٠٠ بين نساء واولاد . وكان في مصر اربعون الفاً ما عدا العيـــال . وكان جند الشام نحو ذلك ، غير من في فارس وغيرها .

الاحصاء في الاسلام

وكان للخلفاء في صدر الاسلام عناية في احصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبي ، فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : « هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ؟ » فيقـــال : « ولد لفلان غلام : ولفلان جارية » فيكتب اسماءهم . ويقال « نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله » ويسميه وعياله . فاذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان واثبت الأسماء فيه .

وكانوا يجددون التدوين (الاحصاء) كل مدة في كل ولاية على حدة ، واول تدوين في مصر مثلاً دونه عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان (تولى امـــارة مصر من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ) ثم دون قرة بن شريك (سنة ٩٠ — ٩٦ هـ) ، ثم بشر بن صفوان (سنة ١٠١ هـ) ، وآخر احصاء احصوا به العرب في الامصار على ما تقدم كان في خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ — ١٢٧ هـ) ، ولكن تلك الاحصاءات لم تصل الينا ، فقد ضاعت في جملة ما ضاع من آثار بني امية .

. فلما تولاها بنو العباس اهملوا امر العرب ، وبذلوا عنايتهم في اصطناع الاعاجم من الفرس والترك وغيرهما كما قدمنا . حتى اذا بويع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في الامصار ان يسقطوا من في دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم . فشق ذلك على العرب وثاروا ، ولكنهم لم ينالوا وطراً . فانقضت دولة العرب في ذلك الحين ، وصار جند الدولة العجم والموالي . ولذلك مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، كان دعبل الخزاعي الشاعر المشهور في الصميرة ، فلما جاء نعي المعتصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين .

الحمد لله لا صبر ولا جلد	ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد	وآخر قام لم يفرح به احد

واما عدد الجند في اثناء دولة بني امية وبني العباس فمما لا يتيسر الوقوف عليه ، لكننا نستدل من عدد ما كانوا يجندونه الى الحرب انه كان كثيراً . فلما حمل يزيد بن المهلب على جرجان وطبرستان جرد اليهما ١٢٠٫٠٠٠ من الجند المرتزقة ، سوى الموالي والمتطوعة . وحمل الرشيد على هرقلة بجند عدده ١٣٥٫٠٠٠ من المرتزقة ، ما عدا الاتباع والمتطوعة . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر (سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ٤٠٠٫٠٠٠ جندي وثمانية آلاف مملوك ، يحرسه منهم الفان كل ليلة على التناوب . وروى ابن خلدون ان المعتضد نازل عمورية في جند عدده ٩٠٠٫٠٠٠ ، ولا غرابة في ذلك اذا اعتبرنا عدد الحامية في الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً ، فضلاً عن المصطنعين والموالي والخاصة ، فقد احصيت خاصة المأمون من بني العباس وحدهم فبلغوا ٣٢ الفاً .

رتب الجند واصنافهم

لم يكن للعرب في الجاهلية جند ، فلم تكن له عندهم رتب . ولكنهم كانوا يولون على القبيلة اكبر رجالها سناً او اعظمهم حسباً ، ويسمونه الشيخ او الامير . فاذا احتاج الامير الى من ينوب عنه على فصيلة يرسلها الى غزو او نحوه ، ولى رجلاً كانوا يسمونه المنكب ، وتحت المنكب العريف . والمنكب يكون على خمسة عرفاء ، والعريف يكون على نفير او نفر .

وظل العرب في اوائل الاسلام على نحو ما كانوا عليه في الجاهلية ، فقسموا الجند الى عرفاء ، تحت كل عريف عشرة رجال ، وسلموا القيادة الى اناس من اهل السابقة ، وكذلك كان نظامهم في اثناء الفتوح . ثم جعلت العرفاء اسباعاً ، وجعلوا مائة عريف

بعضهم على ثلاثين او اربعين رجلاً ، وبعضهم على عشرين على حسب طبقات الجنـد من حيث السابقة ونحوها . وكان على العرفاء امراء يقال لهم امراء الاسباع ، يتولون تفريق العطاء في العرفاء ، والعرفاء يفرقونه في الجند .

وقلما حدث تغيير في رتب الجند في ايام بني أمية . اما في الدولة العباسية فكانت رتب الجند ان على كل عشرة رجال « عريفاً » ، وعلى كل خمسين « خليفة » ، وعلى كل مائة « قائد » . ثم تنوع الترتيب فصار العريف على عشرة ، وعلى كل عشرة عرفاء (او مائة نفر) « نقيب » ، وعلى كل عشرة نقباء (او ١٠٠٠٠ رجـل) « امير » . ولا يخلو الامر من وقوع التبديل في هذا النظام بالنظر الى الدول .

ولا بد من ان يكون لكل رتبة علامة تميزها عن سواهـا ، كما يتميز الضباط اليوم بعضهم عن بعض وعن العساكر ، لكننا لم نعثر على شيء صريح بهذا الشأن . وقد تقدم لنا كلام بهذا الموضوع في بحثنا عن الطراز ، ومن هذا القبيل ما كانوا يسمون بـه الخيل لتمتاز خيول الدولة عن سواها ، وكان لكل دولة سمة خاصة . وسمة خيل بني اميـة لفظ (عدة) كانوا يطبعونها على الخيول كياً بالنار ، كما كان العرب يفعلون بإبلهم في عصور جاهليتهم ، فقد كان عندهم لكل قبيلة ميسم يميز إبلها عن إبل غيرهـا ، ووسم الدواب شائع في الدول المتمدنة اليوم.

استعراض الجند

استعراض الجند قديم في الدول المتمدنة قبل الاسلام : كان الاسكندر يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم . ولما ظهر الاسلام كان الفرس يعرضون جنودهم في مواقيت معينة من السنة ، وكان رسمهم في ذلك ان يمر الفارس الذي هو في الطبقة الاولى على حصانه ، ومعه الغلام والدرع والمغفر والكفوف الزرد والرانات والتجافيف للخيل ويسمى بركستوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالي والسكك الحديد والمقـاود وكبة خيزك ومخصف ومقص ومطرقة وكاز ومسل وابر وخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان خوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احداهما معه والاخرى مع غلامه .

ولما تمدن العرب وجندوا الجنود اتخذوا هذه العادة على نحو مـا كانت عند الفرس ، لكن يظهر انهم كانوا يستعرضون رجالهم قبل تمصير الامصار وتجنيد الجنود ، فان النبي نفسه كان يستعرض اصحابه . وقد جاء في السير انه استعرضهم يوم بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) فجعلهم صفافاً ، واخـذ يعادل صفوفهم وفي يده سهم بلا ريش ، فمر برجل اسمه سواد كان مستنثلاً من الصف فطعنه النبي في بطنه وقال له : « استو يا سواد بن غزية » وبعد ان عدل الصفوف عاد الى العريش الذي كانوا نصبوه له هناك (١) .

وكان الخلفاء الراشدون يعرضون الجند على نحو ذلك، ثم بنو امية . وكان الحجاج اذا عرض الجند يسأل عن رجل رجل من هو ، وما هي قبيلته ، وعن حاله وسلاحه .

وكان الاستعراض في الدولة العباسية اقرب الى عادة الفرس ، لان العباسيين اقتبسوه منهم . فكان الخليفة ، او وزيره ، يجلس لعرض الجند . وربما جلس الخليفة وعليه الدرع والخوذة كأنه في استعداد للحرب ، فينادي المنادي بأسماء القواد فيمرون اولاً ، فيتفقد افراسهم وعدتهم ، فاذا رأى كل شيء حسناً تاماً صرف لهم ارزاقهم ، وهي جـائزة يمنحونها يوم العرض وقد يستنكف الكبير ان ينتفع بتلك الجائزة فيهبها لبعض اتباعه .

ومن امثلة ذلك ما كان يفعله عمرو بن الليث على عهد الخليفة المعتمد (سنة ٢٧١ هـ) فانه نال حظوة لدى الخليفة ، وتمكن من قوانين المملكة ، وتولى النظر في الجند ، وكان ينفق لهم مرة كل ثلاثة اشهر ويحضر بنفسه على ذلك . وكان عارض الجيش يقعد والاموال بين يديه والجند كلهم حاضرون ، وينادي المنادي اولاً باسم عمرو بن الليث ، فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس ، فيتفقدها ويأمرون بوزن ثلاثمائة درهم باسم عمرو فتحمل اليه في صرة ، فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول : « الحمد لله الذي وفقني لطاعة امير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق» ، ثم يضعها في خفه فتكون لمن ينزع خفه . ثم يدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم : فيتعرض لآلاتهم التامة ولدوابهم الفره ، ويطالبون بجميع ما يحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها ، فمن اخـل باحضار شيء منها حرموه رزقه . فاعترض يوماً فارس كانت له دابة في غاية الهزال فقال له عمرو : «يا هذا! تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الارزاق ؟ امض فليس لك عندي شيء ! » .

---

١ ــ السيرة الحلبية ١٧٩ ــ ٢

فقال له الجندي : « جعلت لك الفداء .. لو اعترضت امرأتي لاستسمنت دابتي ! » .
فضحك عمرو وامر بأعطائه وقال : « استبدل بدابتك » .

مساكن الجند

كان المسلمون في صدر الاسلام (وهم الجند) اذا فتحوا بلداً جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه ، وكانوا لا يقيمون في مكان بينه وبين المدينة بحر او نهر ، عملا بوصية عمر بن الخطاب ، كما تقدم . ولذلك لم يقم جند مصر في الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، بل اقاموا في الخيام قرب حصن بابل ، في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط . ولم يقم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى ، بل اقاموا على ضفاف الفرات مما يلي بادية الشام ، في البصرة والكوفة . وفعل ذلك غيرهم في سائر الاقاليم التي فتحت في صدر الاسلام ، فأقاموا في ضواحي البلاد المفتوحة لمجرد حمايتها كما قدمنا في كلامنا عن ولاية الاعمال . ولكنهم كانوا ينتقلون للحرب يومئذ بنسائهم واولادهم ، فاذا فتحوا بلداً اقاموا فيه جميعاً . فاصبحت تلك المعسكرات بتوالي الاجيال مدناً عامرة .

ولما تمدن العرب صاروا يذهبون الى الحروب دون نسائهم ، ولكنهم ظلوا على انشاء المعسكرات خارج المدن . وكثيراً ما كانت هذه المعسكرات تتحول الى مدن بتوالي الاجيال ، كما حصل في الفسطاط والكوفة والبصرة : كانت الفسطاط مضرب خيام حول فسطاط عمرو بن العاص ، ثم عمرت وصارت مدينة سميت الفسطاط . وبعد عمرانها بقرن وبعض القرن ، لما قام العباسيون للمطالبة بالخلافة ، فر مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ولجأ الى مصر ، فتعقبه العباسيون بقيادة صالح بن علي وعسكروا بضواحي الفسطاط وسموا مقامهم « العسكر » اي المعسكر ، ثم بنى الناس هناك وصار المكان مدينة مثل الفسطاط اسمها العسكر .

وبعد ذلك بقرن وبعض القرن سنة ٢٥٧ هـ تولى مصر احمد بن طولون واكثر من الجند والحاشية والآلات ، فضاقت الفسطاط دونه ، فأنشأ معسكراً بجوار جبل المقطم ، وبنى لنفسه فيه قصراً وميداناً ، وتقدم الى غلمانه واتباعه ان يبنوا ، فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع . وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين ، لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبعض القرن سنة ٣٦٥ هـ فانه انزل جنده بسفح المقطم خارج القطائع والفسطاط ، ولما فتح البلاد انشأ في ذلك المعسكر مدينة القاهرة

الباقية الى الآن . ويقال نحو ذلك في سائر المدن الاسلامية ، فان المنصور انما بنى بغداد حصناً له ولجنده ، وكذلك فعل ابنه المهدي ببناء العسكر خارجها .

وقس عليه غيره من المعسكرات الاسلامية ، فانهم كانوا ينشئونها خارج المدن بعيداً عن بيوت الناس . ولذلك لما انزل الحجاج جنده في بيوت اهل الكوفة ، بعد واقعة الجماجم ، نقم عليه اهلها وعدوا ذلك عتوا منه ، وخصوصاً لان الامراء الذين جاءوا بعده كانوا كثيراً ما يعملون عمله .

اللواء أو الراية

تاريخ الالوية

اللواء والراية شيء واحد ، وربما كان اللواء اصغر من الراية ، او ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب . وهي الاعلام ، او البنود ، او البيارق في اصطلاح هذه الايام . والراية قديمة في التاريخ ، اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذ عنهم . وكانت شائعة في العرب الجاهلية قبيل الاسلام ، وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها .

وللراية شأن كبير في الحرب ، لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم : اذا زالت زالوا . وقد رأيت ، في كلامنا عن حكومة الجاهلية ، انه كان في جملة مناصب قريش منصب اللواء ، ويسمونه « العقاب » باسم رايتهم يومئذ . وكانوا اذا خرجوا الى حرب اخرجوا الراية ، فاذا اجتمع رأيهم على احد سلموه اياها ، والا فانهم يسلمونها الى صاحبها ، وكان مرة من بني امية ومرة من بني عبد الدار . ولعلهم سموا رايتهم « العقاب » اقتباساً من الروم ، لان العقاب او النسر شارة الرومان ، يرسمونها على اعلامهم وينقشونها على ابنيتهم ، فاقتبسها العرب منهم .

وفي السيرة الحلبية ان المسلمين في غزوة بدر الكبرى كانت لهم ثلاث رايات : احداها بيضاء دفعها النبي الى مصعب بن عمير ، والاخريان سوداوان احداهما حملها علي بن ابي طالب ، ويقال لها العقاب صنعت من مرط لعائشة (والمرط كساء من صوف او خز تضعه المرأة على راسها او تأتزر به) والاخرى مع رجل من الانصار . وان ابا سفيان كان يحمل راية الرؤساء في تلك الواقعة ، واسمها ايضاً راية العقاب . فالظاهر ان العقاب كان اسماً لصنف من الرايات ، فقلدوا الروم بها وليس اسم واحدة منها .

ولما جاء الاسلام، وانتشر العرب في انحـاء الشام وفارس ومصر ، وتعددت دولهم وقبائلهم ، كثرت ضروب الالوية عندهم ، وتنوعت اشكالها وتعددت الوانها واطالوها ، وسموها باسماء مختلفة : عقد ابو مسلم الخراساني عند قيامه بالدعوه العباسية لواء بعث به اليه ابراهيم الامام يدعى « الظل » على رمح طوله اربعة عشر ذراعاً ، وعقد راية كان قد بعث بها اليه اسمها « السحاب » على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ارهاباً للناس . ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه سنة ٢٣٥ هـ عقد لكل واحد منهم لواءين احدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل . ولما ولى المأمون الفضل بن سهل على المشرق كله وسلم اليه رئاسة الحرب والقلم وسماه ذا الرئاستين عقد له لواء على سنان ذي شعبتين . وجملة القول ان اشكال الالوية تعددت بتوالي الازمان وتفاخر الخلفاء والسلاطين بتعدادها ، فقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمي لما خرج الى فتح الشام ٥٠٠ راية و ٥٠٠ بوق وربما نقشوا على الرايات اسماء الخلفاء او السلاطين او الامراء الذين يتولون قيادة الجند ، كما كتب ابن بجكم على رايته « الرائقي » نسبة الى ابن رائق .

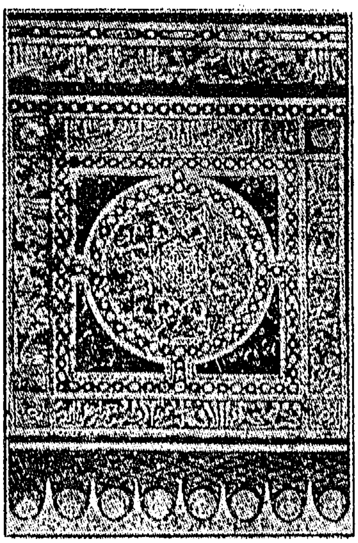
الوان الرايات

لا نعرف ماذا كانت الوان الرايات في الجاهلية سوى راية « العقاب » ، فقد تقدم انها كانت سوداء ، وكذلك كانت راية النبي . وذكر صاحب « آثار الاول » انـه كانت له ايضاً الوية بيضاء . اما الرايات الاسلامية ، فقد كانت الوانهـا تختلف باختلاف الدول فكانت اعلام بني أمية حمراء . وكل من دعا الى الدولة العلوية فعلمه ابيض ، ومن دعا الى بني العباس فعلمه اسود . والسواد شعار العباسيين على الاطلاق ، اتخذوه حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني امية في قتلهم ، ولهذا سموا المسودة . ولما افـترق الهاشميون وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ، ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك ، فاتخذوا الرايات بيضاء وسموا المبيضة . والظاهر ان شعار دعاة بني هاشم من الشيعة كان الخضرة ، لان المأمون لما بايـــع لعلي بن موسى بولاية العهد امر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر ، حتى اذا رجع عن البيعة عاد الى السواد .

واما ملوك البربر في المغرب ، من صنهاجة وغيرها ، فلم يختصوا في راياتهم بلون واحد بل وشوها بالذهب ، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة . وفي دير بظاهر مدينة برغوس في الاندلس راية من الحرير الاحمر المطرز بالنقوش الجميلة ، وعليها كتابات كثيرة وآيات

قرآنية . وقد نشرها غستاف لوبون في كتابه « تاريخ تمدن العرب » وسموها : راية الموحدين ، لكن صديقنا المأسوف عليه روحي بك الخالدي بعث الينا بنسخة من صورة هذه الراية سنة ١٩٠٧ وقال في جملة وصفها : « وأظن أن هذه الراية كانت بابا لخيمة المنصور ، لانها اشبه بباب الخيمة منها بالراية » .

واما دول الاتراك في المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان ، في رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهي شعار السلطان عندهم . ثم تعددت الرايات ، ويسمونها سناجق واحدها سنجق وهو الراية في لسانهم ، والراية العثمانية حمراء عليها صورة الهلال . واختلفوا في اصل هذه الشارة بين ان يكون الاتراك اقتبسوها من الروم بعد فتح القسطنطينية ، او انهم جاءوا بها من بلادهم من تركستان .



راية الناصر الموحدي في موقعة العقاب

عقد اللواء

كان الخلفاء في صدر الاسلام اذا وجهوا جيشاً الى حرب عقدوا له الالوية وسلموها الى الامراء ، لكل امير راية قبيلته ، ويدعون لهم بالنصر ويوصونهم بالصبر والجلاد . وكان عمر بن الخطاب اذا عقد لواء يقول وهو يعقده : « بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر الا من عندالله ولزوم الحق والصبر . فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات » .

وكان لكل خليفة اسلوب في الدعاء والوصاية ، والمرجع واحد فيها كلها . وكانوا يعقدون الالوية ايضاً للعمال اذا ولوهم الامصار ، وخصوصاً في اوائل الاسلام ، لان العامل كان قائد الجند . وكانوا يعقدونها على حساب النجوم ، فيختارون احد الاقترانات على زعمهم . وكان العباسيون اذا عقدوا لواء لقائد او صاحب جند او صاحب ثغر ، خرج

الى بعثه او عمله من دار الخليفة او من داره ، في موكب من اصحاب الرايات والطبول ، حتى لا يميز بين موكب العامل وموكب الخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها ، او بما اختص به الخليفة من الالوان لراياته .

وكان للدولة الفاطمية بمصر دار يقال لها « خزانة البنود » كانوا يختزنون فيها الاعلام والرايات والدرق ، وكانوا ينفقون عليها ٨٠ الف دينار كل سنة ، ظلوا على ذلك قرناً كاملاً . وكل ما صنع من اعلام بقي متراكماً فيها ومعه الاسلحة بأنواعها ، والسروج واللجم ، وفيها المفضض والمذهب . ثم احترقت الخزانة فاحترق كل ما كان فيها من هذه الامتعة والآلات ، وكان يقدر بثمانية ملايين دينار ، ولم يستطيعوا اخراج غير القليل منها ، وفي جملة ذلك لواء كانوا يسمونه « لواء الحمد » .

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى في الجند قديم ، والاصل في اتخاذه اثارة حاسات الجند في اثناء الحرب ، او صرف اذهانهم عن الاشتغال بالاخطار التي يتوقعونها . ومن هذا القبيل الغناء او النشيد امام الجند ، فانه من قبيل الموسيقى وكان العرب في جاهليتهم لا يعرفون من زهرة هذه الآلات غير الطبل. وكان المسلمون في صدر الاسلام يتجافون عن اتخاذ الابواق والطبول تنزها عن غلظة الملك ورفضا لأحواله . فلما انقلبت الخلافة ملكاً ، وتبجبحوا في الدنيا ، ولابسهم الموالي من الفرس والروم واهل الدول السالفة ، واروهم ما كان اولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف ، كان في جملة ما اقتبسوه منهم الموسيقى . واذنوا لعمالهم في اتخاذها تنويها بالملك واهله ، ثم جعلوا يستكثرون منها . وهي مقصورة على الطبل والبوق ، وربما كان في الجند مئات من الابواق والطبول .

السلاح

اشهر اسلحة العرب في جاهليتهم السيف والرمح والقوس والترس ، وكانت لهم عناية كبرى في استخدامها ، لانهم كانوا يحمون بها اعراضهم ويستجلبون بها معاشهم ، وخصوصاً القوس .

القوس

كان لهم بالقوس مهارة عظمى ، لحدة ابصارهم نتيجة لسكنى البادية ولانهم احوج اليها من سائر الاسلحة . فقد كانوا يستخدمونها في صيد الغزلان ، فضلاً عن الحرب والطعان . وبلغ من مهارتهم في النزع بالقوس ما يكاد يفوق طور التصديق ، حتى لو اراد احدهم ان يرمي احدى عيني غزال دون العين الاخرى لرماها ، ولذلك سموا مهرة الرمي « رماة الحدق » وكان احدهم يعلق ضبا بشجرة ، ثم يرميه بالنبال فيصيب اي عضو شاء من اعضائه ، حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها [١] .

فلما جاء الاسلام كانت مهارتهم هذه من جملة ما ساعدهم على غلبة الروم لان هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها ، وقد بينا ذلك في كلامنا عن الفتوح الاسلامية . ولم يكن قواد المسلمين يجهلون فضل النبال في نصرتهم ، فكانوا يحرضون رجالهم على اتقان الرمي بها ، وكان النبي يقول : « اركبوا وارموا ، وان ترموا احب اليّ من ان تركبوا » . ومن اقواله : « كل لهو المؤمن في ثلاث : تأديبه فرسه ، ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته فانه حق . ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامي في سبيل الله » . ومن اقواله وهو قائم على المنبر : « اعدوا ما استطعتم من قوة . الا ان القوة الرمي . الا ان القوة الرمي » .

وكان الخلفاء والقواد بعد النبي يستحثون رجالهم على اتقان الرماية ، كما يحرضونهم على العناية بخيولهم ، لان العرب اهل فروسية ، وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادها . وكان القواد يوصون رجالهم ان يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم . وقد تقدم لنا كلام في ذلك .

وتفنن المسلمون بالرمي في العصور الوسطى ، حتى اصطنعوا من الاقواس آلات مركبة ، ولعلهم اخذوا بعضها عن الفرس ، كالجراة التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر ، وهي عبارة عن انبوب من حديد او خشب ، فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً ، كما تقذف الرصاصة بالبندقية اليوم ، وتكون الاسهم قصيرة . واصطنعوا لرمي السهام ضروباً من المجانيق ، توضع في الواحد منها عدة سهام ، وترمى عنها بالاقواس .

---

١ — العقد الفريد ٥٢ ج ١

السيف

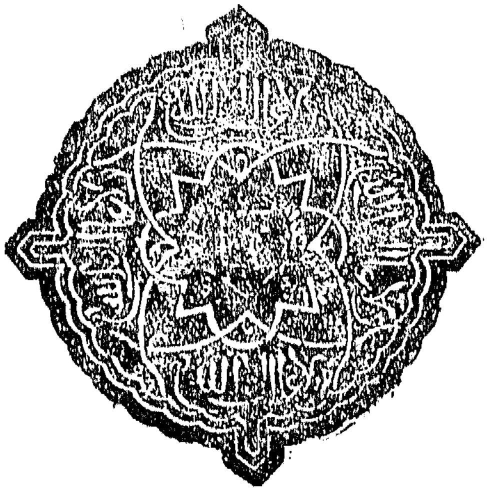
وكان العرب يعدون السيوف اشرف الاسلحة ، وكانوا يستجلبونها من الخـــارج ، واشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية ، وتعرف كلها بالسيوف العتيقة وكان لكل منها شكل مخصوص او علامة يمتاز بها : فاليمانية العتق مثلاً التي صنعت في الجاهلية ، كانت تمتاز بثقبين في سنبل السيلان (والسيلان اصل مقبض السيف) ، وثقب السنبل من احدى وجهيته اوسع من الوجهة الاخرى ، او الوجهتان متساويتان ووسطه اضيق . وكان من السيوف اليمانية سيوف يقال لها المحفورة ، وشطبها شبيه بالانهار ، وقد حفر بمبرد مدور . ومنها ذات حفر مربع ، ومنها ذات شطب . وقلما تسلم اليمانية من العروق ، وقد تنقش عليها تماثيل ، او يكتب عليها ، او يصور عليها صورة .

غير ان هذه السيوف اكثر قطعها في اللين ، فاذا صادفت الحديد او اليابس تقصفت . وكانت اسياف الروم امتن منها ، لانهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبري الحديد، ولذلك كان العرب اذا اصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره واطروه . وقد اشتهر في اوائل الاسلام سيف ذي الفقار لعلي بن ابي طالب ، وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب وغيرهما ، ولعلها في الاصل من اسياف الروم . ولذي الفقار شأن كبير في تاريـــخ الاسلام ، توارثه آل ابي طالب ، ثم اخذه المهدي العباسي ، ثم صار الى الهادي فالرشيد ، ويقال انه سمي ذا الفقار لانه كان به ثماني عشرة فقرة . وفي المتحف البريطاني امثلة من السيف الهندي والسيف الدمشقي ، شاهدناها في رحلتنا الى لندن سنة ١٩١٢ .

الرماح

اكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيـــل ، ولكنهم لم يكونوا يأمنون له خوف انكساره . . ومن وصاياهم في استخدام الرمح في الحرب قول صاحب « آثار الدول » في طرائق حركات الرمح وتصرفاته ، قال : « واللعب به في الميادين وبين يدي الملوك غير التحرك به في الحروب : منها المواجهة ، وهي ان تحمل على مبارزك وقد اخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين اذني فرسك ، وتقصده مستوياً حتى تقرب منه ، فان رأيته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة ، وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة . واجتهد ان تبدأ بالحمل عليه وانت مسدد . وتحول الرمح يمنة او يسرة كي تدهشه ، فلا يدري من اين تجيئه ، فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمحه فيه . واذا اردت ان

تبتديء بالخروج ، فخذ اسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الايمن، وتحمل على قوتك وانت كذلك ، وان شئت قربت منه حتى لا يدري من اي وجه يلقاك.. وان خرجت الى فارسين وتفرقا فاحمل على الادنى، واذا كانا قريبين فأر احدهما انك تريد رفيقه ، واحمل عليه ولا تتم حملتك ثم اعدل الى الآخر واصدقه الحملة . وان حذقا ورأيتهما يفترقان عليك ، فتطرف ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك . فان تساويا فأدهش الاضعف ، واحمل على الاقوى ، فان تساووا وكانوا جماعة فامتد امامهم حتى يتبعوك ، ثم كر على الادنى منك فاطعنه . وان دخلت مضيقاً فتلقاك فارس برمح ، فاياك والمصادمة بل انزل الى الارض واطعنه . وان كان خلفك فارس وقدامك فارس في مضيق ، فانزل وتحيل واقصد اقربهما اليك ، وتترس من الآخر بدابتك ... الخ » .



الترس الغرناطي

وكانت اسنة الرماح عندهم تختلف شكلاً ، بين المشعب والعريض والرفيع والمستوى والمموج وغير ذلك .

الترس

وكان الترس عند العرب على اصناف ، كل منها يصلح لشيء : فمنها المسطح والمستطيل المحفر الوسط ، والمقبب ، فالمقبب المنحني الاطراف . ولكل ترس فائدة: فالمقبب المنحني الاطراف لا يتقى به الرمح ، لانه متى طعن ثبت الرمح فيه ، وانما يتقى به النشاب والحجارة والسيف . والترس المستطيل يتقى به النشاب ؛ لان رأسه يستر رأس الفارس ، وطوله يقيه لانه ينظر باحدى عينيه من التخصير ، ولا يكشف رأسه ، والمسطح يتقى به الرمح . وقد يشترك رجلان في الطعان فيترس احدهما للآخر .

وتفنن المسلمون في اصطناع الاتراس ، ونقشوا عليها الآيات والحكم والاشعار، وتميزت اتراس كل بلاد بشكل خاص، ومنها الترس الدمشقي، والترس العراقي والغرناطي وغيرها.

الدرع

الدروع كثيرة عند العرب ، ومنها الحديد والفولاذ والكتان ، ويسمون درع الكتان « دلاص » . ولم يكن يقتني الدروع من العرب غالباً الا الفرسان ، وهي من صنع الروم او الفرس على الغالب ، وعندهم دروع مشهورة بأسماء معينة ، مثل درع خالد بن جعفر ، فقد كانوا يسمونها ذات الازمة ، لانها كانت لها عرى تعلق اذا اراد لابسها ان يشمرها .



درع أبي عبدالله آخر ملوك الاندلس

وكانت الدرع مؤلفة من الجزء الذي يقي الصدر وهو الجوشن ، والبيضة ، والخوذة ، والمغفر للرأس . ومنها اجزاء للساعدين ، والساقين ، والكفين .

تلك كانت اسلحة العرب في اوائل الاسلام ، ثم اضافوا اليها شيئاً من اسلحة الاعاجم ، كالخناجر والطبر والفاس وغيرها . وتفننوا في صنعها تبعاً للزمان والمكان ، فترى السيف الدمشقي يختلف عن السيف العراقي ، والدرع المصرية تختلف عن الدرع الاندلسية .

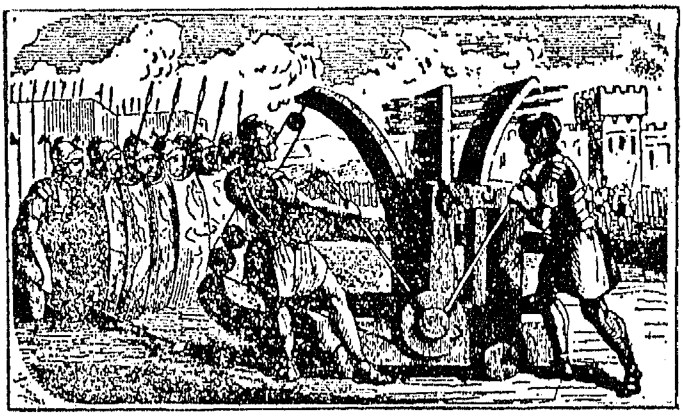
آلات الحصار

لم يكن للعرب آلات للحصار لانهم لم يكونوا يحاصرون ، وانما كانت منازلهم الخيام مطلقة لا يحميها سور ولا خندق . واول خندق بناه العرب خندق المدينة يوم حرب

المنجنيق

هو آلة قذافة استخدمها الفينيقيون قديماً ، وعنهم اخذها اليونان والاسرائيليون ، وورد ذكرها غير مرة في سفر المكابيين ،وانتشرت بواسطة اليونان في سائر دول الارض ، فاستخدمها الفرس وعنهم اخذها العرب بعد الاسلام .

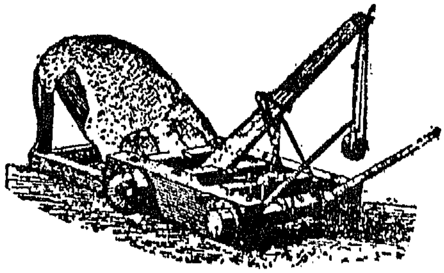
والمشهور ان العرب لم يستخدموا هذه الآلة الا في اواسط القرن الاول للهجرة ، بعد مخالطتهم الروم والفرس . ولكننا رأينا في السيرة الحلبية انهم استخدموها في حصار الطائف ، ارشدهم اليها سلمان الفارسي في جملة ما ارشدهم اليه من فنون الحرب الفارسية ، ويقال انه صنعه لهم بيده . وذكر صاحب هذه السيرة ايضاً ان المسلمين لما فتحوا حصن الصعب في خيبر ، وجدوا فيه منجنيقات ودبابات .



منجنيق روماني لرمي السهام

والمنجنيق اصناف كثيرة ، منها الكبير والصغير ، ومنها ما يشد بلوالب واقواس ، او ما يدار شبه المقلاع . وهي تستخدم اما لرمي السهام او الحجارة او قدر النفط او العقارب ، او نحوها من آلات الاذى . فان كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص ، وان كانت من السوائل كالنفط ونحوه ، اتخذوا لها كفة كالكاس علقوها بسلاسل .

وفي الشكل صورة منجنيق روماني كانوا يرمون به السهام ، فترى السهام مشكوكة في القائمتين (ب و ج) ورؤوسها متجهة نحو العدو ، وترى الرجلين يديران البكرة (د) وهي تدير البكرة المسننة (ن) ويلف عليها حبل ممتد من طرف القائمة (ا) بالبكرة (س) والبكرتين (ف) بحيث تشد طرف القائمة (ا) نحو الوراء . وهي مصنوعة من قطع متصلة بجلد أو حديد ، حتى تصير مرنة كالاقواس ، بحيث اذا اطلقت بعد شدها ارتدت على اطراف السهام بعنف ، فترسلها الى مسافة بعيدة .



منجنيق لرمي الحجارة

وفي الشكل الآخر صورة منجنيق لرمي الحجارة ، عبارة عن عمود في رأسه معلق شبه المقلاع ، يوضع فيه الحجر ويشد العمود بالامراس نحو الوراء ، وهو متصل من اسفله بقوس مرنة ، فاذا شد العمود جيداً ، ثم اطلق بغتة وقع على السطح المائل بعنف ، وانطلق الحجر من المقلاع الى مسافة بعيدة . وهناك اشكال اخرى للمنجنيق تندرج تحت هذين .

فكانوا يستخدمون المنجنيق لهدم الحصون بالحجارة الضخمة ، او لرمي الاعداء بالنبال ، او لاحراق اماكن العدو بالنفط ونحوه ، فيرسلون به نفطاً مشتعلاً بالنار ، يقذفونه بواسطة كفة من الزرد ، يجعلون بها الاوعية المملوءة بالنفط كالقدور ونحوها ، او يرسلونها بمنجنيق رمي الحجارة او غيرها .

وكانت المجانيق تتفاوت في اقدارها ، وكثيراً ما كانوا يسمون كلاً منها باسم يدل على بعض اوصافه ، على نحو ما يسمون السفن والمدافع الكبرى في هذه الايام . فقد كان عند الحجاج بن يوسف منجنيق اسمه « العروس » ، كان يمد به خمسمائة رجل ، ارسله محمد ابن القاسم لمحاربة ملك الهند سنة ٨٩ هـ وهدم به صنماً من اصنامهم .

الدبابة

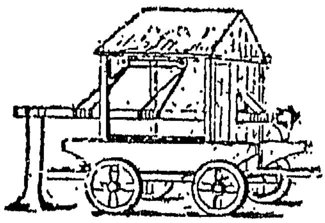
هي آلة متحركة تتخذ من الخشب السميك ، وتغلف باللبود او الجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستديرة ، وتحرك فتنجر . وقد يجعلونها برجاً من خشب

بمثل هذا التدبير ، ويدفعها الرجـــال فتندفع على البكر ، ويصعد الرجال في اعلاها ويستعلون على السور وينزلون فوقه . وهي اقدم من المنجنيق ، استخدمها المصريون القدماء والاشوريون فاليونان فالرومان والفرس فالمسلمون . وهي عبارة عن قلعة سائرة على العجل ، يهجمون بها على الاسوار لمحاربة المحاصرين من اعلى السور .

وقد يستخدمون الدبابة لهدم الاسوار ، فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ويجعلون رأسها محدداً يصدمون به الاسوار حتى تهدم .

الكبش

هو كالدبابة ، لكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش ، ويتحصن الرجال في داخله



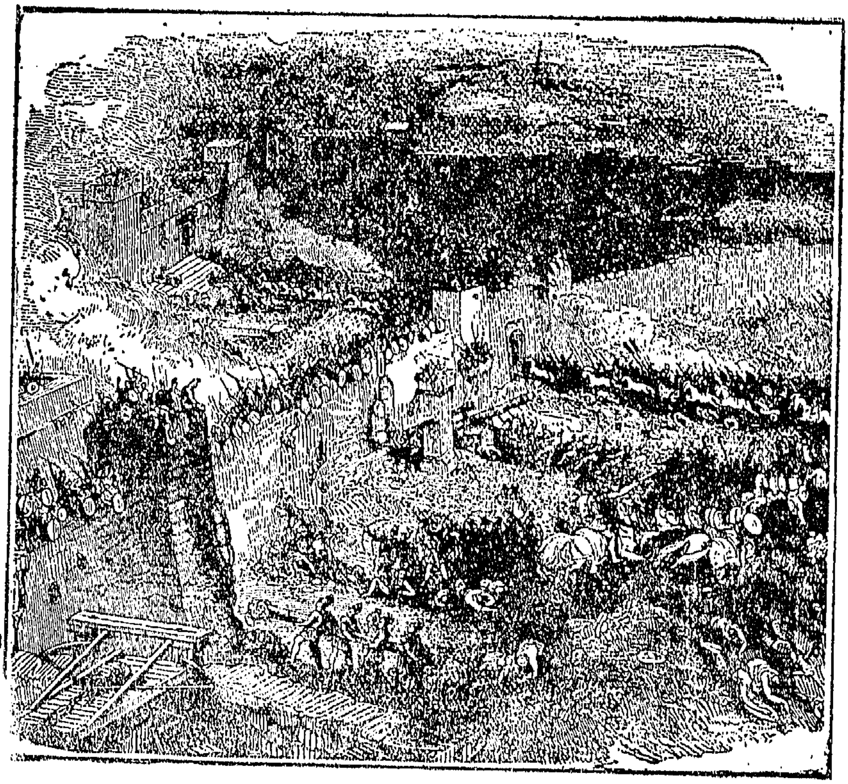
رأس الكبش

ويستخدمون الكبش لهدم الاسوار . والرأس المذكور متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ ، معلق بحبـال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها ، فيتعاون الرجال من داخل الدبابة وورائها على ضرب السور بها حتى يخرقوه .

وفي الشكل صورة كبش روماني يهاجم أسوار البرطيين وقد خاف البرطيون وأتوا باعلامهم يلتمسون الامان ويسلمون .

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم ، لتسلق الاسوار وهدمهـا او خرقها . وكانوا يجعلون في الجيش عدة دبابات ، اكثرها صغير الحجم تسع الواحدة بضعة

رجال تتفرق حول الاسوار . واستخدم الخليفة المعتصم بالله الدبابات في فتح عمورية ، فعمل منها دبابات تسع كل واحدة عشرة رجال .



كبش روماني في فتح القدس

وكيفية استخدام الدبابات في تسلق الاسوار انهم كانوا يركبون الدبابة ويدحرجونها الى السور ، فان كان هناك خندق يمنعهم من الوصول اليه طرحوا الاخشاب على الخندق مثل الجسور . فاذا كان الخندق عريضاً ، طرحوا فيه الحطب والزرجون والتراب وغيره مما يحملونه معهم في الدبابة لهذه الغاية حتى يمتلىء الخندق. كل ذلك واهل الدبابة يحمون الصناع بالجفان . فيجرون الدبابة الى السور وينقبونه ويدعمونه بالاخشاب، ثم يخرقونه ويلتصقون بالسور . فاذا لم يدركوا سطحه صعدوا اليه بالسلالم ، ونزلوا منه الى المدينة اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً والا تحاربوا .

وكان عندهم ضرب من الدبابات او الابراج المسيرة على العجل ، في اعلاهـا مواقف للرجال ، اذا اقتربت من السور ولم تستطع خرقه ، القى أصحابهـا من أعلى الدبابة سلالم مشوا عليها الى داخل السور .

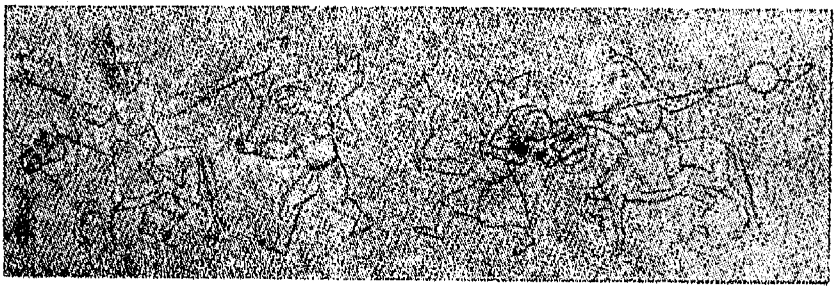


دبابة لتسلق الاسوار

النار اليونانية

ومما اقتبسه العرب من الروم النار اليونانية ، وهي في الاصل من اختراع المشارقة . فقد كان هؤلاء يستخدمون في حروبهم مزيجاً سريع الاشتعال لم يعرفه أهل أوربا إلا في القرن السابع عشر للميلاد ، والمظنون ان رجلاً من اهل الشام اسمه كالينكوس نقله اليهم . وكان الروم يومئذ في ابان حاجتهم اليه ليردوا بـه هجمات العرب عن القسطنطينية مراراً ولم يستطيعوا فتحها . وبالغ الروم في كتمان اسماء المواد التي يتألف منها ذلك المزيج ،فظل سر هذه النار مكتوماً حتى اطلع عليه العرب ،فاذا هي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها الى مقدم السفينة . فيقذفون منها السائل مشتعلاً ، او يطلقونه بشكل كرات مشتعلة او قطع من الكتان المتلوث بالنفط ، فيقع على السفن او البيوت فيحرقها . والظاهر ان المقذوفات التي

احترقت بها الكعبة في حصار الحصين بن نمير لعبدالله بن الزبير سنة ٦٤ هـ كانت من هذه النار .



عرب يستخدمون النار اليونانية (نقلا عن مخطوط قديم)

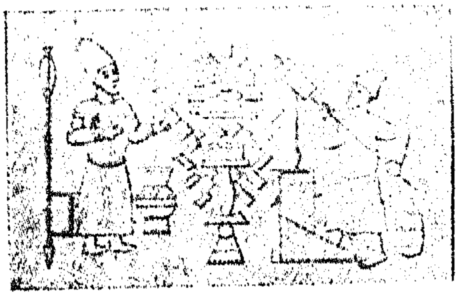
وفي المكتبة الاهلية بباريس مسودة خطية قديمة عليها صور رجال من العرب، بعضهم على الخيول والبعض مشاة ، وفي ايديهم خرق مبسوسة بالنار اليونانية يرمون بها الاعداء ، وكانوا يسمون النار اليونانية « النفط القاذف » .

اختراع البارود

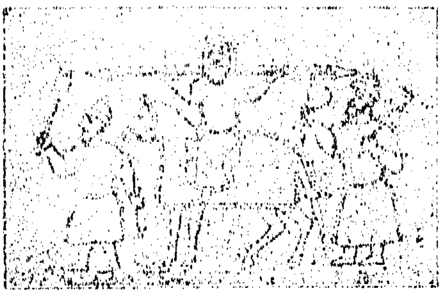
وهناك اختراع ذو بـــال ينسب فضله الى الافرنج ، وهو للعرب ـــ نعني اختراع البارود . فالمشهور عند الافرنج ان مخترع البارود اسمه شوارتز سنة ١٣٢٠ م (٧١٩ هـ) ولكن راهباً انكليزياً اسمه روجر باكن (Roger Bacon) من اهل القرن الثالث عشر للميلاد أشار الى مزيج من قبيل البارود كان شائعاً في ايامه . والصحيح ان العرب اسبق الناس الى استخدام البارود ، واذا لم يكونوا اخترعوه فلا اقل من انهم اوصلوه الى مـــا عرف به في الاجيال الوسطى . فقد ذكر كوندي المستشرق الاسباني المتوفي سنة ١٨٢٠ ان اهل مراكش استخدموا الاسلحة النارية في محاربتهم سرقوسة سنة ١١١٨ م .

وزد على ذلك ان تواريخ العرب تشير الى استخدام هذه الاسلحة في القرن الثالث عشر للميلاد في حرب المسلمين بالمغرب ، ونرى ذلك صريحـــاً في كلام ابن خلدون عن قدوم أبي يوسف سلطان مراكش لفتح سجلماسة سنة ٦٧٢ هـ ١٢٧٣ م ، قال :

« ولما فتح السلطان ابو يوسف بلاد المغرب .. وجه عزمـــه الى افتتاح سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم ، فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة . فنازلها ، وقد حشد اليها اهــل المغرب اجمع ، من زناتة والعرب والبربر وكافـــة الجنود والعساكر ، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ، ينبعث من خزنــة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها . فاقام عليهـــا حولا كريتا يغاديها القتال ويراوحها ، الى ان سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفــة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليهـــا . فبادروا الى اقتحام البلد ، فدخلوه عنوة من تلك الفرجة » .



اختراع العرب للاسلحة النارية



أدوات النفط

وفي هذا القول شاهد صريح على ان البارود كان معروفـــاً عند العرب ، وكانوا يستخدمونه في حروبهم قبل شوارتز بنحو نصف قرن .

وفي مكتبة بطرسبرج مسودة عربية قديمة ، فيها صور رجلين من العرب يشتغلان في الاسلحة النارية، احدهما الى اليمين يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها، وقد ادناها من لهيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة .

وهناك أيضاً صورة فارس يحمل قناة ملفوفة بقماش، ذات اهداب تلت بالنفط وترمى على الاعداء حين الاقتضاء . وبجانبي الفارس رجلان ماشيان ، على بدنيهما وبدنه وبدن فرسه نسيج ذو اهداب يستخدم النفط عند الحاجة .

المدافــع

هي انابيب ترسل بها المقذوفات كما ترسل بالمنجنيق ، لكنهـا في هذا ترسل بحركات ميكانيكية كالمقاليع والاوتار ونحوها . واما في المدافع فانها تقذف بالبارود .

واول من اتقن استخدام المدافع في الدول الاسلامية الدولة العثمانية ، وبها استعانوا على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وفي كثير من الفتوح والحروب . فاصبـح الجند المحاصر لبلد ينصب حوله المدافع بدل المجانيق ، يفرقها مع جنده حول المكان المراد محاصرته . وكانوا في اول شيوع المدافع يستخدمون معها سائر آلات الحصار القديمة ، من الابراج والدبابات وغيرها ، لان المدافع لم تكن في اول امرها تقذف قنابلها الى مسافات بعيدة . وكان المحاصرون من الجهة الاخرى يحيطون معسكراتهم او قلاعهم بالاسوار العالية والخنادق العميقة ، على اشكال مختلفة ، ويجعلون السور مضاعفاً او مثلثاً ، ينصبون عليه آلات الدفاع كالمدافع وغيرها .

وكان المحاصرون يبنون على الاسوار ابراجاً ، يجمعون فيها الحامية للدفاع بآلات القذف المختلفة ، ويبذل المحاصرون جهدهم في اخذ تلك الابراج .

تعبئة الجيوش

قلنا في كلامنا عن تاريخ الجند ان نظامه كان عند الامم المتمدنة الصفوف والكتائب ، واما العرب في جاهليتهم فقد كانوا على غير نظام ، وكانت حروبهم من النوع الذي يعبرون عنه بالكر والفر ، واسمه يدل عليه . وذلك انهم كانوا اذا هموا بالقتال كروا على عدوهم ، فاذا احسوا بضعف فروا ، ثم يعودون فيكرون وهكذا ، بلا نظام ولا قاعدة ، فلما ظهر الاسلام كان في جملة اوامره ترتيب الناس صفوفاً في الحروب ، عملاً بالآية : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ، وفي الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وبنـــاء على ذلك كانت حروب المسلمين في ايام النبي صفوفاً ، وهو ما يعبرون عنه بالزحف . فكانوا يسوون كما تسوى الصفوف للصلاة ، ويمشون بصفوفهم الى العدو قدماً واحدة .

[illegible]

اهل الكر والفر . واعتبر ذلك في تراجم الفاتحين العظـــام كالاسكندر والسلطان سليم العثماني وبونابرت وغـــيرهم ، فانهم انما غلبوا العالم بنظام جديد ادخلوه في جنودهم ، او بأسلحة جديدة تفردوا بها دون اعدائهم .

وكان اهل الكر والفر يمنعون رجالهم عن الفرار بابلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم ، فيصفونها وراءهم فتكون فيئاً لهم ، ويسمونها « المجبوذة » ، وهي التي تثبت اقدامهم في الحرب . اما المسلمون ، فكانوا مع ثباتهم بالزحف يجعلون وراءهم الابل والنساء والولدان والاحمال ، فيزيدهم ذلك استماتة في الحرب وصبراً على القتال .

كان الجند في ايام النبي يترتب صفاً او صفين ، تبعاً للكثرة والقلة . فلما تكاثر المسلمون في ايام الخلفاء الراشدين صاروا يجعلونه صفوفاً يرتبونها باعتبار اسلحتها والاحوال المحيطة بها . واليك طرفاً من وصية علي بن ابي طالب لجنده ، يوم واقعة صفين سنة ٣٧ هـ فانها تنطوي على خلاصة نظام الجند في الحرب ايام الراشدين ، قال :

« .. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا الدارع واخروا الحاسر ، وعضوا على الاضراس فانه أنبى للسيوف عن الهـام . والتووا على اطراف الرماح فانه اصون للأسنة ، وغضوا الابصار فانه اربط للجأش واسكن للقلوب . واخفتوا الاصوات فانه اطرد للفشل واولى بالوقار . واقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها الا بأيدي شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر ينزل النصر » .

الكراديس

ثم تكاثر جند العرب واختلطوا بالاعاجم في ايام بني امية ، فعمدوا الى « التعبئة » ، وهي ترتيب الكتائب كراديس ، كما بيناه في تاريـخ الجند . وذلك ان الروم كانوا اذا نشبت الحرب قسموا جنودهم الى اقسام يسمونها كراديس Koortis « كورتيس في اليونانية ومعناها الكتلة او الكتيبة » . ويسمون كل كردوس كتيبة بصفوفها ، فيجعلون الملك او القائد العام وحاشيته وراياته وشعاره كتيبة تقوم في الوسط ويسمونها القلب ، وامامهـا كتيبة يغلب ان تكون من الفرسان وهي المقدمة . ويقيمون كتيبة اخرى عن يمين كتيبة الملك يسمونها الميمنة ، واخرى الى يساره يسمونها الميسرة ، وكتيبة وراءه يسمونها ساقة الجيش على هذه الصورة :

المقدمة

الميمنة　　　قلب الجيش　　　الميسرة

الساقة

وترى التعبئة على هذه الكيفية خمسة اجزاء ، ومنها تسمية الجيش بالخميس ، ويتقدم الخميس كوكبة من الفرسان يقال لها « الطليعة » ، لاجل الاستكشاف على مواقف العدو . فاذا ترتب الجيش على هذه الصورة زحف على العدو زحفاً ، وربما جعلوا وراءهم ما يثبتهم في زحفهم كما كان الفرس يفعلون ، فانهم كانوا يتخذون الفيلة في الحروب ، يحملون عليها ابراجاً من الخشب امثال الصروح ، مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ، ويضعونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بها نفوسهم . وربما جعلوا ملجأهم الأسرة ، فينصبون للملك سريره في حومة الحرب وراء المقاتلة ، ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه ، وترفع الرايات في اركان السرير ، ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة ، فيعظم هيكل السرير ويصير فيئاً للمقاتلة وملجأ لهم .

وكثيراً ما كانت العجم تحارب بالكر والفر ، وتجعل مثل ذلك الملجأ وراء جندها مما لا يقع تحت حصر . فاضطر العرب في كثير من وقائعهم مع الفرس والروم في صدر الاسلام ان يحاربوا بالكراديس ، كما فعل خالد بن الوليد في واقعة اليرموك سنة ١٣ ﻫ فعبأ تعبئة لم تعبىء العرب مثلها قبلها . فجعل جيشه ٣٦ كردوساً الى الاربعين ، وجعل القلب كراديس ، واقام فيه ابا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس ، واقام عليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس ، وعليها يزيد بن ابي سفيان الخ .. وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص في القادسية سنة ١٤ ﻫ .

ولكن يظهر انهم فعلوا ذلك اضطراراً ، لمحاربة الروم بمثل نظامهم . ولم يجعلوا التعبئة قاعدة حروبهم إلا سنة ١٢٨ ﻫ على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فانه أبطل الصفوف ونظم الكراديس ، فحارب بها الضحاك الخارجي ثم الخبيري . ولما بطلت الصفوف تنوسي الزحف ، ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما دخل الدولة من الترف ، ولم يعودوا يحملون نساءهم واولادهم معهم الى الحرب .

وهاك ما قاله عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصي ولي عهد الخلافة بتعبئة الجيوش ، وهي صورة من صورها في زمن بني أمية ، قال :

« وإذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر ، وكان عسكرك مقاربا وقد شامت طلائعك مقدمات ضلاله وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة واعد اعداد الحذر وكتب خيولك وعب جنودك . واياك والمسير إلا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا الاسلحة ونشروا البنود والاعلام ، وعرف جندك مراكزهم ، سائرين تحت الويتهم ، قد أخذوا اهبة القتال واستعدوا للقاء ، ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم عن مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترحلهم وتنزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكزهم . وعرف كل قائد واصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة . لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما اهبت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم في كل منزل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد ، في اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها . ان ضلت دابة عن موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها وفي اي المحل حلوله منها ، فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها . فان تقدمك في ذلك واحكامك اياه له اداراً عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك اوثق اهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذاً ورضاء في العامة وانصافاً في نفسه للرعية واخذاً بالحق في المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهديك وادبك واقفاً عند أمرك ونهيك معتزماً على مناصحتك وتزيينك نظيراً لك في الحال وشبيهاً بك في الشرف وعديلاً في المواضع ومقارباً في الصيت . ثم اكتشف معه الجمع وايده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالاموال واغمره بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوي الضعف من جندك ومن زحفت به دابته وأصابته نكبة من مرض او رجلة او آفة ، من غير ان تأذن لأحد منهم في التنحي عن عسكره او التخلف بعد ترحله إلا المجهود او المطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذراً ومره زاجراً وانهه مغلظاً بالشدة على من مر به منصرفاً عن عسكرك من جندك بغير جوارك شاداً لهم أسرا وموقرهم حديداً ومعاقبهم موجعاً ، او موجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة .. » الخ .

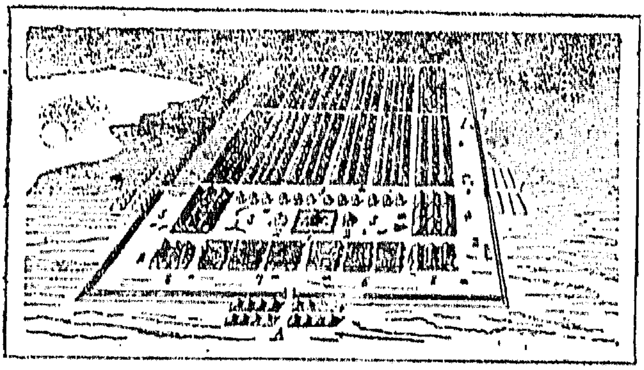
على ان بعض دعاة الخلافة من اهل البيت اعتبروا العدول عن الصف الى الكراديس بدعة في الاسلام ، فظلوا على الزحف صفوفاً ولو ادى بهم الى الخطر ، كما فعل ابراهيم ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، لما بعث المنصور عيسى بن موسى لمحاربته ، فالتقيا عند باخمرا على ١٦ فرسخاً من الكوفة . فأشار عليه بعض أصحابه ان يجعل جنده كراديس « لأن الكراديس اثبت في الحرب ، فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما

الصف فاذا انهزم بعضه تداعى سائره » . فقال ابراهيم وسائر من معه : « لا نصف إلا صف أهل الاسلام » ، يعني الآية : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » الخ . فدارت الدائرة على ابراهيم . .

وبعد رسوخ المسلمين في المدينة تفننوا في تعبئة الجيوش ، بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم او دراستها . وتعددت ضروب التعبئة عندهم حتى صارت سبع تعبئات ، وان كانوا لا يستعملونها كلها ، ولكنهم ادخلوها في فنونهم الحربية : التعبئة الاولى ان ترتب الجيوش بشكل الهلال ، قالوا ان الفرس المتقدمين ذكروه . وهو نوعان : الهلال المرسل او الحاد وهو البسيط مثل هلال السماء والهلال المركب وهو ان يكون الى جانبي الهلال شبه هلالين كأنهما جناحان ، وهي التعبئة الثانية . والتعبئة الثالثة المربع المستطيل . والتعبئة الرابعة الهلال المقلوب . والخامسة ان ينظم الجيش في شكل المعين او المربع المنحرف . والسادسة المثلث . والسابعة الدائرة المزدوجة ، وهي : دائرتان احداهما داخل الاخرى . وكانوا يميلون الى هذا الضرب من التعبئة اذا كان جندهم قليلا وجند عدوهم كثيراً ، وهو يشبه آخر ما بلغ اليه المتمدنون من التفنن في التعبئة نعني مربع بونابرت الذي دوخ به الممالك ، وهو عمدة الجنود المنظمة الى اليوم . فكان المسلمون اذا عبأوا الجيش الى الحرب ، نظموه اما كراديس او مربعات او مثلثات ، او جعلوا بعضه كراديس وبعضه مربعاً او هلالياً او معيناً او مثلثاً ، على ما تقتضيه الأحوال .

المعسكر

اما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص في اوائل الاسلام بل كان العرب يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط ، وحوله فساطيط الامراء والخاصة . واذا كانت النساء والاولاد معهم ، جعلوهم وراء المعسكر . ولما ابطلوا حمل العيال معهم كما تقدم ، جعلوا يقلدون الروم والفرس في مضاربهم ، وتفننوا في ذلك على ما اقتضته الاحوال . فلما تعددت فرق الجند ، وكثرت الحاشية والمماليك والخدمة ، صار المعسكر اشبه ببلد ، فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأصحاب الطبول والاتباع وغيرهم ، فضلا عن اصناف الجند ، كما ترى في الصفحة التالية ، وهو أرقى ما بلغ اليه نظام المعسكر في الاسلام .



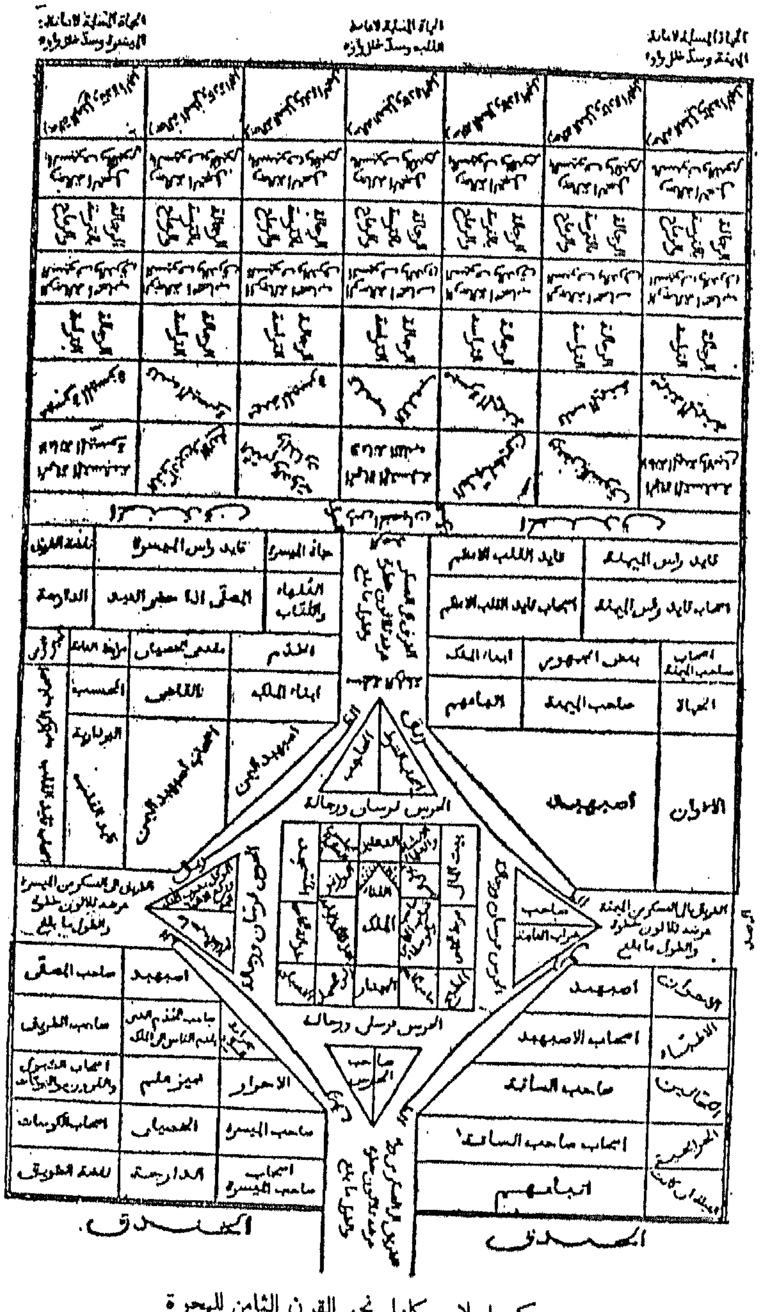
معسكر روماني

له أربعة أبواب : A في مقدمه R في مؤخره و G و D في الجانبين ، كل باب منها خاص بطبقة من الجند . وقد ترتبت الكتائب او الكراديس في ستة صفوف مزدوجة بينها طرق طولية ، ويقطعها عرضاً شارع واحد . وأمام الكتائب خيم كبار القواد 1 و 2 و 3 والى جانبها 4 و 5 خيم المتطوعين . وأمامها في أول المعسكر 6 و 7 جند المتطوعة وبعدها على الزاويتين 8 المساعدون من جند الأجانب

مناداة الجند

كانوا في اوائل الاسلام اذا تهيأ الجيش للقتال نادى قواده : « النفير النفير » وهي علامة الهجوم عندهم ، تقابل نداء قواد الجند الآن في مصر : « هجوم حاضر ال » ثم « هجوم ! » واذا ارادوا ارجاعهم قالوا « الرجعة الرجعة ! » وهي مثل قولهم اليوم « جريه ! » . وكانوا اذا ارادوا ان يركب الفرسان للحرب نادوا : « الخيل الخيل ! » ويقال لمثل ذلك في الجيش المصري : « بين مايه حاضر ال ! » ثم « بين ! » واذا ارادوا ان يترجلوا قالوا : « الأرض الأرض ! » ، ومثلها في مصر : « اين مايه حاضر ال ! » ثم « اين ! » .

ولما تمدن المسلمون وتعددت اجزاء جندهم وتنوعت حركاتهم ، جعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به . وهذه اسماؤها : ١ — الميل ، ٢ — الانقلاب ، ٣ — الانفتال ، ٤ — تسوية الانفتال ، ٥ — استدارة صغرى ، ٦ — استدارة كبرى ، ٧ — تقاطر ، ٨ — اقتران ، ٩ — رجوع الى الاستقبال ١٠ — استدارة مطلقة و ١١ — اضعاف ، ١٢ — اتباع الميمنة ، ١٣ — اتباع الميسرة ، ١٤ — جيش منحرف ،



معسكر اسلامي كامل نحو القرن الثامن للهجرة
في ارقى ما بلغ اليه نظام الجند عندهم

١٥ — جيش مستقيم ، ١٦ — جيش مورب ، ١٧ — رض ، ١٨ — تقدم ، ١٩ — حشو ، ٢٠ — رادفة ، ٢١ — ترتيب بعد ترتيب .

فكانوا اذا اراد قائد الجند ان يميل جنده الى جهة ، او يتخذ شكلا خاصاً من هذه الاشكال ، او حركة من هذه الحركات ، ناداه بكلمة من هذه الكلمات . وهم قد تدربوا على المراد من كل منها ، فيميلون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية في جنود هذه الايام. ثم اختصروا ذلك في كلمتين هما : « هو جوا » و « هو برا ! » واستعانوا على اتمام المراد بالاشارات . ولذلك كان على الجند ان يراعوا الرئيس بأعينهم ، حتى اذا مال الى جهة مالوا معه . وفسروا هذين اللفظين بأن المراد بهوجوا ان تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً ، وعكس ذلك هو برا .

شعار الجند

كان للعرب في جاهليتهم الفاظ يتعارفون بها في اثناء الحرب يسمونها الشعار. وليست هي الفاظاً معينة ، ولكنهم كانوا يصطلحون عليها على مقتضى الاحوال . كان شعار الاحزاب في غزوة احد : « يا للعزى يا لهبل » ، وكان شعار تنوخ في الحيرة « يا آل عباد الله » ، وجعل النبي لكل من المهاجرين والانصار شعاراً ، فكان شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن »،وشعار الاوس « يا بني عبيدالله » ، وشعار الخزرج «يا بني عبدالله»، وسمى خيله « خيل الله » . وكان المسلمون بعد ذلك يجعلون لجنودهم شعاراً يتعارفون به ، على نحو ما تقدم .

الثغور والعواصم

ويراد بها حدود المملكة الاسلامية براً وبحراً ، فقد رأيت فيما تقدم ان العرب لما جاءوا لفتح الشام انما بدأوا ببرها من جهة حوران مما يلي الصحراء ، لأن قوات الروم كان معظمها في مدن السواحل ، فجعلوا فتوحهم تمتد من البر نحو البحر ، ومن العرب وأهل البلاد الاصليين الى الروم . فبعد ان فتحوا دمشق ساروا نحو السواحل ، وفي مقدمتهم يزيد بن ابي سفيان وأخوه معاوية، وكان ذلك في ايام أبي عبيدة عامر بن الجراح

على دمشق . جاءوا بيروت وصيدا وجبيل ففتحوها فتحاً يسيراً ، ثم عـاد الروم بعدئذ فاسترجعوها لأن قواتهم في البحر كانت كبيرة . ومازالت في ايدي الروم حتى تولى الخليفة عثمان ، ومعاوية عامله على الشام ، ففتحوا طرابلس وغيرها . وكانت لمعاوية رغبـة في غزو البحر ، وعثمان يخافه كما كان عمر يخافه من قبل . وما زال معاوية يلح على عثمان حتى اذن له ، فسلمت ثغور الشام عندئذ للمسلمين ، فجعل الناس ينتقلون اليها من كل ناحية ، فعمرت بهم .

وكانت ثغور الشام في ايام الخلفاء الراشدين انطاكية ، وغيرها من السواحل التي سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية في بعض المسالح بين الاسكندرية وطرسوس ، فلما تولى بني امية اتموا فتحها ، وزادت عمرانا في ايام بني العباس ، وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفـع غارات الروم ، لانهم كانوا لا ينفكون عن مناوأة العرب . فبنى العرب حصوناً هناك ، ورمموا الحصون التي كان الروم قد بنوها ، وجعلوا لاهلها عطاء كبيراً وأمروهم بالغزو .

وفعلوا نحو ذلك في حدود المملكة الاسلامية من جهة الـبر ، فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع لدفع العدو او لغزو بلاده .

وبناء على ذلك فان تخوم المملكة الاسلامية بعضها من جهة البر ، والبعض الآخر يتصل اليه بالبر والبحر معاً .

والحدود البحرية هي على الاطلاق ثغور الشام ومصر . فاذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان اولها طرسوس فأدنه فالمصيصة وعـين زربة والكنيسة والهارونية واياس ونقابلس ، وارتفاعها — اي دخلها — نحو ١٠٠٠٠٠ دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها ، من نفقات الحامية والترميم والخنادق والحصون وغير ذلك ، لا يرد منها شيء الى بيت المال ، بل قد ينفق عليها بيت المـال ورواتب الجنود . وثغور مصر منها رفح والعريش ودمياط والاسكندرية .

ويلي ثغور الشام من الشمال الثغور التي سموها الجزرية ، نسبة الى جزيرة العراق ، واولها مرعش ثم الحدث ثم حصون متتابعة الى ثغر شميشاط ثم ملطية . وارتفاع هذه الثغور مع ملطية ٧٠٠٠٠ دينـار ، يصرف في مصالحها ٤٠٠٠٠ ويبقى ٣٠٠٠٠ ، ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك ١٧٠٠٠٠ دينار تضاف الى تلك البقية ، فيكون المجموع مئتي الف دينار سوى نفقات المغازي . والثغور المذكورة هي الواسطة التي منها كانت المغازي ،

وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج ، ناهيك بالثغور التي تحاذي بلاد الهند في الشرق ، مما يطول شرحه .

الغزوات

فالثغور المذكورة هي حدود المملكة الاسلامية ، وهي التي عزلها هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ عن الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم. وكان المسلمون يخرجون منها كل سنة للغزو في البحر والبر ، جهاداً في سبيل الاسلام . وكان الجهاد فرضا على المسلمين يحرضهم الخلفاء عليه ، كما رأيت في قول ابي بكر يوم تولى الخلافة : « لا يدع احد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » ، اما غزو البحر فقد كانت مراكبهم تجتمع في سواحل الشام ومصر ، حتى تلتقي في جزيرة قبرص ، وعددها ما بين ٨٠ — ١٠٠ مركب ويسمى ما يجتمع منها هناك الاسطول ، وكان يتولى قيادة الاسطول صاحب مراكب الثغور الشامية . وكانت تبلغ النفقة على هذه المراكب ، اذا غزت مصر والشام ، مائة الف دينار .

وكانت غزواتهم تعين باعتبار الفصول ، فمنها غزوة صيفية وتسمى صائفة ، او شتوية وتسمى شاتية ، او ربيعية تقع في العاشر من شهر ايار (مايو) اي بعد ان يكون المسلمون قد اربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم ، فيقيمون في الغزوة ثلاثين يوماً اي الى العاشر من حزيران (يونيو) فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ في بلاد الروم ممكناً ، فترتبع دوابهم ربيعاً ثانياً . ثم يقفلون فيقيمون ٢٥ يوماً اي الى ٥ تموز (يوليو) حتى تقوى الخيول فيجتمعون لغزو الصائفة اي الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً ، وكانوا في بعض السنين يغزون صائفتين ، يسمونها الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى .

اما في الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها اكثر من عشرين ليلة، ويكون ذلك في آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى اوائل آذار (مارس) ثم يرجعون ويربعون دوابهم.

فترى مما تقدم ان الخلفاء لم يقتصروا على حفظ مملكتهم ، بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لها فرضاً واجباً عليهم ، وهو من قبيل الجهاد في سبيل الله كما قدمنا . وكان من اكثر الخلفاء رغبة في ذلك بنو العباس ، فانهم لما استتب لهم الأمر ودانت لهم المملكة الاسلامية تحولوا الى الغزو ، فكانوا في اوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل

سنة ، كما يرسلون من يحج بالناس ، ثم صاروا يغزون بأنفسهم . فقد غزا المهدي سنة ١٦٣ هالروم بنفسه ، وسير ابنه الرشيد سنة ١٦٥ هلغزوهم ومعه ٩٥٩٣٠ رجلاً ، فاوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا خليج القسطنطينية ، بعد ان مروا بمسالح الروم في طريقهم ، فاسترضاهم صاحبها بمال مقداره : ١٩٣٤٥٠ ديناراً و ٢١١٤٠٨٠٠ درهم .

فلما وصل الرشيد الى القسطنطينية خافه اهلها ، وكان على كرسي القسطنطينية الامبراطورة ايريني ، فصالحته على فدية مقدارها سبعون الف دينار تدفعها له كل سنة ، وان تقيم له الأدلاء والاسواق في الطريق ، وطول الهدنة ثلاث سنين ، وبلغ مقدار ما غنمه المسلمون في اثناء تلك الغزوة غير ما تقدم ٥٦٤٣ رأساً من السبي ، وعشرين الف رأس من الدواب ، ومائة الف رأس غنم وبقر . وقتلوا من الروم في تلك الغزوة وحدها ٥٤ الف نفس ، ما عدا الاسرى . ومن ذلك يتبين لك ما كان يزيد المسلمين رغبة في الغزو .

الاساطيل

ركوب البحر

لم يركب العرب البحر قبل الاسلام ، إلا ما كان من سفائن حمير وسبأ في ايام التبابعة ، لأنهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه — وذلك شأن البدو الى هذا اليوم . فلما ظهر الاسلام وخفقت اعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها فيها فتاقت أنفسهم للغزو في البحر . واول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمي ، وكان عاملا على البحرين في ايام عمر بن الخطاب ، فأحب ان يفتح سواحل فارس وبينه وبينها خليج فارس ، فعبر عليها في المراكب ولم يستأذن عمر ، ولم يفلح في غزوته .

فشق ذلك على عمر ، فجعل قصاصه ان يكون تحت امرة سعد بن ابي وقاص امير الكوفة يومئذ ، وشدد عمر في منع المسلمين من ركوب البحر . وكان معاوية قد تولى جند دمشق والاردن ، وهو رجل المطامع البعيدة ، فراقه ركوب بحر الروم لغزو ما وراءه ، فبعث الى عمر يستأذنه فأبى . فألح عليه ورغبه في الكسب ، فكتب عمر الى عمرو ابن العاص امير مصر يطلب اليه ان يصف له البحر فأجابه : « يا أمير المؤمنين . اني رأيت

البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير .. ليس إلا السماء والماء ، ان ركد احزن القلوب وان ثار ازاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق » ، فلما جاءه الكتاب بعث الى معاوية : « والذي بعث محمداً بالحق لا احمل فيه مسلماً ابداً » .



اسطول عربي يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

فلما كانت خلافة عثمان اطاع معاوية لشدة الحاحه ، ولكنه شرط عليه ان يجعل الغزو في البحر اختيارياً ، فمن اختار ركوبه حمله واعانه . فركب معاوية في البحر الى قبرص سنة ٢٨ هـ فصالحه اهلها على ٧٢٠٠ دينار يدفعونها له كل سنة . وهي اول غزوة غزاها المسلمون في البحر ، وراقهم النصر فازدادوا رغبة في غزوه ، فجعلوا ذلك في اوقات معينة من الصيف والشتاء كما تقدم .

الاساطيل في الاسلام

ولم يكن للعرب معرفة في الملاحة ، فاستخدموا اولاً من كان في حوزتهم من الروم ، فهم اهل الصناعة والنواتية ، فأنشأوا لهم السفن والشواني ، وشحنوها بالرجال والسلاح ، [illegible] فيها العساكر والمقاتلة لغزو ما وراء البحر . وسموا مجموع السفن اسطولاً ، [illegible] (stolos) [illegible] . وجعلوا مقر اساطيلهم بحر الروم خاصة ، [illegible]

ملاحة البحر منهم اهل الشام وافريقية والاندلس ، وانشأوا دور الصناعة (الترسانة) في تلك البلاد لبناء السفن واعداد معداتها . واول دار للصناعة في الاسلام بنيت في تونس على عهد عبدالملك بن مروان، فأمر عامله على افريقية حسان بن النعمان بذلك ففعل، وانشأ السفن وجهزها بالعدة والسلاح ، وبعث فيها المقاتلة لغزو صقلية (سيسيليا) فلم يتيسر لهم فتحها الا في ايـــام الاغالبة ، ففتحها اسد بن الفرات على عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب . وفتـــح ايضاً قوصرة فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر ، فبالغوا في انشاء الاساطيل في افريقية والاندلس ، فبلغ عدد سفن اسطول الاندلس في ايام عبد الرحمن الناصر في اواسط القرن الرابع للهجرة مائتي سفينة ، وكان اسطول افريقية نحو ذلك ، واشهر مرافىء الاندلس بجانة والمرية ، وكانت دور الصناعة قد تعددت هناك ، وكل دار تبني اسطولاً عليه قائد ورئيس ، فالقائد يدبر امر سلاحه وحربه ومقاتلته ، والرئيس يدبر امر جريه بالريح او المجاديف . فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو او غرض آخـــر عسكرت بمرفئها المعلوم . وجعلوا النظر فيها كلها لامير واحد من اعلى طبقات المملكة .

واما مصر فقد انشئت فيها دور الصناعة في اواخر القرن الاول للهجرة كما سيأتي ، واول من انشأ الاسطول فيها عنبسة بن اسحق امـــيرها من قبل الخليفة المتوكل على الله العباسي . وسبب ذلك ان الروم نزلوا دمياط سنة ٢٣٨ ﻫ وملكوها ، وقتلوا وسبوا ، فعظم الامر على امير مصر فأمر بانشاء الشواني للاسطول ، وجعل للبحر غزاة مثل غزاة البر ، وجعل ارزاقهم من ارزاقهم . فاجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفين وشحنه بالرجال والسلاح ، وارسله لغزو الروم في جملة اساطيل افريقية والاندلس والشام ، فكانت الحروب بين المسلمين والروم سجالاً ، يأسر بعضهم بعضاً، فاحتاج الخلفاء الى افتداء اسراهم بالمال، فوضعوا ما يسمونه الفداء.

الفـــداء

واول من افتدى اسرى المسلمين بالمال هرون الرشيد العباسي سنة ١٨٩ ﻫ ، وكان الفداء قبله يقع بالمبادلة : النفر بالنفر . واشهر الافدية ١٣ ، وكلها في ايام بني العباس ، [illegible]

[illegible]

قريباً من طرسوس ، ويحضر الفداء جمهور من المسلمين والروم فيقضون في الافتداء بضعة عشر يوماً الى بضع عشرات . وشهد الفداء الاول نحو ٥٠٠٠٠٠ نفس من المسلمين ، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة ، حتى ملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وجاءت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ومعهم الاسرى ، وكان عدد الذي فودوا فيه ٣٧٠٠ نفس . وفي ذلك يقول مروان بن ابي حفصة يخاطب الرشيد من ابيات :

وفكت بك الاسرى التي شيدت لها ⁂ محابس ما فيها حميم يزورها
على حين اعيا المسلمين فكاكها ⁂ قالوا سجون المشركين قبورها

الاساطيل المصرية

ولما دخلت مصر في حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك افريقية ، بذلوا عنايتهم في انشاء الاساطيل في الاسكندرية ودمياط ومصر ، وبلغت الجنود البحرية في ايامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة ، منهم عشرة قواد راتب كل واحد منهم من ١٠ الى ٢٠ ديناراً ، ومنهم اقل من ذلك الى دينارين وهي اقلها . ولهم اقطاعات كانوا يسمونها ابواب الغزاة . وكانوا ينتخبون احد هؤلاء القواد رئيساً للاسطول ، فاذا ساروا الى الغزو كان هو آمرهم وناهيهم ، ومع هذا الرئيس امير كبير من امراء الدولة . واما النفقة على غزاة الاساطيل فكان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير، مبالغة في اكرام رجال البحر ورفع منزلتهم ، وبلغت المراكب في ايام المعز لدين الله اول الخلفاء الفاطميين بمصر ٦٠٠ قطعة ، ثم نقصت بعده حتى اصبحت مائة قطعة .

وكانوا يحتفلون في اخراج الاسطول الى الغزو احتفالاً شائقاً يحضره الخليفة ، فيجلس في منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الاسطول . فيجيء القواد بالمراكب الى هناك ، وهي مزينة بأسلحتها وبنودها، وفيها المنجنيقات فيرمى بها فتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل ما تفعله لو كانت في حرب ، وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناورة . ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدي الخليفة فيودعهما ويدعو لهما ، ويعطي المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو. وفي ايام صلاح الدين انشىء للاساطيل ديوان خاص سموه ديوان الاسطول، وعينوا الاموال للنفقة عليه

فتوح المسلمين البحرية

وكان للاساطيل تأثير كبير في توسعة المملكة الاسلامية ، لانهم فتحوا بها اشهر جزر بحر الروم، ومنها سردينية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة واقريطش« كريد » وقبرص وغيرها. وفتحوا كثيراً من شواطىء هذا البحر مما يلي اوروبا ، وسارت اساطيلهم فيه بجائية ذاهبة ، وعليها العساكر الاسلامية تجوز البحر من صقلية الى بر ايطاليا في الشمال فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم . وخصوصاً في ايام بني الحسين الكلابيين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوى الفاطميين . فانحاز الافرنج بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي من هذا البحر ، وملك المسلمون سائره بمراكبهم واساطيلهم ، وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر . وضعف امر الافرنج الى ان ادرك الدولة العبيدية بمصر والاموية بالاندلس الفشل . وطرقها الاعتلال بحكم ناموس الاجتماع ، وافاق الافرنج وعادوا الى استرجاع بلادهم فاسترجعوها، وسطوا على بلاد المسلمين نفسها ، وكان ما كان من الحروب الصليبية على ما هو مشهور .

وكان المسلمون قد اهملوا امر الأساطيل ، وقل تجنيدهم لها وبطل ديوانها . وبعد ان كان جند البحر عندهم يلقبون بالمجاهدين في سبيل الله ، والغزاة في اعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس ، اصبح « اسطولي » بمصر لقب اهانة ، وصارت خدمة الاساطيل عاراً عندهم . وظل ذلك شأنهم حتى تولى الملك الظاهر بيبرس البندقداري سلطان المماليك الشهير ، فأعاد شأن الأساطيل ، لكنها لم تعد الى ما كانت عليه في عز الاسلام . على انهم بذلوا جهداً كثيراً في دفع الصليبيين عن مصر ، وكان الصليبيون يأتون غالباً من جهة النيل . وكان المماليك يبنون على ضفتي النيل ابراجاً من الخشب يوصلون بينها بسلاسل الحديد ، لتمنع سفن الافرنج من المرور في النيل .



بربروسا أو خير الدين باشا

انحط شأن الأساطيل في مصر والشام ، وبقي في الأندلس وافريقية ، وبقيت دولة المغرب مختصة بها ، وظل ذلــك شأنهم الى اواخر دولتهم ، وكان عدد اساطيلهم في العدوتين (اوروبا وافريقية) — على ما رواه ابن خلدون — مائة اسطول . وفي اثنـــاء ذلك نبغ احمد الصقلي قائد اساطيل المغرب في القرن السادس للهجرة ، وانتهت اساطيل المسلمين في ايامه الى ما لم تبلغه قبله ولا بعده . ثم انحطت بانحطاط الدولة حتى انقضت بانقضاء الاسلام في الاندلس . ثم عاد الاسطول الاسلامي الى الظهور في عهد الدولة العثمانية ، واشتهر من قواده بربروسا خيرالدين باشا في القرن التاسع للهجرة .

دار الصناعة

يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة او الترسخانة ، وهما منقولتان عن تلك الكلمة . لأن الافرنج لما فتحوا بلاد العرب كان في جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب ، كما اقتبسها العرب من اسلافهم ، وسمى الاسبان دار الصناعـــة Darsina ، واخذتها عنهم سائر لغـــات اوروبا ، فتقلبت بالنحت حتى صارت ارسنال Arsenal ، واخذها العرب عن الاسبان Tarsanah بطريق التركية ، فظنوها تركية فعربوهـــا ترس خانة او ترسانة ، وهي اولى ان تسمى دار الصناعة . وقد يقال ذلك في اشتقاق لفظ « اميرال » Amiral الافرنجية عن « امير البحر » العربية .

وكانت دور الصناعة في بلاد الاسلام كثيرة في الاندلس وافريقية وفي الشام ومصر ، واول دار بنيت بمصر لهذه الغاية انشئت في جزيرة الروضة تجاه الفسطاط في القرن الاول للهجرة . ثم عنى احمد بن طولون بتوسيعها وتحسينها ، ثم نقلت الى الفسطاط في ايام الاخشيد في اول القرن الرابع للهجرة ، حتى لا يكون بينها وبين الفسطاط بحر . ثم انشأ الفاطميون داراً للصناعة في المقس بقرب مدينتهم (القاهرة) وكانت تصنع في هذه الدور مراكب على انواعها ومنها النيلية والحربية . فالنيلية كانوا ينشئونها لتمر في النيل من اعلى الصعيد الى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها ، والحربية هي مراكب الحرب لحمل المقاتلين للجهاد ، وهي التي يقال لمجموعها الاسطول .

اشكال السفن ومعداتها

وكانت المراكب الحربية انواعاً تتفاوت شكلاً وجرماً وقوة ، منها « الشونة » وهي

مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجاً وقلاعاً للدفاع ، و« الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء — ويسمون المنجنيق عرادة ، و «الطرادة» سفينة صغيرة سريعة الجري ، و« العشاريات » مراكب يسار بها في النيل . وهناك سفن اخرى لاغراض اخرى مثل الشلنديات والمسطحات وغيرها . وكانوا يبنون سفنهم على مثال سفن اليونان والرومان ، لأنهم اخذوا هذه الصناعة عنهم وعدلوها .



سفينة عربية

نقلا عن نسخة مخطوطة قديمة من مقامات الحريري في مكتبة المستشرق شيفر

وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والخوذات والدرق والتروس والرماح والقسي والكلاليب والباسليقات — وهي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد — والعرادات. وكانوا يجعلون في اعلى الصواري صناديق مفتوحة من اعلاها يسمونها التوابيت ، يصعداليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق ، فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال ، او جرار النورة — وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ — يرمون بها في مراكب الأعداء فتعمي الرجال بغبارها ، وقد تلتهب عليهم اذا تبددت ، او يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب او قدور الصابون اللين فأنه

يزلق اقدامهم . وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود او اللبود المبلولة بالخل او الماء والشب والنطرون لدفع اذى النفط ، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمي المعجون بالخل ، فان هذه مواد تقاوم فعل النفط .

وكان من احتياطاتهم في أثناء الحرب أنهم اذ جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكا ، واذا ارادوا المبالغة في الاختفاء اسدلوا على المراكب قلوعاً زرقاً كي لا تظهر عن بعد .

وكانوا يجعلون في مقادم المراكب اداة كالفأس يسمونها « اللجام » ، وهي حديدة طويلة محددة الرأس جداً واسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها « الاسطام » ، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم المركب فيحتالون في طعن المراكب به ، فاذا اصاب جانب المركب بقوة خرقه حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب اصحابه الأمان .

واما الكلاليب ففائدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو والقوا الكلاليب عليه فيوقفونه ، ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون . واذا كان العدو قوياً ابطل فعل الكلاليب بفأس ثقيلة من فولاذ يضربون به تلك الكلاليب فتنقطع .

بيت المال

البحث في بيت المال يشمل النظر في كل ما يتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة واعشار واخماس وجزية وغير ذلك ، ويسمى الديوان السامي . وهو اصل الدواوين ومرجعها عندهم ، ووظيفته ان يثبت في جرائده جميع اصول الاموال السلطانية على اصنافها ، من عين وغلال وفيء وغنائم واعشار واخماس، ويثبت ما تحصل من ذلك ويتخذ بيوتاً لأصناف الاموال ويجعل عليها دواوين وحرساً . فالاموال والقماش لها ديوان الخزانة ، ويجب ان يكون مباشروه قضاة المسلمين بأنفسهم بلا نواب عنهم ، ومعهم خزندارية امناء اكفاء من اقوى الناس ديانة . والغلال لها ديوان الاهراء ، يجب ان يكون مباشروه،من اكبر العدول الدينيين الاعفاء . والاسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح، يجب ان يكون مباشر هذا الجهة محتسب البلد ، لانه يعرف امور الاستعمالات واجور الصناع واسعار الآلات . وكل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال. وكل حق وجب صرفه في مصالح المسلمين ثلاثة أقسام : الصدقة والغنيمة والفيء ، ولكل منها احكام سيأتي بيانها . والاموال المستحقة على بيت المال ارزاق الجند واثمان الكراع والسلاح . وغير ذلك مما ينفق في سبيل المصلحة العامة .

الصدقـــة

الصدقة والزكاة لفظان مترادفان . وهي تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم ، وقد ذكرنا اصلها فيا تقدم ، وللصدقة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان . ويستقل والي الصدقة في كل بلد بالاستيلاء على اموال الصدقة من اغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه . ومصادر الزكاة اربعـــة : زكاة الماشية وزكاة الذهب والفضة وزكاة الاثمار وزكاة الزروع .

١ – زكاة الماشية

فزكاة الماشية تؤخذ على الابل والبقر والغنم ، ولها احكام وضعها رسول الله نفسه . يستدل على ذلك من كتاب كتبه ابو بكر الى انس بن مالك لما وجهه الى البحرين ، وهاك نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه فريضة الصدقة التي فرضها رســول الله ﷺ على المسلمين ، والتي امر الله بها رسوله . فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعط: في اربع وعشرين من الابل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة . اذا بلغت خمساً وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض انثى . فاذا بلغت ستاً وثلاثين الى خمس واربعين ففيهـا بنت لبون انثى . فاذا بلغت ستاً واربعون الى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فاذا بلغت واحدة وستين الى خمسة وسبعين ففيها جذعة . فاذا بلغت ستاً وسبعين الى تسعين ففيها بنت لبون . فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل . فاذا زادت على عشرين ومائة ففي كل اربعون بنت لبون . وفي كل خمسين حقة . ومن لم يكن معه الا اربع من الابل فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها . فاذا بلغت خمساً من الابـــل ففيها شاة . وفي صدقة الغنم في سائمتها اذا كانت اربعين الى عشرين ومائة شاة . فاذا زادت على مائة الى مائتين شاتان . فاذا زادت على مائتين الى ثلاث مائة ففيها ثلاث . فاذا رادت على ثلاث مائة ففي كل مائة شاة . فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة من اربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها » . وللفقهاء تفاصيل في ذلك لا محل لها هنا . واما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها .

٢ – زكاة الذهب والفضة

وزكاة الفضة ليس فيا دون ٢٠٠ درهم صدقة . واما المائتـان فعليها خمسة دراهم كل سنة ، وذلك على تعديل ٢/١ ٢ في المائة اي ١ من ٤٠ ، وعلى هذا التعديل تؤخذ زكاة الذهب

عن كل عشرين مثقالاً منه نصف مثقال ، وليس على ما دون العشرين مثقالاً زكاة . واذا زادت على العشرين تضاعفت زكاتها على هذا القياس . ويعد من قبيل الفضة والذهب اموال التجارة ونحوها .

٣ – زكاة الاثمار

واما الاثمار فزكاتها تختلف باختلاف نوع سقايتها . فاذا كانت مما يسقى سيحا ، اي ان الماء يأتيها من المطر او الانهر بلا تعب او حمل ، فزكاتها العشر . واذا كانت مما يسقى بالتعب والرجال فنصف العشر . وفي كل حال لا تستحق الزكاة على الاثمار الا اذا بلغت خمسة اوسق فما فوق . والوسق ستون صاعاً ، والصاع خمسة ارطال وثلث بالعراقي . ويدخل في حكم الاثمار النخل والكرم ونحوها .

٤ – زكاة الزروع

واما الزروع ، ويريدون بها الحبوب بأنواعها كالحنطة والارز واللوبيا والحمص وغيرها ، فلا تؤخذ عليها زكاة الا بعد ان تبلغ خمسة اوسق ، وحكمها في الزكاة مثل حكم الاثمار .

الجهات التي تصرف فيها الزكاة

واما الجهات التي تصرف فيها اموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحاً في القرآن ، وهو : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » . وبناء عليه كانوا يقسمون اموال الزكاة الى ثمانية اسهم ، يدفعون سهماً الى الفقراء وهم الذين لا شيء لهم . والثاني للمساكين ، وهم الذين لهم ما لا يكفيهم وهم ارفق حالاً من الفقراء . وكانوا يجعلون نصيب كل واحد من هؤلاء بالنظر الى حاله او ما يكفيه على ما يتراءى لولي الصدقات ، بشرط ان لا يزيد ما يأخذه الواحد على ٢٠٠ درهم ، لانه اذا اخذ اكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة .

وقد جاء في تفسير البيضاوي ان الفقير من لا مال له يقع موقعاً من حاجته ، والمسكين من له مال او كسب لا يكفيه من السكون ، كأن العجز اسكنه .

والسهم الثالث يعطى للعاملين عليها ، وهم القائمون بجبايتها وتفريتها ، وفيهم الامين والمباشر والمتبوع والتابع فيأخذون اجورهم . فاذا زاد سهمهم على مـــا يستحق لهم رد الباقي على السهام الباقية . والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم ، وهم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين ، او لرغبتهم في الاسلام او لترغيب قومهم وعشائرهم فيه كما تقدم . واذا كان احد المؤلفة قلوبهم غير مسلم لا يدفع له من الزكاة بل يدفع له من الغنائم او الفيء . والسهم الخامس ينفق في شراء العبيد وعتقهم . والسادس للغرمين ، وهم المدينون ، فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم . والسهم السابع في سبيل الله ، يعطى الغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم . والثامن لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

ويمتاز عمال الصدقات عن سائر عمال المال والآخرين ان عامل الصدقة يجوز له ان يقسم ما جباه بغير اذن ، الا اذا نهى عن ذلك عمداً ، بخلاف اموال الفيء او الغنيمة فان عمالها ليس لهم ان يتصرفوا بالمال الا بأمر الخليفة او من يقوم مقامه من الولاة او الوزراء.

الغنيمــــة

الغنيمة ما يكسب المسلمون بالقتال وتشتمل على اربعة اقسام : اسرى وسبى وارضين واموال . فالاسرى هم الرجـــال المقاتلون الذين يقعون في الاسر ، ولهم في الشريعة الاسلامية شروط واحكام اختلف الائمة في تحديدها مما لا محل له هنا ، وفي جملتها قبول الفدية وهي مال يفتدي به الاسير . فالمال المأخوذ على هذه الصورة يضاف الى باقي الغنيمة ، واما السبي فهم النساء والأطفال الذين يقعون في ايدي المسلمين ، فلا يجوز قتلهم وانما هم يفرقون في جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم .

والارض التي تؤخذ في الحرب اما ان تكون قد فتحت عنوة فاصبحت ملكاً للمسلمين على انها فيء ، او ان تدخل في حـــكم المسلمين صلحاً على شروط فهي من قبيل الفيء . وباختلاف هذه الاحـــوال وما يشترك بينها اختلفت انواع الضرائب عليها كالخراج والعشور ونحوها .

الامـــوال

اما الاموال المنقولة فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال ، وهي تفرق في المقاتلة . وكانت تفرق في اول الاسلام بلا قاعدة ، فكان النبي يقسمها على ما يراه . واول غنائمهم غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة ، فتنازع المهاجرون والانصار في اقتسامها ، ففرقها النبي فيهم على السواء وهو كواحد منهم . ثم جاء الامر بالتخميس في الآية : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . واول غنيمة خمست على هذه الصورة غنيمة غزوة بني قينقاع بتلك السنة ، فقسمت اموالها الى خمسة اقسام تفرقت اربعة منها في المقاتلة ، والخمس الخامس — وهو خمس النبي — قسم الى خمسة اسهم : السهم الاول ينفقه على نفسه وازواجه وفي مصالح المسلمين، والثاني يفرق على ذوي القربى ، وهم بنو هاشم رهط النبي ، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف خـــاصة ، ولا حق لاحد سواهم من قريش ، والثالث لليتامى من ذوي الحاجات ، ويستوي فيه حكم الغلام والجارية ، والرابع يفرق في المسلمين الذين لا يجدون ما يكفيهم ، والسهم الخامس لأبناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون ما ينفقون .

ويعد من قبيل الاموال ايضاً الاسلاب ، وهي ثياب القتلى واسلحتهم ، فهذه كانوا يفرقونها في المقاتلين ، فيأخذ كل رجل اسلاب الذي قتله .

الاراضي

واما الاراضي التي كانت تقع في ايديهم عنوة او صلحاً ، فقد اراد بعضهم في صدر الاسلام ان يجعلها غنيمة تقسم بين الفاتحين مثل قسمة اموال الغنيمة ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك كما يتبين من كتاب كتبه الى سعد بن ابي وقاص بعد فتح العراق ونصه : « اما بعد .. فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما اجلب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر ، واترك الارضين والانهار بعمالها لا يكون ذلك في اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء » .

فاعترض عليه بعضهم بأن الارض حق لهم لانهم فتحوها بأسيافهم ، فجادلهم واقنعهم بأن يضع الخراج عليها والجزية على اهلها ، ويكون كلاهما فيئاً للمسلمين على ممر الاجيال . وبناء عليه وضع عمر الجزية والخراج على ارض العراق وغيرها من البلاد المفتوحة ، ودوّن ذلك في السجلات على مثال ما كان الفرس والروم يدونون ، وهو ما يعبرون عنه بتدوين الدواوين كما تقدم .

الفيء

هو سائر ما بقي من اموال بيت المال، وفي الشرع « الفيء كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب » . ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبي خمس الفيء يقسم كما يقسم خمسه من الغنائم ، فاصبحت حصته بعد موته من الفيء ايضاً من حق بيت المال . وكانت الاربعة الاخماس الباقية من الفيء تقسم في صدر الاسلام على الجيش ، وهم المهاجرون والانصار ، يفرق فيهم على السواء ، حتى وضع عمر الديوان وقدر ارزاق الجند على ما ذكرناه ، فاصبح الفيء يوضع في بيت المال ، وينفق منه على الجند وغيرهم حقوقهم المعينة .

وقد رأيت فيما تقدم ان اهل الصدقات هم غير اهل الفيء والغنيمة . فلا تصرف الصدقات في اهل الفيء ، ولا يصرف الفيء في اهل الصدقات . فان الفيء والغنيمة لاهل الحرب والمجاهدين في سبيل الاسلام ، واهل الصدقات ليسوا من المقاتلة ولا هجرة لهم . وكان اسم الهجرة يطلق في الصدر الاول على من هاجر من وطنه الى المدينة لطلب الاسلام. وكانت كل قبيلة اسلمت وهاجرت بأسرها تدعى « البررة » وكل قبيلة هاجر بعضها تدعى « الخيرة » . فكان المهاجرون بررة وخيرة . ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح ، وصار المسلمون مهاجرين واعراباً لان اهل الصدقة كانوا يسمون على عهد النبي اعراباً ، ويسمى اهل الفيء المهاجرين ، ومن ذلك قول الشاعر :

قد لفها الليل بعصلبي　　　اروع خراج من الدربي
مهاجر ليس بأعرابي

وكان الخلفاء في صدر الاسلام يدققون في التمييز بينهما ، فاذا اراد الخليفة ان يعطي طالباً لا يعطيه من مال الفيء الا اذا كان العطاء عائداً الى مصلحة المسلمين العامة ، والا

فانه يعطيه من مال الصدقة . ويروون عن عمر بن الخطاب غير حكاية تدل على شدة تمسكه بهذه القاعدة ، منها ان اعرابياً اتاه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنه ۝ اكس بنياتي وامهنه
وكن لنا من الزمان جنه ۝ اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر : « ان لم افعل يكون ماذا ؟ » . قال :

اذن ابا حفص لأذهبنه

قال : « واذا ذهبت يكون ماذا ؟ » ، فقال :

يكون عن حالي لتسألنه ۝ يوم يكون لا عطايا هنه
وموقف المسئول ينهينه ۝ اما الى نار واما جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، وقال : « يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم ، لا لشعره . انا والله لا املك غيره ! » . فجعل ما وصل به الاعرابي من ماله لا من مال المسلمين ، لان صلته لم تعد تقع على غيره فخرجت من المصالح العامة .

وكان مما نقمه الناس على عثمان انه جعل الصلات من مال الفيء ولم ير الفرق بين الامرين . ولما مضى زمن الهجرة وصار الاسلام دولة جوزوا صرف كل واحد من المالين في كل واحد من الفريقين ، على حسب الاقتضاء . وازدادت موارد الفيء باتساع المملكة الاسلامية وتعددت ابوابها ، وصاروا يعبرون عن الفيء بجباية الاعمال ، وهو ما يجبى من اصناف الاموال ، كالجزية والخراج والصدقات واعشار السفن واخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع والمستغلات الخ .. وقد تقدم الكلام في الصدقات ، وسنذكر اهم ما بقي من مصادر الفيء .

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بأنها يؤخذان من غير المسلمين ، وهما من جملة اموال الفيء ويجبيان بأوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالاسلام ، واما الخراج فيوضع على الارض ولا يسقط .

تاريخ الجزية

والجزية ليست من محدثات الاسلام ، بل هي قديمة من اول عهد التمدن القديم . وقد وضعها يونان اثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، وفينيقية يومئذ من اعمال الفرس ، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال في مقابل حماية الرءوس . والرومان وضعوا الجزية على الامم التي اخضعوها ، وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من اهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات و ١٥ جنيهاً في السنة ، او نحو سبعة اضعاف جزية المسلمين . ولم تكن الجزية كبيرة بهذا المقدار في كل البلاد التي افتتحها الرومان ، ولكنهم يعللون كبرها في غاليا ونحوها انها كانت تؤخذ من الاشراف ، عنهم وعن عبيدهم وخدمهم . وكان الفرس ايضاً يجبون الجزية من رعاياهم ، ويؤيد ذلك ما اورده ابن الاثير في كلامه عما فعله كسرى انوشروان في الخراج والجند ، قال : « والزموا الناس الجزية ما خلا العظماء واهل البيوتات والجند والمرازبة والكتاب ومن في خدمة الملك ، كل انسان على قدره اثني عشر درهماً وثمانية دراهم وستة دراهم واربعة دراهم » . فالظاهر ان العرب اخذوها عن الفرس لفظاً ومعنى ، فعربوا لفظها حتى صار « جزية » وعدلوا في كيفية جمعها كما رأيت . وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى ايضاً ، لان المسلمين عندهم هم الجند والعظماء واهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية واهل اللغة يعدون لفظ الجزية مشتقاً من جزاه به وعليه ، كافأه .

مقدار الجزية

اما الجزية في الاسلام فقد كان النبي يقدرها بحسب الاحوال ، وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين واعدائهم ، فلما صالح اهل نجران تراضوا على جزية مقدارها ٢٠٠٠ حلة في صفر و ١٠٠٠ في رجب ، ثمن كل حلة اوقية والاوقية اربعون درهماً . وصالح اهل اذرح على مائة دينار كل رجب . وصالح اهل مقنا على ربع اخشابهم وغزوهم وكراعهم ودروعهم وثمارهم . وصالح غيرهم من يهود جزيرة العرب على نحو ذلك .

وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر ايام ابي بكر ، فلما تولى عمر وكثرت الفتوح عين مقدارها ، فكتب الى امراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، وان يجعلوها على اهل الفضة كل رجل اربعين درهماً ، وعلى اهل الذهب اربعة دنانير . وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة ، وثلاثة اقساط زيتاً كل شهر لكل انسان في الشام والجزيرة .

ثم تعدلت فتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم ، فوضعوا على الظاهر الغنى ٤٨ درهماً تدفع اقساطاً ٤ دراهم في كل شهر ، وعلى اوسط الحال ٢٤ درهماً كل شهر درهمان ، وعلى الفقير ١٢ درهماً كل شهر درهم ، ولا يؤخذ شيء من النساء والصبيان ولا من اهل العاهات ولا من الرهبان الذين لا يخالطون الناس، إلا البلاد التي عقدت شروط الجزية عليها باتفاق خاص ، كما عقد صلح مصر مع عمرو بن العاص ، على ان يدفع القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعليهم اضافة من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام ، وغير ذلك .

وكثيراً ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى في ايدي الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ، كما وقع لأهل الجزيرة بالعراق ، فقد كان الذي فتحها عين جزيتها ديناراً على كل رأس ، فلما تولى عبدالملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم . وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، وطرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته ، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد ، فألزمهم دفعها وجعل الناس طبقة واحدة .

والجزية تضرب كما قلنا على غير المسلمين ، فمن اسلم سقطت عنه ، إلا في ايام عبد الملك ابن مروان فان الحجاج وضعها على من اسلم من اهل الذمة . وخاطب عبد الملك اخاه عبد العزيز عامله على مصر يومئذ ان يضعها على من اسلم ، فشاور عبد العزيز بن حجيرة احد خاصته فأعظم الأمر وقال : « اعيذك بالله ان تكون اول من سن ذلك بمصر ، فوالله ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من اسلم منهم؟؟» فتركهم . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقي الشهير ابطل ذلك من العراق، ولم توضع الجزية على مسلم بعد ذلك .

وتقبل الجزية من غير المسلمين اياً كانوا ، إلا اذا كانوا من العرب عبدة الاوثان او من المرتدين ، فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الاسلام او السيف . اما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الاوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام او الجزية او السيف .

والقصد من ذلك توحيد امة العرب ، فأباد النبي الوثنية من جزيرة العرب في حياته ، ولما تولى عمر اخرج من كان باقياً فيها من النصارى واليهود . وقد قلنا ان الجزية لا توضع إلا على من بلغ الحلم من الاصحاء ، ومعنى ذلك انها بدل من القتال ، اي ان دافعها لا يدعى الى القتال . ويشبهها من هذا القبيل ما كان يدفعه نصارى المملكة العثمانية من الضريبة المعروفة بالعسكرية قبل اعلان الدستور ، وكانت تدفع مقابل اعفاء النصارى من الجندية .

الخراج

تاريخه

الخراج ما يوضع من الضرائب على الأرض او محصولاتها ، وهو اقدم انواع الضرائب . والاصل في وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان او الملك ، وهذا الاعتقاد قديم جداً . وفي التوراة اقوال صريحة في كيفية دخول الأرض في ملك الفراعنة ، وردت في حكاية المجاعة الشهيرة في الفصل السابع والأربعين من سفر التكوين ، لما جاع المصريون في اثناء القحط فباعوا يوسف كل ما اقتنوه من فضة وذهب وماشية ولم يبق لهم إلا الأرض فباعوه اياها بالخبز .

وهكذا كان شأن الأرض في كل الممالك القديمة ، فالأرض للملك والاهالي انما يتمتعون بريعها . وللحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . ومن عادات التتر ان الانسان يستأثر بملك الماشية ، واما الأرض فانكروا حق تملكها على الأفراد . وكان الجرمان القدماء لا يعترفون بملك الأرض إلا لحكامهم او رؤسائهم ، فكان رئيس القبيلة يوزع اراضيها على افرادها . وفي السنة التالية توزع عليهم بالتناوب ، بحيث ان القطعة الواحدة لا يستغلها الرجل الواحد سنتين متواليتين . ومثل هذه العادة لا تزال الى اليوم شائعة في بعض شعوب الصقالبة .

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على اراضي مملكتهم ، وفي جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم . وكان لهم في كل ولاية ديوان خاص بالخراج تدون فيه اعماله ودخله وخرجه ، وله كتاب وجباة وعمال من اهل البلاد او من الحكام . وكان نحو ذلك حال الفرس في العراق وفارس ، لأن الفرس اقتبسوا كثيراً من قوانين اليونان والرومان .

ديوان الخراج

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها ، اقروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل ولم يغيروا فيها شيئاً . وظل كتاب الدواوين من اهل البلاد انفسهم من النصارى والمجوس ، كما كانوا في عهد الدول السابقة . فكان عمال ديوان الخراج في مصر الاقباط ، ويكتبون ديوانهم بالقبطية . وعمال ديوان الشام الروم ، وكانوا يكتبونه بالرومية . وديوان العراق يكتبه الفرس بالفارسية . والعرب يراقبون اعمال الدواوين ويستولون على جبايتها ، كأنهم لم يريدوا بفتح البلاد امتلاكها لرغبتهم يومئذ في الدين عن الدنيا . فلما صار الامر الى بني امية وانتقل المسلمون من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحساب ، غيروا الدواوين الى لسانهم ، وسلموا امورها الى رجال من المسلمين. وأول من فعل ذلك منهم عبدالملك بن مروان (نحو سنة ٨١ هـ) فصارت الدواوين عربية من ذلك الحين . وربما كان عبدالملك البادىء بذلك التغيير ، ثم أتمه من جاءبعده، لأن ديوان مصر تم نقله الى العربية على عهد الوليد بن عبدالملك سنة ٨٧ هـ .

واما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب ، كما ذكرناه في محله . وهو اشبه ان يكون ديوان الجند او ديوان الأعمال والجبايات ، لأنه دون فيه اسماء الصحابة وعين اعطياتهم وطبقاتهم ، وضبط ما يرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية ، بعد دفع نفقات الجند في مصر والعراق .

وكان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في امر الخراج ، ويراقبون سير الجباية ، فلما أفضى الأمر الى الدولة العباسية وضعوا ديواناً مركزياً للخراج يشمل ما تحته من دواوين الأعمال — وضعه السفاح وعهد امره الى خالد بن برمك جد البرامكة ، وكان ذلك اول

خطوة لتداخل البرامكة في شؤون الدولة وتصرفهم في اموالها. وكان في جملة تصرفهم فيها انهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لأولادهم واهليهم، كما ضمن يحيى بن برمك في ايام المهدي خراج فارس وانكسر عليه المال . واصبح ديوان الخراج في ايدي الوزراء مثل غيره من الدواوين ، حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت امورها الى الأمراء ابطلت الدواوين في ايام الراضي بالله .

تقدير الخراج

قلنا فيما تقدم ان العرب اقروا الخراج : دواوينه وسائر احواله على ما كان عليه في ايام الدول السابقة (الروم والفرس) ويؤخذ مما ذكره المقريزي ان جباية خراجهم كانت بالتعديل ، وهو ما يعبرون عنه بالمقاسمة - اذا عمرت القرى وكثر اهلها زيد خراجهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوه .

وكانت جباية الشام على نحو ذلك ايضاً . واما الفرس فكانوا يأخذون خراج ارضهم بالمقاسمة ، حتى مسحه قباذ بن فيروز قبل الاسلام وجعله بالمساحة ، فضرب على الجريب الواحد درهماً وقفيزاً (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع) مهما يكن حاله من الخصب او الجدب . فلما فتح المسلمون البلاد عدلوا في الخراج على ما اقتضته الاحوال في سائر البلاد. ولهم قوانين عامة في الأرضين ، فالأرض في الاسلام اربعة اقسام :

١ - أرض استأنف المسلمون احياءها ، فهي ارض عشر ، للامام عشرها ، وتعد من قبيل احياء الموات .

٢ - ارض اسلم اهلها عليها ، فهم أحق بها ، وهي ايضاً ارض عشر .

٣ - ارض ملكها المسلمون عنوة ، فهي غنيمة لهم ، وتعد ايضاً ارض العشر .

٤ - ارض صولح اهلها عليها ، وهي الأرض المختصة بالخراج ، وخراجها لا يبطل ولو اسلم اهلها .

وقدر الخراج على هذه الارض يعتبر بما تحمله. فلما فتحت العراق وضع عمر على سواده مثل ما كان الفرس قد وضعوه عليه، وهو عن كل جريب من الارض قفيز ودرهم ، والقفيز عشر الجريب اي ٣٦٠ ذراعاً مربعاً . وضرب عمر على ناحية اخرى بطريقة اخرى ،

فجعل مقدار الخراج تابعاً لنوع المحصول . فأمر عثمان بن حنيف بالمساحة فمسح ، ووضع على كل جريب من الكرم والشجر الملتف عشرة دراهم ، ومن النخل ثمانية دراهم ، ومن قصب السكر ستة دراهم ، ومن الرطبة خمسة دراهم ، ومن القمح اربعة دراهم ، ومن الشعير درهمين . فقبل عمر بذلك. وظلت ارض العراق بالمساحة او التوظيف او الوظيفة، الى ايام المنصور العباسي فعدل الى المقاسمة ، لان السعر نقص فلم تكن الغلات تفي بخراجها ، وخرب السواد فجعله مقاسمة اذا زادت الغلة زاد الخراج . وتقدير خراج المقاسمة مفوض الى الخليفة ، لكنه لا يزيد على نصف الغلة ولا يقل عن خمسها .

ملكية الارض

اما ملكية الارض فظلت كما كانت عليه في اول الاسلام ، اي ان الارض ملك للامام ، وان الناس يستغلونها وللحكومة حق في غلتهم ، ما عدا بعض الاراضي الممتازة مما يسمونه الاواسي او الزرقة او نحوهما ، مما لا محل لتفصيله هنا . حتى دخل القرن التاسع عشر وجرت الاصلاحات السياسية في المملكة العثمانية وفي جملتها مصر ، فانها لما دخلت في حوزة محمد علي في اوائل القرن الماضي رأى ان الاحوال لا تستقيم والفلاح لا يعمل في ارضه الا اذا كانت ملكاً له . وكانت لما تولاها محمد علي قد اصبحت التزامات يلتزمها بعض وجهاء الناس واهل الغنى والنفوذ ، ويستخدمون الفلاحين فيها ويستغلونها فيدفعون مال الحكومة ويستأثرون بما بقي . فقسم محمد علي مصر الى مديريات ، والمديريات الى مراكز او اقسام ، وهذه الى نواح . وعين فيها موظفين لادارة امورها . وجباة لجمع الضرائب ، وابطل الالتزامات ووزع اراضي كل ناحية بين اهل تلك الناحية نفسها . بحيث ان كل فلاح قادر على الشغل اصابه قسم من الارض بقدر قسم الآخر .

فلما تولى الخديو سعيد اصدر لائحته الشهيرة المؤرخة في ٥ اغسطس سنة ١٨٥٨ فتمم ملكية الارض للاهالي وجعلها ارثاً شرعياً في ذرياتهم . واصبحت الارض المصرية ملكاً للمصريين من ذلك الحين . وجرى نحو ذلك في سائر بلاد الدولة العثمانية لان الخليفة العثماني صادق على لائحة سعيد بخط همايوني في هذا المعنى .

ارتفاع الخراج

ويراد به مقدار ما يجتمع من خراج البلاد في كل عام ، وهو امر يعسر تعيينه لاختلافه باختلاف الزمان والمكان ، ولان مؤرخي العرب كثيراً ما يجمعون بين الجزية

والخراج في تقدير الخراج ، فيقولون : ارتفاع الخراج،ويريدون به الخراج والجزية جميعاً . والجزية اقل من الخراج واقل ثباتاً منه ، لما يدخل من اهل الذمة في دين الاسلام بتوالي الازمان . وربما ادخلوا في الخراج ايضاً العشور ونحوها . ونحن ذاكرون فيما يلي امثلة من جباية اعمال المملكة الاسلامية في عصر بني امية :

فالسواد بلغ ارتفاع خراجه في ايام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠ ﻫ) ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، وفي ايام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢ ﻫ) ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، وفي ايام الحجاج بن يوسف (سنة ٨٥ ﻫ) ١٨٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، وجباه عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠ ﻫ) ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة ، ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم الى ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ وينفق على من معه من جند الشام ١٦,٠٠٠,٠٠٠ ، وعلى البريد ٤,٠٠٠,٠٠٠ وعلى الطوارق ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، ويبقى عنده للنفقة على بيوت الاحداث والعواتق ١٠,٠٠٠,٠٠٠ ، فكان مجموع جباية السواد على ايامه نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم .

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار . ولكن يظهر من عبارة المقريزي انها مبلغ الجزية وجدها على الجماجم ، على فريضة دينارين من كل رجل ، قال : وجباها بعده عبد الله بن سعد بن ابي سرح ١٤ مليونياً . وقل خراجها في ايام بني امية . حتى اذا كانت ايام هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٧ ﻫ) انتبه لها ، فبعث الى عامله على خراجها وامره ان يمسحها ، فخرج بنفسه فمسح العامر والغامر مما يركبه ماء النيل . فوجد مساحة ذلك ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان [١] سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض ، فعدلها فعقدت معه ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وكان السعر راخياً . وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٧ ﻫ) ١٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم . واختلف مقدار الجباية بمصر بعد ذلك ، وضعف امرها خصوصاً لما صارت الى بني العباس ، وبعد مركز الخلافة عن وادي النيل حتى انحط خراجها الى ٨٠٠,٠٠٠ دينار . فلما تولاها ابن طولون (سنة ٢٥٧ ﻫ) استقصى عمارتها فبلغت جبايتها ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار ، مع رخص الاسعار ؛ فقد كان القمح كل عشرة ارادب بدينار . وظل خراجها نحو ذلك في سائر ايام بني العباس .

---

١ راجع ملاحظاتنا على هذه المساحة في باب المملكة الاسلامية واحسانها .

واما الشام فقد بلغ خراجها في ايام عبد الملك بن مروان ٠٠٠ر٧٠٠ر١ دينار ، منها ٠٠٠ر١٨٠ من الاردن، و ٠٠٠ر٣٥٠ من فلسطين، و٠٠٠ر٤٠٠ من دمشق، و ٠٠٠ر٨٠٠ من حمص وقلسرين والعواصم .

تضمين الخراج

تضمين الخراج نوعان :

١ . تضمينه للعمال ، اي الولاة الذين يتولون الامصار ، وهو باطل في الشرع الاسلامي ، لان العامل مؤتمن يستوفي ما وجب ويؤدي ما حصل . فهو كالوكيل الذي ادى الامانة ، لم يضمن نقصاناً ولم يملك زيادة . وكان الصحابة في صدر الاسلام يشددون في منع هذا التضمين : حكي عن ابن عباس ان عاملا اتاه يتقبل منه الابلة بمائة الف درهم فضربه مائة سوط وصلبه حياً تعزيراً وادباً . ولما صارت الخلافة الاسلامية ملكاً اغضوا عن هذا الامر ، وصار الخلفاء يضمنون الخراج لعمالهم احياناً ، فيعطون بخراج اعمالهم مالاً معيناً ، ثم يجبون البلاد ويستولون على ما يفضل مهما كان مقداره ، كما فعل يحيى بن برمك وغيره ، وتطرقوا بعده الى تضمين القضاء والحسبة والشرطة كما سترى .

٢ ـ تضمين الخراج للملتزمين ، وهم اناس من اهل الغنى او النفوذ كانوا يتقبلون الاراضي ، اي يضمنونها من متولي الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة ، فيضمن الواحد قرية او بلداً او كورة فيزرعها ويستغلها ، ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي، وضمانة الاراضي او التزامها على هذه الصورة ليس من مخترعات الاسلام ، بل هو قديم من ايام اليونان ، وقد شاع في المملكة الرومانية وكان في جملة ما اقتبسه العرب عنهم . وظل ضمان الاراضي على هذه الصورة شائعاً في المملكة الاسلامية الى عهد قريب ، وقد مرت عليه ادوار تقلب فيها على اشكال وضروب ، ومن هذا القبيل ضمان الاعشار في المملكة العثمانية .

ضرائب اخرى

توابع الخراج

وكان من موارد الاموال في الاسلام ، غير خراج الاراضي وعشورها والصدقات

والجزية ، اعشار السفن واخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع واثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام ، وغيرها مما يعد من قبيل الخراج .

اما اعشار السفن فكانوا يضربونها على السفن التي تمر ببعض الثغور ، فيأخذون عشراً مما تحمله اما عيناً او نقداً . فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند ، تحمل الاعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني فيأخذون الضريبة عيناً . وقد بلغت اعشار السفن في ايام الواثق بالله مالاً كثيراً.

وكان الاندلسيون يضربون على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وايابها ، فكان الافرنج او غيرهم اذا مروا بسفنهم ادوا الضريبة في مدينة هي في اقصى بلاد الاندلس جنوباً يقال لها طريف واسمها الآن طريفة (Tarifa) ، ويزعم الافرنج في كلمة (Tarifa) — التي تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التي تؤخذ على البضائع في دخولها البلاد وخروجها ، او الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان — انها تحريف « طريف » المشار اليها ، لانهم كانوا يسمون ما يدفعونه من رسوم السفن « رسوم طريف » ، ثم اهمل اللفظ الاول وبقي اللفظ الثاني . مع ان لفظ « تعريفة » في العربية يدل على نحو معناها الافرنجي ، فيجوز ان اللفظ الافرنجي منقول عن لفظ تعريفة العربي او تحريف « طريف » كما يقولون .

واما اخماس المعادن فهي ما كانوا يضربونه على مايستخرج من باطن الارض من معدن او نحوه ، وهي نوعان : معادن ظاهرة ، ومعادن باطنة . والمعادن الظاهرة كالكحل والملح والقار والنفط ، فهذه المعادن مباحة في الشرع الاسلامي كالماء الجاري من العيون لا يجوز احتكارها ، والناس فيها سواء يأخذها من ورد اليها . واما الباطنة فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها، لا يوصل اليه الا بالعمل كمعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فهذه المعادن كانوا يقطعونها لأناس يستخرجون ما فيها على ان يؤدوا الخمس لبيت المال .

وغلة دار الضرب هي ما يخصص لبيت المال من دار الضرب ، باعتبار شيء في المائة كما ذكرنا في كلامنا عن دار الضرب من هذا الكتاب . وقد بلغت غلة دار الضرب في عهد بني مروان بالاندلس ٢٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة .

ومن الضرائب التي كانت تؤخذ في الاسلام المكوس ، واحدها مكس ، وهو ضريبة تضرب على اصناف التجارة من قبيل ما يعرف اليوم بالجمرك او الفردة (الفرضة) او

نحوها . وكان المكس، او المقس ، شائعاً في الجاهلية، فكان يؤخذ من تجار القبط والفرس في المدينة عشر متاجرهم . فلما ظهر الاسلام اقره عمر بن الخطاب [١] وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد اخرى . فالشامي اذا طاف بلاد الشام كلها بتجارته لا يؤخذ منه عشر او مكس ، واما اذا انتقل الى مصر او العراق فيؤخذ منه المكس . والمكس على ما فرضه عمر ثلاث درجات: يؤخذ من اهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر ، اي من كل عشرين درهماً درهم. ومن المسلم ربع العشر، اي من كل ٤٠ درهماً درهم . وليس فيما دون المائتين شيء . ويؤخذ من العربان الذين ليسوا من الرعايا العشر كاملاً . ولم يرج المكس في الاسلام ، لان اهل الورع كانوا يكرهونه . وقس على ذلك ما بقي من انواع الضرائب .

الاقطـــاع

ومما يلحق بالخراج ايضاً من القطائع . والاقطاع قديم في الدول ، واصله ان الملك اذا فتح بـــلاداً وأراد استبقاءها واستغلالها ، فرقهـا على قواده في مقابل حربهم واتعابهم كأنها اجرة لهم ، ويؤيد ذلك ان اصل لفظ الاقطاع في الافرنجية معناه الاجرة . والقواد يفرقون تلك الارض في ضباطهم ، وهؤلاء يفرقونها في العساكر او من يقـــوم مقامهم . ويشترط الملك على قواده عند اعطائهم هذه الهبات ان يكونوا امناء له في الحرب والسلم ، فاذا خان احدهم ونكث رجعت الارض الى واهبها. واذا كان الخائن جندياً صغيراً رجعت الى ضابطه ، او كان ضابطاً رجعت الى قائده ، وهكذا حتى ترجع الى الملك . فكان من عواقب هذا المبدأ ان تبقى الارض في ايدي الملوك ، بشروط واساليب وضعوها لذلك لا محل لاستيفائها هنا . وبمقتضاها يكون الملك ورعيته وجنده يداً واحدة في الدفاع عن البلاد لاشتراك مصالحهم وتبادلها فيها . وانتشر مذهب الاقطاع في ممالك اوربا .

اما في الاسلام فالاقطاع كان على كيفية اخرى ، ويؤخذ مما كتبه الامام ابو يوسف ، ان الارض التي تقع في ايدي المسلمين وليس لها مالك يطالب بها كالارض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها ، او تكون لرجل قتل في الحرب ، او ان تكون من مغيض ماء او نحو ذلك — فهذه الاصناف من الارض كان الخلفـــاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن

---

١ - المقريزي ١٢١ ج ٢ .

شاءوا ، على ان يؤدي عشر مالها لبيت المال او اكثر او اقل ، على ما يتراءى للخليفة . فبلغ خراج البقاع التي دخلت تحت هذه الشروط من ارض السواد في ايام عمر ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . وجرى على نحو ذلك من جاء بعده من الخلفاء والامراء ، فبلغت غلتها في ايام عثمان ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . فلما كان عام الجماجم سنة ٨٢ ﻫ في فتنة عبد الرحمن بن الاشعث احرق الديوان ، فاستولى كل قوم على ما كان في ايديهم .

وكان بنو امية وبنو العباس يقطعون الارضين لبعض خواصهم واهلهم . فلا يأخذون عليها خراجاً ، فتؤخذ اعطيات الجند وسائر النفقات من مال الخراج ، ويحمل ما فضل الى بيت المال ، والقطائع تبقى في ايدي اصحابها .

فلما خرجت السلطة من الخلفاء وافضت الى السلاطين السلجوقية جعلوا الاقطاع عاماً على يد نظام الملك ، كما تقدم في الكلام عن اعطيات الجند . واقتدى به سائر السلاطين بعده وفي جملتهم الاكراد ، دولة بني ايوب بمصر . فان السلطان صلاح الدين جعل البلاد كلها اقطاعاً لامرائه وجنده ، وخصوصاً مصر . ثم تعدل الاقطاع بعد ذلك وتبدل ، فصارت بعض الارض اقطاعاً وبعضها مبيعاً وبعضها موقوفاً . ووصف المقريزي ارض مصر في ايامه (في القرن التاسع للهجرة) فقال انها تقسم الى سبعة اقسام : قسم يجري في ديوان السلطان ، وقسم اقطع للامراء والاجناد ، وقسم جعل وقفاً محبساً على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى ذراري واقفي تلك الارض ، وقسم يقال له الاحباس وهي اراض في ايدي قوم يأكلونها عن قيام بمصالح مسجد او نحوه ، وقسم صار ملكاً يباع ويشرى ويورث ويوهب لانه مشترى من بيت المال ، وقسم لا يزرع للعجز عن زراعته ، وقسم لا يشمله ماء النيل فهو قفر .

والاقطاع ضربان : اقطاع استغلال ، واقطاع تمليك . وهما يختلفان باختلاف نوع الارض من الخراب والخصب ، وحالها من الحرب والصلح والفتح ورأي الخليفة في كل ذلك .

وسنفصل الكلام في مقدار جباية الدولة في ايام العباسيين، وعلاقة ذلك بثروة المملكة في كلامنا عن ثروة المملكة الاسلامية في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

البريد

يراد بالبريد في الدول الاسلامية غير ما يراد به الآن . فقد كان صاحب البريد او صاحب الخبر اشبه برئيس البوليس السري ، او رقيب اصحاب الاعمال، او هو عبارة عن جاسوس الخليفة او الامير ، او عينه الباصرة واذنه السامعة ، ينقل اليه اخبار عماله او مساعي اعدائه . فالبريد من هذا القبيل اشبه بقلم المخابرات .

وكان الخلفاء لا يولون البريد الا ثقتهم من اهل التعقل والدراية، لان على ما ينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمالهم او بمعاصريهم . وكان كسرى لا يولي البريد الا اولاده .

ولاية البريد

وولاية البريد قديمة ، كانت عند الفرس والروم . واول من اتخذها من المسلمين معاوية ابن ابي سفيان ، اقتداء بما كان قبله في الشام او ما اشار عليه به عماله في العراق . وكان الغرض منه في اول وضعه ، سرعة ايصال الاخبار بين الخليفة في الشام وعماله في مصر والعراق وفارس . ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عيناً للخليفة على عماله وسائر رجال دولته . فان طاهر بن الحسين لما قطع الخطبة للمأمون على منبر خراسان ، عاتبه صاحب البريد فاعتذر انه سهو وقع منه ، وتقدم اليه ان لا يكتب ، الى الخليفة به . وتكرر ذلك منه ثلاث مرات وطاهر يتقدم اليه ان لا يكتب ، فقال له صاحب البريد : « ان كتب التجار لا تنقطع من بغداد ، وان اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرنا لم آمن ان يكون سبب زوال نعمتي » . فقال : « اكتب اليه » ، فكتب .

وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل اوامر الخلفاء الى ولاتهم واخبار الولاة الى خلفائهم . وكان اصحاب البريد رقباء او مفتشين من قبل الدولة ، يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من امور المملكة . فاذا تكدرت العلائق

بين العامل « الوالي » والخليفة ، واراد العامل ان يستقل او يتمرد ، قطع البريد عن الخليفة ، كما فعل المأمون لما سمع وهو وال في خراسان ان اخاه الامين نقض بيعته وبايع ابنه موسى بولاية العهد بعده ، فانه اسقط اسم الامين من الطراز وقطع البريد عنه .

وكان بنو العباس اكثر الناس عناية في امر البريد ، وبالغوا في استخدامه حتى نسب الى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على احوال ولاته ونوابه ورعيته ، وربما تطلعوا به على احوال العوام وآحاد الناس . وقد رتب بعض الخلفاء ذلك جهاراً ، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهي اليه ما يجري في مجلسه ، فلا يحسن الوزير ولا يجتمع به احد من الناس الا بحضور ذلك الشخص . وكذلك فعل مع القاضي والنائب وجميع ولاة الاعمال . وكان ابو جعفر المنصور يقول : « ما احوجني ان يكون على بابي اربعة نفر لا يكون على بابي اعف منهم ، وهم اركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم : اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية » ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة : « آه ! آه ! » . قيل : « ما هو يا امير المؤمنين ؟ » . قال : « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة » .

فاصحاب الاخبار هنا بمعنى جواسيس هذه الايام ، ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة او السلطان او الامير واسطة ، فاذا جاء صاحب البريد بخبر لا يطلع احداً عليه قبل انهائه الى الخليفة ، ليكون هو الذي يشيعه او يكتمه على ما يراه .

وقد يجعل الملوك او الامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سراً ، فلا يعتمد احدهم كتاب صاحب بريده الا اذا كانت فيه تلك العلامة — ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه ، اذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه ، نحو ما فعل ابو مسلم الخراساني لما دعاه المنصور اليه من خراسان الى بغداد ، وخاف ابو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف ابا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له : « اقم حتى يأتيك كتابي ، فان اتاك مختوماً بنصف خاتم فأنا ختمته » وان اتاك بالخاتم كله فلم اختمه » . فلما جاء ابو مسلم الى المنصور في المدائن وكان ما كان من قتله ، كتب المنصور الى ابي نصر عن لسان ابي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وان يقدم ، وختم الكتاب بخاتم ابي مسلم ، فلما رأى ابو نصر الخاتم تاماً علم ان ابا مسلم لم يكتبه .

ومصلحة البريد ولاية جليلة خطيرة، يحتاج صاحبها الى عمال عديدين والى نفقات طائلة للتوسعة عليهم حتى يظلوا على امانتهم. وكان في جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق، وطرق الاعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر. واليه كانت ترد كتب اصحاب الثغور وولاة الاطراف، وهو يوصلها في اسرع ما يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب.

طرق البريد

وكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة الى اطراف المملكة حتى تتصل بطرق الممالك الاخرى. وتنقسم كل طريق الى محطات او مواقف فيها افراس او هجن، فيستبدل عمال البريد افراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة. وكان الغالب في العرب ان يتخذوا الجمال لبريدهم، واما الفرس فكانوا يستخدمون الخيل.

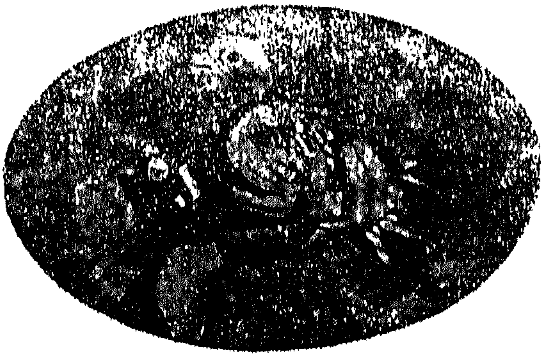
وبلغ عدد سكك البريد في ابان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة، ونفقات الدواب واثمانها وارزاق رجالها ١٥٩,١٠٠ دينار في السنة. وقد رأيت في كلامنا عن خراج السواد في أيام بني امية انه كان ينفق على البريد اربعة ملايين درهم، اي نحو ضعفي ذلك، وهو يؤيد ما قلناه غير مرة عن بذل بني امية الاموال في سبيل تأييد سلطانهم.

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر، حتى تبلغ اربعين او خمسين دابة. وكثيراً ما كانوا يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس الى الخليفة او الامير، التماساً لسرعة قدومهم. وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع المراكب، بين ان تكون ابلا او خيلا. وكانوا يعلقون في اعناق الدواب جلاجل او سلاسل، اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد. وقد ترسل البرد على السفن في البحار.

ومن طرق المخابرة بالبريد، غير نقل الخرائط على الدواب او في البحار، ارسالها مع السعاة. وهم رجال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في رحلة، واهل البراري انشط لذلك. واول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة، انشأهم في بغداد لاعلام اخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً. ونبغ في ايامه ساعيان، اسم احدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر السعاة. وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفاً واربعين فرسخاً، اي نحو ١٤٠ ميلا واتصل استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية.

حمام الزاجل

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل ، فقد كان له شأن عظيم عندهم ، والمخابرة به قديمة جداً عند الامم القديمة . ولكن المسلمين كانوا اكثر عناية من سواهم فيه ، ويقال ان اول استخدامه كان في الموصل ، ثم في مصر على عهد الفاطميين فالعباسيين . وكانت الاسكندرونة في سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب. على انهم لم يعتنوا به العناية الكافية ، ولم ينشئوا له الادارات الخاصة ، الا في العصور الاسلامية الوسطى . فانهم بذلوا في ذلك عناية كبرى ، ولا سيا ، مصر .



حمام الزاجل

فقد كان للمخابرة بالحمام ابراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدد الحمام المستخرج لهذه الغاية فيها الفاً وتسعمائة طائر ، لها عمال يناط بهم امر العناية بها . وكانت الطيور المذكورة لا تبرح الابراج بالقلعة . وكان بكل مركز حمام في سائر نواحي المملكة بمصر والشام والعراق من اسوان الى الفرات . فلا تحصى عدة ما كان منها في الثغور والطرقات الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات (١) .

طرق اخرى للمخابرة

ومن طرق المراسلة عندهم ان تكتب ورقة تعلق بقصبة ، وتغرس القصبة في باقة

---

١ ــ تفصيل ذلك في الهلال ص ٢١٢ سنة ١٠ .

حشيش وتلقى في الماء، فيعوم الحشيش ولا يزال جارياً بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه. ومنها ان تكتب الاخبار على السهام وترمى الى المكان المراد ارسال الخبر اليه . ويغلب ان يكون ذلك في ايام الحصار وانقطاع السبل .

ومن طرق المخابرة بنـــاء المناظر او المنائر كالأبراج العالية على المرتفعات ، ونقل الاشارات عليها باشعال النار او نحوه ، فينتقل الخبر بها من منظرة الى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب . وكان ذلك معروفاً عند اليونان وغيرهم، واستخدمه الحجاج بن يوسف في الاسلام فاتخذ المناظر بينه وبين قزوين . وكان اذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهاراً، وان كان ليلا اشعلوا ناراً ، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر في وقت قصير .

ومن عمال البريد ما عدا السعاة — الشعوذي وهو رسول الامراء على البريـــد ، والكوهبانية وهم اصحاب الاخبار الذين يرسلون للاستطلاع ، ورجال يتولون فـــض الخرائط بين يدي الخليفة ، والخرائط اجربة او اكياس من جلد توضع الكتب فيها وتختم بختم المرسل وتحمل الى المرسل اليه ، فيفض ختمها بيده او بيد من يتولى ذلك عنه .

القضـــاء

تاريخ القضاء

القضاء قبل الاسلام

القضاء – ويراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات – قديم ، لأن الانسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه من اول أزمان وجوده . وكان قضاة القبائل عقلاءهـا وكبراءها ، وهم ايضاً حكامها وامراؤها . فكان الرجل اذا نبغ في عقله وقوتـه تولى حكومة قبيلته وحكم في قضاياها ، وهو حال البدو على فطرتهم . وكذلك كان العرب في جاهليتهم ، فقد كانوا يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم . واشتهر من هؤلاء القضاة قبـل الاسلام جماعة كبيرة يحكم كل منهم في قبيلته ، فمن تميم : حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن ، ومن ثقيف : غيلان بن مسلمة ، ومن قريش : هاشم بن عبـد مناف وعبد المطلب بن هاشم وابوطالب بن عبد المطلب عم النبي والعاص بن وائل ، ومن اسد : ربيعة بن جدار ، ومن كنانة : سلمي بن نوفل ، وغير هؤلاء ممن اشتهر في كل القبائل مثل اكثم بن صيفي وعامر بن الظرب وغيرهما . وكان العرب يتقاضون الى الكهان والعرافين .

القضاء في الاسلام

وأما في الاسلام فأول من تولى القضاء رسول الله نفسه ، ثم تولاه خلفاؤه ، لأن القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم ، حتى اذا اتسع سلطانهم وكثرت مهـام مناصبهم ، اضطروا الى استنابـة من يقوم عنهم بالقضاء في مركز الخلافة وفي الاعمال . واول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب ، فولى ابا الدرداء معه في المدينة ، وولى شريحاً في البصرة ، وولى اباموسى الاشعري في الكوفة ، وكتب اليه كتاباً هو قاعدة الفقه الاسلامي ، وعليه تدور اكثر احكام القضاة الى اليوم ، وهذا نصه :

اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا ادى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . ساو بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحاً احل حراماً او حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق قويم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً او بينة امداً ينتهي اليه ، فان احضر بينة اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه ، فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلوداً في حد ، او مجرباً عليه شهادة زور ، او ظنيناً في نسب او ولاء . فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات . واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر والسلام »[1] .

اما مصر فالقضاء فيها كان موكولاً الى امرائها ، وهم الذين كانوا يولون قضاتها . وكان عمر بن الخطاب قد اراد ان يولي قاضي مصر كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة ، فكتب الى عمرو بن العاص ان يولي القضاء كعب بن يسار بن ضنة ، وكان ممن قضى في الجاهلية ، فأبى كعب ان يقبل ذلك وقال : « قضيت في الجاهلية ولا اعود اليه في الاسلام » فولى عمرو عثمان بن قيس بن ابي العاص . ومـا زال امير مصر هو الذي يولي القضاة حتى افضت الخلافة الى بني العباس ، فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر فجعلوا تولية القضاة اليهم . واول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبدالله بن لهيعة الحضرمي ، ولاه ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ ﻫ . ثم صارت تولية قضاة مصر الى الخلفاء .

وكان القضاة اول الأمر يولون على الأقاليم قضاة من قبلهم ، فيولون لكل ناحية قاضياً . فلما عمرت المملكة واتسعت ، تعدد القضاة حتى صاروا يولون في المدن الكبرى عدة قضاة ، كل قاض في جانب من جوانبها . والخليفة هو الذي يولي كلا منهم بنفسه ، الى زمن الرشيد وقد اتسعت بغداد في ايامه . ونبغ يومئذ القاضي ابو يوسف الشهير ، وكان الرشيد يكرمه ويجله فدعاه قاضي القضاة ، وهو اول من دعي بذلك . وكان ابو يوسف عالي الهمة فخدم هذا المنصب خدمة جليلة وميز العلماء بلباس خاص بهم ، وكانوا من قبله

---

١ — ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

يلبسون مثل سائر الناس . وصار قاضي القضاة بعده هو الذي يولي قضاة مدينة بغداد ، ثم صار يولي قضاة الاقاليم . واقتدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء في الاندلس ومصر ، وصاروا يولون قاضي القضاة وهو يولي القضاة .

عمل القاضي

وكانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بين الخصوم ، ثم صاروا يتعاطون اموراً اخرى على ما تقتضيه الاحوال بحسب اشتغال الخلفاء بأمور السياسة . فأضيف الى اعمال القاضي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، كالنظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه ، وفي وصايا المسلمين واوقافهم، وتزويج الايامى عند فقد الأولياء .. ثم امتدت سلطتهم احياناً الى النظر في مصالح الطرقات والابنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح. وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة الجهاد في عساكر الصوائف ، منهم يحيى ابن اكثم فقد كان يخرج في ايام المأمون بالصائفة الى ارض الروم . كذلك منذر بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر الاموي بالأندلس. وولى العزيز بالله الفاطمي القاضي علي بن النعمان القضاء بمصر ، واضاف اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز ، والخطابة والامامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل . ثم تولى القضاء ابو محمد البازوري ٤٤١ هـ . واضيفت اليه الوزارة ، وهو اول قاض جمع بينهما ثم اضيفت الى غيره بعده .

فترى مما تقدم ان منصب القضاء كان واسعاً جداً ، على انه لم يكن كذلك في كل العصور ، وانما اختلف باختلاف الدول كما رأيت . ثم ان الخلفاء كانوا في اوائل الاسلام لا يولون القضاء إلا اهل عصبيتهم ، من العرب او مواليهم بالحلف او بالرق او بالاصطناع، ممن يوثق بكفايته او غنائه فيما يدفع اليه . فلما تحولت الخلافة الاسلامية من الغرض الديني الى الغرض السياسي ، وصار الأمر كله ملكاً او سلطاناً ، ضعف هذا الشرط ، ثم تحولت ازمة الأحكام الى الاعاجم ، فتقاصرت واجبات القاضي بالتدريج الى الفصل بين الخصوم والحكم في الاحوال الشخصية . ثم انحصرت في الاحوال الشخصية بالمحاكم الشرعية كما هو اليوم .

وكان القضاة يجلسون في المساجد للحكم بين الناس ، فاذا جاءهم الخصوم حكموا بينهم هناك . وكانوا يعدون القضاء من الأعمال الشاقة الخطرة بالنظر الى الدين ، لما فيه من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضي ، فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسؤول

عنه. فكثيراً ما كان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته ، كما رأيت في أمر كعب بن يسار لما ولاه عمرو قضاء مصر ، وكما فعل الامام ابو حنيفة النعمان لما اراد ابو جعفر المنصور ان يوليه القضاء فأنه قال له : « اتق الله ولا ترع في امانتك الا من يخاف الله . والله ما انا مأمون الرضا ، فكيف اكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات او تلغي الحكم لاخترت ان اغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا اصلح لذلك » . وكانوا اذا ولوا القاضي جاءوا به الجامع ، واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر له بذلك .



مجلس القضاء في غرناطة

وكان قضاء مصر على مذهب الامام الشافعي منذ ظهور هذا المذهب ، ولكن القاضي كان يستنيب من شاء من قضاة المذاهب الاخرى. وفي سنة ٥٢٥ ﻫ عين ابو احمد بن الافضل اربعة قضاة يحكم كل منهم في مذهب من المذاهب الأربعة ، ثم توالى ذلك على هذا المنوال في ايام المماليك.

وكان منصب قضاء الجند تارة يضاف الى القاضي الحنفي ، وتارة يضاف الى القاضي الشافعي ، وتارة ينفرد به قاض حنفي ، وما ذاك إلا لأن قاضي العسكر انما ينتفع به في الجهاد ووقت خروج العسكر ، وتقع وصايا من الأمراء وشهادات بينهم ولا يوجد في العسكر الجالسين في المراكز احد ، يحتاج الى اثبات ذلك عند القاضي الشافعي فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات ذلك، فتبطل وصاياهم وشهاداتهم. فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضي الحنفي لما اتفق له من الجهاد مثل ذلك . وامتنع القاضي الشافعي في ذلك الوقت من شهاداتهم ، ثم بتداول الأيام ودخول اكثر الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لأبي حنيفة النعمان ، انتهى الامر الى ان صار حصر القضاء على مذهب امامهم[١] .

---

١ — رفاعة رافع الطهطاوي : مناهج الالباب المصرية ، ص ٣٨٦ .

راتب القاضي

واما راتب القاضي فيختلف باختلاف الدول والازمان ، فقد رأيت في غير هذا المكان ان عمر بن الخطاب ولى شريحا قضاء البصرة وفرض له مائة درهم في كل شهر ومؤونة من الحنطة . وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك في سائر ايام الراشدين ، ثم تصاعدت في ايام بني امية مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال . فلما كانت ايام العباسيين اصبح راتب قاضي مصر ثلاثين ديناراً في الشهر . واول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذي ولاه المنصور كما تقدم. ثم تصاعد الراتب تصاعداً عظيماً في ايام المأمون ، فبلغ عطاء عيسى بن المنكدر قاضي مصر يومئذ ٤٠٠٠ درهم او نحو ٢٧٠ ديناراً ، وهو راتب فاحش ، ربما جعل كذلك لغرض خاص . لأنه اجيز فوق هذا الراتب بألف دينار . وعاد راتب قاضي مصر بعد ذلك ببضع وعشرين سنة الى الف دينار في السنة ، واول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر على عهد احمد بن طولون سنة ٢٤٥ هـ . وزاد ذلك في الدولة الفاطمية فأصبح راتب القاضي ، وهو قاضي القضاة يومئذ ١٢٠٠ ديناراً في السنة ما عدا المؤونة والهدايا ، ولعلها استمرت على ذلك في دولة الايوبيين ومن تلاهم .



قاضي العسكر في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر

اما بغداد فاختلف راتب القاضي فيها باختلاف الازمان ، وكان في زمن المعتضد نحو ٥٠٠ دينار في الشهر ، بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي . ثم دخل القضاء في الالتزام ، فصار القضاة يضمنون دخل القاضي بمال يؤدونه الى الخليفة او السلطان . واول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن ابي الشوارب سنة ٣٥٠ هـ في ايام معز الدولة بن بويه ، فقد سمي قاضي قضاة بغداد ، والتزم القضاء على ان يؤدي ٢٠٠ الف درهم كل سنة . ثم صار ذلك امراً مألوفاً ، وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة .

ديوان المظالم

وهو من توابــع القضاء ، ويشبه ما نسميه اليوم « مجلس الاستئناف » بعض الشبه ، والغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة او غـيرهم . وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم ، كما فعلت قريش قبل الاسلام . وذلك انهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التغالب والتجاذب ، اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفاً على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم ، وهو حلف الفضول المشهور الذي عقد في مكة والنبي عمره ٢٥ سنة ، وموضوعه الا يظلم احد في مكة الا انصفوه واخذوا له حقه .

ولم يجلس للمظالم احد من الخلفاء الاربعة ، لان الناس في الصدر الاول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق او يزجره الوعظ عن الظلم ، الا علياً فانه احتـــاج الى النظر في المظالم ، ولم تكن في الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ . على انه لم يفرد لسماع الظلامات يوماً معيناً او ساعة معينة ، وانما كان اذا جاءه متظلم انصفه . ثم افردوا يوماً خاصاً للنظر في اقوال المتظلمين وتصفح قصصهم ، واول ما فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، ولكنه كان اذا وقف منها الى مشكل واحتاج فيه الى حكم رد الى قاضيه ابن ادريس الازدي ، فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر . واول من ندب نفسه لمباشرة المظالم عمر بن عبد العزيز الشهير ، ثم اهملت بعده الى ايام الدولة العباسية فجلس لها خلفاء بني العباس ، واول من جلس منهم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون ، وآخـر من تولاها منهم المهتدي بالله محمد بن الواثق .

وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم ، وفيهم من يتظلم من الولاة او من العمال او من جباة الاموال او من كتاب الدواوين ، في تقصيرهم بشيء من رواتبهم او من احد ابناء الخلفاء او الامراء او نحوهم من اهل الوجاهة ممن يغتصبون الاموال او الضياع ، او من القضاة لانهم لم ينصفوهم في احكامهم ، او من اي انسان كبيراً كان او صغيراً . فهو اوسع دائرة من مجلس الاستئناف ، واطول باعـــا واشد وقعاً واسرع نفوذاً . ومن امثلة ما ردوه من المظالم على هذه الصورة ان عمر بن عبد العزيز خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال : « ما ظلامتك ؟ » فقال : « غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي » فقال : « يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي » فوجد فيه : « اصفى عبد الله الوليد ابن عبد الملك ضيعة فلان » فقال : « اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته » .

وحكى عن المأمون انه كان يجلس للمظالم يوم الأحد ، فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة وتظلمت اليه في ابنه العباس، فأوقفه بجانبها ورد ظلامتها وبعد المهتدي لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم ، على انهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب الى وزرائهم ، كما فعل المأمون ليحيى بن اكثم والمعتصم لاحمد بن ابي دؤاد ، فلما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم الى السلاطين .

اما في مصر فأول من نظر في المظالم احمد بن طولون لما استقل بحكم مصر سنة ٢٥٧ ه فكان يجلس لذلك يومين في الاسبوع ، ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم . حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا في امر المظالم . وجلس لها اولاً قائدهم جوهر فاتح مصر ، وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده يعهدون بذلك الى قاضي القضاة ، او الى بعض علماء الدولة . فلما ضعف امر الفاطميين واستبد وزراؤهم بالحكم ، صارت المظالم الى الوزراء واشهرهم في ذلك الافضل بن شاهنشاه ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه . واقتدى به من جاء بعده ، وكانوا يجعلون بباب الديوان منادياً ينادي : « يا ارباب الظلامات ! » فيحضرون اليه فيأمر بانصافهم .

دار العدل

ولما افضت الحكومة في مصر الى السلاطين الايوبيين، بنوا داراً للنظر في المظالم سموها « دار العدل » ، وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار في دمشق الملك العادل نور الدين زنكي . وكان الايوبيون يجلسون في دار العدل للنظر في المظالم . وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك ، وكانت لهم عناية كبرى بانصاف الناس ، وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ، ولكنهم يجلسون على كرسي بجانبه حتى تلحق ارجلهم الارض ، فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسي يجلس قضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ، ووكيل بيت المال وغيرهم من ارباب الوظائف والحرس والخاصة بين يديه ، وفيهم من يقرأ الظلامات للسلطان ، فيراجع القضاة او امراء العسكر فيما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضي بما يراه .

وكان لسلاطين المسلمين وامرائهم عناية كبرى بالنظر في مظالم الرعية ، وكانوا يبذلون الجهد في رفعها ، ولو كان المتظلم منهم او من اولادهم . وامثلة هذه الحوادث كثيرة في

تاريخ الاسلام ، فتعود الناس ان يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم في ايام معينة، وساروا يحسبون ذلك فرضاً واجباً . فاذا امسك الخليفة عن النظر في المظالم يوماً او بضعة ايام ضجروا وملوا ، وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع ، بعضها للنظر في مظالم الجند ، وبعضها للنظر في مظالم العمال ، وبعضها لغير ذلك .

الحسبة

هي منصب ديني من قبيل القضاء، وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل النـــاس على المصالح العامة في المدن مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين ومنع اهل السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب اذا بالغوا في ضربهم للصبيان ، وله النظر في الغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين . والاصل في الامور التي ذكرناها ان تكون من واجبات القاضي ، لكنهم جعلوها عملاً مستقلاً تنزيهاً للقاضي عن استقصاء هـــذه الامور بنفسه . على انها كثيراً ما كانت تجعل في جملة اعمال القضاة في عهـــد الفاطميين بمصر والامويين في الاندلس ، فلما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عامـاً في السياسة اندرجت الحسبة في وظائف الملك وافردت بالولاية .

ولا يتولى الحسبة إلا رجل من وجهاء المسلمين لأنها خدمة دينية، وكان صاحب الحسبة يولي عنه نواباً في سائر الكور والاعمال ، وله الجلوس في الجوامع كل يوم ، ويطوف نوابه على ارباب الحرف ، والمعايش . فكان صاحب الحسبة في مصر يجلس في جامعي القاهرة والفسطاط يوماً بعد يوم ، ويبعث نوابه في الشوارع لتفقد اللحوم والمطبوخات، ومراعاة احمال الدواب فلا يأذنون لأحد ان يحملها فوق طاقتها ، ويأمرون السقايين بتغطية الروايا بالاكسية ويلزمونهم بمراعاة المعيار المقدر للروايا وهو اربعـــة وعشرين دلواً وكل دلو اربعون رطلاً ، ويأخذونهم بلبس السراويلات الزرقاء القصيرة الضابطـــة لعوراتهم ، وينذرون معلمي المكاتب بالا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل ، وكذلك معلمي العوام بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس . وللمحتسب النظر في ادارة العيار .

أما في الاندلس فكانوا يسمون هذا المنصب « خطة الاحتساب » ويتولاه قـاض ، وكانت العادة فيه ان يمشي بنفسه راكباً الى الاسواق واعوانه معه ، وميزانه الذي يزن

به الخبز في يد احد الاعوان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار ان يبيع باكثر او دون ما حلله المحتسب في الورقة . ولا تكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبياً او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن فان وجده ناقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس . ولهم في اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء احكام الفقه .

الشرطة

والشرطة في الاصل من توابع القضاء ، لان المراد بها تنفيذ احكام القضاة او فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، واقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة . فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها ايضاً اقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر ، وكثيراً من الامور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها .

ثم صار النظر في الجرائم ، واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية في الاندلس والفاطمية بمصر ، راجعاً الى صاحب الشرطة وافردوها من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ثم تفرعت الشرطة في الاندلس الى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، تحكم الكبرى في الخاصة والزعماء واهل المراتب السلطان ، فتضرب على ايديهم في الظلامات وعلى ايدي اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه. واما الصغرى فتنحصر في الاحكام على العامة والرعاع . ونصبوا لصاحب الشرطة الكبرى كرسياً بباب دار السلطان ، وله رجال يتبوأون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا من تصريفه ، وكانت تعد ولايتها ترشيحاً للوزارة او الحجابة . وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة او صاحب الليل ، وفي دول السلاطين كانوا يسمون صاحب الشرطة الوالي ، وفي افريقية يسمونه الحاكم فكأن الشرطة نشأت مع القضاء ، لكنها لم تنفرد بنفسها وتتميز عنه إلا في ايام بني أمية .

ديوان الانشاء

الكتابة

لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابه الا نفراً قليلين . ولم تكن كتابتهم

بالأحرف العربية المعروفة اليوم ، وانما كانوا يكتبون بالأحرف العبرانية اقتباساً من اليهود في جملة ما اقتبسوه منهم ، وكان ممن كتب العربية بالقلم العبراني ورقة بن نوفل ، ابن خال خديجة زوج النبي . أو بالأحرف النبطية ، نقلاً عمن هاجر اليهم من الأنباط في القرون الأولى للميلاد فراراً من سلطان الروم . والأرجح عندنا أن الحرف العربي الذي نكتب به اللغة العربية اليوم ، متخلف عن الحرف النبطي الذي كان يكتب به الأنباط في بطرا ومدائن صالح[١] وأما الحرف الكوفي فقد تخلف عن القلم الاسطرنجيلي ، الذي كان يكتب به السريان أو الكلدان في العراق ، واستخدمه العرب في أول الأمر لكتابة اللغة العربية ، فحدث فيه بعض التبديل حتى صار الى ما هو عليه . ويؤيد قولنا أنه من العراق وأنه حدث بعد الاسلام ، لان الكوفة من المدن التي بناها المسلمون في العراق. وسنعود الى تاريخ الخط في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

ولما ظهر الاسلام لم يكن يكتب بالعربية الا بضعة عشر إنساناً ، كلهم من الصحابة وفيهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وأبو سفيان وولداه معاوية ويزيد وغيرهم . فكان علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الارقم ممن كتب للنبي ، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ . فكتبوا له سور القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم الى الاسلام . وكان بعضهم يكتب له حوائجه ، والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينه ، والبعض الآخر يكتبون بين القوم في مياههم وقبائلهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء .

ولما تولى أبو بكر كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب الى العمال والقواد ، وصارت الكتابة منصباً من مناصب الحكومة لا يستغنى عنه ، فلما تولى عمر كتب له أولاً زيد بن ثابت ثم حل محله غيره ، ولما فتحت الأمصار وتدونت الدواوين عين عمر كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها . وكان الكاتب يكتب في أول الأمر لديوان الجند وبيت المال ، فتولى عثمان وعلي وانقضت دولة الخلفاء الراشدين والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند واسمائهم ويكتب المراسلات ، وربما كانا اثنين يتولى الثاني كتابة بيت المال .

ولما انتقلت الخلافة الى بني أمية ، وتعددت مصالح الدولة على ما مر بك ، تعدد الكتاب فصارت الكتابة خمسة أصناف : كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والأمراء والملوك وغيرهم ،

---

١ كتاب العرب قبل الاسلام ، ٨١ ج ١ .

وكاتب الخراج يدون حساب الخراج داخله وخارجه ، وكاتب الجند يقيد أسماء الأجناد وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات الأسلحة وغير ذلك ، وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد والديات وغيرها ، وكاتب للقاضي يكتب الشروط والأحكام .

ديوان الانشاء

وأهم أصناف الكتاب ، كاتب الرسائل وهو أقدمها ، وقد يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره ، كما كان عمر لأبي بكر ، وعثمان لعمر. وكان الخلفاء في أول عهد الاسلام لا يولون هذا المنصب الا أقرباءهم أو خاصتهم ، لما فيه من الخطورة. وظلوا على نحو ذلك الى ايام بني العباس ، فكان كتابهم في أول الأمر يستبدون في الأمر دونهم ، ثم صارت الكتابة الى وزرائهم ، ولم يكن الوزير يكتب الرسائل أو الرقاع بيده ، ولكنه يمضيها أي يوقع عليها كما يفعل اليوم الوزراء والرؤساء . وأول من وقع على الرقاع عندهم يحيى بن جعفر البرمكي ، لما أطلق الرشيد يده في أمور الدولة ومقاليدها ، فصار اذا رفع أحد كتابا في ظلامة أو طلب رزق أو نحو ذلك وقع يحيى عليه بيده . وصار الوزراء بعده يوقعون على الرقاع أو القصص ، وربما انفرد بعضهم في ولاية ديوان السر أو ديوان الرسائل أو الانشاء .

وفي أخريات دولة بني العباس استقلت الكتابة وعهد فيها الى غير الوزراء ، وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء أو صاحب ديوان الانشاء أو كاتب السر وكل أمور هذا الديوان الى الوزير . وكانوا يسمونه أيضاً الديوان العزيز ، وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية في هذه الأيام .

التوقيع

يريدون بالتوقيع في دوائر الحكومة اليوم « الامضاء » ، أما في أيام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع «العرضحالات» المعروضة عليه لطلب أو شكوى أو نحو ذلك ، فيكتب عليها بما يجب اجراؤه أو ما يفيد الجواب على فحواها بما يشبه التأشير أو التعليم في دوائر حكومتنا ، وهو من واجبات صاحب الانشاء أو من يتعين للتوقيع خاصة . فيجلس الكاتب بين يدي الخليفة او السلطان في مجالس حكمه وفصله ، فاذا نظر الخليفة في الرقاع أمر الكاتب ان يوقع عليها فيتوخى الكاتب ابلغ ما يستطيعه .

وكانوا يختارون للتوقيع كتاباً من أهل العارضة والبلاغة ليستقيم توقيعه ، فكان جعفر ابن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها ، وكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف منها على اساليب البلاغة وفنونها ، حتى قالوا انها كانت تباع كل قصة منها بدينار .

توقيعات الخلفاء وغيرهم

وكان الخلفاء في صدر الاسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بأنفسهم او يأمرون كتابهم بتدوينه ، والغالب في توقيعهم ان يكون اقتباساً من آية او حديث او حكمة مشهورة او شعر حكمي . ومن أمثلة ذلك ان سعد بن ابي وقاص عامل العراق كتب الى عمر بن الخطاب كتاباً استأذنه فيه ببناء دار ، فوقع عمر في اسفل الكتاب : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . ووقع عمر أيضاً لعمرو بن العاص عامله على مصر ، جواباً على كتاب كتبه اليه : « كن لرعيتك كما تحب ان يكون لك اميرك » .

وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم ، وذكروا انه امر بوجىء اعناقهم فوقع في ذلك الكتاب : « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » وارسله اليه . ومن توقيعات علي بن ابي طالب في كتاب جاءه من ابنه الحسن : « رأي شيخ خير من جلد غلام » ، وكتب سلمان الفارسي الى علي يسأله : « كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ » فوقع علي كتابه : « يحاسبون كما يرزقون » .

ومن توقيعات معاوية بن ابي سفيان ان عبدالله بن عامر كتب اليه يسأله ان يقطع مالا في الطائف فوقع : « عش رجباً تر عجباً » وكتب زياد بن ابيه الى معاوية يخبره ان عبدالله بن عباس يطعن في خلافته فوقع في اسفل الكتاب : « ان ابا سفيان وابا الفضل كانا في الجاهلية في مسلاخ واحد ، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » . ووقع عبد الملك ابن مروان في كتاب جاءه من الحجاج يخبره فيه بسوءطاعة اهل العراق وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل اشرافهم : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه ان يختلف به المتآلفون » . ووقع في كتاب جاءه من الاشعث وهو ثائر عليه :

« فما بال من اسعى لأجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري »

وكتب قتيبة بن مسلم الى سليمان بن عبدالملك يهدده بالخلع ، فوقع سليمان على الكتاب :

« زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا ابشر بطول سلامة يا مربع »

وكتب اليه قتيبة مرة أخرى بالتهديد فوقع في الكتاب : « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » . وكتب بعض العمال الى عمر بن عبدالعزيز يستأذنه في مرمة مدينة، فوقع في أسفل كتابه : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ، وكتب اليه عامله على العراق يخبره بسوء طاعة اهلها ، فوقع له : « ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ بجرائمهم بعد ذلك » . وكانت توقيعات عمر بن عبد العزيز كثيرة . ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل : « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » .

ومن توقيعات بني العباس ان بعض اهل الانبار كتبوا الى السفاح يشكون انمنازلهم أخذت وادخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا اثمانها فوقع : « هذا بناء اسس على غير تقوى » وامر بأعطائهم الاثمان . وشكا اهل الكوفة الى ابي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم ، فوقع على كتابهم : « كما تكونون يولى عليكم » . ووقع على قصة رجل شكا عيلة : « سل الله رزقه » وجاءه من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوقع في اسفله : « استبدل بكاتبك وإلا استبدل بك » . وكتب صاحب ارمينيا الى المهدي يشكو سوء طاعة رعاياه ، فوقع في الكتاب : « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وشكا بعضهم اهمال عامله في خراسان فوقع على شكواهم : « انا ساهر وانت نائم » وأرسله اليه. ومن توقيعات هرون الرشيد الى عامله في خراسان : « داو جرحك لا يتسع » ، والى عامله في مصر : « احذر ان خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك منه ما لا قبل لك به ومن الله اكثر منه » . وقس على ذلك سائر توقيعات الخلفاء .

على ان التوقيع لم يكن خاصاً بالخلفاء ، ولكنه كان شائعاً بين الامراء والكبراء أيضاً مثل زياد بن أبيه وأبي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى . ولجعفر شهرة طائرة في بلاغة توقيعاته كما تقدم ، ومن ذلك توقيعه لمحبوس : « ولكل اجل كتاب » ، ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله : « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » ، وفي رقعة رجل يستأذن في الحج : « من سافر الى الحج انجح » ، وفي كتاب رجل طلب ولاية : « لا اولي بعض الظالمين بعضا » ، وفي قصة رجل يستمنحه وقد كان منحه مرارا : « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » . وغير ذلك شيء كثير ، ومثله للفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهما .

اختصار الكتابة

وكان لهم ولع غريب في اختصار الكتابة في المراسلات اختصاراً يصح ان يتخذ

مثالاً للبلاغة . ومن امثلة ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستمده الحنطة والمؤونة من مصر على اثر ما أصاب اهل المدينة من الجهد ، فكتب ابن الخطاب يقول : « من عبدالله أمير المؤمنين الى العاصي بن العاصي . سلام . أما بعد فلعمري يا عمرو ماتبالي اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي ، فيا غوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : «لعبد الله أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص. أما بعد فيالبيك ثم يالبيك ! قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام» وأمثال ذلك كثيرة من مراسلاتهم، فلتطلب في كتب الادب والتاريخ .

ولم يكن هذا الاختصار قاصراً على المكاتبات بينهم وبين عمالهم ، لكنه كان شأنهم في كل مكاتباتهم . من أمثال ذلك جواب هرون الرشيد الى نقفور « نيسوفورس » ملك الروم ، وكان قد كتب اليه كتاباً يهدده فيه ويطلب اليه أن يرد ما كان أخذه من الخراج من الامبراطورة التي كانت قبله ، فلما قرأ الرشيد الكتاب احتدم غيظاً فلم يتمالك عن أن أخذ دواة وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ! قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ».

ومثل ذلك جواب يوسف بن تاشفين صاحب مراكش على كتاب الاذفونش ملك الافرنج الذي يهدده فيه ، وكان الكتاب طويلاً فلما قرأه يوسف كتب على ظهره : «الذي يكون ستراه » .

مكاتبة الخلفاء

وكان من القواعد المرعية في مكاتبة الخلفاء ان يبدأوا بأسمائهم قبل مخاطبيهم ، ويكلفوا مكاتبيهم أن يراعوا ذلك.. كما رأيت فيما دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويعدون العدول عنه ذنباً . وقد كان في جملة ما حمل المنصور على قتل أبي مسلم الخراساني – مع ما له على دولتهم من الفضل – أنه كتب مرة الى المنصور وبدأ بنفسه. وإذا رأيت في بعض المراسلات ما يخالف هذه القاعدة فانه سهو من النساخ .

ولم يزل الامر كذلك الى ان استولى بنو بويه على الامر وغلبوا على الخلفاء واستبدوا
٣٢ ، فاحتجب الخلفاء ولم يبق اليهم في ما يكتب عنهم غالباً سوى الولايات . وفوض الامر في غالب المكاتبات الى وزرائهم ، وصارت اذا اقتضت الحال ذكر الخليفة كنى عنه المواقف المقدسة والمقامات الشريفة والسدة النبوية والدار العزيزة والمحل المجد ،

يعنون بالمواقف والاماكن التي يقف الخليفة فيها ، ثم انتقلوا الى تعظيم الامراء والوزراء بالتلقيب بالمجلس العالي والحضرة السامية وما اشبه .

الاشارة او الرمز

ومن تفننهم في المكاتبات الاشارة بحرف واحد الى مقالة طويلة ، كما وقع للسلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين بعد ان استقل بالسلطنة ، فانه كتب الى الخليفة ببغداد يطلب إليه ان يذكر اسمه في الخطبة وينقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث محمود اليه كتاباً يهدده فيه قال في جملته : « لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوماً ، فلما فتحه محمود لم يجد فيه غير البسملة ، بعدها الف ممدودة ، في وسط الكتاب لام ، وفي آخره ميم ، ثم الصلاة والحمد لله ! فتحير السلطان واهل مجلسه من ذلك ، حتى دخل عليهم ابو بكر القهستاني ، وكان من كبار العلماء ففكر في ذلك حتى فقه له فقال : « عندي شرحه » ، فقال السلطان ، « قل ولك ما تريد » فقال : « انكم بعثتم تهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه الف لام ميم اشارة الى قوله تعالى : « الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر الآية فارتاع السلطان لذلك وتشاءم وندم وعاد الى احسن الاحوال .

ومن هذا القبيل حكاية لطيفة وقعت لسديد الملك علي بن مقلد ، صاحب قلعة شيزر في اواسط القرن الخامس للهجرة ، وكان شجاعاً مقداماً موصوفاً بقوة الفطنة . وكان قبل تملكه قلعة شيزر يتردد الى حلب وصاحبها يومئذ تاج الملوك محمد بن صالح ، فوقع بينهما امر اخاف سديد الملك من تاج الملوك . فخرج سديد الملك الى طرابلس الشام ، وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده . فعلم تاج الملوك بذلك ، فأراد الاحتيال في استقدام سديد الملك اليه للفتك به ، فأوعز الى كاتبه ابي النصر محمد بن الحسين ان يكتب اليه كتاباً يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه اليه . وفهم ابو النصر الغرض الحقيقي من ذلك الكتاب . وكان صديقاً لسديد الملك ، لكنه لم ير مندوحة عن كتابة الكتاب . فكتبه كما امر به تاج الملوك ، حتى اذا بلغ الى قوله : « ان شاء الله تعالى » شدد النون في ان وفتحها فجعلها « انّ » وانفذ الكتاب . فلما وصل الكتاب الى سديد الملك قرأه ، ثم عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن في مجلسه من الخواص ، فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا ما فيه من رغبة تاج الملوك في سديد الملك وايثاره قربه . قال سديد الملك : « انيّ ارى في الكتاب مالا ترون » . ثم اجابه على الكتاب بما اقتضاه المقام ،

وكتب في جملة ذلك . « انا الخادم المقر بالانعام » وكسر همزة «إنّا» وشدد نونها فصارت « انا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه ابو نصر الكاتب سر بما فيه وقال لا صدقائه : « قد علمت ان الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك » . وكان ابو نصر قد قصد بتشديد نون « ان » الاشارة الى الآية « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، فأجابه سديد الملك بتشديد « انا » اشارة الى الآية « انا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها » .

ومن تفننهم من هذا القبيل ما كتبه عضد الدولة بن بويه الى ابي منصور افتكين متولي. وكان افتكين قد كتب اليه كتاباً مضمونه : « ان الشام قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر ، وان قويتني بالاموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم » ، فكتب اليه عضد الدولة جواباً في كلمات متشابهة لا تقرأ الا بعد الشكل والتنقيط والضبط وهي : « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا » الخ . اراد ان لا يقع الكتاب بيد احد فيطلع على ما فيه ، ففهم افتكين مراده وعمل به .

ادوات الكتابة

القلم كانوا يصنعونه من القصب نحو ما نفعل اليوم ، واما الحبر وهو المداد فالظاهر انهم كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم او من الهباب مذابا في سائل لزج كالصمغ او نحوه .

وأما القرطاس فأقدم ما كتب به العرب من اول الاسلام الرق وهي الجلود ، وكتبوا أيضاً على الاقمشة واشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه القباطي ، وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الاسلام ، واذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب او العظام او على قطع الخزف او على الاحجار او نحو ذلك .

ولما فتحوا مصر اتخذوا البردى فكان اكثر مكاتبات الامويين على البردى والقباطي . وفي دار الكتب المصرية في القاهرة آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها في بعض انحاء القطر المصري ، شاهدنا بينها صفحة من البردى وقطعا من القباطي ، وقد ظهر البلى فيهما والكتابة لا تزال ظاهرة عليها . ورأينا قطعاً من الفخار عليها كتابة عربية ايضاً ، وتلك المخطوطات لا يتجاوز تاريخها آخر القرن الاول للهجرة . وكلها معروضة في معرض دار الكتب المصرية .

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد ، والذي أشار به الفضل بن يحيى البرمكي

فاصطنعوه . والأرجح أنهم أخذوه عن صناعة الصين ، لأن الصينيين برعوا في صناعة الورق قبل الميلاد ، وكانت هذه الصناعة منتشرة في بلادهم . فلما فتح المسلمون سمرقند أخذوها عنهم ، لكنهم لم يجتهدوا في تعاطيها الا في ابان الدولة العباسية ، اذ ضاقت الرقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات ، فأشار الفضل باصطناعه فأنشأوا له المصانع في بغداد والشام وغيرهما من عواصم الاسلام .

وعن العرب أخذ العالم صناعة الورق، لأن أهل أوربا لما أفاقوا من سباتهم في الأجيال الوسطى استخدموا الكاغد الشامي وكان اسمه عندهم Charta Damascena ، وانتقلت صناعة الورق الى أوربا بطريق الأندلس، فقد كان للعرب مصانع لصناعة الورق في شاطبة وبلنسية وطليطلة. فلما دخلت الأندلس في حوزة الافرنج استبقوا تلك المصانع، ثم نقلت من اسبانيا الى سائر ممالك اوربا . ومن اقدم المخطوطات العربية على الكاغد نسخة من كتاب « غريب الحديث » في مكتبة ليدن الجامعة يظن انها كتبت في اوائل القرن الثالث للهجرة . وكتاب « ديوان الادب » في مكتبة المتحف البريطاني كتب في اوائل القرن الرابع .

الحجابة

يراد بالحاجب في دول الاسلام ما يراد بالتشريفاتي في هذه الايام ، وهو الذي يتولى الأذن للناس في الدخول على الملك او السلطان او الامير ، ولا بد منه في الدولة حفظاً لهيبة الملك . وكلما اعرقت الدولة في المدنية واستغرقت في الترف تكاثف الحجاب بين ملكها ورعاياه ، فكان الخلفاء الراشدون يفتحون ابواب مجالسهم لأي من كان، ويخاطبون الفقير والغني والصعلوك والقوي بلا حجاب ولا كلفة .

فلما تحولت الخلافة الى الملك كان في جملة ما ادخلوه على الدولة التدقيق في الحجاب ، وترتيب الناس في الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وانسابهم . واول من انتبه لذلك معاوية بن ابي سفيان ، نبهه اليه زياد بن ابيه . فكانوا يفضلون في الدخول اهل البيوتات اي اهل النسب ، فاذا تساوت الانساب فضلوا اهل السن ، فاذا تساوت فضلوا اهل الأدب والعلم . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لأربعة في اي وقت شاءوا وهم : المؤذن ، وطارق الليل ، ورسول الثغر ، وصاحب الطعام . ومن هذا القبيل قول زياد لحاجبه : « وليتك حجابتي وعزلتك عن اربعة : هذا المنادي الى الله في الصلاة والفلاح لا تفرجنه

عني فلا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء به في تلك الساعة ، ورسول الثغر فان ابطأ ساعة افسد عمل سنة فأدخله علي وان كنت في لحافي ، وصاحب الطعام فان الطعام اذا اعيد تسخينه فسد » .

فلما جاءت دولة بني العباس وصارت الى ما هو معروف من العز والترف ، زادوا في منع الناس عن ملاقاة الخليفة الا في الأمور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني . وصار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل فئة في مكان على ما يراه الحجاب . وتطرقوا عند انحطاط الدولة الى حجاب ثالث احصن من الأولين ، ولا يكون هذا الا عند الحجر على صاحب الدولة . وذلك أن أهل الدولة إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وأرادوا الاستبداد عليهم ، فأول ما يتوخونه حجب البطانة وسائر الأولياء عنهم ، ويوهمونهم أن في مباشرتهم خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ، كما حدث في آخر أيام العباسية ، ولا يكون ذلك الا في أواخر الدولة .

النقـــابة

النقابة ، ونعني نقابة الاشراف ، سموها بذلك اشارة الى انها تتعلق بأشراف المسلمين وهم اهل بيت رسول الله . وذلك انهم كانوا يجلون حرمة اهل البيت فكانوا يجعلون منهم رئيساً يتولى امورهم ويضبط انسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم ، وينزههم من المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب المآثم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم الى اداء الحقوق ، وينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم في سهم ذوي القربا من الفيء والغنيمة ، ويقسمه بينهم ويمنع الايامى منهم ان يتزوجن الا من الاكفاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة ، وكان نقيب الاشراف وصيهم .

وكانت نقابة الاشراف من المناصب السامية ، ولهـا الشأن الاول من الشرف بعد الخلافة — ولذلك قال الشريف الرضي نقيب الاشراف يخاطب الخليفة القادر الله العباسي من قصيدة :

عطفاً امير المؤمـنين فاننا   في دوحة العليـاء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت   ابداً كلانا في المعالي معرق
الا الخلافة ميزتك فانني   انا عاطل منها وانت مطوق

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الاشراف عهوداً وتقاليد تدل على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم : وكانوا كثيراً ما يعهدون اليهم بسقاية الحاج وديوان المظالم من الخطط السامية ، وما زالت الدول الاسلامية تحترم نقابة الاشراف في كل ادوار تاريخها حتى الدولة العثمانية ، وكان نقيب الاشراف في ايام العثمانيين يقدم في التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام .

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التي حدثت بعد حدوث الصوفية ، ولصاحبها التكلم عن جميع الطرق الصوفية . والشأن في هذه الطرق ان لكل طريقة شيخاً ، ولكل شيخ خلفاء في القرى والامصار ، ولكل خليفة مريدين . فالشيخ يدير امر الخلفاء ، والخليفة يدير امر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها اعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة او زاوية مستقلة بنفسها ، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن . فلما انشأ السلطان صلاح الدين الايوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ . وكان لا يولي عليها الا اعاظم رجال الدولة من الاكابر والاعيان، كأولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ،مع ما كان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الاعز وغيره . وما زالت الحال كذلك الى ان توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع للهجرة ، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري ، وكان من اعظم رجال عصره علماً وديناً ، قال الشعراني عنه : « ولو قلت انه اعلم اهل زمانه لم ابعد عن الصواب » . ثم تولاها بعده ابنه الامام شيخ الاسلام المفسر الشهير ابو السرور البكري: وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن في البيت البكري الصديقي بمصر .

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف
جرجي زيدان

الجزء الثاني

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

مقدمة الطبعة الأولى

في مثل هذا اليوم من العام الماضي صدر الجزء الاول من هذا الكتاب، وكان لصدوره تأثير في عالم الاقلام لأهمية موضوعه وحداثة عهده في هـــذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ، ووردت الينا كتب الفضلاء من رجـــال العلم في مصر وسوريا واوروبا وامريكا وفارس والهند ، مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة في هذا السبيل ، وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكنـاً لقلة المصادر المساعدة على ذلك ، فزادنا هذا كله نشاطاً واقداماً على هذا العمل الجليل .

ومن غريب ما اتفق لنا في اثناء تأليف هذا الكتاب اننا اعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع ان يجتمع عندنا من مواده ما يزيد على مثل هذا الجزء، فلما شرعنا في درس الموضوع والتنقيب عما ينطوي تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية ممـــا يتعلق بعوامل التمدن الاسلامي ، انكشف لنا من احوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال، فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل اربعة اضعاف ما قدرناه . فأصدرنا الجزء الأول وفيه مقدمـــات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخـــيرة ، ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا في مقدمة ذلـك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب في ثلاثة اجزاء اخرى في مثل حجمه .

فلما بدأنا كتابة الجزء الثاني زاد المجال اتساعاً ولم يعد يكفي الباقي منه اربعة او خمسة اجزاء غير هذا ، بحيث تزيد اجزاء الكتاب كلها على ستة او ربما سبعة اجزاء مما لا يمكن تحديده الا بعد الفراغ من كتابته .

أما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهي ركن عظيم من اركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى « ثروة الدولة الاسلامية » اي ثروة الحكومة ورجالها، والى « ثروة المملكة الاسلامية » اي ثروة البلاد واهلها . وبحثنا في ثروة الدولة بحثـــاً تاريخياً فلسفياً ، فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة من ايام النبي فالخلفاء الراشدين فبني أميـــة

فالعباسيين . وبينا الاسباب التي دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول ، وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية في العصر العباسي ، فقسمناه الى عصرين : « الاول » وهو العصر الزاهر ، و « الثاني » وهو عصر الاضمحلال . وفي العصر العباسي الاول نضجت الثروة وبلغت اوجها ، ففصلنا الكلام فيه تفصيلا وصدرناه بتمهيد في تاريخ ذلك العصر وما ساعد على قيام هذه الدولة ، ثم عمدنا الى النظر في ثروة الدولة العباسية . وقبل الشروع فيه اتينا بفذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في القرن الثالث للهجرة ، شفعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض. ثم ذكرنا ثروة العباسيين من ايام السفاح والدولة في طفولتها حتى بلغت اشدها في ايام الرشيد والمأمون، فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جبايتها في ايام المأمون وبعده ، وقابلنا بينها ، فكان مقدار ما يبقى في بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم في السنة وهي بقية لم تتفق لدولة من الدول . فعمدنا الى النظر في اسباب تلك الثروة ، فأفضى ذلك الى النظر في مصادر الجباية ونفقاتها واسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فأسباب كثرة الخراج اربعة :

(١) سعة المملكة الاسلامية .
(٢) اشتغال الناس في الزراعة وتعمير البلاد .
(٣) ثقل الخراج المضروب .
(٤) صدق العمال في توريد المال المجموع .

واسباب قلة النفقة ثلاثة :

(١) قلة الموظفين .
(٢) عدم وجود الدين على الحكومة .
(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية في العصر الاول نظرنا في احوالها في عصر الاضمحلال، وقدمنا الكلام بفصل في علة ذلك الاضمحلال ثم مقدار الجباية في ذلك العصر . وبحثنا في سبب تناقصها فحدا ذلك بنا الى النظر في اسباب قلة الجباية وكثرة النفقات . واسباب قلة الجباية خمسة :

(١) ضيق المملكة .
(٢) تخفيض الخراج المضروب .

(٣) استئثار العمال بالجباية .

(٤) انشغال الناس بالفتن عن العمل .

(٥) تحول اكثر البلاد الى ضياع .

وأسباب كثرة النفقات خمسة ايضاً :

(١) اسراف الخلفاء ونسائهم ، وفيه بحث فيما بلغت اليه ثروة نساء الخلفاء .

(٢) كثرة ابواب النفقة في الدولة .

(٣) زيادة الرواتب . وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفي الحكومة من العمال والكتاب والوزراء والقضاة، ثم اهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند، ورواتب اخرى.

(٤) النفقة على البيعة .

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم ، ويتفرع من ذلك بحث عن حال الوزراء في عصر الاضمحلال وتفشي داء الرشوة فيهم ، وما يجتمع اليهم من الاموال وبيت مال الحكومة فارغ والخلفاء يشكون الفقر، وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء واخذ اموالهم بالقوة ، وبحثنا مثل هذا البحث ايضاً في العمال والكتاب والحجاب ، وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع .

ثم عمدنا الى النظر في القسم الثاني وهو « ثروة المملكة الاسلامية » اي ثروة البلاد واهلها ، فتكلمنا اجمالاً عن حالة البلاد في ذلك العصر ، وعن اختصاص المدن بالثروة واسباب انحصارها في الفئة الحاكمة ومن ينتمي اليهم من اهل الوجاهة والنفوذ وسائر اهل البلاد في فقر مدقع. وختمنا الكلام بوصف اشهر المدن الاسلامية في مصر والشام والعراق والمغرب والاندلس ، كالبصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها ، وما بلغت اليه من الثروة والعمران في عهد ذلك التمدن .

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء اهمية موضوعه ووعورة مسلكه، فعمد ارباب الاقلام الى تقريظه وانتقاده في الجرائد والمجلات فضلاً عن الكتب الخاصة ، فرأينا في مجمل ذلك ما نشطنا ، لكننا رأينا لبعضهم انتقاداً لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق ما يعلمه هو من مصادر هذا الموضوع ، فرددنا عليه وبينا له ان التبعة في ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المصادر واسندنا كل قول من اقوالنا الى مصدر

وثيق اجمع المؤرخون على صحته [1] وقرأنا نحو ذلك الانتقاد في جرائد اخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ في بعض المواضع — والخطأ في تعجله — لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين . وقد اوردنا اكثر اسمائهم في مقدمة الجزء الاول ، فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا انفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء ان نذيل صفحاته بالمآخذ التي نقلنا عنها تلك الحقائق ، ولكننا امسكنا عن ذلك ضنا بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأياً ولا قلنا قولاً الا وسندنا فيه كتاب او عدة كتب ، فالاشارة الى تلك الكتب في ذيل الصفحات تستغرق جانباً منها . على اننا لو فعلنا ذلك لكفينا انفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء في الاخذ والرد بلا طائل .

* * *

وقد توسمنا في مجمل ما قرأنا من التقاريظ والانتقادات رغبة حضرات الكتاب في ذكر المصادر ، وكتب الينا جماعة من اهل الفضل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك، وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالماً كبيراً من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه .. نعني صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني ناظر العلوم والفنون في حيدر اباد الدكن ، فانه من اوسع الناس اطلاعاً على التاريخ الاسلامي وآدابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب الينا كتاباً يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ، ولكنه انتقد اغفالنا ذكر المصادر في ذيول الصفحات ، قال : « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامي بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمني بنوع خاص . ولم اعرضه على احد الا اعجب به غاية الاعجاب ، وظني ان تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستاني) ولا شك انه يقع موقع القبول في البلاد الاسلامية كلها . ولكنني انتقد عليكم امراً لا يسعني كتمانه ، وهو ان دأبكم في التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب في اوله اجمالاً من غير التزام الاستشهاد في كل محل وموضوع — وفيه مفاسد كثيرة — منها اننا رأينا كثيرين من مستشرقي اوربا يذكرون اموراً مهمة من المسائل العلمية او الاختراعات وينسبونها الى العرب ، فنغتر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شيء

---

١ — راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و ٣٧٥٨ .

يذكر ولا مأثرة تنقل .. لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون في الاستنباط. فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية ومآخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مست الحاجة . ومنها ان كتب التواريخ لها مدارج ومراتب، فما لم تذكر اسماء الكتب بالخصوص لا يتميز جيد الرواية من رديئها ولا اقواها من اضعفها » اه .

* * *

فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا ان نعود الى رأينا الاول فنذيل صفحاته بالمصادر التي اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة . واختصرنا في ذلك جهد الطاقة ، ضنا بالمكان . ولا يخفي ما يقتضيه هذا العمل من التدقيق والمراجعة. وفي تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية على مقدار ما بذلناه من العناء في تأليفه، وخصوصاً لانه اول كتاب في هذا الموضوع كتب على هذا النسق .

وليس تاريخ التمدن الاسلامي من الكتب التي يلهو بها العامة للتسلية ، ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخي اجتماعي يبين اسباب نشوء المدنية واسباب انحطاطها ، ويتخلل ذلك ابحاث فلسفية في علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض ، وما ينجم عنها من العبرة والموعظة ، فهو من الكتب التي يقرأها الخاصة اهل الاطلاع . ولم نعمد الى تأليفه ، الا بعد ان اعددنا اذهان القراء لهذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات التاريخية الاسلامية منذ عدة اعوام ، مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه من الحقائق التاريخية في سياق الحكاية الغرامية. فلما تهيأت الاذهان ولمسنا عند القراء شوقاً الى مطالعة التاريخ الاسلامي، عمدنا الى تأليف هذا الكتاب وهو تاريخ االاسلام الحقيقي، لان تاريخ الامة لا يقوم بسرد حروبها وفتوحها، وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها الاجتماعي ومصيرها ، او هو تاريخ تمدنها . ولنا فيما بسطناه من وعورة هذا المسلك عذر على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده .

ظواهر التمدّن وحقيقته

لخصنا في الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر في تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تنجلي منه للباحثين . اما الظواهر فهي ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . واما حقيقة التمدن فهي ما ينتج عنه من الخير او الشر، من السعادة او الشقاء للمستظلين بظله اوسواهم من بني الانسان. ومن ظواهر التمدن الاسلامي الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها . وسنحصر بحثنا في هذا الجزء في ثروة المملكة الاسلامية دون سواها .

والبحث في ثروة المملكة يقتضي النظر في مصادر تلك الثروة واسبابها واوجهها باعتبار الدول والعصور والنظر في ثروة كل عصر مع دراسة ما اذا كانت الثروة مفرقة بين الاهالي او محصورة في فئة منهم او في الحكومة او في رجالها ، ودراسة ما يتصل بذلك من وصف ثروة المدن والأبنية وغيرها .

ومعلوم ان المملكة الاسلامية بلغت اوجها من الغنى والثروة في العصر العباسي . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لا كتفينا بالاشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات ، وما كان عليه الخلفاء واتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها — ولكننا عولنا منذ اخذنا في تأليف هذا الكتاب ان نسند كل حادث الى اسبابه، بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى اصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام ، مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور .

والمملكة الاسلامية عند التخصيص هي غير الدولة الاسلامية ، لان هذه عبارة عن الحكومة ورجالها ، واما المملكة فهي البلاد واهلها . فيحسن والحالة هذه ان نقسم الكلام في الثروة المذكورة الى : ثروة الدولة الاسلامية ، وثروة المملكة الاسلامية — ونتكلم في كل منها باعتبار العصور المتقدم ذكرها .

وبناء على ذلك سنجعل الكلام في ثروة الدولة الاسلامية باعتبار العصور، فنبدأ بعصر النبي (صلعم) ، فالخلفاء الراشدين ، فبني امية ، فالعباسيين ونقسم كل عصر الى ابواب . بعضها للبحث في ثروة الحكومة او بيت المال ، والبعض الآخر للبحث في ثروة رجال الحكومة ، وما يستلزمه ذلك من النظر في اسباب تلك الثروة وعلة كثرتها او قلتها ، وتاريخ الخراج والجزية وغيرهما وابواب النفقة وغير ذلك .

وبناء على ذلك نقول ان ثروة الدولة الاسلامية مرت في خمسة ادوار او عصور وهي : (١) عصر النبي (صلعم) (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بني امية (٤) عصر العباسيين الاول او عصر الازدهار العباسي (٥) عصر العباسيين الثاني او عصر الاضمحلال. اما الدول الاسلامية الاخرى في مصر والاندلس وغيرهما فالكلام في ثروتها يأتي عرضاً بطريق الاستشهاد او التمثيل، لأن المراد بالتمدن الاسلامي انما هو التمدن العباسي الشهير.

ثروة الدولة الإسلامية

١ — عصر النبي

من سنة ١ — ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها او ما تختزنه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها ، فالدولة الاسلامية في عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية ، لانهم لم يكونوا يختزنون مالاً ولا كان عندهم بيت مال ، بل كانوا اذا اصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فانها كانت تفرق في اهلها ، واذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة اليه . وكان النبي (صلعم) يتولى ذلك بنفسه ، واكثر الصدقات من الماشية ، والابل والخيل ، فكان يسمها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها .

فكانت ثروة الدولة في عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من ابل او خيل او ماشية ، وتمتاز عن اموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبقيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمى [١] وبميسم كان النبي نفسه يسمها به [٢] وبلغت الاموال في ايام النبي نحو ٤٠٫٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها [٣] ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم .

٢ — عصر الخلفاء الراشدين

من سنه ١١ — ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبي ، عصر العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على

---

١ — الماوردي ١٧٦ . ٢ — البخاري ١٩٠ ج ١ . ٣ — شرح الموطأ (خط)

سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيـا ، وهو العصر الذي اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ، ونشأت في الخلفاء والعمال المطامع واخذوا في حشد الاموال بأية وسيلة كانت .

بيت المال

توفي النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التي قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجات ، وكان اكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلاً ونحو ذلك من اموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين ايديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر ، وردت عليهم الاموال ذهباً وفضة فأدهشتهم كثرتها وتنبهوا لها — يقال ان ابا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال وفـير فقال له عمر : « بم جئت ؟ » قال : « بخمسمائة الف درهم » فاستكثره عمر وقال : « اتدري ما تقول ؟ » قال : « نعم .. مئة الف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقـال : « ايها الناس قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عداً » [١] وكان ذلك من جملة مادعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين باعتبار السابقة والقرابة من النبي ، ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل : « يا امير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها ، وهي فتنة لمن بعدي . اني لا اعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا » [٢] .

فلما كثرت الاموال في ايام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة او المزرعة [٣] لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حق الى عبيدهم ومواليهم — اراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل لا يمنعهم انتظار الزرع ولا يقعدهم الترف والقصف . فاذا اسلم احد من اهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان في يده من الارض وداره الى اصحابه من اهـل

---

١ — المقريزي ٩٢ ج ١ ٢ — ابن الاثير ٢٤٨ ج ٢ والفخري ٧٥ .

٣ — المقريزي ٢٥٩ ج ٢ .

قريته ، تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين (١) .

والغرض الذي كان يرمي اليه عمر من هذه القاعدة ان يبقى اهل الذمة وارضهم مصدراً للمال الذي يحتاج اليه المسلمون في اتمام الجهاد ووقفاً لمصالحهم مدى الدهور. اما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم . ولا تمضي بضعة اجيال حتى تصير املاكاً خاصة بهم (٢) وعمر يريد ان يبقيها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين ، لا تباع ولا تورث لما الزموه انفسهم من اقامة فريضة الجهاد (٣) وايد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الاموي وكان يقلد ابن الخطاب في كل خطواته ، فقال « ايما ذمي اسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من ارض فانها من فيء الله على المسلمين ، وايما قوم صالحوا على جزية يعطونها ، فمن اسلم منهم كانت داره وارضه لبقيتهم » (٤) فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة او صناعة او نحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم ان الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفي ابو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا ديناراً واحداً سقط من غرارة (٥) لانه كان يفرق كل ما كان يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو انفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك اربعون الف درهم غير ما اكتسبه من التجارة ، لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم . فلما دنا اجله اوصى ان تباع ارض كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما اخذه من مال المسلمين (٦) وكان عنده ثوبان اوصى ان يكفن بهما .

واخبار عمر بن الخطاب في الزهد والنزاهة اشهر من ان تذكر . ويقال بالاجمال انه مؤسس دولة المسلمين ، وقد اسسها على امتن دعائم الملك — اسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوهم لغرابته انه

---

١ — ابن عساكر (نسخة كريمر) . ٢ — كتاب الخراج لأبي يوسف ١٤ .
٣ — ابن عساكر . ٤ — المقريزي ٧٧ ج ١ .
٥ — ابن الاثير ٢٠٤ ج ٢ . ٦ — ابن الاثير ٢٠٧ ج ٢ .

من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ– يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الاموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت اليه ولا يأخذ منه الا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى بيت المال فاستقرضه حتى يفيه اياه من عطائه فيما بعد [١] ولما طعن واحس بدنو الاجل قال لابنه : « اني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين الفاً فلترد من مال ولدي فان لم يف ماالهم فمال آل الخطاب » [٢] وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام علي فقد كان مغالياً في الزهد والعدل . ومن اقواله : « تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبش ، ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » . وجاءه في ايام خلافته مال من اصبهان فقسمه على سبعة اسهم ، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة اسهم ودعا امراء الاسباع فاقرع بينهم لينظر ايهم يعطي اولاً . ولم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتي بحبوبه من المدينة في جراب . وقيل انه اخرج سيفاً له الى السوق فباعه وقال : « لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازرار لم ابعه » ومناقبه لا تحصى [٣] .

* * *

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ان عمالهم كان اكثرهم من اهل التقوى وحسن الاعتقاد في الاسلام . فكان عمر اذا اكتسب احد عماله مالاً من تجارة او سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لا يرى في ذلك غبنا – كذلك فعل بسعد بن ابي وقاص عامله على الكوفة ، وعمرو بن العاص عامله على مصر ، وابي هريرة عامله على البحرين [٤] وغيرهم .

ولا غرابة في ذلك ، لان العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ، ويستهلك في مصلحة الامة فانه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه . على ان الخليفة نفسه لا يولي اعماله الا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصاً عمر فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ، ويعزلهم لاقل تهمة – ذكر انه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن

---

١ – ابن الاثير ٢٩ ج ٣ .　　٢ – اليعقوبي ١٨٣ ج ٣ .
٣ – ابن الاثير ٢٠٢ ج ٣ .　　٤ – اليعقوبي ١٨١ ج ٢ .

سعد ، فلما انقضت السنة كتب اليه : « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشياً حافياً عكازه في يده ، وادواته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر قال : « يا عمير أأجبتنا ام البلاد بلاد سوء ؟ » فقال : « يا امير المؤمنين اما نهاك الله ان تجهر بالسوء وعن سوء الظن ؟ وقد جئت اليك بالدنيا اجرها بقرابها » فقال : « وما معك من الدنيا ؟ » قال: « عكازة اتوكأ عليها وادفع بها عدوا ان لقيته، ومزود احمل به طعامي» فقال : « ما صنعت بعملك يا عمير ؟ » قال : « اخذت الابل من اهل الابل ، والجزية من اهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وابناء السبيل . فوالله يا امير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به » فقال له : « عد الى عملك » [١] .

* * *

ولا بد لنا مع ذلك من ان نقف هنيهة للنظر في امر يفتقر الى تفسير . قلنا ان عمر لم يكن يختزن مالاً ونهى عن اختزانه ، فلو كانت الاموال التي ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم في ايام النبي وأبي بكر لهان عليه ان لا يختزن ، ولكنه فرض اعطية معينة يتناولونها كل عام . ونعلم ايضاً ان الاموال زادت كثيراً في ايامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح ، وكلها تؤدي الخراج والجزية فضلاً عما يلحق ببيت المال من الغنائم — فما الذي كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطية المذكورة ؟ يظهر انه كان يفرقه في اهل الحاجة او لعله كان يستبقي بعضه على ان يفرقه ، ولا يعد ذلك اختزاناً لانه انما منع الاختزان للحرب .

اقتناء المسلمين للاموال

على ان رأي عمر بعدم اختزان المال ينافي المبدأ الاساسي الذي تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات ، لان اختزان الاموال من ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ، ولذلك لم تطل مدتهم الا ريثما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها ، فعاد الناس الى فطرتهم وتسابقوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة .

وقد باشروا ذلك في ايام عثمان بن عفان (سنة ٣٣ — ٣٥ هـ) لانه لم يكن شديداً مثل

---

١ — المستطرف ٩١ جـ ١ .

عمر وكان مع ذلك اموياً ، فاعتز الامويون به وارادوا ان يعيدوا لانفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم اياها بعد الاسلام لان النبي منهم ، فأخذ عثمان يولي الاعمال رجالاً من اقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام الا يأساً من فوزه على المسلمين . وكثرت في أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص أهله منها باكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته [1] وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وابطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصاً معاوية ابن ابي سفيان عامله على الشام وهو أكثرهم دهاء وأبعدهم مطمعاً ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام وأقروا الأرض في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفر البطارقة او قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أي يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً فكتب اليه ان الذي اجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وان لا مالك لها وليست هي من قرى اهل الذمة ولا الخراج وسأله ان يقطعه اياها [2] وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره الف دينار في السنة [3] وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال في تلك الايام . فلما طلب من عثمان ان يقطعه تلك الضياع اجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على فقراء اهل بيته ، فجرأه ذلك على التمادي في اقتناء الأرض وبيعها في ايام خلافته والاذن للمسلمين في ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت اموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الاموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته ٠٠٠ ١٥٠ دينار و ٠٠٠ ٠٠٠ ١ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين

---

١ – اليعقوبي ١٩١ ج ٢ . ٢ – ابن عساكر (خط) . ٣ – المقريزي ٩٥ ج ١ .

وغيرهما ١٠٠٠٠٠ دينار ، وخلف خيلا وابلا[١] والظاهر ان عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، واغراه اهله وخصوصاً معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً .

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين ان عثمان اقطع هو وخلفاؤه بعض الأرض مما لم يتعين مالكوه على ان يدفعوا شيئاً لبيت المال في مقابل الايجار او الضمان كما تقدم . فلما حصلت فتنة الاشعث سنة ٨٢ه حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم ما يليهم [٣] .

على ان المسلمين لم يكونوا راضين عن اعمال معاوية في هذا الشأن ، لانه لم يساو بينهم فيه فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى . وفي حكاية ابي ذر الغفاري ما يغني عن البيان . فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى « ان المسلم لا ينبغي له ان يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفقه في سبيل الله او يعده لكريم » [٢] وكان يقوم في الشام ويقول : « يا معشر الاغنياء ، وأسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » . وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله واوجبوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو امر من شكايتهم لأن أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق وقد سأله معاوية : « كيف ترى هذا ؟ » فقال ابو ذر : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، ان كنت بنيته من مالك فانك من المسرفين » [٤] فعظم ذلك على معاوية فاراد ان يوقعه في ما يوجب محاكمته فبعث اليه بألف دينار اراد ان يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير الى ابي ذر فرقها حالا مع انها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم انه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فأخبره انه انفقه في ساعته . فلم ير معاوية سبيلا الى اتهامه بالفتنة فكتب الى عثمان : « انك افسدت الشام على نفسك بأبي ذر » فكتب اليه : « احمله على قتب بغير وطاء » [٥] فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق . فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف وظل هناك حتى مات . فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما نقموه عليه الى مقتله .

---

١ – المسعودي ٣٠١ ج ١ . ٢ – الماوردي ١٨٣ . ٣ – ابن الاثير ٥٥ ج ٣ .
٤ – ابن الفقيه ١٥٦ . ٥ – اليعقوبي ١٩٩ ج ٢ .

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة في الخلافة وارادها معاوية لنفسه ، رأى بين دعاتها من هم احق بها منه نسباً وسابقة ، فاحتال اليها بالمال فازدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في انشاء الاحزاب – ولا غرو فان المال قوة تتحول الى ما شئته من القوى ، وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ، ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب او سلم او محالفة او معاهدة وما من فتح او حصار الا والمحرك عليه او الداعي اليه « المال » – وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف ، حتى افضت الخلافة اليه بعدواقعة صفين ولكنها لم تصف له الا بعد مقتل علي (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون ان معاوية انما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام علي : « ان عليا كان يقاتله معاوية بذهبه »[١] وسار بنو امية على خطوات معاوية في ذلك ، فجعلوا المال اكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم ، فجرهم ذلك الى الاستكثار منه بأي وسيلة كانت كما سيأتي .

فالثروة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ، ولكن تحريمها لم يبق طويلاً ، لان بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب ، او من يكون في مثل مناقبه وتقواه مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الامـــوال وزادهم ميلاً الى ذلك رغبة بني امية في الاستكثار منها . فانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده ، وظل ابو بكر وعمر مضرب امثال القوم قرونا متطاولة ، اذا اعوج حاكم او خليفة طلبوا اليه ان يقتدي بهما ، وخصوصاً عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدته في الحق ، حتى ان اشهر عمال بني امية ظلماً ودهاء ارادوا الاقتداء به في ذلك ، فتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف – يقال ان زياد ابن ابيه اراد ان يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه اسرف وتجاوز الحد ، ثم اراد الحجاج بن يوسف ان يتشبه بزياد فأهلك ودمر[٢] .

---

١ – المقريزي ٤٣٩ ج ٢ .
٢ – ابن خلكان ١٢٤ ج ١ .

٣ ـــ عصر بني امية

من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ

تمتاز دولة بني امية عن دولة الراشدين بأن السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسي . وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم . ولذلك فان اهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من خلفاء بني امية ومن عمالهم الامور الصعاب ، حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم : « الموالي » ، ويعدون انفسهم ذوي احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر ، واذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال : « من هذا ؟ » فاذا قالوا : « قرشي » قال : « واقوماه ، » واذا قالوا : « عربي » قال : « وابلدتاه ! » واذا قالوا : « مولى » قال : « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ماشاء » . وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب. ولا يمشون في الصف معهم [1] وكانوا يسمونهم العلوج. وفي كتاب الموالي للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الاشعث اراد ان يفرقهم حتى لا يجتمعوا ، فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجهه اليها . وقد تولى ذلك النقش رجل من بني عجل فقال الشاعر .

وانت من نقش العجلي راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم [2]

وسنعود الى تفصيل ذلك في الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية في المملكة الاسلامية في جزء آخر من هذا الكتاب ، وانما اشرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب في دولة بني أمية على غير العرب ولو كانوا مسلمين .

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم انهم اعتبروا اهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالا لهم - يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق : « ما السواد إلا بستان قريش ، ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه» [3] وقول عمرو بن العاص لصاحب « اخنا » لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال

---

١ - العقد الفريد ٧٣ ج ٢ . ٢ - العقد ٧٤ ج ٢ . ٣ - الاغاني ٣٠ ج ١١ .

عمرو : « انما انتم خزانة لنا ، ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خف عنا خففنا عنكم »[١] فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاءوا من اموال الناس ، وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمنه بمال زهيد . فعل ذلك في بادىء الرأي ترغيباً لهم في نصرته ، ثم توالت عليه وعلى من خلفه من بني أمية الحروب مع احزاب بني هاشم والخوارج وغيرهم ، فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها إلا بالخراج والجزية من اهل البلاد ، فاستخدموا من العمال ما يثقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلاً عن الحرب. واشد اولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة ، وفيهم عبدالله بن الزبير في مكة ، والمختار بن أبي عبيد في العراق ، وغيرهما ، فوكل ذلك الى الحجاج وأمثاله فاستخدموا العنف في تحصيل الأموال بحق وبغير حق[٢] .

اجور العمال

وكان عمال بني أمية يجورون على اصحاب الأرض من اهل الذمة في التحصيل ونحوه، لا يهمهم بقي لهم من المحصول شيء ام لا . وكان الخراج يومئذ على المساحة ، فيؤخذ على الأرض مال معين زرعت ام لم تزرع ، وكان من شروط الخراج ان يستبقى لأصحاب الأرض ما يجبرون به النوائب والحوائج . ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبدالملك بن مروان يستأذنه في أخذ تلك البقية منهم فأجابه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك ، وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوما[٣] .

والظاهر ان الضغط على اهل القرى واصحاب الارض حمل بعضهم على الاسلام احتماء به فأصبحوا من الموالي ، فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج[٤] الخراج مع انهم تنازلوا عن مغارسهم لأهلهم وغادروا القرى وسكنوا الامصار فراراً من تلك الضرائب ، فأمر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لأن المسلمين كانوا الى ذلك الحين لا يقيمون إلا في المدن التي بنوها هم . واهل البلاد الاصليون يقيمون في القرى للزرع والحرث ، فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج عن رأسه ، وصار ما كان في يده من الأرض وداره الى اصحابه ، يؤدون عنها ما كان يؤدى من الخراج كما تقدم ، وينزل هو الى

١ — المقريزي ٧٧ ج ١ . ٢ — ابن الاثير ١٠ ج ٥ ، وكتاب الخراج لابي يوسف ٦٢ .
٣ — الماوردي ١٤٣ . ٤ — ابن خلكان ٢٧٧ ج .

الأمصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك في ايام الحجاج جماعة كبيرة ، ربما التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الامصار : « ان من كان له اصل في قرية فليرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » ، فعل ذلـك في ايام ابن الأشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون : « يا محمداه ! يا محمداه ! » ولا يدرون الى أين يذهبون ، فاضطروا الى الانضمام للاشعث على الحجاج[١] .

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم ، فقد فعل مثله ايضاً يزيد بن ابي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على افريقية[٢] وكذلك فعل الجراح في خراسان[٣] وغيره فيما وراء النهر[٤] وكان اهل سمرقند قد اسلموا على ان ترفع الجزية عنهم ، فظلوا يأخذونها منهم فعادوا الى دينهم .

اما النصارى وغيرهم من اهـل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين اسلموا منهم ، فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية ، ورأى هؤلاء ان اعتناق الاسلام لا ينجيهم من ذلك ، فعمد بعضهم الى التلبس بثـوب الرهبنة لان الرهبان لا جزية عليهم . فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان ، واول من فعـل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان ، وفرض على كل راهب ديناراً[٥] وهي اول جزية اخذت من الرهبان . وامثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني امية .

* * *

ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه في سبيل جمع المال ، فانهم زادوا الخراج عما كان عليه في ايام الراشدين — بدأوا بذلك من ايام معاوية فأراد ان يزيد قيراطاً ، فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص امير مصر ان : « زد على كل امرىء من القبط قيراطاً » فكتب اليه : « كيف ازيد عليهم وفي عهدهم ان لا ازيد عليهم ؟ »[٦] ولعل عمراً لم يطمعه في ذلك لان مصر طعمة له . فلما انتقلت الى خلفاء بني أمية بعد عمرو زادوا في الخراج مـا شاءوا . واشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة

---

١ - ابن الاثير ٢٢٥ ج ٤ . ٢ - ابن الاثير ٤٨ ج ٥ وابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ .
٣ - ابن الاثير ٢٤ ج ٥ . ٤ - ابن الاثير ١١١ ج ٥ .
٥ - المقريزي ٤٩٢ ج ٢ . ٦ - البلاذري ٢٢٧ .

١٠٥ — ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الأعظم ، فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً. وحدث نحو ذلك على يد اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج فانه اوقع في النصارى واخذ اموالهم. وكثر الالتجاء الى الرهبنة في ايامه فأراد ان يمنع ذلك لأنه يضر في الخراج والجزية ، فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم ايدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه ، فكل من وجد بغير وسم قطع يده . وألزم كل نصراني بمنشور يحمله على انه أدى ما عليه ، وكتب الى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير. ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم ، فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب[١] .

على ان ذلك لم يكن يرضي الخليفة ، فلما بلغ هشام بن عبدالملك ذلك كتب الى عامله بمصر ان يجري النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من العهود . ولم يطل العمل بهذا الأمر فعاد العمال الى ظلمهم ، وفي جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد في الخراج واحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصراني وسماً صورة اسد ، تتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده[٢] . وقس على ذلك أمثلة كثيرة من شدة عمال بني أمية على أهل الذمة والموالي وغيرهم من العرب .

* * *

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والجزية ان اهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ، ومدين قمحاً ، وقسطين زيتا ، وقسطين خلا في العام. فلما تولى عبد الملك ابن مروان استقل ذلك ، فبعث الى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها فوجد بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة[٣] .

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على اهل الذمة والموالي ، ولكنها شملت العرب المسلمين انفسهم ، وذلك ان محمداً اخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن اساء السيرة وظلم الرعية ، وأخذ اراضي الناس بغير حقها وضرب على اهل اليمن خراجاً سماه « الوظيفة » فلما ولي عمر بن عبدالعزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر[٤] .

---

١ — المقريزي ٤٩٢ ج ٢ . ٢ — المقريزي ٤٩٣ ج ٢ .
٣ — البلاذري ٧٣ . ٤ — كتاب الخراج لابي يوسف ٢٤ .

وكان عمال بني امية في فارس يخرصون الثار على اهلها ، اي يحزرون مقدارها ، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به ، فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها [١] .

وكان من اساليبهم في الاستكثار من الاموال ضرب الضرائب على الارض الخراب ، وكانوا يفرضون على الاهالي هدية في عيد النيروز بلغت في ايام معاوية ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٢] وفرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتتب عرضاً [٣] وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللاكار بكيل آخر ، ويكلفون اهل الخراج ارزاق العمال ، واجور المدى وحمولة الطعام ، وثمن صحف، وقراطيس ، واجور الكيالين ومؤونتهم . واذا اتى احدهم بالدراهم ليؤديها في خراجه يقتطع الجابي منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها [٤] .

* * *

ولم يكن عمال بني امية يأتون هذه الاعمال من عند انفسهم دائماً ، بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بأمر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان وكان ذلك شأنه في تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها [٥] وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصاً عبد الملك، لانه كان شديد الحاجة الى المال ومناه الله بالحجاج فلم يترك وسيلة في استخراج المال الا اتخذها . اما لو اراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لهان عليهم ابطالها ، لان العمال في ايام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم. ولما جار عمال الاهواز في ايامه شكاهم ابو المختار يزيد بن قيس بقصيدة ، بين فيها ارباحهم من اهل الرساتيق والقرى وسماهم في قصيدته ، وحرض عمر على مقاسمتهم ما ربحوه ، الى ان قال :

فقاسمهم اهلي فداؤك انهم   سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعوني للشهادة انني   اغيب ولكني ارى عجب الدهر

فبعث عمر اليهم فقاسمهم شطر اموالهم حتى اخذ نعلاً وترك نعلاً ، ولم يكتف بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم ، فاعترض هؤلاء فقال احدهم لعمر : « اني لم أل لك شيئاً » فقال له : « اخوك على بيت المال وعشور الابلة وهو يعطيك المال تتجر به » فأخذ منه عشرة آلاف [٦] .

---

١ طبقات ابن سعد (عن فان فلوتن) ٢ - اليعقوبي ٢٥٩ ج ٢ ٣ الطبري ١٣٦٧ ج ٢.
٤ كتاب الخراج لابي يوسف ٦٢ . ٥ اليعقوبي ٢٥٨ ج٢. ٦ البلاذري ٣٨٥ .

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال ، فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انهـــا سنة سنها عمر ، ثم تدرج الى استصفاء اموال الرعية ، وهو اول من فعل ذلك [١] .

فالعمدة في حفظ النظام على الرأس ، فاذا صلح صلحت الاعضاء . فقد رأيت ان خلفاء بني امية طلبوا المال لقيام دولتهم بأي وسيلة كانت ، فأمدوا العمال بالسلطة واطمعوهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال الى انفسهم ايضاً ، واقتدى بهم العمال الصغار كالكاتب والجابي ونحوهما ، فزادت شكوى اصحاب الارض فاضطر العمال الى اخراج عمـــال الجباية من العرب وتسليمها الى الموالي ، ومنهم الدهاقين اصحاب الضياع في العراق . فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فأجابه : « كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فاذا اغرمت عشيرته او طالبته اوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم ، مع اني جعلتكم امناء عليهم لئلا يظلموا احداً » [٢] .

* * *

وفي كلام القاضي ابي يوسف في عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان اولئك الصغار يجمعون الأموال بها ، قال : « بلغني انه قد يكون في حاشية العامل او الوالي جمـــاعة ، منهم من له حرمة ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين ، يستعين بهم ويوجههم في اعماله يقتضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه ، انما مذهبهم اخذ شيء من الخراج كان او من اموال الرعية . ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي ... ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بمـــا يمنعهم من الصلاة .. وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام [٣] .

وكان شأن بني امية وعمالهم وجباتهم على نحو مـــا تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقياً منصفاً ، فأراد ان يرد الامور الى ما كانت عليه في ايام سميه وجده لامه عمر بن الخطاب . فأصدر اوامره الى العمال بإبطال تلك المظالم وعينها بأسمائها مفصلة [٤] وابطل لعن علي على المنابر وكان اهله قد اقتنوا الضياع واخذوا كثيراً منها من

---

١ – ابن الفقيه ١٠٩ .   ٢ – ابن الاثير ٦٩ ج ٤ .   ٣ – كتاب الخراج ٦١ و ٦٢

٤ – الطبري ١٣٦٦ ج ٣ ؛ وابن الاثير ٢٩ ج ٥ .

اهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس واعلن : « ان من كانت له ظلامة فليأت » فأتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ، ومنهم من يشتكي اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو كان الحكم على ابنه او اخوته او ابناء عمه . قال ابن الاثير : « وقال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم : ان اهلي اقطعوني مالم يكن لي ان آخذه ولا هم ان يعطونيه ، واني قد هممت برده على اربابه ، قال : فكيف تصنع بولدك ؟ فجرت دموعه وقال : اكلهم الى الله (١) واخذ اموال اعمامهم واولادهم وسماها « مظالم » (٢) فلما رأى اهله ذلك خافوا على سلطانهم ، وهو انما قام بالمال فاذا خرجت الضياع والاموال من ايديهم ذهب ضياعاً ، فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فأتته فقال لها : « ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً الى الناس كافة (٣) .

ولما رأى الموالي عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه ما يقاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد ارسل الى عمر بن عبدالعزيز في الشام وفداً : رجلين من العرب ورجلاً من الموالي ، فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر : « ما انت من الوفد ؟ » قال : « بلى » قال : « فما يمنعك من الكلام ؟ » فقال : « يا امير المؤمنين ، عشرون الفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج ، واميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول : اتيتكم حفياً ، وانا اليوم عصبي . والله لرجل من قومي احب الي من مائة من غيرهم . وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان » (٤) فقال عمر : « احر بمثلك ان يوفد » وكتب الى الجراح : « انظر من صلى قبلك فضع عنه الجزية » فرغب الناس في الاسلام وتسارعوا اليه فقيل للجراح : « ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان » فكتب الجراح الى عمر بذلك فأجابه : « ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً » (٥) .

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب اليه : « اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار

---

١ — ابن الاثير ٢٩ ج ٥ . ٢ — ابن الاثير ٢٩ ج ٥ .
٣ — ابن الاثير ج ٤ ص ١٦٤ (طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧) .
٤ — الطبري ١٣٥٤ ج ٢ . ٥ — ابن الاثير ٢٤ ج ٥ .

اتممت بها عطاء اهل الديوان، فإن رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه : « اما بعد فقد بلغني كتابك ، وقد وليتك جند مصر وانا عارف ضعفك ، وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطاً . فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً – ولعمري لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه » . [١] .

* * *

وقس على ذلك عماله الآخرين، فانه عزل من لم يوافقه منهم فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده، لأنه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال . وما في بني أمية وعمالهم الا من كره ذلك منه ، فلم يصبروا على خلافته . وانتهت خلافته في ظروف غامضة سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) ويعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين ، واذا قالوا « العمرين » ارادوه وعمر بن الخطاب [٢] .

فترى مما تقدم ان القواعد الاساسية التي قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق، ولكن تطبيق هذه القواعد اختلف باختلاف الذين يتولون شئونها . ولو اتيح لعمر بن عبدالعزيز ان يعيدها الى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بني أمية ، ولكنه جاء في غير أوانه فذهب سعيه هدراً . ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى اشد مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال في الاستبداد والعسف وشددوا في استخراج الخراج وزادوه ، حتى اضطر بعض اصحاب الأرض الى الالجاء، اي ان يلجئوا اراضيهم الى بعض اقارب الخليفة او العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتي .

اما الخلفاء فانهم زادوا انغماساً في الترف ، وأولهم يزيد بن عبدالملك فانه انقطع الى اللهو والخمر ، واشتغل عن مصالح الدولة بجاريتيه سلامة وحبابة وحديثهما مشهور [٣] وخلفه اخوه هشام وكان بخيلا ، وفي ايامه زيدت الضرائب في مصر على يد الحبحاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وكان مثل أبيه في اللهو والخمر فقتله اهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ١٢٦ هـ ، وكان عازماً على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبدالعزيز ، كما يؤخذ من خطاب القاه عند مبايعته [٤] فأصابه من الفشل نحو ما

---

١ – المقريزي ٧٨ ج ١ .   ٢ – السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٥٥ .   ٣ – انظر الفخري . السلطانية (طبعة محمود توفيق الكتبي ؛ القاهرة ص ٩٥) .   ٤ . ابن الاثير ٣١٧ ج ٥ .

اصاب عمر لان الاحوال كانت غير ملائمة . وفي ايام مروان بن محمد تغلب بنو العباس وسارت الخلافة اليهم .

وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر ، واصبحوا لا ينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا باشارة جارية او مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبدالملك بالجنيد بن عبدالرحمن . وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشاماً فأهدى هشاماً قلادة اخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ [١] وبلغ ثمن الجارية في ايام بني أمية ١٠٠٠٠٠٠ درهم وهي الذلفاء[٢] واصبح العمال لا هم لهم الا حشد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالي ، ولم يعد أهل العدل يرضون بولاية الاعمال مخافة ان يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد ابن المهلب لما ولاه سليمان بن عبدالملك العراق ، فقال يزيد في نفسه : « ان العراق قد اخربها الحجاج وانا اليوم رجاء اهل العراق ، ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ، ادخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني »[٣] وقس على ذلك رأي غيره ممن يؤثرون الرفق . فلم يرغب في الولايات إلا اهل المطامع . وجعل الخلفاء من الجهة الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة اميرالعراق في اواخر ايام بني امية ٦٠٠٠٠٠ درهم[٤] وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الاموال لأنفسهم لعلمهم ان الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت اموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسري امير العراق في ايام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠ [٥] اي نحو مليون دينار . فاصبح الخلفاء لا يعزلون عاملا عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في ايام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من أموالهم ، كما فعلوا بخالد القسري اذ وشى به كاتبه حيان النبطي انه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من اخرج معظم هذا المال منه ومن عماله[٦] ويسمون هذا العمل « استخراجاً » وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني امية .

---

١ ابن الاثير ٧٢ ج ٥ . ٢ اعلام الناس ٣٥ .
٣ الطبري ١٣٠٦ ج ٢ . ٤ - ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ .
٥ - ابن خلدون ٩٦ ج ٣ . ٦ اليعقوبي ٣٨٨ ج ٢ وابن الاثير ١٠٤ ج ٥ .

أما ارتفاع الدولة الاسلامية في ايام بني أمية ، اي مقدار ما كان يجتمع لهم من الخراج والجزية وغيرهما ، فقد ضاع تفصيله في جملة ما ضاع من أخبارهم في الفتن . على ان المملكة الاسلامية بلغت في أيامهم اتساعاً عظيماً يعدل اتساعها في ايام العباسيين ، ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر واما الأطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والجباة . على ان كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر لأن قدم الأمويين لم تكن راسخة فيها .

* * *

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب وخلاصته ان متوسط جباية العراق في ايامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وجباية مصر ٤٠٠٠٠٠٠ دينار (او ٤٨٠٠٠٠٠٠ درهم) وجباية الشام ١٧٢٠٠٠٠ دينار (او ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٩٨٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف اليه اموال البلاد مما لا نعرف مقداره .

وخلاصة ما تقدم ان الاموال كانت تستخرج في ايام بني أمية بكثرة ، ولكنها لا تسمى ثروة لأنها كانت تصرف في الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا علياً والحسين بن علي ، والمختار بن أبي عبيد ، وعبدالله بن الزبير ، وحاربوا الخوارج وغيرهم ، ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالي ، فضلاً عما كان ينفقه الخلفاء والأمراء في البذخ واللهو والقصف .

٤ ـــ الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران ، يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً : العصر الأول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهر ، يمتد من اول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ ﻫ الى آخر ايام المأمون سنة ٢١٨ ﻫ ، وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وانشأت التمدن الذي نحن في صدده ، وفيه ادركت ثروة الدولة الاسلامية اعظم ما بلغت اليه في عصر من العصور ، وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب .

والعصر الثاني ، ويعبرون عنه بعصر التقهقر او الاضمحلال ، يبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ وينقضي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد، وفيه تقهقر التمدن الاسلامي وقلت الثروة وضعفت الدولة ، حتى انحلت عراها وانقضت ايامها .

العصر العباسي الاول

من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ هـ

سبب قيام هذه الدولة

رأيت في ما تقدم ان العصر الاموي يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسة الدنيوية ، وان خلفاءها وعمالها انما كان همهم جمع المال ، وانه يمتاز عن العصر العباسي بتعصب اهله للعرب واحتقارهم سائر الامم ، وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم ، في مصر ، والشام ، والعراق، وفارس ، وخراسان ، وغيرها ، وفيهم : القبط ، والنبط ، والروم ، والسريان ، والكلدان ، والفرس ، والترك ، والسودان وغيرهم — حتى الذين اسلموا منهم . فاصبحت تلك الامم تئن من معاملتهم ، وزادها نفوراً ما كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الخراج ، واصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم [١] وخصوصاً الموالي ، فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا اراضيهم ومنازلهم ، واصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو امية يخرجونهم الى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء . وكان خصوم هذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالي عليها ويجعلون لهم الارزاق واول من فعل ذلك المختار بن ابي عبيد سنة ٦٦ هـ اذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة ، فعظم ذلك على العرب وقالوا : « ان المختار قد آذى بموالينا فحملهم على الدواب واعطاهم فيئنا » فقال لهم المختار يومئذ : « اذا انا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معي بني امية وابن الزبير ، وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال احدهم : « ان اطعتموني لم تخرجوا » فقالوا له :

---

١ — ابن الاثير ١٨٩ ج ٣ .

« لم ؟ » فقال : « لاني اخاف ان تتفرقوا وتختلفوا ، ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم مثل فلان وفلان ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم اشد حنقاً عليكم من عدوكم ، فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوه العجم »[١] .

وكان ذلك شأن الموالي مع كل من قام يدعو الى خلع بني أمية ، ولذلك كثر الخوارج في ايامهم وقام في نفوس العرب ان الخلافة لا يشترط فيها القرشية[٢] على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد اجيال . اما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من اهل بيت النبي ، وفيهم العلويون من نسل الامام علي ابن عم النبي ، والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من اكثر الناس نقمة على بني امية للاسباب التي قدمناها. فأخذوا بيد العباسيين وقائدهم ابو مسلم الخراساني . ولما نهضوا نهض معهم اعداء بني امية من العرب وغير العرب في كل انحاء المملكة الاسلامية ، فضلاً عن اهل البلاد غير المسلمين. فدارت الدائرة على بني امية وانتصر العباسيون ، فجعلوا عاصمتهم في العراق بالقرب من نصرائهم .

وعرف العباسيون علة سقوط بني امية ، فتجنبوا الوقوع في مثلها ، فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس ، واستبقوا الجند العربي ايضاً من ربيعة ومضر ، رغبة في المحافظة على العصبية العربية لانها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين ، لانهم انساقوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزيي بألبستهم من القلانس ونحوها — جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم . واول من اخذ الناس بلبسها المنصور سنة ١٥٣[٣] فأمرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول ، فقال ابو دلامة :

وكنا نرجي من امام زيادة	فزاد الامام المصطفى في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها	دنان يهود جللت بالبرانس

على ان غضب العرب لم يغير شيئاً من مجاري الامور ، فاتخذ الخلفاء امهات اولاد من الفرس، اولدوهن اولاداً تولوا الخلافة،وفيهم ميل فطري الى العنصر الفارسي. وازداد هذا العنصر تغلباً في بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم : كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية، لأن في قيامها صلاح بلادهم .

---

١ — ابن الاثير (القاهرة ١٣٥٦) ٣٦٥/٤ — ٣٦٦ .
٢ — الاستقصا ٦٠ ج ١ . ٣ — الطبري ٣٧١ ج ٣ .

الغرب والبيعة

على ان الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب ، وفيهـا الحرمان : الكعبة وقبر النبي (صلعم) وفي احترامهما احترام الدين الاسلامي ، وعليه تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك انهم كانوا يخافون اهل الحرمين من التشيع لآل علي ، وهم في حاجـة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهـذه البيعة من الاهمية في تأييد الخلافة وتوكيد البيعة ، وكان اهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم[١] فشق ذلك على الفرس وخافوا ان يرجع النفوذ الى العرب ، فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم ادراج الرياح ، فسعوا في اغفال بلادالعرب. ولا سبيل الى اغفالها والكعبة فيها ، وهي حج المسلمين والحج من اركان الاسلام . فحبب بعضهم الى المنصور ان يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجا للناس ، فبنا بناء سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة[٢] وقطع الميرة في البحر عن المدينة [٣] فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين ، واظهروا البيعة لمحمد بن عبدالله من آل علي ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد افتى لهم بذلك مالك بن أنس الامام الشهير[٤] . وكان بنو أمية في الاندلس قد قطعوا دعوة بني العباس بعد ان دعوا لهم مدة قصيرة[٥] عند دخول عبدالرحمن ابن معاوية كما ذكرنا في الجزء الأول من هـذا الكتاب . واستقل عبدالرحمن بالاندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبدالله على المدينة فخافه المنصور ، وبذل قصارى همه في قتله ، ولم يستطع ذلك إلا بعد العناء الشديد .

* * *

فكان ما قاساه المنصور من عواقب اهماله الحرمين عبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنة المهدي اكرم اهل الحرمين ، وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما جاء به معـه من العراق مقداره ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجاءه وهو في المدينـــة ٣٠٠٠٠٠ دينار من مصر ، و٢٠٠٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها وفرق ١٥٠٠٠٠ ثوب ، ووسع المسجد واتخذ حرساً من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الأرض[٦] وامر بحفر نهر الصلة بواسط واحيا ما عليه من الأرض ، وجعل غلته لصلات اهــل

---

١ – ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ . ٢ – الطبري ١٩٧ ج ٣ . ٣ – ابن الاثير ٢٦١ ج ٥.
٤ – ابن الاثير ٢٥١ ج ٥. ٥ – ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ و٤٥ ج ٦ وابن خلدون ٢٨٠ ج ٣ .
٦ – الطبري ٤٨٣ ج ٣ .

الحرمين والنفقات هناك[١] وأصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة في بني العباس في اثناء حجهم ، او عند طلب البيعة لاولادهم ، فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابنـاه الامين والمأمون ، فلما وصل المدينة اعطى فيها ثلاثة اعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك في اهل مكة وبلغ ما فرقه ١٠٥٠٠٠٠ دينار وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للأمين وآخر للمأمون ووضع الكتابين في الكعبة [٢] واصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور ، والخلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت اقدامهم في الملك .

على انهم كانوا من الجهة الاخـرى لا يستغنون عن الفرس ، وهم وزراؤهم ومشيروهم ، فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الامين والمأمون ، واستنصر المأمون جند خراسان وهم اخواله [٣] لان امه فارسية وقام العرب ينصرون اخاه الامين ، وامه عربية هاشمية [٤] وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على ازمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس ، فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وارادوا البيعة لسواه واخراج الامر من يده [٥] فازداد كرها لهم ورذلهم ، فعوتب في ذلك مرة وهو في الشام فقال له رجل : « يا امير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعرب خراسان » فقـال له : « اكثرت علي . والله ما انزلت قيساً من ظهور خيلها الا وانا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحـد . واما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتني قط ، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفياني حتى تكون من اشياعه ، واما ربيعة فساخطة على ربهـا مذ بعث نبيه من مضر [٦] .

* * *

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب هوانا في عيون اهل الدولة وتقاصرت ايديهم عن اعمالها حتى في مصر ، فان آخر عربي تولاها عنبسة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هـ [٧] واراد المعتصم ان يستغني عن بلاد العرب جميعاً ، وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد واقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ منى

---

١ — قدامة ٢٤٢ . ٢ — ابن الاثير ٦٩ ج ٦ . ٣ — ابن الاثير ٩٠ و ٩٢ ج ٦ .
٤ — الطبري ٩٣٧ ج ٣ . ٥ — ابن الاثير ١٢٦ ج ٦ .
٦ — ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ . ٧ — المقريزي ٤٥٥ ج ٢ .

وعرفات ، غرر به امراء كانوا معه ولما طلبوا الحج خشية ان يفارقوه [١] فأصبح لفظ « عربي » مرادفاً لاحقر الاوصاف عندهم . ومن اقوالهم : « العربي بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه » [٢] وقولهم : « لا يفلح احد من العرب الا ان يكون معه نبي ينصره الله به » [٣] واصبح الامراء والوزراء وسائر رجـال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب واحزابهم .

كان العرب من الجهة الاخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ، ويطعنون فيمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء، ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزاعي الشـاعر المشهور في الصميرة ، فلما جاءه نعي المعتصم وقـيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صـبر ولا جلد	ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد	وآخر قام لم يفرح به احد

وخلاصة ما تقدم ان الجامعة الاسلامية كانت في عصر الراشدين عربية وكان غرضهم الاول نشر الاسلام في الارض ، يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاها بنو امية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم ، واحتاجوا في اصطناعهم او استخدامهم الى المـال وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الامهات . ثم اصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى .

---

١ — المقدسي ١٢٢ . ٢ — ابن الاثير ٢١١ ج ٦ . ٣ — الطبري ١٥٨٨ ج ٣ .

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسي الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب بعد هذا العرض لاحوال الدولة الاسلامية حتى العصر العباسي ، لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى في بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق ، اذ قد يكون الدخل كثيراً والنفقة اكثر منه وتقع الدولة تحت العجز . فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية في العصر الاول طائلة – وان كنا لم نقف على ميزاتها في عهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه « بارتفاع الدولة » لضياع حساباتها في الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين [١] وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني امية عام الجماجم [٢] ولكننا نعلم مقدار الثروة في ايامهم مما كانوا يختزنونه من المال في اثناء حكمهم .

الثروة في اوائل الدولة

فالخليفة الاول ابو العباس السفاح لم يحكم الا اربع سنوات (من سنة ١٣٢ – ١٣٦ ﻫ ٧٤٩ – ٧٥٣ م) قضاها في الحروب ولم يجمع مالاً . ولما مات لم يجدوا في بيته الا تسع جبات واربعة اقمصة وخمسة سراويلات واربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز [٣] . واما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ – ١٥٨ ﻫ ٧٥٣ – ٧٧٤ م) وكان رجلاً حازماً كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه ، لاعن بخل ولكنه كان يخاف الفتن. فلما مات خلف في بيت ماله ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم و ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار [٤] وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً – وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً – كان

١ – قدامة ٢٣٦ . ٢ – الماوردي ١٨٣ .
٣ – الطبري ٨٨ ج ٣ . ٤ – المسعودي ١٧٧ ج ٢ .

مجموع ما خلفه المنصور ٨١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (والدرهم نحو خمسة واربعين مليماً) . فلما دنا اجله اوصى ابنه المهدي قائلاً : « قد جمعت لك في هذه المدينة من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً » [١] ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على ان سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء ، وهو في الحقيقة مؤيد دولة بني العباس ، حارب في سبيل سلامتها حروباً كثيرة انفق فيها اموالاً طائلة منها ٦٣٠٠٠ ٠٠٠ درهم انفقها في حرب الخوارج بأفريقية سنة ١٥٤ هـ ، فاعتبر ما انفقه في الحروب الاخرى وهي كثيرة ، فضلاً عما كان يبذله لاهله فانه بذل لجماعة منهم في يوم واحد ١٠٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٢] وانفق على بناء بغداد وحدها ٤٨٣٣٠٠٠ درهم [٣] ناهيك بما كان ينفقه على اصلاح الري وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال في ايام المنصور بمليار درهم (١ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) على الاقل . فاذا قسمت ذلك على سني حكمه (٢٢) لحق السنة ٤٥٠٠٠ ٠٠٠ درهم سوى الاموال التي كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج اموالهم . لانه كان اذا عزل عاملاً اخذ ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » وكتب على كل مال اسم صاحبه . ولما احس بدنو الاجل اوصى ابنه المهدي في ذلك قائلاً : « قد هيأت لك شيئاً ترضى به الخلق ولا تغرم من مالك شيئاً ، فاذا انا مت فادع هؤلاء الذين اخذت منهم هذه الاموال التي سميتها المظالم فاردد عليهم كل ما اخذ منهم ، فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » [٤] ففعل المهدي ذلك لما تولى . وقد يتبادر الى الذهن ان المنصور استكثر المال بما اخذه من اموال بني امية بعد قهرهم وهي كثيرة ، ولكن تلك الاموال ظلت منفردة في خزانة يسمونها « مال اهل بيت اللعنة » [٥] .

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد ، فقد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ونيفاً [٦] ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما انفقه الرشيد وما بذله واسرف فيه وكرمه مشهور . وقد يخطر في البال ان هذا تجمع في ايام المنصور فالمهدي فالهادي فالرشيد ولم يجتمع كله في ايام الرشيد ، ولكن الواقع ان المهدي انفق كل ما خلفه المنصور وكل ما جباه في اثناء خلافته (من سنة ١٥٨ — ١٦٩) [٧] لانه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادي الاسنة وبعض السنة ،ويروي

---

١ — الطبري ٤٤٤ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ١٣ ج ٦ .
٣ — المقدسي ١٢١ وسير الملوك ٥٤ . ٤ — الطبري ١٥٨/٦ . ٥ — ابن الاثير ٤٠/٦ .
٦ — الطبري ٧٦٤ ج ٣ وابن الاثير ٨٥ ج ٦ . ٧ — المسعودي ١٧٧ ج ٢ .

من فرط سخائه انه اعطى عبد الله بن مالك اربعمائة بغــل موقرة دراهم وغيرها ، فلا يعقل ان يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد في بيت المال انما جمع في ايامه، واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيراً عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع في السخاء . فقد كان الرشيد كريماً حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة [١] وكان المنصور متهماً بالبخل [٢] ناهيك بما كان من امر البرامكة في ايام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم .

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣هـ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة وتحاربا ، وكان الامين في بغداد وقد اتته امه زبيدة بخزائن ابيه [٣] والمأمون في خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات انفق الامين في اثنائها كل ما كان في بيت المال مع ما انفقه في خاصته . لانه انقطع في اثناء خلافته الى اللهو والخمر وبذل الاموال في طلب الملهين وضمهم اليه ، واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوته واهل بيته وقسم الامـــوال والجواهر في خواصه من الخصيان والنساء [٤] .

فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوثق الامر في المشرق والمغرب للمأمون ، وزاد نفــوذ الخراسانيين في ايامه لانهم هم الذين اعــادوا الملك اليه ، واستتبت السكينة في المملكة العباسية واشتغل المأمون في نقل العلوم الى العربية ، وسنأتي على تفصيل ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب .

* * *

اما الثروة في ايام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ، ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وابي جده المنصور، ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه في بيت المال عند وفاته ، ولعل خبر ذلك ضاع في جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخي تلك الايام بهذه الابحاث .

على ان ادخار المال اصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين في كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة

---

١ — الطبري ١٣٣ ج ٣ .

٢ — اقرأ أخبار بخله وتقتيره عند الطبري ، تاريخ ٣٠٩/٦ وما بعدها وابن الاثير ١٢ ج ٦ .

٣ — ابو الفداء ٢٠ ج ٢ .   ٤ — ابو الفداء ٢٢ ج ٢ .

٣٠٠ — ٣٥٠) جمع في بيت ماله الى سنة ٣٤٠ ﻫ نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ دينـــار [١] وكانت جباية الاندلس في ايامه ٠٠٠ ٥٤٨٠ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥٠٠٠ دينـــار فالجملة ٠٠٠ ٢٤٥ ٦ ما عدا اخماس الغنائم فانها كانت كثيرة [٢] وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط وينفق ثلثها على شئون الدولة ويدخر الباقي [٣] وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ دينار ولم يذكر ذلـك جزافاً ولا خامر كلامـــه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٠٠٠ ٥٠٠ قنطار [٤] وهو قول بعيد لا ندري كيف تطرق الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده عن المعقول ان ابن حوقل وهو من معاصري تلك الدولة قدر ما اجتمع في بيت مال الحكم المستنصر بن الناصر بعد موت ابيه من خدمه والمصادرين وغيرهم فلم يزد على ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول في ذلك العصر [٥] وكانت بغداد يومئذ في عصر الاضمحلال وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضاً .

اما في ايام المأمون فالمال الذي كان يجتمع من صوافي الجباية في بيت المـال كل عام لم يجتمع في دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية في مقدمة ابن خلدون نقلاً عن « جراب الدولة » [٦] وهي اقدم جريدة او قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية ، تليها جريدة اخرى نقلها قدامة بن جعفر واخرى رواها ابن خرداذبه ، وكلها لا تتجاوز اواسط القرن الثالث للهجرة ، وسنذكر كلاً منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة .

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجـــباية ان نأتي على فذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في ايام المأمون ، لتتضح نسبة اعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية .

---

١ — ابن حوقل ٧٧ .
٢ — نفح الطيب ١٧٩ ج ١ .   ٣ — ابن خلكان ٣٠ ج ٢ .
٤ — ابن خلدون ١١٥ ج ١ .
٥ — ابن حوقل ٧٧ .   ٦ — ابن خلدون ١٥٠ ج ١ .

جغرافية مملكة الاسلام

في عصر المأمون

حدودها

يحدها من الشرق ارض الهند بما يلي حوض نهر السند شرقاً وبعض الصين وبحر فارس ، ومن الغرب مملكة الروم، ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان في آسيا وجبال البيرينيه في اوربا . وفي خريطة هذه الايام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس ومـــا يلي مصر من بلاد النوبة وقد بينا مساحتها وعدد سكانها في الجزء الاول من هذا الكتاب .

وتقسم هذه المملكة الى عدة اعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف الدول والازمنة ، وسنبين ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلاً عن جغرافيي العرب في تلك الايام وخصوصاً الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه . فهي تقسم الى سبعة وعشرين اقليماً ، منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق وهي :

اقاليم المغرب	اقاليم المشرق		
ديار العرب	العراق	ارمينية	قومس
بحر فارس	خوزستان (الاهواز)	اذربيجان	مفازة خراسان
ديار المغرب	فارس	بلاد الران	سجستان
مصر	كرمان	الجبال	مـا وراء النهر
الشام	مكران	الديلم	خوارزم
بحر الروم	طوران	طبرستان	
الجزيرة	السند	جرجان	

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

ديار العرب

وهي جزيرةالعرب يحيط بها بحر فارس من عبادان – وهو مصب ماء دجلة في البحر– فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان ، ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي الى سواحل اليمن الى جدة ، ثم يمتد الى مدين حتى ينتهي الى ايلة (وهي ايلات الحالية على خليج العقبة) . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط العرب من المياه ، ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحر الاحمر . ويحدها من الغرب الشمالي براً بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنتنة (اي البحر الميت) فالشراة فالبلقاء فأذرعات وسلمية فالخناصرة الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان .

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة واليمامة ومخاليفها ، ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين ، وبادية العراق ، وبادية الجزيرة ، وبادية الشام ، واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن .

بحر فارس

ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق الى ايلة[1] فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه في هذا المقام .

ديار المغرب

يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر غرباً ويدخل في ذلك (١)برقة (٢)افريقية وهي تونس (٣)تاهرت في الجزائر (٤)طنجة والسوس وزويلة في مراكش .

اما برقة فهي مدينة وسط ، واقعة في مستوى من الارض خصبة تطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر ، وبينها وبين افريقية مدينة طرابلس الغرب ، وهي من عمل

---

١ – الاصطخري ٢٨ .

افريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس ، وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهي عاصمة افريقية واكبر مدينة فيها واقعة في البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدنها ايضاً سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء .

ويجعلون الاندلس جزءاً من بلاد المغرب لانها كانت تابعة لها عند فتحها . والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة ، ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك .

مصر

وحدود مصر في تلك الايام مثل حدودها اليوم تقريباً ويلحقون بها البجة والنوبة الى الى حدود البحر الاحمر فالعقبة .

الشام

ويراد بها سوريا على العموم وتقسم الى سبعة اقسام :

(١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق
(٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور .

فجند فلسطين اول اجناد الشام غرباً ، يحده من جهة مصر رفح ، ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنة وغور بيسان ونابلس ، وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها في الكبر بيت المقدس .

وجند الاردن وقصبته مدينة طبرية .

واما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق ، وهي اعظم مدن الشام على الاطلاق وهي معروفة .

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهي مشهورة ، ويتبعها انطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين .

وجند قنسرين قصبته حلب وهي مشهورة الى اليوم ، وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها قنسرين وهي صغيرة ومعرة النعمان .

واما العواصم فيراد بها اعالي الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبتها انطاكية ، وهي تلي دمشق في النزاهة ، وكانت عاصمة الشام على عهد الروم ، وكان عليها سور ضخم للغاية قيل ان دوره للراكب يومين ومن مدن العواصم بالس على ضفة الفرات ومنبج في البرية .

أما الثغور فهي ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس في آسيا الصغرى ، ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور ، وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنه وطرسوس. وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم . والمراد بالثغور عندهم (اي عند المسلمين) المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ، ولذلك كان عندهم ثغور شامية اي الحدود مما يلي الشام وحدود جزرية أي الحدود مما يلي الجزيرة .

بحر الروم

ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له في غرضنا الآن .

الجزيرة

بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين ، يسمى القسم الشمالي منها الجزيرة والجنوبي العراق، والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار او هيت على الفرات. ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين في بعض المواضع . يحددها من الشمال ميافارقين وما يليها غرباً الى الفرات قرب ملطية ، ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ، ويحدها من الغرب الجنوبي بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال واذربيجان .

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق . ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة ، ليس في الجزيرة بلد فيها نخل مثلها ، ونصيبين وكانت أنزه بلد في الجزيرة ، ودارا وهي صغيرة ، ورأس عين مدينة مستوية الأرض في دار مضر ، وآمد في أعالي دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضاً ، ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفي أواسطها أيضاً حران وهي مدينة الصابئين ، والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم ايام السريان . وسروج مدينة خصبة كثيرة الاعناب .

وفي الجزيرة مفاوز يسكنها قبائـــل من ربيعة ومضر ، تقيم ربيعة في الشمال الشرقي ومضر في الجنوب الغربي وقد كانوا هناك قبل الاسلام. وهم أهل خيل وغنم وإبل على انهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة . وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان اكثر اهلها نصارى .

العراق

هو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره ، طوله من تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس في الجنوب ، وعرضه من قادسية الكوفة في الغرب الى حلوان في الشرق . ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقاً الى شهرزور ثم جنوباً شرقيـــاً الى حلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس الى عبادان ، ثم ينعطف الى البصرة ومنهـــا صعدا نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائحها الى الكوفة ، ثم على الفرات الى الانبار ومن الانبار شمالا الى تكريت . ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد . هـــذه حدود العراق في ابان التمدن الاسلامي ، وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً لأن مجاري الأنهر تغيرت ، وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر .

وأشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته ، وعاصمة المملكة الاسلامية في ابان مجدها ، بناها المنصور . والبصرة وهي مدينة عربية ، بنـــاها المسلمون في ايام عمر بن الخطاب ، وللبصرة بطائح سيأتي تاريخها في موضع آخر . وواسط مدينة عربية ايضاً بناهـــا الحجاج في وسط السواد . والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب. ومن مدن العراق النهروان شرقي دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن . وحلوان في آخر حدود العراق شرقـــاً ، وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة .

خوزستان

هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ، ومن الشرق فارس واصبهان ، ومن الغرب العراق ، ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينـــة الاهواز ، واليها تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز . وتقسم الى كور اولهـــا كورة الاهواز . ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم. وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها .

بلاد فارس

وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق ، ويحدها شمالا اصفهان وبادية خراسان ، ومن الجنوب والغرب بحر فارس . وتقسم بلاد فارس الى خمس كور اكبرها كورة اصطخر ، قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبتها جور ، وفيها ايضاً مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس بها دواوينها ودار الامارة . ثم كورة دارابجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ، ثم كورة سابور وهي أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون . ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الأكراد يزيدون على مئة حي يتعيشون بالمرعى والحرث في بقاع يقال لها رموم . ويقدرون تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠ر٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشتى والمصيف على مذاهب العرب . وقد يكون في البيت الواحد من الارباب والاجراء والرعاة نحو عشرة رجال ، فاذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الاكراد ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ رجل ، وباعتبار ما يلحقهم من النساء والاولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين .

كرمان

هي اكبر من فارس واقعة بين فارس في المغرب ومكران وسجستان في الشرق ، ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس ، واشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز .

مكران

هي شرقي كرمان والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند ، وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس ، وهي اكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك وراسك .

طوران

هي اصغر من فارس واقعة بين مكران في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب ، واشهر بلادها محالي وكيزكانان وقصدار .

السند

والسند آخر حدود مملكة الاسلام في الشرق واشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهنود

برهماناباذ ومنها الديبل على شاطىء البحر والملتان وغيرها . اما المنصورة فانها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة واهلها مسلمون . ويطلق الاصطخري على مكران وطوران والسند اسم السند .

ارمينية

هي في اعالي مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق اذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى) ومن الشمال جبـــال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها ديبل وفيها دار الامارة والنصارى بها كثيرون، ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميافارقين ، ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا .

اذربيجان

في شرقي الجزيرة يحدها من الغـــرب الجزيرة وارمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال . عاصمتها مدينة اردبيل وفيهـا العسكر ودار الامارة طولها ميلان في ميلين ، ويلي اردبيل في الكبر المراغة وكانت قبلا دار الامارة وتليها ارمية على شاطىء بحيرة الشراة . ومن مدنها سلماس ومرندوشيز .

بلاد الران

هي شمالي اذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب ارمينية ، ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب اذربيجان . اكبر مدنها مدينة برذعة ، ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها .

الجبال

يراد بالجبال جبال فارس وهي تقسم الى كور اشهرها ماه الكوفة وهي الدينور، وماه البصرة وتسمى نهاوند . ويحد الجبـــال من الشرق مفازة خراسان وفارس ، ومن الغرب العراق والجزيرة ، ومن الشمال اذربيجان والديلم والري وقزوين، ومن الجنوب خوزستان والعراق . وهي تشتمل على مدن مشهورة اعظمها همذان والدينور وماسبذان واصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان . مساحة همذان فرسخ في فرسخ وكان لها سور ابوابه من حديد . والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها. واصبهان

مدينتان بينهما ميلان. ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين. وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل على العراق . وشهرزور قريبة من العراق . وقزوين في اعالي فارس وهي ثغر بلاد الديلم . وقم مدينة عليها سور وهي خصبة . وقاشان مدينة صغيرة.

الديلم

هي جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدهـــا من الجنوب قزوين وبعض اذربيجان ، ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب اذربيجان . واهل الديلم صنفان : سكان الجبال وسكان السهول ، ومن توابعها الري وابهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان .

طبرستان

وهي تلي الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر ايضاً يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم . اكبر مدنها آمل وهي مركز الولاية وسارية وهي بلاد كثيرة الميـــاه ودماوند (او دنباوند) .

جرجان

هي شرقي طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر . اكبر مدنها مدينة جرجان وهي اكبر من آمل. ثم استراباد في الجنوب ودهستان على شاطىء البحر .

قومس

هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال . واما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ، ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبتها مدينة الدامغان .

مفازة خراسان

هي بادية واقعة في اواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ، ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال والري وهي اقل من بادية العرب سكاناً، وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملي فارس كورمان ، وهي وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها .

سجستان

هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند ، ومن الجنوب مكران ومن الشمال ارض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . اكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها .

خراسان

هي من اخصب بلاد المشرق واوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز في تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس . وتقسم خراسان الى كور اعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وباذغيس وكنج – رستاق ومرورروذ وجوزجان وطخارستان وزم وآمل .

عاصمة خراسان مدينه نيسابور وهي اعظم مدنها جميعاً وتسمى ايضاً ابو شهر ، واقعة في ارض سهلة ابنيتها من طين سعتها فرسخ في فرسخ. ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهي قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم .

ما وراء النهر

هي آخر بلاد الاسلام شمالاً شرقياً يحدهـا من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ، ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون، ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من اخصب اقاليم الاسلام وانزهها واكثرها خيراً . واشهر نواحيها بخارى وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش واشروسنة وخوجند .

خوارزم

ويعدها الاصطخري تابعة لما وراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحدق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب قصبته مدينة خوارزم .

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالي عصر المأمون ونسبة أقاليمها بعضها الى بعض ، تمهيداً لما سنذكره من جباية المملكة العباسية ، وهي تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس. ولم يكن كل اقليم منها قائماً بذاته يؤدي خراجه باسمه ،فان بعض هذهالاقاليم كان داخلاً في عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف الاعصر ، فربما ورد في قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ،ويكون المراد خراج اقليمين او اكثر مما دخل تحت سيطرة عامله ، اذ كثيراً ما كان الخلفاء يولون العامل عدة اقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها .

وقبل الشروع في ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة ، لا بد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم او الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج .

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا في كلامنا عن ولاية الاعمال في الجزء الاول انها كانت في بادىء الرأي اشبه بالاحتلال العسكري منها بالتملك . وكان العمال في عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم ، وواجباتهم مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج ، وظلت اعمال الحكومة في داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون اعمال الحكومة في البلاد موظفين من اهلها الاصليين ، فاذا اجتمع الخراج والجزية انفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه ناحيتهم من نفقات ، ودفعوا الباقي الى الحاكم المسلم ، وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه اصلاح الري من اقامة الجسور والسدود ويرسل الباقي الى بيت المال في عاصمة الخلافة .

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية في زمن الراشدين ، ولما افضى الامر الى بني أمية واضطر معاوية الى اكتساب الانصار زاد في نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم ، فازدادوا استقلالا في اعمالهم . ثم دعت الاحوال الى تمكين المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام ازمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم في أيام عبد الملك ومن جاء بعده — الا جباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين : القبط في مصر والدهاقين في

العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافي الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق ، وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية . واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقي [1] .

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . ويهمنا في هذا المقام تتبع العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر ان العمال زادوا استقلالا من هذا القبيل عما كانوا عليه في ايام بني أمية ، حتى آل الامر أخيراً الى تضمين الخراج اي تقبيله ، وهو ان يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة الى بيت المال في بغداد ، وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لايطالبه الخليفة إلا بالمال المضروب ، ويكون ذلك في امارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على افريقية ، وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠٠٠٠ دينار معونة له ، فلما تولاه ابن الأغلب تنازل عن هذا المال وبذل ان يحمل كل سنة ٤٠٠٠٠ دينار [2] وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانوناً قائماً ، فوجه بمولى له فوزع خراج الارض بأربعة وعشرين الف دينار [3] وكذلك فعل المأمون مع عبدالله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدراً معيناً سيأتي ذكره ، وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما تقبله عمران بن موسى من السند [4] ثم صار التوظيف المذكور ضماناً وتكاثر حتى آل الى استقلال الامراء بولاياتهم .

وجملة القول ان المال الذي كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلاني انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد اداء اعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الري وسائر الكلف [5] او بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة او جباية الدولة أي بمجموع صافي الدخل ، لا ينفق منه إلا على موظفي الدواوين ورجال الدولة في بغداد غير ما يأخذه الخليفة واهله مما سيأتي تفصيله . وقد صرح ابن خلدون في مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية في ايام المأمون بقوله : « ما يحمل الى بيت المال ببغداد في أيام المأمون من جميع النواحي نقلته عن جراب الدولة » [6]

---

١ – المقريزي ٧٧ ج ١ .
٢ – ابن الاثير ٦٣ ج ٦ . ٣ – اليعقوبي (كتاب البلدان) ١٣٣ .
٤ – ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ . ٥ – المقريزي ٩٧ ج ١ .
٦ – ابن خلدون ١٥٠ ج ١ .

فبالقياس على ما تقدم يعتبر كل مـــا يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انـــه صافي اموال الجباية .

جباية الدولة العباسية

في العصر الاول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية في ايام المأمون باعتبار مـا يرد من كل عمل في السنة . والتوفق الى ذلك نادر في تاريخ الاسلام لان القوم قلما يدونون غير حوادث الحرب والفتح والثورات وما الى ذلك .

اما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضاً ، وهي :

(١) **قائمة ابن خلدون** : هي اقدمها كلها ، وقد اوردها ابن خلدون في مقدمتـــه في عرض كلامه عن « ان آثار الدولة كلها نسبة قوتها في أصلها » ، وقال انه نقلها عن جراب الدولة ، وفيها مقدار الخراج الذي كان يرد على بيت المال في بغداد في ايام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالي الاعوام. وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون في مصر والشام ، فرأينـــا خطأ في اسماء بعض البلاد الواردة في تلك القائمة ، نظنه وقع من النساخ لتشابه في اشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمـة المذكورة ، لان الخطأ اللفظي المشار اليه يجر الى الخطأ المعنوي ، لوقوعه في اسماء البلاد او الاقاليم التي حمـــل الخراج منها ، وهاك اصلاحها :

١ — كنكر[١] : هي لفظة لا معنى لها في هذا المقام ، وصوابها « كسكر » ، وهـو اقليم من أقاليم السواد .

٢ — طبرستان والروبان ونهاوند[٢] ، فالروبان بالباء صوابها « الرويان » بالياء ، وهي من اقليم الديلم وقد ذكرناها في محلها ، ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال

---

١ — في السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠ .

٢ — في السطر ٢١ من الصفحة المذكورة .

كما تقدم . ونظراً لبعدها من طبرستان والرويان ، فالغالب ان يكون المراد بها بلداً آخر قريباً من هناك ، نظنها « دماوند » ، وهي من كور طبرستان .

٣ — ما بين الكوفة والبصرة[١] : لم نر في سائر القوائم ولا في غيرهـا من التقاويم كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الالماني ، ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفـة والبصرة ، دخلت في القوائم الاخرى باسم آخر[٢] . والصحيح على ما نرى ان النساخ أخطأوا في قراءتهم « ما بين » ، وصوابها « ماها » او « ماهين » : مثنى « ماه » ، فيكون المراد « ماها البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال ، قصبة الاولى نهاوند ، وقصبة الثانية الدينور كما تقـدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية .

٤ — ماسبذان والدينار[٣] : ماسبذان من كور الجبال ، تقدم ذكرها ، وامـا « الدينار » فلا مسمى لها في بلاد الاسلام ، وقد يتبادر الى الذهن انها تحريف « الدينور » قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وفقنا على اسم الماهين معاً في هذه القائمة ، فهي على الغالب مبدلة من « الريان » وهي كورة بقرب كسكر في العراق .

وهناك غلط نسخي في تعيين مقدار الخراج في بعض الاقاليم صوابه ظاهر ، مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم ، والعادة ان لا يدونوا في الديوان آحاد الدراهم[٤] فالغالب ان يكون صوابها وثمانماية الف درهم . وكذلك قوله في جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم ، والصواب ٢٥ الف الف درهم ، لأنها نحو ذلك في القائمتين الاخريين . وكقوله في طبعة بولاق عن خراج قومس « الف الف مرتين وخمسمائة الف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة الف » ، فيكون خراجها ٠٠٠ ٥٠٠ ١ درهم و ٠٠٠ ١ من نقر الفضة . وكقوله عن العسل الوارد من الموصل انـه ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ رطل والأقرب الى الصواب ان يكون ٠٠٠ ٢٠ رطل فقط . ومن هـذا القبيل خراج مصر ، فقد ورد هناك انه « الف الف الخ » ، والصواب على مـا نرى « الفا الف الخ » بالقياس على جبايتها في ذلك العصر . والخطأ انمـا وقع في النسخ لتشابه اللفظين خطاً .

---

١ — في السطر ٢٦ من تلك الصفحة .

٢ — Cult. gesch. des Orients 1.356

٣ - في السطر ٢٧ من تلك الصفحة .

٤ — الطبري ١٤٦٨ ج ٣ .

اما زمن هذه القائمة ، فقد عينه ابن خلدون صريحـــاً فقـــال انه في ايام المأمون ، ولكنه لم يعـين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ – ٢١٨ هـ ، وحساب بيت المـــال في بغداد احترق في الفتنة بين الأمين والمأمون ثم لم يدون الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ [١] فالقائمة المذكورة كتبت في ما بين ٢٠٤ و ٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عمـــا وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١و٢١٢ هـ ، فالارجح انها كتبت بين ٢٠٤و٢١٠ هـ .

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقاداً على تاريخ قائمة ابن خلدون ، خلاصته : انها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين ، بحيث تتصل بعصر المهدي او الهادي اي بين سنة ١٥٨ و ١٧٠ هـ ، ومن ادلته على ذلك « انه ورد فيهـــا ذكر خراج السند وافريقية وكانتا في ايام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ، ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » . والبارون فون كريمر لا يستخف برأيه في تاريخ الاسلام وتمدنه وآدابه ، لانه من اهل التحقيق والبحث ومن اكثر الالمان تمحيصاً للحقائق . ولكننا نراه واهماً في حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية :

اولاً : ان استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالهـــا عن الخلافة العباسية ، وقطع المال عنها . نعم ان افريقية استقل بها الأغالبة ، وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ – ٢٩٦ هـ ، ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالاً معيناً كما كان يفعل معظم الامراء المستقلين في مصر وخراسان وغيرهما . فانهم كانوا يخطبون لخليفة بغداد ويعتبرون انهم تابعون له دينياً فقط – كذلك كان شأن الدولة الطاهرية في خراسان ، والطولونية في مصر [٢] ، وكان بعضهم يقدم المـــال باسم الهدية ، والبعض الآخر باسم الخراج ، او الضمان او غيرهما . وزد على ذلك ان افريقية لم تكن تحمل مالاً الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ ، أي بعد ان تولاها ابراهيم بن الأغلب ، وهو الذي فرض على نفسه ٤٠٠٠٠ دينار . فلا يبعد ان يستمر الاغالبة على دفع مثل هـذا المال الى ايام المأمون . لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية مملكتهم كل ايام الاغالبة ، وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار ان الاغالبة تحت هؤلاء الولاة [٣] ويقال نحو ذلك في السند ، بل نرى في هذا شاهداً اقرب على صحة رواية ابن خلدون ، فأن المأمون نفسه استعمل على

١ – قدامة ٢٣٦ . ٢ – المقريزي ٣٢١ ج ١ . ٣ – ابن الاثير ٤٥ ج ٧ .

السند سنة ٢١٦ هـ عاملاً اسمه عمران بن موسى العتكي [١] على ان يحمل اليه منهـا مليون درهم بعد كل نفقة [٢] ويدل ذلك على سيادته عليها ، وان كان المال المذكور اقل كثيراً مما ذكره ابن خلدون ، اذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الازمنة . اما عدم ورود هذين البلدين في قائمتي قدامة وابن خرداذبة فقد يكون سببه عارضاً ، اما لانقطاع الخراج منها بعد قائمة ابن خلدون ، او لاسباب اخرى راجعة الى دخـول بعض الاقاليم في بعض او غير ذلك كما سيتضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب اقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ او الوهم ، وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص. وقد قال صريحاً ان هذه الجباية وردت على بيت المال في ايام المأمون .

ثانياً : ان ابن خلدون استحوذ على اوراق رسمية في ايام المأمون عن الدخل والخرج ، كان يرجع اليها في تحقيق ما يكتبه في هذا الشأن ونحوه [٣] .

ثالثاً : ان الديوان احترق في ايام الامين ، وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ ، واما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع .

فبناء على ذلك يترجح عندنا ان يكون الحق في جانب ابن خلدون ، وان يكون البارون فون كريمر واهما في اعتراضه وفوق كل ذي علم عليم .

(٢) **قائمة قدامة** : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه المسمى : « كتاب الخراج » ولم يصل الينـــا منه الا نتف طبعت في لايدن بعناية دي خويه المستشرق الهولندي الشهير ، وقد توفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ ، وكان ابوه نصرانياً واسلم في ايام المكتفي (من ٢٨٩ – ٢٩٥ هـ) وتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة العباسية ، والف كتباً كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر انه كتبه نحو سنة ٣١٦ هـ نقلاً عن اوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب ان ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ .

(٣) **قائمة ابن خرداذبة** : هو عبد الله بن خرداذبة ، وذكر صاحب الفهرست انه كان يتولى البريد في بلاد الجبـــال ، ويظهر انه كتب وهو في هذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة ، ويظن دي خويه ناشر هذا الكتاب ان ابن خرداذبة كتبه سنة ٢٣٢ هـ ، ثم اضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالي سنة ٢٥٠ هـ .

هذه هي القوائم الثلاث ، وفيها جباية الدولة العباسية في ابان ثروتها ، فلنوردها باعتبار قدمها . واقدمها قائمة ابن خلدون ، ثم قدامة ، ثم ابن خرداذبة :

---

١ – ابن الاثير ١٧١ ج ٦ .   ٢ – ابن خرداذبة ٥٧ .   ٣ – ابن خلدون ٣٢٩ ج .

١ ــ جباية الدولة العباسية

(في ايام المأمون ــ نقلاً عن ابن خلدون)

اسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	
كور دجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	وسكر ٠٠٠ ٣٠ رطل
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن ماء الورد ٠٠٠ ٣٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٠٠٠ ٢٠ رطل
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب و ٢٠،٠٠٠ رطل من التمر
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	و١٥٠ رطلا من العود الهندي
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و٤٠٠٠ برذون و١٠٠٠ رأس رقيق و٢٠٠٠٠ ثوب متاع و٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ شقة ابريسم
قومس	١ ٥٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٠٠٠ ١ نقرة
طبرستان والريان ودماوند	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٢٠٠ جامة
الري	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ٢٠ رطل عسل
المجموع	١٩٦ ٩٠٠ ٠٠٠	درهم

أسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
(مجموع ما قبله)	١٩٦ ٩٠٠ ٠٠٠	درهم
همدان	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ رطل من رب الرمانين و ٠٠٠ ١٢ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
شهر زور	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ٢٠ رطل من العسل الأبيض
اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ رأس من الرقيق و ٠٠٠ ١٢ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء
ارمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و٢٠ من القسط المحفور و ٥٣٠ رطلا من الرقم (ضرب من الوشي) و ٠٠٠ ١٠ رطل من المسايح السورماهي و ٠٠٠ ١٠ من الصونج (نوع من الأسماك البحرية) و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مهراً
برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
افريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	و ١٢٠ بساطاً
(المجموع)	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	درهم

والجهات التالية وردت جبايتها بالدنانير :

أسماء الاقاليم	من الدنانير	من الاموال والغلال
قنسرين	٤٠٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ١ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	
الأردن	٩٧ ٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ ٠٠٠	و ٠٠٠ ٣٠٠ رطل زيت
المجموع	١ ٢٢٧ ٠٠٠	درهم

اسماء الاقاليم	من الدنانير	من الاموال والغلال
(مجموع ما قبله)	١ ٢٢٧ ٠٠٠	درهم
مصر	٢ ٩٢٠ ٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ ٠٠٠	سوى المتاع (لما يذكر)
الحجاز	٣٠٠ ٠٠٠	
(المجموع)	٤ ٨١٧ ٠٠٠	دينار وتساوي ٠٠٠ ٢٥٥ ٧٢ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة قبله	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	
(الجملة)	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	درهم

وترى من النظر في هذه القائمة ان خراج اقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم ، وخراج اقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وأفريقية) وسترى نحو ذلك أيضاً في القائمتين الاخريين ، والسبب على ما يظهر ان مناجم الفضة كانت اكثر في اقاليم المشرق منها في المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب .

فمجموع جباية اقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨٫٦٠٠٫٠٠٠ درهم ، ومجموع خراج سائر اقاليم المغرب ٤٫٨١٧٫٠٠٠ دينار ، حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما ، وهو صرفه في ذلك العصر فبلغت ٧٢٫٢٥٥٫٠٠٠ درهم ، وباضافتها الى جباية اقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠٫٨٥٥٫٠٠٠ درهم .

ورأينا في ما نقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين في ما لدينا من النسخ — نظنه وجدهما في نسخة فون همر برجشتال المستشرق النمسوي . خراج الاولى ٣٠٠٫٠٠٠ درهم ، والثانية ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية او عدم صحتها .

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية في ايام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ما عدا الاموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته ، واذا اعدت النظر فيه رأيته شيئاً كثيراً . والعادة في تقدير الجباية ان تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ، ويضاف مبلغها الى مبالغ النقد كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الاصل من الحنطة، وكما سترى في تفصيل طساسيج السواد بقائمتي قدامة وابن خرداذبة .

وقد تقدم ان الجباية التي كانت ترد الى بيت المال في بغداد انما هي صوافي ما تحصل منها في الاقاليم ، بعد دفع اموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الري ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ، ولم يبق على هذا المال الا نفقات الدواوين في بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقد يرتاب القارىء في رواية ابن خلدون لبعدها عما هو مألوف عندنا من ميزانيات دول هذه الايام ، وما فيهن من يبقى في صندوقها معشار هذا المال — ولذلك فنأتي بالروايتين الاخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون .

٢ — جباية الدولة العباسية

(في ايام المعتصم — نقلاً عن قدامة بن جعفر)

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منها مفصلاً باعتبار طساسيج السواد ، اي نواحيه في الشرق والغرب .

طساسيج السواد في الجانب الغربي :

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
طسوج بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثي	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
(المجموع)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ما قبله)	٢٨٣٠٠	١٦٤٠٠	٢٦٠٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سوراو وبرنسيما	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والاسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلي	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيليحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد في الجانب الشرقي :			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الرذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
(المجموع)	٩٠٧٠٠	٩٣٠٠٠	٦١٧٨٨٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(مجموع ما قبله)	٩٠٧٠٠	٩٣٠٠٠	٦١٧٨٨٠٠
كلواذي ونهربين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجللتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
الذيبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٢٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البذنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج برز الروذ	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصلة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٣٥٦٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٫٦٠٠ كر حنطة، و ١٣٥٫٦٢١ كر شعير، و ٨٫٨٢١٫٨٠٠ درهم . على ان هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد ان اورد خراج كل ناحية بالتفصيل، كما تقدم، فقد قال في ايراد المجموع : « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة، من الحنطة ١٧٧٫٢٠٠ كر، ومن الشعير ٩٩٫٧٢١ كراً، ومن الورق ٨٫٠٩٥٫٨٠٠ درهم [1] ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الاعداد . على ان الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه . بقي علينا ان نحول الحنطة والشعير الى

١ — كتاب الخراج (طبعة ليدن) ٢٣٩ .

دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحولها باعتبـــار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً ، والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار ، فبلغ ذلك ٨٥٠ر٣٦١ر١٠٠ درهماً وقال ان صدقات البصرة ترتفع في السنة ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله بلغ ٦٥٠ر٤٥٧ر١١٤ درهماً على هذه الصورة .

٨٠٠ر٠٩٥ر٧	الدراهم المجموعة ورقاً
٨٥٠ر٣٦١ر١٠٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٠٠٠ر٠٠٠ر٦	صدقات البصرة
٦٥٠ر٤٥٧ر١١٤	درهماً

هذا هو ارتفاع السواد ، فلنتقدم الى ايراد جبايات سائر الاقاليم في المشرق والمغرب . وهي مع السواد :

اقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	آذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠
الاهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الري ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين وزنجان وابهر	١٨٢٨٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠	قردى وبذيدى	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠	ارزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
		(المجموع)	٣١١٥٨١٣٥٠

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	مصر والاسكندرية	٢٥٠٠٠٠٠
جند حمص	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
« دمشق	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
« الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
« فلسطين	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
		(المجموع)	٥١٠٢٠٠٠

وبتحويلها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً تساوي ٧٦ر٧١٠ر٠٠٠ درهم وباضافتها الى مجموع جباية اقاليم المشرق والجزيرة اعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨ر٢٩١ر٣٥٠ درهماً ، وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .

٣ ــ جباية الدولة العباسية

(في اواسط القرن الثالث للهجرة – على رواية ابن خرداذبة)

فصل ابن خرداذبة جباية اعمال السواد كما فصلها قدامة ، وزاد على ذلك عدد الشون والبيادر مما يطول بنا ايراده ، فنكتفي بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة ، وذلك عبارة عن ٦٣ر٤٠٠ كر حنطة ، و٩١ر٨٥٠ كر شعير ، و ٨ر٤٥٦ر٨٤٠ درهماً نقداً . وبتحويل الحنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكرين المقرونين ستين ديناراً ، والدينار ١٥ درهماً كما تقدم ، بلغت قيمتها ٦٩ر٨٦٢ر٥٠٠ درهم ، وباضافة ذلك الى الدراهم المجموعة نقداً تصير الجملة ٧٨ر٣١٩ر٣٤٠ درهماً .

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الاقاليم في الدولة الطاهرية ، وباعتبار ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ، ومقدار ذلك جملة ٤٤ر٨٤٦ر٠٠٠ درهم ، و ١٣ دابة للركوب ، و ٢٠٠٠ شاة من الغنم ، و ٢٠٠٠ رأس من السبي الغزية ما قيمته ٦٠٠ر٠٠٠ درهم ، ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوباً ، ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحوا من خمسين عملاً في جملتها الري ، وقومس ،

وجرجان ، وكرمان ، وسجستان ، ونيسابور ، وطخارستان ، والطالقان ، واعمال ما وراء النهر ، وفيها بخارى ، والصغد ، وغيرهما. وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة (اي هذا القدر من المال) . وقد اقتصرنا على اجمال ذلك خوف التطويل ، ومن اراد تفصيل جباية اعمال السواد واعمال خراسان فليراجعها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولنتقدم الى اتمام قائمته عن الاعمال الاخرى مع الاجمال الذي ذكرناه :

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المشرق	دراهم
السواد	٧٨٣١٩٣٤٠	قم	٢٠٠٠٠٠٠
خراسان وتوابعها	٤٤٨٤٦٠٠٠	الاهواز	٣٠٠٠٠٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠	فارس	٣٣٠٠٠٠٠٠
ماسبذان ومهرجان قذق	٣٥٠٠٠٠٠	قزوين	١٢٠٠٠٠٠
		(المجموع)	١٩٥٦١٥٣٤٠

أقاليم المشرق	دراهم	أقاليم المغرب	دنانير
(ما قبله)	١٩٥٦١٥٣٤٠	قنسرين والعواصم	٤٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٣٨٠٠٠٠٠	جند حمص	٣٤٠٠٠٠
اصبهان	٧٠٠٠٠٠٠	« دمشق	٤٠٠٠٠٠
ديار مضر	٥٦٠٠٠٠٠	« الأردن	٣٥٠٠٠٠
الموصل	٤٠٠٠٠٠٠	« فلسطين	٥٠٠٠٠٠
ديار ربيعة	٧٧٠٠٠٠٠	مصر	٢١٨٠٠٠٠
أرمينية	٤٠٠٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
(المجموع)	٢٢٧٧١٥٣٤٠	(المجموع)	٤٧٧٠٠٠٠

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١٫٥٥٠٫٠٠٠ درهم ، تضاف الى مجموع جباية قاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة :

درهم	
٢٢٧٫٧١٥٫٣٤٠	جباية اقاليم المشرق
٧١٫٥٥٠٫٠٠٠	جباية اقاليم المغرب
٢٩٩٫٢٦٥٫٣٤٠	الجملة

مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم ان ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه في ايام المأمون، ثم اخذ في التناقص بعده، ولم يظهر ذلك النقص الا بعد اواسط القرن الثالث للهجرة، لاسباب سيأتي بيانها . واما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيماً جداً ، كما تبين من القوائم الثلاث التي ذكرناها ، وهاك ملخص لها :

درهم	
٣٩٦٫١٥٥٫٠٠٠	جباية الدولة العباسيه في ايام المأمون بين سنة ٢٠٤ و٢١٠ ﻫ
٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠	جباية الدولة العباسية في ايام المعتصم او بعيده الى سنة ٢٢٥ .
٢٩٩٫٢٦٥٫٣٤٠	جباية الدولة العباسية في اواسط القرن الثالث [1]
١٫٠٨٣٫٧١١٫٦٩٠	الجملة

فترى من مقابلة هذه الارقام ان الفرق في الجباية ظهر حتى في النصف الاول من القرن الثالث ، وخصوصاً اذا اعتبرت ما اغفلناه من قائمة ابن خلدون من الامـــوال والامتعة والمحصولات وهي من جملة الخراج . فمعدل الوارد الى بيت المال في العام نحو ٣٦٠ مليون درهم ، وهي صوافي جباية الاعمال كما قدمنا ، مما لم نسمع بمثله في الدول قديماً ولاحديثاً — الا اذا اعتبرنا ما اورده بعضهم اجمالاً بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس . فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية ان جباية هذه الدولة ابان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، منها ١٣٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى) [1] ،وذكر ابن خرداذبة ان جباية مملكة الفرس في ايام كسرى برويز بلغت ٤٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مثقال،

١ — Gibbon's Roman Empire 1.110

او نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقـــام اعوزنا الاطلاع على طريقة الانفاق عندهم، اذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى. اما ماخلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جـداً . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها في ايام السلطان سليمان القانوني في اواسط القرن العاشر للهجرة ، ولم يزد ارتفاع جبايتها في ايامه على ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دوكات [١] او نحو ٢٫٨٤٣٫٧٥٠ جنيهاً مصرياً ، فأين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على اضعافه ؟ وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى في صندوقها كما سيأتي .

ولنتقدم الى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها الاموال .

نفقات الدولة العباسية

لم نر فيما كتبه المؤرخون القدمـــاء في العربية نصاً يتعلق بهذا الشأن ، ولا ندري اذا كانوا فعلوا ذلك عمداً او ضاع ما كتبوه في ثنيات الزمان . على ان مؤرخي المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامي او ما هو في معنـــاه ، كمقدار الدخل او الخرج وثروة المملكة وحال العلم ، او نظام الهيئة الاجتماعية غير ما جـاء عرضاً في اثناء ذكر الوقائع الحربية ، او وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون ، فقد اورد جباية الدولة في عرض الكلام عن بذخها في ابانها. واما قدامة وابن خرداذبة فقد ذكر مقدار الخراج في عرض الكلام عن طرق البريد. وقد ذكر الخراج ايضاً بعض اصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكن احداً منهم لم يذكر شيئاً عن الشؤون التي تنفق فيها الاموال المجموعة من الخراج في العصر الذي نحن في صدده .

على اننا بالقياس على ما عرفناه من احوال ذلك التمدن ، نرجح ان المال المشار اليه كان يوضع في بيت المال ، بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر ارباب المناصب في دواوين الحكومة في بغـداد ، والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كانت اعمالهم في الخارج مثل عمال البريد [٢] وغيرهم . وما بقي من اموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع في بيت المال تحت اجتهاد الخليفة [٣] .

---

١ — Porter's Conts, Hist. of Turkey, Ms.

٢ — ابن خرداذبة ١٥٣ . ٣ — الماوردي ١٧٩ .

اما مقدار ما كان ينفق على الجند المقيدين في الدواوين وغيرهم فمما لا يمكن القطع فيه ، لانه يختلف باختلاف العصور واحوال الخلفاء ، ولم نقف على شيء صريح في هذا الشأن في العصر العباسي الاول ولا في غيره .

على اننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشترطه احمد بن محمد الطائي على نفسه ان يقدمه من ضمانه الى بيت المال – وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩ هـ) [١] وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال ، وجملة ذلك ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة ، تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار ، تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباسية

في ايام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة

دينار في اليوم	
١٠٠٠	ارزاق اصحاب النوبة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجابيين والبصريين واصحاب المصاف بباب العامة وغيرهم والسودان واكثر مماليك الناصر .
١٠٠٠	ارزاق الغلمان الذين اعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) ويعرفون بالغلمان الخاصة .
١٥٠٠	ارزاق الفرسان من الأحرار المميزين
٦٠٠	ارزاق المختارين ، وهم جنود منتخبون من كل قيادة ، وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة
٤١٠٠	المجموع .

١ – Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

دينار في اليوم	
٤١٠٠	(مجموع ما قبله)
٥٠٠	ارزاق المثبتين في ايام الناصر
١١٠	ارزاق سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار ، والرسائل الخاصة ، والقراء ، واصحاب الاخبار ، والمؤذنين ، والمنجمين ، والفنجاميين ، واصحاب الاعلام ، والبوقيين ، والمضحكين ، والطالبين ، وغيرهم
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة في مدينة السلام ، وغيرها
٣٠٠	اثمان انزال المماليك ، وغيرهم
١٣٣٠	نفقات المطابخ الخاصة والعامة ، والمخابز ، وانزال الحرم ، والحشم ، ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة ، وآلاته ، ونفقات خزائن الكسوة ، والخلع ، والطيب ، وحوائج الوضوء ، وخزائن السلاح ، والفرش الخ
٤	ارزاق السقائين بالقرب في القصر ، والخزائن ، والمخابز ، والدور ، والحجر ، والخدم ، الخ
١٦٧	ارزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك ، دون الاكابر الاحرار ، ومن اضيف اليهم من الحشم القدماء
١٠٠	ارزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة ، وخزائن الكسوة ، والصناع من الصاغة ، والخياطين ، والعقادين ، والاساكفة ، والحدادين ، والرفائين ، والمطرزين ، والنجادين ، والوراقين ، والعطارين ، والمشهرين ، والنجارين ، والخراطين ، والاسفاطيين ، وغيرهم الخ
١٠٠	ارزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة
٦٦٠ ٢/٣	ما يصرف من ثمن الكراع ، والابل والخيل الخ
٦٣٣١	(المجموع)

دينار في اليوم	
٦٣٣١	(مجموع ما قبله)
٣٠	ارزاق المطبخيين
٣٠	» الفراشين ، والحلبيين ، وخزان الفرش ، والحمالين
	» اصحاب الركاب ، والجنائب ، والسروج ، ومن يخدم في دواب البريد
٤٤	» الجلساء ، واكابر الملهين ، ومن يجري مجراهم
٢٣ ١/٣	» جماعة من المتطببين ، وتلامذتهم الخ
٧٠	» اصحاب الصيد من البازياريين، والفهادين، والكلابزريين وغيرهم.
١٦ ٢/٣	» الملاحين في الطيارات ، والشذات ، والحراقات ، وغيرها من السفن
٤	ثمن النفط والمشاقة للنفاطات ، والمشاعل واجرة الرجال لخدمتها
١٥	الصدقة التي تحضر كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء
٣٣ ١/٣	جاري اولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	» » الواثق
١٦ ٢/٣	» » الناصر
٢٠	ارزاق مشائخ بني هاشم ، واصحاب المراتب ، والخطباء في المساجد
٣٣ ١/٣	ارزاق جمهور بني هاشم من العباسيين ، والطالبيين
٣٣ ١/٣	جاري عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (في الشهر) برسم العرض
٦٧٢٣ ٢/٣	(المجموع)

دينار في اليوم	
٦٧٢٣ ٢/٣	(مجموع ما قبله)
١٥٦ ٢/٣	ارزاق اكابر الكتاب ، واصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين والمديرين ، والاعوان ، وسائر من في الدواوين ، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد – سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم ، وأعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخذون ارزاقهم بما يوفرونه من اموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم
١٦ ٢/٣	جاري اسحق بن ابراهيم القاضي ، وخليفته يوسف بن يعقوب والد ابي عمر ، واولادهما ، وعشرة نفر من الفقهاء .
٥٠	نفقات السجون ، وثمن اقوات المحبسين
٣ ١/٣	جاري المؤذنين في المسجدين ، والمكبرين ، والقوام ، والائمة ، وثمن الزيت للمصابيح ، والحصر ، والبواري ، والماء ، وثمن الستار للصيف ، والجلبات والخزف ، والعمارة في شهر رمضان
١٩	نفقات الجسرين ، وثمن ما يبدل من سفنهما ، وارزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي ، ولم يكن يومئذ غيره ، وارزاق المتطببين والمانين والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين ، والجنازين ، وغيرهم ، واثمان الطعام والادوية والاشربة .
٦٩٧٤	الجملة

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار ، وذلك نفقات الدولة العباسية في اليوم الواحد من ايام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ، ومجموع ذلك في السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها في ايام المأمون والمعتصم نحو ذلك – وهي في اعتقادنا يجب ان تكون اقل من ذلك بالنظر الى تكاثر الغلمان والمماليك في اواخر القرن الثالث عما كان في اوائله – فاذا فرضنا النفقات واحدة في ايام المأمون والمعتضد ، وحولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً على الاكثر ، بلغ ذلك ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاذا اسقطناها من معدل الجباية الذي ذكرناه وهو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، كان الباقي ٣١٠٠٠٠٠٠٠

درهم ، او قل ٣٠٠ مليون فقط . فالدولة التي يبقى في بيت مالها هـذا المبلغ العظيم كل سنة تعد في معظم الثروة ، لأننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى في صندوقهـا نصف هذا المال ، او ربعه ، او عشره ، الا ما قدمناه عن دولتي الروم والفرس.

وزد على ذلك ان هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية ، لأنها عبارة عن خراج ما ضمنه الطائي من البلاد ، و هي سقي الفرات ، ودجلة ، وجوخي ، وواسط ، وكسكر ، وطساسيج نهربوق ، والذيبين ، وكلواذي ، ونهربين ، والرذانين وطريق خراسان، وكلها من العراق ، وهي بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة — فلا مشاحة في ان نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض اعمالها .

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكي ينجلي لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث ، يجب ان نحولها الى نقود هذه الايام . وقد تقدم ان الدينار كان صرفه في النصف الاول من القرن الثالث ١٥ درهماً ، فمقدار هذه الثروة بالدنانير ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ويقدرون الدينار بنقود هذه الايام بنصف جنيه ، فيكون مجموع البـاقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين من الجنيهات .

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات ، او ما يستخدم به من الرجال ، فصاحب الف جنيه في بلاد يباع فيها اردب الحنطة بخمسين قرشاً، يعد بمنزلة صاحب الفين في بلاد يباع فيها الاردب بمائة قرش .

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور ، فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا في اوائل القرن الماضي من الاغنياء . لأن حاجيات الحياة كانت رخيصة جداً ، ثم اخذت اثمانها تتصاعد بتكاثر الناس ، وتفننهم في طرق المعائش ، ولأسباب اخرى ، حتى اصبح هذا المبلغ مما ينفقه اواسط الناس في شهر واحـد . وقد لاحظنا فرقاً واضحاً في سعر الذهب في الاعوام الاخيرة بمصر، يجدر بالحكومة ان تتنبه له وتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها — وذلك انه بالنظر الى تصاعد اثمان المآكل واجور المساكن ، زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة اعوام او ستة ، فالموظف الذي كان ينفق على

عائلته الف قرش في الشهر مثلاً اصبح لا يكفيه اقل من ١٢٥٠ او ١٣٠٠ قرش، والراتب الذي كان يتقاضاه لا يزال واحداً، ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب – فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي ان تزداد رواتبهم كلما غلا السعر .

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام ، يجب ان نقابل بين اثمان المحصولات يومئذ واثمانها اليوم واجور العمال في العصرين . وقد رأيت فيما تقدم ان ثمن الكر من الحنطة والشعير في ايام قدامة [1] ثلاثون ديناراً ، والكر العراقي اربعون اردباً[2]، والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه ، فالاربعون اردباً بأربعين جنيهاً او ثمانين ديناراً اي نحو ثلاثة امثاله في تلك الايام .

وكانت اجرة الاستاذ البناء في ايام المنصور قيراط فضة ، والروزكاري (الفاعل) حبتين [3] والقيراط في العراق جزء من عشرين من الدينار [4] والحبة جزء من ستين منه فكأن اجرة الاستاذ بنقود هذه الايام ثلاثة ارباع الدرهم اي نحو ثلاثة قروش . وأجرة الفاعل قرش، وذلك نحو ثلث اجرته اليوم (سنة ١٩٠٣) او ربعها. فالنقود في ايام العباسيين كانت تساوي ثلاثة اضعاف ما تساويه اليوم على الاقل . فالباقي في بيت مال العباسيين في السنة يساوي ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الايام ، وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده ، يستخدمها في الجهات التي يريدها او تتراءى له فيها مصلحة للدولة – فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلاني أعطى شاعراً مائة الف درهم او عشرة آلاف دينار ، ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمائة الف جنيه ، والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه او مليون ؟ وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش .

وليس في دول هذه الايام (١٩٠٣) ما يزيد الباقي في صندوقها على مليون واحد إلا نادراً ، مع ان مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه في ايام العباسيين . خذ انجلترا مثلاً ، وهي من اعظم الدول الآن، فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه منها :

---

١ – قدامة ٢٣٩ . ٢ – محيط المحيط .
٣ – ابن الأثير ٢٧٢ ج ٥ . ٤ – محيط المحيط .

جنيـه	
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاي .
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها .
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد .
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد .
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف .
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع للعقود ونحوها .
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع) .

فترى من هذا المجموع ان نحو اربعة اخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر في صدر الدولة العباسية .

ويغلب في نفقات الدولة الحديثة ان تساوي دخلها او يبقى لها باق قليل جداً يندر ان يزيد على مليون جنيه ، وكثيراً ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها ، لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها ، كما حدث لانجلترا في الاعوام الاخيرة اثناء حربها في جنوبي افريقيا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور — فما هو السبب في الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ لا يتضح لنا ذلك إلا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية فنقول :

اسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية ان مثل هذه الثروة لا يتأتى إلا اذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقي من اسقاط الخرج وهي سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ، ونبين اسباب كثرة الاولى وقلة الثانية .

مصادر الجباية

كانت الجباية في اوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ، ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح على نفسه من نصارى جزيرة العرب ويهودها. وتوفي النبي (صلعم) ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح في الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة ، وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على ذلك في أيام بني أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف في تحصيلها كما تقدم . ومما وضعوه في ايامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان في اثناء ولايته أرمينيا سنة ٧٢ هـ (١) ونظنهم وضعوا ايضاً اعشار السفن وهي العشور التي تؤخذ من المراكب المارة في البحار . واخماس المناجم التي تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجبـــاية تزداد وتتفرع حتى أصبحت في أيام العباسيين عديدة ترجع الى احد عشر وهي :

---

١ – ابن الاثير ١٩٦ ج ٤ .

(١) الصدقة او الزكاة	(٧) أخماس المعادن (أي المناجم)
(٢) الجزية	(٨) المراصد (الجمارك)
(٣) الخراج	(٩) غلة دار الضرب
(٤) المكوس (الفردة)	(١٠) المستغلات
(٥) الملاحات والأسماك .	(١١) ضرائب الصناعة وغيرها .
(٦) أعشار السفن	

على ان العمدة في زيادة الثروة انما هي على الخراج، حتى انهم سموا مجموع الجباية خراجاً باطلاق البعض على الكل. فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جباياتها من كل الضرائب. وعليه فلنبحث أولا في الخراج وسبب كثرته في العصر العباسي الاول ، ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار .

اسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ، ولكثرته في الدولة العباسية أسباب اهمها اربعة ، وهي :

١ ــ سعة المملكة العباسية

لما كان المعول في مقدار الجباية على الخراج ، فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة ارضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية في العصر العباسي الاول كانت عظيمة الاتساع جداً ، بل هي اوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً اذا اعتبرنا اسبانيا منها) إلا مملكة الاسكندر فربما قاربتها .

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها انما يعرف من مساحات الممالك التي قامت مقامها اليوم ، وهي :

مساحة المملكة العباسية

في القرن الثالث للهجرة

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها سنة ١٩٠٣	مساحتها بالاميال
إيران كلها	شاه العجم	٦٢٨٠٠٠
أفغانستان	مستقلة	٢١٥٠٠٠
بلوجستان	انجلترا	١٣٠٠٠٠
السند	انجلترا	٤٨٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧٠٠٠
بلاد القوقاز (تفليس)	روسيا	١٥٣٠٠
أرمينية وكردستان	تركيا	٧٢٥٠٠
العراق الجزيرة	تركيا	١٠٠٢٠٥
سوريا فلسطين	تركيا	١٠٩٥٠٩
جزيرة العرب (منها)	تركيا	٢٠٠٠٠٠
القطر المصري	تركيا	٤٠٠٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠٠٠٠
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١٠٠٠
مراكش	مستقلة	٢١٩٠٠٠
	(المجموع)	٣٣٢٨٠١٤

فمجموع مساحة هذه المملكة ٣٫٣٢٨٫٠١٤ ميلا مربعاً ، وذلك نحو مساحة اوروبا كلها . فخراج ممالك اوروبا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم ، فاعتبر عدد تلك

الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول في جبايتها على الخراج لما استقام امرها ، وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والجمارك كما تقدم .

على ان سعة المملكة العباسية لا تكفي وحدها لتعليل ثروتها ، لأن المملكة العثمانية بلغت من السعة في ايام السلطان سليمان القانوني ما يقرب من سعة مملكة بني العباس ، ومع ذلك فان الجباية في ايامه لم تزد على ٢٫٨٤٣٫٧٥٠ جنيهاً مصرياً كما رأيت ، وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس بالزراعة وثقل الضرائب وخصب الأرض وغير ذلك .

٢ ـ اشتغال الناس بالزراعة

قلنا في كلامنا عن بيت المال في عصر الامويين ان عمالهم كانوا يسيئون الى اصحاب الخراج من الرعايا ، بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها ، فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الارض ، وزادها اهمالا انتشاب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ، ونقم الناس على حكومتهم وابطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها ، فاصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال(١) وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ، ونشروا لواء العدل ، واحسنوا معاملة اهل الذمة والموالي ، وأمنوهم على حقوقهم واموالهم وأرواحهم ، عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره .

وكان للخلفاء الاولين من بني العباس عناية كبرى بتأييد الامن وتعمير البلاد ، ورعاية اهلها من الذميين والموالي . فالمنصور كان يتتبع العمال الظالمين ويأخذ أموالهم ، ويستبدل بهم سواهم ويضع ما يأخذه من أموالهم في بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم(٢) وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضاً ، ويبحث عن كل ما يقضي به القضاة او يعمل به الولاة ، وعما يرد الى بيت المال وعن كل ما يحدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب ،واذا شك في شيء مما قضى بهالقاضي سألهووبخه(٣) ، وبعد ان كان الموالي كالارقاء في ايام بني امية اصبحوا في ايام العباسيين هم اهل الدولة

١ ـ الفخري ١٥٧ .
٢ ـ ابن الاثير ١٣ ج ٦ .
٣ ـ الطبري ٤٣٥ ج ٣ .

وحماة الخلافة ، يوصي الخلفاء بعضهم بعضاً برعايتهم وخصوصاً آل خراسان ، فقد اوصى المنصور ابنه المهدي قائلا : « انظر الى مواليك ، فأحسن اليهم وقربهم ، واستكثر منهم ، فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك ، وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك » (١) . وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره في النظر في الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية والتلطف معهم مما يؤدي الى اطمئنانهم وهدوئهم . ومن وصاياه لابنه المذكور : « يا بني لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل » .

وادلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدي يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته واهله. واخبار الرشيد في العدل اكثر من أن تحصى ، وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك انه كان قد حبس ابا العتاهية وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول ، فرأوه يوماً قد كتب على الحائط :

اما والله ان الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد، فبكى واحضره واستحله واعطاه الف دينار. وله مع ابي العتاهية حديث اغرب من هذا ، وهو ان الرشيد اولم وليمة ووضع طعاماً ، وطلب الى ابي العتاهية ان يصف ما هم فيه من النعيم ، فقال :

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت ... لدى الرواح وفي البكور
فاذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ... ما كنت الا في غرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : « بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته » فقال الرشيد : « دعه . رآنا في عمى فكره ان يزيدنا » (٢) .

وامثلة ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لا يستوعبه كتاب . فكيف لا يستتب الامن في ظل هؤلاء ؟ ولماذا لا تخصب الزراعة وتتسع التجارة في حمايتهم ؟ وكيف

---

١ - ابن الاثير ٨ ج ٦ . ٢ - ابن الاثير ٨٨ ج ٦ .

لايتقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك في خدمتهم ؟ وكيف لا تعمر البلاد في ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران الا في ظله ولا حياة الا به ؟ ولا يتم عزالسلطان الا بالعدل ، اذ لا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل [١] والعدل اساس الملك .

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية ، أن الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم في تعمير ما تركه الامويون خراباً من الضياع والمزارع ، بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها [٢] فضلاً عما كانوا يبذلونه من العناية في شق الانهر وانشاء السدود وغيرها مما يسهل الري .

السواد

فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها ، وخصوصاً السواد (او العراق) ، فانه من اخصب بقاع الارض، واذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية من ايام الفرس ، فقد جباه قباذ بن فيروز ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٣] وجباه كسرى بن قباذ ٢٨٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٤] وجباه غيرهما من ملوك الفرس ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، سوى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من الوضائع لموائد الاكاسرة [٥] — كانوا يجبون ذلك على غير ظلم ولا عسف ، ولكنهم كانوا يعتنون فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور، ووادي الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادي النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه ، وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب ويفيضان في الشتاء ، والنيل يجري من الجنوب الى الشمال ويفيض في الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى إصلاح ما تخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء .

وكان ماء دجلة يجري قديماً غير مجراه اليوم . اي انه كان يجري مثل مجراه اليوم من بغداد جنوباً الى المدائن فالدير فالعاقول فجرجرايا فجابول الى ماذرايا ، ومن هناك ينعطف غرباً حتى يسير سيراً عمودياً الى فم الصلح فواسط ، حتى يصب في البطائح حيث يلتقي بالفرات ومنها الى دجلة العوراء بقرب البصرة ، ومنها الى خليج فارس قرب عبادان ،

---

١ — ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ .   ٢ — الفخري ١٥٧ .
٣ — ابن خرداذبة ١٤ .   ٤ — الماوردي ١٦٥ .   ٥ — ابن الفقيه ٢٠٥ .

ثم يجري بعد ذلك من ماذرايا شرقاً ، ثم ينعطف جنوباً شرقياً على ما هو عليه اليوم. وكان الفرات فرعين : احدهما بجانب الكوفة والآخر شرقيها ، وكلاهما يصب في البطائح .

البطائح

والبطائح مستنقعات او ارض كان يغمرها الماء في اسفل العراق بين البصرة والكوفة ، وسببها ان دجلة انبثق في ايام قباذ بثقاً كبيراً بقرب كسكر ، فأغفل امره حتى غلب ماؤه واغرق كثيراً من الارض العامرة كانت تليه وتقرب منه. فلما ولى انوشروان العادل الشهير امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات (اي اقام الجسور على جانبي المجرى القديم) حتى عاد بعض تلك الارض الى العمارة ، ثم خلفه ابنه برويز ، وفي ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (في السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبثقت بثوق كبار ، فجهد برويز ان يسكرها حتى ضرب اربعين سكراً في يوم واحد فلم يقدر على رد الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب ، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها احد ويعجز الدهاقين عن سدها ، فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت [١] ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيراً فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم في خلافة معاوية بن ابي سفيان [٢] لكنهم قلما عنوا باصلاحها والانتفاع بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الري . وفي ايامه انبثقت بثوق اخرى وكبرت البطائح ، فكتب الى الخليفة الوليد ابن عبد الملك يخبرها وانه قدر للنفقة على سدها ٣٠٠٠٠٠٠ درهم، فاستكثرها الوليد ، فقال له اخوه مسلمة بن عبد الملك : « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الارض المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فحصلت للوليد ارض وطساسيج كثيرة، فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة (اي عمال الارض) والمزارعين وعمر تلك الارض . واستخرج للوليد ايضاً من البطائح ثم لهشام بعده مالاً كثيراً ، ثم جرى الناس على ذلك الى اواخر بني امية [٣] .

ولما افضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم ، جعلوا همهم احياء ارضه باحتفار الانهر وانشاء الجسور، حتى تشابكت الترع في السواد، واصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز ، تخترق اليه انهار من الفرات [٤] ، وقس على ذلك سائر

١ – قدامة ٢٤٠ . ٢ – الماوردي ١٧١ .
٣ – قدامة ٢٤١ . ٤ – الاصطخري ٨٣ .

انحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا في ايام العباسيين لارتياح الناس الى العمل ورغبة الخلفاء في تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك .

خراسان

ومن البلاد التي زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان ، فقد كانت ارضاً خصبة بالاضافة الى سعتها ، ورغبة اهلها في نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، اذا اضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بني العباس في ابان دولتهم مبذولة في هذين البلدين وفي الحجاز . وكان يقال : اما العراق فللمال ، واما خراسان فللمال والرجال ، واما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان في ذلك الوقت مما لاريب فيه — قال المقدسي في عرض كلامه عن مدائن العراق ، وقد اطنب في عمرانها : « فهذه مدن بغداد ، وبخراسان قرى كثيرة اجل من اكثر هذه المدن » (١) وكثيراً ما كان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها (٢) .

ويدخل في ولاية خراسان بلاد ما وراء النهر ، وهي كثيرة الخصب جداً — قال ابن حوقل : « ولم ار ولم اسمع في الاسلام بظاهر بلد احسن من ظاهر بلد بخارى ، لانك اذا علوت قندهار لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء قبة زرقاء على بساط اخضر ، تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية او كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من اراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » قال : « والمشار اليه من متنزهات الارض صغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » (٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية في ذلك العصر الزاهر .

مصر

ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية ، فان العدالة توطد دعائم الامن ، واذا امن الناس على ارواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل ، فتعمر البلاد ويرفه اهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها ، فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامي نحو ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس على ما اجمع عليه مؤرخو العرب ، ويستبعد اهل

---

١ — المقدسي ١٢٢ .   ٢ — اليعقوبي ٥٥ ج ٢ .   ٣ — ابن حوقل ٣٤٥ .

زماننا امكان هذا . واكثر منهم استغراباً اهل اوائل القرن الماضي ، فقد ذكر الدكتور كلوت (بك) تقدير العرب لسكان وادي النيل انه عشرون مليوناً ، وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتمل ان يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » (١) وقد رأينا اليوم انه زاد على نصفه ، ولا يزال آخذاً في الزيادة .

اما كلوت (بك) فانه اعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس فقط ، على انه لما ذكر هذا الاحصاء اظهر اعجابه بزيادة سكان وادي النيل في عهد محمد علي عما كانوا عليه في ايام المماليك .

اما في ايام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد على مليون فدان وبعض المليون ، بالنظر الى ما كان يقاسيه المصريون من استبداد الامراء المماليك . فلما استقرت الاحوال في العصر الحديث تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة ، حتى بلغت الآن ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهم آخذون في الزيادة . وبالطبع ان مقدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان ، وهما لا يكونان الا في ظل العدل الصحيح — اعتبر ذلك في جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى انها تمشت على هذه القاعدة تماماً :

كانت جباية مصر في زمن الراشدين اعلى ما بلغت اليه في الاسلام . فقد جباها عمرو ابن العاص في زمن عمر بن الخطاب ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ومساحة الارض للزراعة على تقديرهم ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان . وجباها عبد الله بن سعد في ايام عثمان ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ولكنه استعمل العنف في تحصيلها (٢) . فلما كانت ايام بني امية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ، ولم تزد في ايامهم على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار الا في ايام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، لانه بذل الجهد في تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيراً لبعد مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ما كانت عليه في ايام بني امية . ولما اخذت الدولة العباسية في التقهقر زاد انحطاط الجباية في مصر حتى اصبح في بعض سني القرن الثالث للهجرة ٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت

---

١ — Aperçu gén. sur l'Egypte 1.165 ٢ — ابن حوقل ٨٨ .

جبايتها في ايامه ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار مع رخاء الاسعار ، وكان القمح كل عشرة ارادب بدينار [١] فلما انقضت دولة بني طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ هـ جباها جوهر القائد ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] لكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الجباية فانحطت وارتقت تبعاً لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه .

وآخر عهدنا بانحطاطها على ايام الامراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر ، كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جداً مع كثرة الضرائب والتشديد في تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) م :

الوارد

ميدة أو نصف	
٨٠٤٦٠٠٦٨	مال الميري على القرى والأوقاف
١٠٨٧٠٧٧٣	« « « الايراد
٢٢٨١١٨٠٥	« « « الصنائع والمأكولات
٢٥٠٩٠٨١	« « « على الرؤوس
١١٦٦٥١٧٢٧	

الخارج

ميدة أو نصف	
٢٩٣٩٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩٧٧٢٦٥٧	« الجند
٢٦٠٣٥٨٥	« مختلفة
٨٤٣٨٩٩٤	« العلماء والتعليم ووقفيات
١٣٨٩٢١٣٩	« رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢٠٧١٦٥٤	« الحج

٩٩٨٦٨٢٧٦	مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد أعلاه
١٦٧٧٣٤٥١	الباقي

١ — المقريزي ٩٩ ج ١ . ٢ — ابن حوقل ١٠٨ .

والباقي المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة ، وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة . ولما تمرد حكام مصر ، حاول بعضهم اسقاطها ، والبعض الآخر تخفيضها ، ثم انتهت اخيراً الى ان يقتطعوا منها ٩٫٢٨٣٫٤٥١ نصفاً في مقابل نفقات فوق العادة على هذه الصورة :

	ميدة أو نصف
ترميم قلاع القاهرة	٣٠٠٠٠٠٠
« « سائر القطر	١٥٠٠٠٠٠
أثمان سكر وخلافه	٢٠٠٠٠٠٠
نفقات أخرى يأمر بها شيخ البلد	٢٧٨٣٤٥١
الجملة	٩٢٨٣٤٥١

فاذا اسقط هذا المال من الخزنة المذكورة كان الباقي ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ ميدة [١]

وخلاصة ما يهمنا في هذا المقام ، ان مجموع الايراد في عصر المماليك بلغ ١١٦٫٦٥١٫٧٢٧ نصفاً ، او ميدة ، والميدة في تلك الايام كانت تساوي أربعة سنتيمات تقريباً[٢] او كل ٢٨ نصفاً تساوي ٤ قروش ، و٣٧٥ من الف من القرش . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالقروش نحو ١٨٫١٥٦٫٢٥٠ قرشاً . غير ان قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم ، وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات ، فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضاني سبعة انصاف وثمن أردب القمح ٢٤٠ نصفاً[٣] فاذا قسنا ذلك بأثمانها في هذه الايام رأينا الميدة او النصف يقابل نصف القرش المصري تقريباً . فتكون جباية مصر في عصر المماليك تساوي نحو ٥٨٫٠٠٠٫٠٠٠ قرش مصري او ٥٨٠٫٠٠٠ جنيه ، فلما تولتها العائلة الخديوية ، اخذت جبايتها في الزيادة حتى بلغت في العام الماضي (١٩٠٧) ١١٫٨٥٠٫٠٠٠ جنيه ، أي أكثر من عشرين مرة من جبايتها في ايام المماليك ، والتربة واحدة ، والنيل واحد ، والفصول على حالها .

---

١ – Descrip. d'Egypte XII

٢ – الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠ .

٣ – الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠ .

٣ ــ ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الأرض في المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد ، فبعضها بالمساحة ، أي أن يضربوا على المساحة المعلومة من الأرض مالاً معيناً في العام، سواء زرعت تلك الارض ام لم تزرع ، والبعض الآخر بالمقاسمة ، اي ان يكون الخراج جزءاً من حاصل الأرض بعد زرعها واستغلالها فما لم يزرع لا يطالب بخراجه وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتي بيانها . ولما كان السواد (او العراق) اهم أقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به .

السواد

كان السواد لما فتحه المسلمون يجبى بالمساحة باعتبار « الجريب »، وهو قطعة من الأرض مساحتها ستون ذراعاً في ستين أي ٣٦٠٠ ذراع مربع ، فكل ما كانت مساحته جريباً كان الفرس يأخذون عليه قفيزاً (أي محصول قفيز من الارض عيناً) ودرهماً[١] . والقفيز عشر الجريب (أي ٣٦٠ ذراعاً بلدياً مربعاً . وهم يقولون القفيز ويريدون غلته . اي انهم كانوا يأخذون عشر المحصول كله عيناً، لأن القفيز عشر الجريب وزيادة على ذلك درهماً نقداً عن الجريب) ويعبرون عن القفيز وزنا بثمانية أرطال، ويقدرون قيمته ثلاثة دراهم[٢] وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة في الجاهلية ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

تغل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهماً ، يؤخذ عليه أربعة دراهم اي نحو ١٣ وثلث في المئة ، وهو خراج خفيف جداً — لولا ان كثيراً من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع اصحابها الخراج عنها .

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب ، وعلم بما كان الفرس يجبونه ، أمر بمساحته فمسحوه وعدلوه باعتبار نوع الغرس . وخلاصة ذلك : انه ابقى الخراج على الحنطة كما كان في ايام الفرس ، أي على الجريب قفيز ودرهم او أربعة دراهم . وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ، ومن النخيل ثمانية دراهم ، ومن القصب ستة دراهم ، والرطبة

١ — الماوردي ١٦٥ . ٢ — الماوردي ١٤١ .

خمسة دراهم، وعلى الشعير درهمين، وعلى الرأس من الناس ١٢ درهماً او ٢٤ او ٤٨ درهماً، واخرج من ذلك النساء والصبيان [١] وكان العمال يجبون السواد لعمر ١٢،٠٠٠،٠٠٠ درهم باعتبار انه ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ جريب ، وظل السواد في أيام الراشدين عامراً وأكثره مزروعاً . فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان ، واشتغل المسلمون بالحروب الى ايام بني أمية، واستصفاء الاموال في ايام معاوية والحجاج وغيرهما ، اشتغل اهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك فان الحجاج جباه نحو جبايته في ايام عمر ، ولا بد انه استخدم العسف والشدة في ذلك ، لأن صاحب الأرض كان يطالب بالخراج عن ارض لم يزرعها ، فاذا لم يؤد ما عليها ظل عليه الخراج ديناً عاماً بعد عام، فيتراكم ذلك على اصحاب الأرض وهم يزدادون ضنكا ، فخربت البلاد وهجرها أهلها ، وجرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر اصحاب الأرض الى الألجاء كما سيأتي. ناهيك بما كان في نفوس اهل السواد وغيرهم من كره بني أمية ، لتعصبهم للعرب ، واحتقارهم لغير العرب ولو كانوا مسلمين.

فلما افضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ ، وجهوا عنايتهم الى السواد ، بنوع خاص ، واول من فعل ذلك منهم المنصور ، فانه نظر في السواد فاذا هو يكاد يكون خراباً للاسباب التي قدمناها ، فرأى ان من الظلم استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ، فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما اكثر غلات العراق) اي ان يؤخذ خراج الأرض من غلتها اذا زرعت ، فاذا لم تزرع لا يؤخذ منها شيء ، وابقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة[٢] ، ولا ندري كم جعل حصة بيت المال من المقاسمة المذكورة ، ولكننا نعلم ان ابنه المهدي (من سنة ١٥٦ — ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف في الارض التي تسقى سيحا اي بدون تعب ، وبالثلث في الارض التي تسقى بالدوالي، وبالربع في الأرض التي تسقى بالدواليب ، وابقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة (اي تركه يحسب على اساس المساحة المزروعة) وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض — أشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار[٣] ، فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريباً ، لأن اكثره يسقى سيحا ، وهو خراج ثقيل ، ولكن الناس عدوه يومئذ فرجاً ورحمة .

ويظهر ان الهادي او الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر ، فصار خراج العراق

---

١ — كتاب الخراج لابي يوسف ٢٠ .   ٢ — الماوردي ٧٧ و ١٦٨ .

٣ — الماوردي ١٦٨ والفخري ١٦٤ والبلاذري ٢٩١ .

نصف غلته وعشرها أي ستة اعشارها ، وظل ذلك شانها الى سنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشروابقى النصف فقط[١] وما زال اهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجـــا الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين [٢] فكأنه اسقط عشرين في المائة من مقدار الخراج ، وخفض خراج بعض البلاد الاخرى غير السواد كالري ، فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فأقام فيها مدة ، وامر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ اهل (قم) ذلك طلبوا اليه ان يحط خراجهم كما فعل بالري فأبى ، فتمردوا وامتنعوا عن اداء الخراج وكان مقداره ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فحاربهم المأمون وجباه في ذلك العام ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم تأديباً لهم [٣] .

فترى مما تقدم ان خراج السواد كان ثقيلاً بالنظر الى ما كان عليه في ايام الراشدين على المساحة ، لانهم كانوا يأخذون على الجريب اربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ او نسبة ١٠٠ : ٣٣٣ وثلث فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣ وثلث ، وهو خراج زهيد بالنظر الى ما يبقى بوراً فهو كثير ، وربمـا كان المعدل في الحالين واحداً — يدلك على ذلك ان الفرق في ارتفاع الخراج بين المساحة في ايام الرشدين والمقاسمة في ابان كثرتها لا يعتد به . اما بالنظر الى هذه الايـــام (سنة ١٩٠٣ م) فان ضرائب السواد ما زالت حتى في ايام المأمون تعتبر ثقيلة بالنسبة اليها . اذ ليس في العراق الآن ارض يزيد خراجها على خمس غلتها ، وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفي لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقـــاسمة . لانهم مسحوا الارض وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتهـا باختلاف المغروسات ، فالارض التي غلتها كيل زيتون او حمل ورق توت او بذار مد قمح او ما تساوي قيمته ٣٦٠ قرشاً سموها سهماً ، وفرضوا على السهم ٢١ قرشاً الا ربـع قرش فيكون الخراج ٦ في المئة فقط .

مصر

ويلي العراق في الخصب مصر ، وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة ، والقصبة خمسة اذرع بذراع النجار وستة اذرع وثلثا ذراع بذراع القماش [٤] وفي تعريف الحكومة المصرية اليوم الفـدان ٣٣٣ ١/٣

١ — الطبري ٦٠٧ ج ٣ وابن الاثير ٤٨ ج ٦ .
٢ — الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣ .
٣ — الطبري ١٠٩٣ ج ٣ .   ٤ — المقريزي ١٠٣ ج ١ .

قصبة ، والقصبة ٣ر٥٥ من المتر المربع ، وبتحويله الى امتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع : وقد تزيد او تنقص قليلاً [١] .

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون في عهد بني امية من العسف وزيادة الضرائب ، فدخلت الدولة العباسية مصر واكثرها خراب لما كان يسوم اهلها عمال بني امية من زيادة الخراج : واشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن الحبحاب ، في ايام هشام بن عبد الملك ، فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار ، كما تقدم ، فآل ذلك الى ثورة كبرى . على ان الثورات كانت تتوالى في مصر بسبب ضغط العمال : فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية اعمالهم ، وملاحظة سيرهم . كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادي النيل عن مركز خلافتهم ، فكان العمال حتى في صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ، ويشددون في تحصيله ، كما فعل موسى بن علي سنة ١٥٦ هـ في اواخر ايام المنصور ، وموسى بن صعب في ايام المهدي فانه ضاعف الخراج وشدد في استخراجه [٢] وربما كان ذلك بايعاز الخليفة ، لان المهدي زاد الخراج على اهل العراق كما رأيت .

اما في ايام المأمون اي في ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان [٣] ، وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن ، اذا اعتبرنا الفرق في السعر بين تلك الايام واليوم . لان الخراج المضروب على اطيان مصر الخراجية (وهي الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصبها، وهو وان كان على المساحة فأساسه المقاسمة . لانهم قسموا القطر المصري الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها . واخصب النواحي لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشاً [٤] ، وامثال هذه الفدادين قليل جداً . واما الاكثر فخراجه حوالي مائة قرش ، وفيها ما خراجه عشرون قرشاً ، او عشرة قروش . واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها ، رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب ، لان الفدان الذي تقدير خراجه مائة قرش مثلاً يضمن بخمسة جنيهات او ستة .

واذا استخرجنا معدل خراج مصر عن كل الفدادين ، رأينا معدل خراج الفدان لايزيد

١ — القوانين العقارية ١٦١ .　　٢ — المقريزي ٣٠٨ ج ١ .
٣ — المقريزي ٩٩ ج ١ .　　٤ — القوانين العقارية ١٦٤ وما بعدها .

على ٨٥ قرشاً ، لان في القطر المصري نحو ٥٠٠٠٠٠ر٥ فدان زراعي بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية (١٩٠٢) ٥٧٠ر٦٥٢ر٤ جنيهاً [١] فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشاً ، فالديناران خراج الفدان في ايام المأمون يساويان ستة دنانير في هذه الايـــام او ثلاثة جنيهات ، فيكون خراج مصر في ايـــام المأمون يزيد على ثلاثة اضعافه في هذه الايام (سنة ١٩٠٣) .

ولكن يظهر ان الخراج في مصر زاد بعد المأمون ، حتى بلغ في اواسط القرن الرابـع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفاً ، فجعلها هو سبعة دنانير [٢] وذلك شيء كثير .

وقد رأينا في كتاب احسن التقاسيم للمقدسي انه : « ليس على مصر خراج ، ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام وتركت ، ثم يخرج الخازن وامين السلطان فيقطعان (اي يأخذان) كرى الارض ويعطيان ما بقي للفلاح » ولكن ذلك كان خاصاً بالارض التي كانت الحكومة تقبلها اي تضمنها وليس لها مالك ، وقد تكون في الاصل لبعض القواد او العمال من الروم الذين قتلوا في الحرب او هربوا ، فبقيت حلالاً لبيت المـال كما تقدم ، فيضمنها الحاكم ويأخذ ضمانتها عيناً او نقداً .

بلاد اخرى

وهناك بلاد بعضها كان يجبى بالمساحة ، والبعض الآخر بالمقاسمة . فبـلاد فارس مثلاً كان خراجها على ثلاثة أصناف : ١ ــ المقاسمة ، ٢ ــ المساحة ، ٣ ــ القوانـــين وهي المقاطعات (أي الاقطاعات) . على ان اكثر بلاد فارس على المساحة ، وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها في شيراز [٣] فان خراج الجريب حنطة او شعيراً ١٩٠ درهماً والجريب من الارطاب والمباطخ ٢٣٧ ونصف درهم ، ومن القطن ٢٥٦ درهماً وأربعـة دوانق ، ومن الكرم ١٤٢٥ درهماً ، ولكن الجريب عندهم ...ر أي سبعون ذراعاً بذراع الملك ، وهو تسع قبضات [٤] فاذا فرضنا ان الجريب جريبان من أجربة العراق فالخراج

---

١ ــ ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢ .   ٢ ــ ابن حوقل ١٠٨ .
٣ ــ الاصطخري ١٥٧ .   ٤ ــ المقدسي ٤٥١ .

مع ذلك لا يزال ثقيلا جداً . وهو خراج تلك البلاد في اواسط القرن الرابع ، ولم نقف على مقداره في أيام المأمون .

ومن هذا القبيل خراج المغرب في ايام الاغالبة ، فقد بلغ خراج الفدان في ايام عباس ابن ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً [١] ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من اصحاب الارض ، وانما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال .

وجملة القول ان الخراج كان في العصر العباسي الاول ثقيلا ، ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه ، وقلما شكا الناس ثقله ، وربما استطاع العامل ان يجمع الملايين من الدراهم بسهولة في بضعة ايام ، كما اتفق للمأمون لما مر بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملاله عليها ، وقد قل المال مع المأمون فشكا ذلك الى المعتصم فقال : « يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وفاك بعد جمعة » فجاءه بثلاثين الف الف درهم (٣٠٠٠٠٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف[٢] .

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأساً من الاشارة الى ما بقي من مصادر الجباية في العصر العباسي الاول لتتمة الموضوع — منها :

١ — أعشار السفن : هي ضريبة ذات بال ، كان يرد منها الى بيت المال مبالغ وافرة لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجنى منها في العصر العباسي ، ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة في تلك الايام ، بين العراق وسائر اقطار الدنيا حتى الهند والصين ، ان السفن كانت كثيرة واحمالها ثمينة . وقد ذكروا تاجراً واحداً من تجار البصرة في القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين ، بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠٠٠٠ دينار في العام[٣] فاعتبر ذلك وقس عليه غيره في البصرة وغيرها من ثغور الاسلام ، وفيها ما يكون اكثر دخله من أعشار السفن . فقد كان ضمان أعشار المراكب في عدن في القرن الرابع ٢٠٠٠٠٠

---

١ ابن الاثير ١٣٥ ج ٦ .

٢ الطبري ١١٤٣ ج ٣ - وفي ابن الاثير وأبي الفداء والفخري ان مقدار ذلك المال ثلاثون الف الف الف درهم(٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠)وهذا خطأ من النساخ .   ٣ — ابن حوقل (في الذيل) .

دينار (١) ، وضمانها في القرن السادس ١١٤٠٠٠ دينار (٢) والظاهر انجباية تلك الاعشار كانت في العصر العباسي اقل مما صارت اليه بعد ذلك ، لاننا نرى في جريدة علي بن عيسى التي كتبها للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ ﻫ أن ضرائب المراكب في البصرة بلغت ٢٢٥٧٥ ديناراً . وقد تقدم ان اضعاف ذلك كان يتحصل من احد تجارها بعد قرنين .

٢ ــ أخماس المعادن : كانت المعادن عندهم ضربين : ظاهرة ، وباطنة . فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، فهذه لا يجوز اقطاعها ، لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه (ومن قبيل ذلك أراضي المراعي والكلأ والآجام) . واما المعادن التي في باطن الأرض فهي ما كان جوهرها مستكنا فيها ، فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ، ولها الخمس مما يخرج منها(٣) ، ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ، ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها ، وهاك أمثلة منها ومن أماكن وجودها :

كانت في خراسان معادن الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنوشادر والزئبق(٤) . وفي ما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق لا يكاثره معدن في الغزارة والكثرة(٥) . وفي بلاد فارس عامة المعادن : الفضة والحديد والآنك والكبريت والنفط والصفر والزئبق . وبغربي أصبهان معادن الكحل(٦) . وفي كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها اكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفر(٧) . ومن هذا القبيل مغاوص المرجان بسواحل افريقيا الشمالية ، وهو شيء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قارباً او اكثر ، وفي كل قارب عشرون رطلاً(٨) . وفي سوريا معادن الحديد ، كانت بجوار بيروت ، والمغرة الجيدة في حلب وجبال الحمر في مكان آخر ، ومعدن الرخام في فلسطين ، ومعدن الكبريت في الاغوار (٩) . وفي مصر معادن الشب بالصعيد ، وكانت العربان تحضره من مناجمه الى ساحل اخميم واسيوط والبهنسا ، ويحمل منه الى الاسكندرية ايام النيل ، وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير لكل قنطار الى ستة . وكذلك النطرون في البر الغربي للنيل وفي غيره كان

---

١ ــ ابن حوقل .
٢ ــ ابن حوقل (في الذيل) . ٣ ــ الماوردي ١٨٧ .
٤ ــ المقدسي ٢٢٦ . ٥ ــ ابن حوقل ٣٣٧ . ٦ ــ الاصطخري ١١٥ و ٢٠٢ .
٧ ــ ابن الفقية ٢٠٦ . ٨ ــ ابن حوقل ٥١ ، ٩ ــ المقدسي ١٨٤ .

يستخرج منه كل سنة ١٠٫٠٠٠ قنطار ، وكان يضمن بعض الاحوال ضمانا تبلغ قيمته ١٥٫٥٠٠ دينار [١] . وفي النوبة مما يحاذي أسوان معدن الذهب المشهور – قال ابن حوقل : « والمعدن ليس من أرض مصر، ولكنه في أرض البجة وينتهي الى عيذاب ، والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهي رمال ورضراض ومجمع تجارهم العلاقي » [٢] ، وفي بلاد الغرب مما يلي سجلماسة معادن الذهب والفضة ، وكذلك في ما وراء ذلك الى بلاد السودان [٣] . وكان في صعيد مصر جنوبي النيل (كذا) معدن الزبرجد في برية منقطعة عن العمارة[٤] وفي البحرين بخليج فارس مغاوص اللؤلؤ ، وفي صنعاء مناجم العقيق، وبين ينبع والمروة معادن الذهب،وعلى شواطىء عدن ومخا (في اليمن) العنبر[٥].

هذه أمثلة مما كان في المملكة العباسية من المعادن تمثيلا لما كان يجبى من اخماسها الى بيت المال . وكانوا يقطعون هذه المعادن اقطاعاً او يضمنونها تضميناً بمال معين ، وقد يكون ذلك المال كثيراً — من أمثلة ذلك ان معادن الفيروز في نيسابور بلغت ضمانتها في اواسط القرن الرابع للهجرة ٧٥٨٫٧٢٠ درهماً [٦] .

٣ — الجزية والزكاة : كانت الجزية في صدر الاسلام كثيرة ، ثم تناقصت بدخول الناس في الاسلام . والزكاة كان لها شأن كبير في اول الاسلام ، ثم قلت أهميتها ، وسيأتي بيان ذلك .

٤ — المكوس والمراصد : وهما تقابلان الجمارك والعوائد في هذه الايام ، وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر او البر ، مهما يكن نوعها من الانسجة او المحصولات او المصنوعات او الرقيق او غيره . وكان يحصل لهم من ذلك مال كثير . ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ، ولكن يظهر انها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وربما اختلفت في البلد الواحد باختلاف الزمان ، وفي الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره ، وانما نأتي بما شاهده شمس الدين المقدسي بنفسه في مصر في اواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التي كانت تؤخذ في تنيس ودمياط ، قال : « واما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي ان ينسج شيئاً منها الا بعد ما يختم عليها بخاتم السلطان ، ولا ان تباع إلا على يد

---

١ — المقريزي ١٠٩ ج ١ . ٢ — ابن حوقل ١٠٧ .
٣ — المقدسي ٢٣١ . ٤ — الاصطخري ٥١ . ٥ — المقدسي ١٠١ .
٦ — المقدسي ٣٤١ .

سماسرة قد عقدت عليها ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ، ثم تحمل الى من يطويها ، ثم الى من يشدها بالقشر ثم الى من يشدها في السفط ، والى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة (أي الميناء) يؤخذ شيء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه . ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ، رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً قبل قبالة هذا الموضع (يجمع) في كل يوم الف دينار ، ومثله عدة على سواحل البحر في الصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية أيضاً على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » [١]

وذكر ابن حوقل : انه كان يتحصل مما يخرج من أذربيجان الى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدواب ، واسباب التجارات والابقار والاغنام ١٠٠٠٠٠٠ر١ درهم في السنة [٢] .

على أن هذه الضرائب وأمثالها لم يكن لها رواج في اوائل الدولة العباسية ، ولا كانت غلتها تستحق الذكر ، ولكن دخلها تعاظم في عصر الاضمحلال .

٥ — المستغلات وغلة دار الضرب : يراد بالمستغلات ما يجبى لبيت المال من أسواق او منازل او طواحين ، ابتناها الناس في أرض تربتها للسلطان (أي يملكها السلطان) فيؤدي عنها أجرة[٣] . وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب في مدينة السلام بغداد ٥٠٠٠٠٠ر١ درهم في السنة [٤] ، وبلغت غلات ومستغلات سامرا وأسواقها ١٠٠٠٠٠٠٠ر١٠ درهم في السنة [٥] .

فالدولة العباسية في ابان زهوها كانت تجبي من هذه الضرائب شيئاً كثيراً ، ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم .

٤ — صدق العمال في ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بني أمية انهم كثيراً ما كانوا يستأثرون بالخراج

---

١ — المقدسي ٢١٣ . ٢ — ابن حوقل ٣٥٣ . ٣ — ابن حوقل ٢١٧ .
٤ — ابن خرداذبة ١٢٥ . ٥ — اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٨ .

لأنفسهم ، اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية طعمة له في مقابل نصرته على علي ، او بحجة الحاجة الى المال في الحروب كما حصل في ايام الحجاج ، او استرضاء لعامل متمرد التماساً لقعوده (أي سكوته وطاعته) [١] ، او ان يعصى العامل بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق في ايام اخيه يزيد [٢] فان «يزيد» استحيى ان يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه . ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من اموال الفيء والغنائم وهي من حق بيت المال ، وقد يذكرونها ويطمعون فيها كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ ، فانه أصاب مالا كثيراً بقي منه لبيت المال ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ درهم ، كتب عنهـا للخليفة لكنه استبقاها لنفسه [٣] ـ ذلك ونحوه دعا الخلفاء في بعض الاحوال الى ان يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم .

اما بنو العباس ، فقد كان معظم عمالهم في اوائل الدولة من اهلهم الاقربين ، ثم استعملوا انصارهم الفرس ، وهم اكثر الناس رغبة في قيام دولتهم . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى لا يقصرون في زيادة رواتبهم حتى بلغت في ايام المأمون ثلاثة ملايين درهم [٤] وهي عمالة (بكسر العين وهي المرتب) الفضل بن سهل على المشرق ، ولم يدرك مثلها احد من عمال بني امية . لأن اكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٠٠٠ر٦٠٠ درهم ، وهي عمالة يزيد ابن عمر بن هبيرة على العراق [٥] .

ومما ساعد بني العباس في اوائل دولتهم على حفظ نظـام اعمالهم ، واجماع العمال على ولائهم سداد رأي وزرائهم ، وخصوصاً البرامكة ، فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة ، وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال ، لأنهم كانوا يعدون استيلاء بني العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ اعوام للتخلص من بني امية واحتقارهم اياهم .

وهناك اسباب اخرى لكثرة جباية الدولة في ايـــام المأمون ، كقلة الحروب والفتن ، فانها مذهبة للاموال ، مضيعة للخراج ، مفسدة للاعمال ، لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال في الجند .

---

١ ـ ابن الاثير ١٤٣ ج ٢ .
٢ ـ ابن الاثير ٤٧ ج ٥ .
٣ ـ الطبري ١٣٣٤ و ١٣٥٠ ج ٢ .
٤ ـ الطبري ٨٤١ ج ٣ .
٥ ـ ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ .

اسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن اسباب كثرة الخراج في الدولة العباسية بالقياس على ايام بني امية، وهذه الايام (سنة ١٩٠٣) وهي القسم الاول من اسباب الثروة العباسية . فلنأت الى القسم الثاني وهي قلة النفقة . واهم اسبابها ثلاثة :

١ — قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين في مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ، ويقال بالاجمال انهم اقل عدداً في الحكومات الاستبدادية منهم في الحكومات المقيدة ، لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شيء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك في المحاكم القضائية ، ومقدار الفرق بين عدد موظفيها في عهد الاحكام العرفية ، وبينهم في عهد الاحكام القانونية ، وقس على ذلك سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه ، ويكفي لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفي الحكومة المصرية قبل نظامها الحالي بعددهم اليوم .

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين اليها (في اواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان .

وخلاصة ذلك ان رئيسها (الباشا) وهو الوالي المرسل من الاستانة يليه ٢٤ بيكا (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى في القطر وهم :

(١) الكخيا : وهو نائب (الباشا) وكاتم سره .

(٢) الدفتردار : وهو ينظر في الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا .

(٣) أمير الخزنة : وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر .

(٤) أمير الحج : وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز .

(٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية .

(٦) خمسة مديرين لاقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية وهناك أربعة كشاف لاقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم. واعمالهم مثل اعمال البكوات مديري الاقاليم الاخرى .

ومن المصالح الاخرى القاضي وامير الضربخانة والمحتسب .

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهي :

(١) وجاق التفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني .

(٢) وجاق الجاويشية : وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج .

(٣) وجاق الهجانة .

(٤) وجاق التفقجية : وهم ناقلو البنادق .

(٥) وجاق الانكشارية : وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية ، وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم .

(٦) وجاق العزب .

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » ، واحدهم « وجاقلي » على كل وجاق منها ضابط ، يلقب بالآغا ، يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجي [1] . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الا بمصادقتهم .

هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزي ، ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ما عدا الجيش) فاذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ او قل ٣٠٠ او ٤٠٠ ، وهو يقابل في هذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس وسائر المصالح ، مما يربو عدد موظفيها على ألفين كما يأتي :

الموظفون في الحكومة المصرية الآن فئتان : الفئة الاولى : العمال ، وهم الذين يتولون اعمالها وادارة شؤونها ، ومنهم النظار ، ورؤساء الاقلام ، والكتاب والحساب . والفئة الثانية : الخدمة ، ومنهم الفراشون ، والبوابون ، ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام [2] .

١ – جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ١١ ج ٢ (طبعة ثالثة) .
٢ – ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢ .

عدد موظفي الحكومة المصرية

لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد	
١١٢١	المعية وتوابعها
١٨	مجلس النظار
٢٦	مجلس الشورى
٢٤	نظارة الخارجية
٤١٩	« المالية
٤٢٤	« المعارف
١٨٦	« الداخلية
٢٧٦٠	« الحقانية
٦٢٩	« الاشغال
٣٣٠٦	« الحربية
١٧١٥	مصالح ادارة الاقاليم وماليتها
٦٦٤٤	مصلحة البوليس
٥٢٦	« الصحة
١٠٥	« السجون
١٥	« منع الرقيق
٣٦	« الدفترخانة
٥١٠	« الجمارك
١٨٤٦٤	(المجموع)

عدد	
١٨٤٦٤	(مجموع ما قبله)
٢١٨	خفر السواحل
١٤٠	الدخوليات (الجمارك)
٤	مصايد الاسماك
١٣	الرسالة
١٩٣٨	السكة الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	البوستة
١٠٣	الفنارات
٦	اللبانات
١٥	التمغة للمصاغات
٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
١١	الكتبخانة الخديوية
٤	الانتكخانة
١٤	المطبعة الاهلية
٩٠	أملاك الميري الحرة والمشتركة
٢٢٧	القومسيون البلدي
٢٢٤٥٤	(الجملة)

فجملة موظفي الحكومة المصرية من العمال ٢٢ر٤٥٤ ، فـــاذا اخرجنا منهم المصالح ذات الايراد اذ لا دخل لها في ادارة شؤون الحكومة وهي :

عدد		عدد	
١٩٣٨	السكك الحديدية	٢٨٤٤	« مجموع ما قبله »
٣٢٧	التلغرافات	١٠٣	الفنارات
٢٩	ميناء الاسكندرية	٦	الليمانات
٥٥٠	مصلحة البوستة	١٥	قلم التمغة
٢٨٤٤	« المجموع »	٢٩٦٨	« الجملة »

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيها ١٧١٥ — كان المجموع ٤٦٨٣ ، وباخراجه من العدد الاصلي يبقى ١٧ر٧٧١ وهو عدد موظفي الحكومة المصرية في نظاراتها ومصالحها ما عدا الجيش . فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد ، وبين ما كان عليه في ايام المماليك ، وقس عليه عدد موظفي الحكومة في الدولة العباسية .

على ان ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية ، فانك ترى معظم اصحاب الرواتب هناك من الجند ، وخدمة البلاط ، والحرس الخـــاص ، والغلمان ، والحشم ، والفراشين ، واصحاب الصيد ، ونحوهم ، وليس من عمال الحكومة الحقيقيين الا جزء صغير وهم المعبر عنهم « بأكابر الكتاب ، واصحاب الدواوين ، والخزان ، والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان « الوزير » ، واسحق بن ابراهيم القاضي ، والفرسان ، ونفقات السجون والعلوفة » ونحو ذلك . ولا نظن نفقات الحكومة على مصالحهـا الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال « أي ١ر٢٥٠ر٠٠٠ دينار » مع ان نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٣ر٢٥٠ر٠٠٠ جنيه . وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزء صغير . واما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم .

على ان السبب في قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ، ولكن هناك سببا آخر ذا بال ، أعني تسديد أرزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل في باب الوارد . فقد رأيت ان أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان الخ

١٥٦ وثلثا دينار في اليوم، غير ان هؤلاء ليسوا كل موظفي الدواوين بل هم الكبراء فقط. ويتضح ذلك من قوله هناك : « سوى كتاب دواوين الاعطـــاء وخلفائهم على مجالس التفرقة ، واصحابهم واعوانهم ، وخزان بيت المال ، فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوفرون من اموال الساقطين ، وغرم المخلين بدوابهم » . ويدل ذلك ايضاً على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه في هذه الايام اصغر الباعة اذا اراد ضبط حسابه فضلاً عن دوائر الحكومة . فان اموال الساقطين وغرم المخلين كان يجب ان تدون في ابواب الوارد ، وتدون رواتب اولئك الموظفين في باب النفقات . وعلى اننا نستبعد ان لا يكون لهذه القيود محل في دفاتر الحكومة العباسية ، وانها اسقطت من هذه القائمة حباً في الاختصار او لاسباب اخرى .

٢ ــ عدم وجود الدين على الحكومة

من أدران التمدن الحديث ، انغماس الحكومات الاوروبية في الديون ، وما من دولة الا وهي مدينة بمال لا بد لها من تأدية فوائده ، او تسديد بعضه من دخلها كل عـام . فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلهـــا ، مع كثرة ابواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية ، او كانت معروفةعلى صورة خفيفة جداً . فقد تقدم ان دخل انجلترا ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه يجتمع نحو اربعة اخماسها من ضرائب اكثرها حديثة العهد ، وان نفقات الدولة تستغرقها كلها . فمن اسباب ذلك ان ربع هذا الدخل تقريباً يذهب في وفاء فائدة ما على هـــذه الدولة من الديون . ولولا ذلك لبقي في خزينة الحكومة الانجليزية كل عـــام حوالي ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه اي نحو ثروة الدولة العباسية كلها . وليست انجلترا وحدها غارقة في الديون فان معظم دول اوربا مثلها ، وان تفاوتت ديونها — وهاك بيان بديون أشهر دول العالم في آخر القرن التاسع عشر ، بقطع النظر عن كسور المليون ، وقد رتبناها في الجدول الآتي باعتبار الاكثرية :

ديون اشهر دول العالم[١]

جنيـــه		جنيـــه	
١ ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	فرنسا	٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)
٧٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	انجلترا	١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	ألمانيا
٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	روسيا	٩٣ ٠٠٠ ٠٠٠	هولندا
٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	الولايات المتحدة	٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠	الصين
١٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	الدولة العثمانية	٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠	اليابان
١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	النمسا	٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ايطاليا
١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠	مصر	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	اسبانيا
٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)	٣ ٠٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠	(الجملة)

وقد تراكمت هذه الديون على تلك الدول بتوالي الاجيال ، بما احتاجت اليه من النفقة في الحروب ، او في انشاء المشروعات الكبرى ، او نحو ذلك ، مما لم تكن الدولة العباسية في غنى عنه ، ولكنها كانت في ايام زهوهـــا تنفق ممـا تدخره من فضلات الجباية كما تقدم . فلما قلت الجباية وكثرت أسباب النفقة في طور الاضمحلال ، ولم يبق في بيت مالها ما تنفقه في الحروب عمدت الى استخراج الاموال من اهل الثروة ، وخصوصاً من كبار موظفيها كالوزراء ، والعمال ، والكتاب الذين أثروا من مالها بالاختلاس ونحوه ، وسموا ذلك مصادرة كما سيأتي .

على ان الدولة العباسية كانت في بعض الاحيان تستسلف المال من بعـــض التجار في مقابل اوراق لم يحل أجلها ، واكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود ، وهم اقدر الناس على المراباة كما لا يخفى — وبلغ مقدار الربا الذي كانوا يأخذونه على تلك القروض نحو ٢٠ في المائة ، فقد كان علي بن عيسى وزير المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتـاج الى المال وليس له وجه استسلف من التجار على سفاتج وردت من الاطراف ، ولم تحـــل

١ — Statesman's year book

بعد . وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دانقا ونصفا على كل دينـــار في الشهر ، فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها في الشهر ٢٫٥٠٠ درهم . واشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود في بغداد رجل كان يعرف بيوسف بن فنحاس وهو من تجـــار الاهواز ايضاً ، واخر اسمه هرون بن عمران او من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة[1] — غير ان ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلي الشائع في هذه الايام .

٣ — اقتصاد الخلفاء الاولين وتدبيرهم

من الامور المقررة في التاريخ السياسي ، ان مؤسسي الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ، ولولا ذلك لم يتأت لهـــم انشاء الدول او تثبيت دعائمها ، ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة ، والصبوة تـــدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبيها ، كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة — فالدولة العباسية نشأت في حجر السفاح طفلة ، فتناولهـــا المنصور صبية فغذاها وانماها حتى أدركت شبابها في ايام الرشيد والمأمون ، ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم في ايام الخلفاء الذين أتوا بعد ذلك .

توفي السفاح وقد ملك اربع سنوات ، ولم يخلف سوى بعض الثياب[2] ولو كان طماعاً لجمع مالا كثيراً لكثرة ما وقع له من غنائم بني أمية فضلاً عن الجبايات وغيرها .

وخلفه المنصور فتولاها بضعاً وعشرين سنة ادخر في اثنائها نحو ٨١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متهماً بالبخل ، ولم يكن بخيلا ولكنه كان لا يضع الكرم في غير موضعه : لم يكن يبذل المال الا اذا رأى في بذله منفعة في تأييد دولته . وفضل المنصور في تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب في تأييد الاسلام ، يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما اوصى به ابنـــه المهدي عند وفاته . من ذلك قوله : « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث .. واياك ان تدخل النساء في امرك ، واياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية ، واشحن الثغور ، واضبط الاطراف ،

---

١ — Einnahmebudget des Abbasiden Reiches 63

٢ — ابن الاثير ٢١٩ ج ٥ .

وأمن السبل العامة ، وادخل المرافق عليهم ، وادفع المكاره عنهم ، واعـد الاموال واخزنها ، فان النوائب غير مأمونة ، وهي من شيم الزمان ، واعد الكراع والرجـال والجند ما استطعت ، واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع... وأعد رجالا في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ، ورجالا في النهار لمعرفة ما يكون في الليل ، وباشر الامور بنفسك ، ولا تضجر ، ولا تكسل ، واستعمل حسن الظن ، وأسيء الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ »[1]

* * *

قضى المنصور مدة خلافته ، ولم ير في داره لهـو ولا شيء يشبه اللهو او اللعب ، او العبث ، إلا مرة ، كان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حمادا التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور وقد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فعاد حماد واخبر المنصور فقـال : « وأي شيء هو الطنبور ؟ » فوصفه له فقال : « وما يدريك انت ما هو الطنبور ؟ » فقـال : « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأينه تفرقن خوفاً منه ، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه .

* * *

وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس ، كان يرتدي جبة هروية ويرقع قميصه ، واذا استجداه احد بخل إلا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله احدهم درهماً فلا يعطيه ، ويعطي الآخر الفاً بلا سؤال .. من امثلة ذلك ان احد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافـة وكان فقيراً فسأله المنصور : « ما عيالك » قال : « ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن » فقال له ، « أنت أيسر العرب . اربع مغازل يدرن في بيتك .. » ولم يعطه شيئاً . ولمـا توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم : « خلف الف دينار انفقته امرأته على مأتمه » فقال : « كم خلف من البنات ؟ » ، قـال : « ستا » فأطرق المنصور ثم امر لكل من البنات بثلاثين الف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [2] .

١ - ابن الاثير ٨ ج ٦ .
٢ - ابن الاثير ١٣ ج ٦ .

ولما توفي المنصور خلفه ابنه المهدي ، وكان شبيهاً بأبيه من عدة وجوه ، ومن جملتها النظر في دقائق الأمور . وفي ايامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة ، وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يسار[١] وكان يجلس للمظالم بنفسه ، وكان تقياً ورعاً ، ولكنه لم يكن في مثل ما كان عليه ابوه من الاقتصاد . وتولى بعد الهادي زمناً قصيراً ، ثم الرشيد وكان تدبير المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل برمك ، وقد اتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة اهل كرم وسخاء ، فزادوا الخلفاء كرماً وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صغرهم ، كما فعل يحيى البرمكي مع الرشيد وكان يسايره يوماً فقام رجل فقال : « يا أمير المؤمنين عطبت دابتي » فقال الرشيد : « يعطى خمسمائة درهم » فغمزه يحيى . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيى : « يا أبتاه أومأت الى بشيء وقتما أمرت بالدراهم فما هو ؟ » فقال : « مثلك لا يجري هذا المقدار على لسانه ، انما يذكر مثلك خمسة آلاف الف ، وعشرة آلاف الف » ، قال : « فاذا سئلت مثل هذا كيف اقول ؟ » فقال : « تقول : يشترى له دابة ويفعل به فعل نظرائه »[٢] .

وكان الرشيد ميالاً للجود من فطرته ، فنشطه ذلك حتى صار الى ابعد مما ارادوه ، واضطروا الى ايقافه عند حده[٣] . واوغل الخلفاء بعد ذلك في البذخ والاسراف ، وهما من اسباب سقوط دولتهم على ما سيجيء .

وجملة القول ان اسباب الثروة العباسية في عصرها الاول كثرة الدخل وقلة النفقه . واسباب كثرة الدخل :

١ ـ سعة المملكة .
٢ ـ اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرهم .
٣ ـ ثقل الخراج المضروب على الارض .
٤ ـ صدق العمال في ارسالهم المال المجموع الى بغداد .

واسباب قلة النفقة :

١ ـ قلة الموظفين .
٢ ـ عدم وجود الدين .
٣ ـ اقتصاد الخلفاء الأولين .

---

١ ـ الفخري ١٦٣ . ٢ ـ سير الملوك ٧٨ . ٣ ـ الطبري ١٣٣٢ ج ٣ .

ثروة الدّولة العبّاسيّة

في عصر الاضمحلال

تمهيد في اسباب ذلك الاضمحلال

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة : فالدولة العباسية بلغت شبابها في ايام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر . ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة والشيخوخة ، كما بلغت الدولة الاموية في الشام شبابها في ايام عبدالملك بن مروان وابنه الوليد . والدولة الأموية بالاندلس بلغت شبابها في ايام الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في ايام السلطان سليمان ، وقس على ذلك . وقد قسم ابن خلدون ايام الدولة الى خمسة اطوار : (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير[١] . وهو تقسيم اجمالي ربما لا ينطبق على احوال جميع الدول انطباقاً تاماً الا بالتأويل . واما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية في عصر الاضمحلال ، ان نذكر اسباب ذلك الاضمحلال مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

العرب والفرس

علمت مما تقدم ان الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً اهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها إلا انتقاماً لأنفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب، واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين . فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة ، واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب

---

١ — ابن خلدون ١٤٧ ج ١ .

وغيرهم ، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظرة المحاذر المراقب ولا حيلة لهم في ارجاع نفوذهم . وبلغ الفرس ارفع المنازل عند العباسيين في ايام البرامكة ، فزاد حقد العرب عليهم وسعوا في اسقاطهم رغم مـــا كان من جود البرامكة وكرم اخلاقهم — ولعلهم كانوا يبالغون في السخاء دفاعاً عن مراكزهم . على انهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع في الملك حتى نكبهم الرشيد ، ومن اشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربيـــاً ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان[١] .

فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم مـات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة ، والأمين عربي الأبوين لان امه زبيدة حفيدة المنصور . فأخذ اهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب « الحربية » . واما المأمون فأمه فارسية ، وكان في خراسان بين اخواله وشيعته[٢] فنصره الخراسانيون كما نصروا اجداده ، وانتهى الخلاف بقتل الأمين وفوز المأمون ، فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتهان العرب . فعظم ذلك على هؤلاء ، وخصوصاً لما تولى الحسن بن سهل ، وهو فارسي مجوسي الاصل حديث العهد في الاسلام ، فطعنوا في اسلامه وقالوا : « لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي » وتمردوا على الحكومة ، ولكنهم عادوا الى السكينة قهراً[٣] وجاء المأمون الى بغداد واستتب الأمر له ولنصرائه ، واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجره ذلك الى القول بأن القرآن مخلوق ، فازداد العرب كرهاً له ولكنهم لم يستطيعوا رده .

الاتراك

فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى اخيه المعتصم بالله ، وكانت امه تركية الاصل من بلاد الصغد في تركستان[٤] فشب محباً للاتراك ، وكان قد اصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد ان قتلوا اخاه الأمين ، وهي اول مظاهر جرأتهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم اياه العباسيون من الاذلال . وزد على ذلك ان اخاه المأمون اوصاه عند دنو اجله بمحاربتهم ، فلم ير له غنى عن الاعتماد على من ينصره من غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد ادركت

---

١ — ابن خلكان ٤١٢ ج ١ . ٢ — ابن الاثير ٩٢ ج ٦ .
٣ — ابن الاثير ١٢٩ ج ٦ . ٤ — ابن الاثير ٢١٥ ج ٦ .

ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفي جملتها صبيان الاتراك والفراغنة ، فهان عليه اقتناءهم لاتصال نسب امه بهم . فاقتنى منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر اتاه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً (١) فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فابتنى لهم مدينة سامرا وانزلهم فيها (٢) ، واطلق لهم الارزاق وجند منهم الجنود . ولا ريب انهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ضد اعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا في الجهة الاخرى سبيلاً الى تقهقر الدولة العباسية ، بما كان من مطامعهم في الاموال ، واستئثارهم بالنفوذ ، حتى اصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها تحت رحمتهم .

وكان المأمون عالماً حكيماً ، وكل بطانته وجلسائه من اهل الحكمة والعلم ، وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقته ودعته — قال يحيى بن اكثم : ماشيت المأمون يوماً من الايام في بستان مؤنسة بنت المهدي ، فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس : فلما انتهى الى آخره واراد الرجوع اردت ان ادور الى الجانب الذي يستره من الشمس فقال : « لا تفعل ، ولكن كن بحالك حتى استرك كما سترتني » فقلت : « يا امير المؤمنين لو قدرت ان أقيك حر النار لفعلت ، فكيف الشمس ؟ » فقال : « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى ساتراً لي من الشمس كما سترته (٣) .

وقال يحيى بن خالد بن برمك ايضاً : « كنت نائماً عند المأمون فعطش فامتنع ان يصيح بغلام يسقيه ، وانا نائم فينغص علي نومي ، فرأيته وقد قام يمشي على اطراف اصابعه حتى اتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة ، فأخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع يمشي على اطراف اصابعه حتى قرب من الفراش الذي انا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار الى فراشه » .

وبالغ المأمون في ملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر : « كنت عند المأمون يوما ، فنادى بالخادم : يا غلام ! فلم يجبه احد ، ثم نادى ثانياً وصاح : ياغلام ! فدخل غلام تركي وهو يقول : « ما ينبغي للغلام ان يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام ياغلام ! الى كم يا غلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت ان يأمرني بضرب عنقه ، ثم نظر الي وقال :

---

١ — القرماني ١٥٧ . ٢ — اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٢ .

٣ — العقد الفريد ٢٠٩ ج ١ .

يا عبد الله ، ان الرجل اذا حسنت اخلاقه ساءت اخلاق خدمه ، واذا ساءت اخلاقه حسنت اخلاق خدمة . وانا لا نستطيع ان نسيء اخلاقنا لتتحسن اخلاق خدمنا » [١] .

* * *

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم ، مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . فخلفه المعتصم وكان عارياً من العلم يقرأ قراءة ضعيفة [٢] وكان غضوباً شديد النقمة [٣] منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة [٤] وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات [٥] فرأى رجال الدولة فرقاً بعيداً بينه وبين اخيه ، فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة في اتراكه ، وفراغنته . وكان مع ذلك على رأي أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة في تأييده حتى لقد أحضر أحمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب الى القول بخلقه ، فأمر بجلده جلداً عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً[٦] فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكترث بذلك ، وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد في الاسلام وفي التمدن الاسلامي ، لأنهم جاءوا من بلاد كانت لا تزال في عهد الجاهلية ، وكانوا حجر عثرة في طريق ذلك التمدن ، ففسدت النيات واضطربت الاحوال وابتدأت الدولة في التقهقر من ذلك الحين .

المال

وكانت غاية المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب. فلما طلب الأمويون الخلافة احتاجوا الى المال ، فبذلوا كل وسيلة في سبيل جمعه وقلت الرغبة في تأييد قواعد الدين ، ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احتقارهم سائر الامم . فكان مطمح أنظارهم « العرب والمال » ، فلما تولى العباسيون أهملوا امر العرب ، واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق ، وانصرفوا في ايام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن ، واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين في المدنية قبل الفتح الاسلامي ، وفيهم استعداد فطري للتمدن فضلاً عن ان تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لأن مركز الخلافة فيها . فاخلصوا الخدمة

١ – المستطرف ٩٦ ج ١ . ٢ – القرماني ١٥٥ . ٣ – ابو الفداء ٢٧ ج ٢ .
٤ – ابن الاثير ٢١٦ ج ٢ . ٥ – الفخري ٢٠٩ . ٦ – ابن الاثير ١٨١ ج ٦ .

فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ، ففاضت الاموال في خزائن الخلفاء ورجال دولتهم فأسرفوا وانغمسوا في الرخاء والرغد والترف ، حتى بلغوا قمة المجد في ايام الرشيد والمأمون . فلما كانت ايام المعتصم واستكثر من المماليك الاتراك كما تقدم ، واستخدمهم في مصالح الدولة ، انحصرت غاية رجال الدولة في اختزان الاموال لأنفسهم ولو آل ذلك الى خراب البلاد لأنها ليست بلادهم ولا اهلها اهلهم . وانما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم[١] وضعف الخلفاء عن رد شكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا ، وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالاموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء لاصلاح شؤونهم واستبقاء سلطانهم الى الجند ، والجند يتطلبون الاموال ، والاموال عند الوزراء والعمال والكتاب ، فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أي اخذ اموالهم بالقوة . والمصادرة تحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملا إلا بالمال .

فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة ، وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة اعدائهم والدفاع عن حياتهم ، حتى في داخل قصورهم . وامحت العصبية القرشية التي قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير أن يخالف اباه مصعباً في اثناء محاربته عبدالملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياء من قريش – وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبدالله في الخلافة ، فجاءه محمد بن مروان فبذل له الامان اذا سلم فأبى ولكنه حرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فأجابه الغلام : « لا تتحدث نساء قريش أني خذلتك ورغبت بنفسي عنك » فقال له مصعب : « اذهب أنت ومن معك الى عمك في مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » فقال الغلام : « لا أخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا أبت الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش أني فررت » ثم قال لابنه : « تقدم اني أحتسبك » فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً[٢] .

ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر . فلما كانت الدولة العباسية في ابان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ، ثم أخذت في التقهقر بغتة من ايام المعتصم – ويتضح ذلك جلياً من مقابلة مجامع القوائم الثلاث المتقدم ذكرها واقدمها اكثرها وهي :

---

١ – ابن الاثير ٢٠٩ ج ٦ .   ٢ – ابن الاثير ١٥٩ ج ٤ .

١ – قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦٫١٥٥٫٠٠٠ درهم .

٢ – قائمة قدامة من سنة حوالي ٢٢٥ هـ ارتفاعها ٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠ درهماً .

٣ – قائمة ابن خرداذبة من سنة حوالي ٢٥٠ هـ ارتفاعها ٢٩٩٫٢٥٦٫٣٤٠ درهماً .

فترى ان ارتفاع الدولة كان في اول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ، ما عـدا الاموال والغلات . ثم صار في الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ، ثم صار في اواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدريج في النقص الى أواخر ايام الدولة . على أننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحاً في كل العصور ، لقلة المصادر التي بلغت الينا في هذا الشأن ، اما لعدم عناية الحكومة في تدوين الميزانيات المضبوطة او لضياعها في أثناء الفتن الاهلية وغيرها .

مقدار الجباية في عصر الاضمحلال

واذا نظرنا فيما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالي الاعوام ، رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على انهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً ثم يأتي خلفه من يسرف فيضيعه . ومن أمثالهم المأثورة ان ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الأمين (سنة ١٩٣ – ١٩٨) ، وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ – ٢٤٧) ، وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي أنفقه المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) .

اما مقدار الجباية في العام فلم نتوفق الى تفصيل له إلا في ايام المقتدر ، اذ اضطر وزيره علي بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز ان يرفع تقريراً بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى أظهرها البارون فون كريمر ، ونشرها في كتاب سماه جباية الدولة العباسية[1] لسنة ٣٠٦ ، وصدره بمقدمة المانية ، ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة ، وما عاناه في قراءتها ، لأنها مكتوبة بخط عربي غير مألوف ، وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفي بذكرها كما قرأها هو .

---

١ – Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام :

الاول في جباية السواد وملحقاته .
والثاني في جباية المشرق اي البلاد الواقعة شرقي السواد .
والثالث جباية المغرب أي البلاد الواقعة غربي السواد .
والرابع جباية الاموال الخاصة والموقوفة .

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ ﻫ

(وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر - كما قرأها فون كريمر)

١ ــ جباية السواد

حرف (أي بيان) عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة :

دينار	
١٥٤٧٧٣٤	اموال السواد وطساسيجه وصدقات أراضي المغرب (أي الغرب) بالبصرة والمراكب بها وسائر ما ينسب اليها ويجري معها
(تفصيلها)	باذوريا وكلواذي ونهرين ٢٨٣ ١٦٦ درهم
١٩٨٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥٥٧٦	بهرسير والرومقان وايغار يقطين وجازر والمدينة العتيقة
٢٥٠٠٠	كوثي ونهر دوقيط
٩٥٢٦	الزاب الاعلى ونهر كشتاسب
١٦٧٣٦	الفلوجة العليا والارحاء
١٣٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى
٤٧٨٩٩٥	(المجموع)

٤٧٨٩٩٥	« مجموع ما قبله »
٣٨٣٥٠	نهر الملك وموزجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات
٤٦٣٣٦	باروسما الاسفل
١١٠١٥٤	طساسجة الكوفة والخزن
٥٠٢١٩	العمارات بسر من رأي
٢٠٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٢٤٣٠٠	بزرجسابور
٢٠٠٣٥	الراذابان
١٣٦٦٦	روستقباد
٤٦٤٨٠	النهروان الاعلى وسمنطاي
٤٠٣٢٧	النهروان الاوسط
٦٠٥٣٢	النهروان الاسفل
١٥٩٠٨٩	الصلح والمنازل
٤٢٤٩٩	بادرايا وباكسايا
٣١٠٧٢٠	واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقـــات الراتبة البصرة
١٢١٠٩٥	وكور دجلة
٢٢٥٧٥	المراكب بالبصرة
٤٢٧٥٠	اموال الضمانات وما يؤدى عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات
٨٠٢٥٠	العبارة بهيت
١٦٩٧٥	اسواق الغنم بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
٦٠٣٧٠	دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة
١٦٠٠٠	الجوالي بمدينة السلام
١٣٨٧٤	ما يؤدى الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات
١٨٤٦١٨١	(المجموع)

٢ — جباية المشرق

١٢٦٠٩٢٢		كور الاهواز ضماناً على ابراهيم بن عبد الله المسبع وغيره
١٦٢٤٥٢٠		اموال فارس مع مـــا يسوغه مؤنس الخادم مع ما في ايدي اصحـــاب الاطراف مما ورد نفلاً « هبة » فقط
٢٥٨٠٤٠		ضياع الامراء بهذه النواحي مع مال المراكب بسيراف
٣٦٤٣٨٠		كرمان مع ضياع الامراء سوى مـــال العهد والروح وقرى المفازه وما يسوغه مؤنس الخادم عن مال الخزن والجهبذة « الصيرفة »
٨٠٠٠٠		مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضرة
		ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد والارتفاع بالامانة والضمانة ١٥٧٠٥٢٥
	٤٦٥٠٧٨	الخراج والاعشار والاخماس بالري والدماوند مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان واحمد ابن علي
	١٢٢٦٤٤	الضياع بها
		قزوين وزنجان وابهر
	١١٥٧١٠	الخراج
	٥٨٢٩٠	الضياع بها
		قم
	١٩٧٢٢٩	الخراج
	٨٠٢٢٩	الضياع
		اصفهان
	٤١٠١٧٨	الخراج على العقد المجددة مع خراج الاكراد وما يغل من الايغار وضياع السلطان
١٦٣٨٦٩٢	١٨٩٣٣٤	الضياع بها
٥٢٣٦٥٥٤	(المجموع)	

٥٢٣٦٥٥٤	(مجموع ما قبله)	
		ماء البصرة والايغارن
	١٨٥٦٣٦	الخراج
	٢٦٧٥٢٠	الضياع
		همدان
	١٥٠٤٨٠	الخراج
	٥٥٧٨٩	الضياع
		ماسبذان
	٥٧٧٤٦	الخراج
	١٦٧٥٠	الضياع
	١٧٦٢٥	ساوة ودار الضرب بها
	١٠٥٦٧٨	ماه الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم
	٨٩٥٠٠	الضياع بها
	٣٠٠١٥	حلوان عن الخراج والضياع
٢٢٥١٩٣		آذربيجان وارمينية على المعارفة التي فورق عليها سبيل السعر
٢٢٦٣٧٠		
٦٤٣٩٦٦٣	(المجموع)	

٣ ـــ جباية المغرب

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب واجناده بعد الاحتسابات التي وضعها (اي خصمها) العمال من اصول الارتفاع كما هوجار في العادات وسوى مقاطعات وثمن اجناس الغنائم مع ما فورق اهل (جزيرة قبرص) على ادائه في كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة .

يكون
ما يتعلق بالمغرب واجناده
٤٧٤٦٤٩٢
تفصيله

٢٩٠٧٧٣	مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة
١٠٨٠٠٠٠	وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة واثمان الغنائم
	جند فلسطين بعد الاحتسابات
٨٠٧٥٠	مال
٢٣٠٦٤٧	
	جند الاردن بعد الاحتسابات
٤٠٤٦٠	مال
١٠٢٠٦٢	
	جند دمشق بعد الاحتسابات
١١٣٠٥٧	مال
٣١٥٣٠٠	
	جند حمص بعد الاحتسابات
٢٠٠٤٦٠	مال
١١٥١١٤	
	جند قنسرين والعواصم بعد الاحتسابات
١٣٣٠٩٧	مال
٣٥٢٥٧٠	
١٥٧٦٥	دلوك ورعبان
٥٢٩٨٥	الثغور الشامية سوى صلح (اي ما صالح عليه) احمد بن الحسين الكاتب
٥٣٩٧	شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع (أي بعد الذي وضع منه أي أسقط)
٦٥٣٣٢	مال
٣١٩٣٧٠٩	(المجموع)

٣١٩٣٧٠٩	(مجموع ما قبله)
	سميساط وملطية بعد الاحتسابات
١٤٥٠١	مال
٣٤١٢٠	
	آمد سوى ما جمع في اقطاع وكاسه بعد الاحتسابات
٥٤٧٨	مال
٨٢٤٢٢	
	ارزان وميافارقين بعد الاحتسابات
٥٦٧٥٠	مال
٨٢٤٢٢	
	ديار مضر
٢٥٧٢٢٥	
	ديار ربيعة بعد الاحتسابات
٢٢٧٩٧	مال
٣٠٤٠٩٣	
	الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبلية بعد الاحتسابات
١٧٧٥٠	مال
٤٩٢٤٣٠	
٩٦٥٨٤	طريق الفرات
٤٦٥٠٢٨١	(المجموع)

٤ ــ جباية الاموال الخاصة

يكون أموال الاعمال المسماة وأموال الخاصة
والاموال الموقوفة وغير ذلك

٢٨٩٠٣٦	الضياع المستحدثة بعد الذي جرى في ضمان واسط اسوة حال الخاصة

٢٨٩٠٣٦	(مجموع ما قبله)
٥١٦٤٤٧	أموال الخاصة سوى ما كان منها بنواحي واسط فانه اضيف الى اموال العامة وخلط بها ودخل في حمولها ونفقاتها
	١٨٥٤١١ العبر (أملاك الشواطىء أي الاملاك على السواحل)
	١١٦١٦٠ الاهوار (المستنقعات)
	٧٢٦٢٦ المشرق
	١٠٤٠٠٠ المغرب
١٨٧٧٨	هيت وأعمالها سوى ضياع السكر
	٨٢٤٠ العبر } ٥٨٤٥٠ المغرب
	٥٢٦٢ الاهوار } ٦٢٢٠٠ المشرق
١٤٤٧٦٠	مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحي واسط
	١٤ ٧٣٢ العبر
	١٤ ٢٤٦ الاهوار
	٣٠ ٦٧٢ المشرق
	٧٥ ١١٦ المغرب
٤٥٧٠	مال الموقف للمساجد سوى ما كان منها بواسط
	٢٢ ٨٦٩ المشرق
	١٢ ٧٦٠ المغرب
٦١٧١٢٦	مال الضياع الفراتية
	١٧٠ ٢٢٦ العبر
	١٢٩ ٧٢٤ الاهوار
	٩٧ ٣٣٦ فارس
	٦٥ ٢٧٨ المشرق
	١١٤ ٢٢٥ المغرب
١٥٩٠٧١٧	(المجموع)

١٥٩٠٧١٧	(مجموع ما قبله)
١٠٠٣١٨	مال الضياع المفردة في سنة ثلاث وثلاثمائة
٧٦٩٨٠	مال الخزن والجهبذة سوى ما يجمعه العمال مع أصول الأموال وسوى ماسوغه مؤنس الخادم منها بفارس وسوى ما دخل منها في ضمان واسط
١٧٦٨٠١٥	(المجموع)

الخلاصة

١ ٥٤٧ ٧٣٤	جباية السود
٦ ٤٣٩ ٦٦٣	« المشرق
٤ ٧٤٦ ٤٩٢	« المغرب
١ ٧٦٨ ٠١٥	« الاموال الخاصة
١٤ ٥٠١ ٩٠٤	دنانير

نسبة هذه الى ما كانت عليه في العصر العباسي الاول

فمجموع هذه الجباية اكثر من ١٤ مليونا ونصف مليون من الدنانير ، واذا تحولت الى دراهم بلغت نحو جباية العصر العباسي الأول . غير ان الحال في هذه الجباية غير ما كانت عليه في ذلك العصر ، لان هذا المجموع لم يف بالنفقات اللازمة للدولة . وكانت النفقات قد تضاعفت لاسباب سيأتي بيانها ، ومن ادلة ذلك ما جاء في « عنوان السير » عن نفقات الدولة على عهد علي بن عيسى ، وقد ذكرها المؤلف المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهي :

دينـــار	
٣١٥ر٤٢٦ر٥	نفقات الحرمين وطريقها
٤٩١ر٤٥٦	نفقات الثغور
٥٦ر٥٦٩	رواتب القضاة في الممالك
٣٤ر٤٣٩	رواتب ولاة الحسبة والمظالم في جميع البلاد
٧٩ر٤٠٢	رواتب اصحاب البريد
٩٧٧ر٢٩٢ر٥	

وكل هذه الابواب لم يكن لها ذكر في قائمة المعتضد – ناهيك بزيادة الجند وغيره من اسباب النفقة ، بحيث زاد الخرج على الدخل في ايام علي المذكور ٢ر٠٨٩ر٨٩٤ ديناراً[١].

وقس على ذلك احوال بيت المـــال قبل المقتدر وبعده ، مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال ، ولكن يقـال بالاجمال ان الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية الا في احوال قليلة وبمبالغ صغيرة . فالمعتصم ترك في بيت ماله ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم[٢] والمستعين (سنة ٢٥١ هـ) خلف في بيت المـــال ٥٠٠ر٠٠٠ دينار[٣] ، والمكتفي (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ١٥ر٠٠٠ر٠٠٠ دينـــار ، والظاهر انها اجتمعت بتوالي الخلفاء ، فلما تولى المقتدر انفقها كلها ، وانفق ما جمعه في ايامه من اموال المصادرة فضلاً عن الخراج[٤]، حتى قدروا ما انفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و ٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار[٥] ما عدا نفقات الدولة ، واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة ان

---

١ – عنوان السير نقله كريمر في كتاب Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

٢ – الفخري ٢٠٩ . ٣ – الطبري ١٥٤٥ ج ٣ .

٤ – ابن الاثير ٤ ج ٨ . ٥ – ابن الاثير ٩٠ ج ٨ .

يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب [١] ، وبلغ من فقر بيت المـال في ايام المطيع لله سنة ٣٦١ ﻫ انه باع ثيابه وانقاض داره ليدفع ٢٠٠,٠٠٠ درهم ، طلبت منه للجند في اثنـاء الفتنة ببغداد [٢] . وكانت احـوال الخلفاء قد تغيرت في ايام الراضي بالله سنة ٣٢٢ ﻫ وخرجت قيادة الامور من ايديهم ، ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة [٣] .

ولاضمحلال الثروة العباسية اسباب توضح كثيراً مما جاء في جريدة علي بن عيسى من اسماء بعض الضرائب غير المألوفة .

---

١ ــ صلة تاريخ الطبري ١٤٤ .　　٢ - ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ .
٣ - الفخري ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨ .

أسباب اضمحلال الثروة العباسية

في العصر العباسي الثاني

قلنا في بحثنا عن الثروة العباسية في العصر العباسي الاول وعلة كثرتها : ان اسباب تلك الثروة كثرة الجباية ، وقلة النفقة ، وفصلنا ذلك تفصيلا . فأسباب قلة الثروة يجب ان تكون قلة الجباية ، وكثرة النفقة ، ولكل من هذين البابين فروع ولكل منها اسباب، هاك تفصيلها :

سباب قلة الجباية

١ ــ ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية اكبر سعتها في ايام الرشيد والمأمون، ثم اخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . واول من استقل ما الولايات العباسية افريقية ، بدأت بالاستقلال في ايام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان في ايام المأمون ، ثم مصر في ايام المعتمد في اواسط القرن الثالث للهجرة ، ثم فارس وما وراء النهر وغيرها. ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسماً ،كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين . على ان معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي اليه اموالاً ، بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية او غير ذلك . وكان اكثرهم لا يؤدي ما عليه الا مرة كل بضعة اعوام . وطبيعي ان تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية .

٢ ــ تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من اسباب زيادة الثروة العباسية في ايام زهوها ثقل الضرائب ، وخصوصاً في

العراق ، اذ كانت مقاسمة على النصف الى ايام المأمون . فأدرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج ، ورأى الثروة فائضة في بيت ماله ، والاموال متوفرة ، فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين [1] اي انه انقصه عشرين في المائة وهو اسقاط عظيم ، وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً ، اذ كان في قائمة قدامة ١١٤٫٤٥٧٫٦٥٠ درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبة ٧٨٫٣١٩٫٣٤٠ درهماً ، لان الاول قدره على ما يظهر باعتبار النصف ، والثاني باعتبار الخمسين .

واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء ، فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ اعشار السفن [2] وقد رأيت انها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شيء كثير . واقتدى بالواثق خلفه المتوكل ، فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج في النوروز ، وهو يقع عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) ، وكانوا يكبسون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة اسقطوا شهراً فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من ايار (مايو) ولا يعيدون النوروز او يطالبون بالخراج الا بعد شهر اي حتى يأتي الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب في جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون ، وكان ذلك في ولاية خالد بن عبدالله القسري على العراق ، فأراد الفرس ان يسقطوا شهراً على جاري عادتهم فنهاهم خالد وقال : « هذا من النسيء الذي نهى الله عنه » واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس . فظل الحساب الجاري متقدماً شهراً عن الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات ، وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك ، فأراد يحيى ان يجيب طلبتهم ، فتقول اعداؤه في ميله الى الزرداشتية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالي الاعوام حتى صار في ايام المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع اخضر . واتفق ان المتوكل مر ببستان فرأى الزرع اخضر ، فقال لرفيق له : « مالي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج ؟ » فقص عليه السبب ، فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر ، فاذا هو شهران وبضعة

---

١ — الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣ .
٢ — الطبري ١٣٦٣ ج ٣ .

ايام حتى يصير النوروز في الوقت اللازم . فأصدر امره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس[١] لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحتري في ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهـ ـد الذي كان سنه اردشير

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لأنه قتل بعد قليل . واضطربت احوال الخلافة ، حتى اذا كانت ايام المعتضد بالله روجع في ذلك فأصدر امره آخر سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوماً ، وكان قد وافق اوائل المحرم سنة ٢٨٢ ، فأمر ان يكون في ١٣ ربيع اول منها . وجعلوه ١١ حزيران (يونيو) وان يكبس بعد ذلك في كل اربع سنين من سني الفرس يوم واحد[٢] — فعل ذلك ترفيهاً للناس ورفقاً بهم[٣] .

وكان المهتدي (٢٥٥ هـ) قد أمر باسقاط الكسور عما بقي من الزرع على المساحة — وذلك ان المنصور لما جعل خراج العراق مقاسمة كما تقدم ابقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة ، وكان ينكسر على اصحابه شيء كل عام والحكومة تطالب به . فلما تولى المهتدي أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن امثالها ، ومقدار ذلك نحو ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم في السنة[٤] .

فترى من مجمل ذلك ان موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه في عصر الرشيد والمأمون، وكان ذلك مساعداً على تقليل الجباية .

الجزية والزكاة

ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص، بدخول الناس في الاسلام بتوالي الاعوام، حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينة السلام في اواسط القرن الثالث للهجرة ١٣٠٫٠٠٠ درهم[٥] وقد رأيت في قائمة علي بن عيسى انهم جبوها ١٦٫٠٠٠ دينار ، اي نحو ضعفي ما ذكره ابن خرداذبة ، ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على اواسط قيمتها وهي ٢٤ درهماً على الشخص ، كان عدد الرجال نحو ٩٫٠٠٠ وباضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لا يزيد عددهم على ٤٠٫٠٠٠ نفس من اهل الذمة في مدينة بغداد من النصارى واليهود ، وهي في ابان مجدها وسكانها يزيدون على المليون ، فقس على ذلك سائر المدن .

---

١ — البيروني ٣١ . ٢ — المقريزي ٢٧٣ ج ١ . ٣ — ابن الاثير ١٨٦ ج ٧ .
٤ — الماوردي ٧٧ . ٥ — ابن خرداذبة ١٢٥ .

ويقال نحو ذلك ايضاً في الزكاة ، فقد تناقصت بتوالي الاعوام ، حتى كادت تتلاشى ، وأصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر[١] ، وكانت قد ابطلت في مصر حتى اعادها السلطان صلاح الدين الايوبي . وتذمر المسلمون منها ، وشنعوا على الذي يطالب بها ، حتى اذا تولى المنصور قلاون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر[٢] .

٣ ـ استئثار العمال بالجباية

قد رأيت استبداد العمال في عصر بني امية ، واستئثارهم بالخراج ، وكيف تحسنت احوالهم في عصر العباسيين . غير ان ذلك التحسن لم يدم طويلاً ، فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه انظارهم من طلب الاستقلال بالحكم او الاستئثار بالجباية ، واضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وان يكن اقل مما يجبى ، وهو الضمان او المقاطعة ـ كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥ هـ على ان يدفع له ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم في العام[٣] مع ان ارتفاع جبايتها الحقيقي ١١٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم[٤] وضمن البريدي الاهواز على ايام الراضي كل سنة ٣٦٠٫٠٠٠ دينار ، على ان يدفعها اقساطاً[٥] وخراجها الحقيقي يزيد على اربعة اضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون إلا قليلاً مما تعهدوا به . فاذا الح الخليفة عليهم في المطالبة اتخذوا الحاجة ذريعة الى الاستقلال التام ، فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد .

٤ ـ اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن ، وانتشبت الحروب بين طوائف الجند ، او بينهم وبين العمال ، انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم ، وتوقف العمال ، وغلت الاسعار ، وتعطلت الزراعة لضياع الامن ، فقلت الجباية ، واحتاج العمال والقواد الى الاموال ، فظلموا الناس في تحصيلها

---

١ ـ ابن الاثير ٨٢ ج ٢ . ٢ ـ المقريزي ١٠٦ و ١٠٨ ج ١ .
٣ ـ ابن الاثير ١٤٩ ج ٦ . ٤ ـ ابن خلدون ١٥٠ ج ١ . ٥ ـ ابن الاثير ١٢٦ ج٢.

منهم فزاد الخراب — وما من هادم للعمران كالظلم ، فانه يغل الايدي ويقعد الناس عن السعي ، فينشغل به الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعته ، ووبال ذلك عائد على الدولة اذ لا قوام لها إلا بالرعية . والمشهور ان الظلم اخذ المال من يد مالكه بلا عوض ولا سبب ، ولكنه اعم من ذلك كثيراً . فأن كل من اخذ ملك احد ، او غصبه في عمله ، او طالبه بغير حق ، او فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع ، فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتهبون لها ظلمة .. فاذا ساد الظلم اقبل الخراب لا محالة ..

ومما زاد البلاء جسامة ، إن اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون ، في اوائل الدولة العباسية ، من الترع والانهار لري الأرض ، وتسهيل الاستغلال انسد بالحروب ، لأن المحاربين كثيراً ما كانوا يضطرون الى سد الأنهار ، ليمنعوا سفن الاعداء من المرور فيها[١] فضلا عما يدعو اليه اهمال العمال من فساد الري وضياع الزرع .

٥ — تحويل اكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع ، او ما يعبر عنه المصريون بالابعادية او العزبة . ويغلب في الضياع ان تكون لاهل الدولة من الخلفاء او اقاربهم او عمالهم او وزرائهم او كتابهم ، او من يلوذ بهم من اهل النفوذ ، وقد رأيت في هذا الجزء ان عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع ، لحكمة ارادها من بقائهم على اهبةالرحيل عند الاقتضاء ، لا يقعدهم الترف او القصف ، كما نهى عن اختزان المال في بيت المال . غير ان هاتين القاعدتين لم يطل العمل بهما الا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك العضوض في ايام بني أمية ، فاختزن الصحابة الاموال واتخذوا المصانع (اي الدور المبنية) والضياع كما بيناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين ، وكان اقدمهم على ذلك الخلفاء من بني امية ، فقد اكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض اهلهم يقبضها اغتصاباً من اصحابها وليس من ينصفهم ، لتعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم واعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكاً حلالاً لهم ، فما أرادوا أخذه أخذوه ، وما ارادوا تركه تركوه[٢] حتى أفضت الخلافة الى عمر بن عبدالعزيز فعمل على الاقتداء

١ — ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و ٢٢٦ ج ٨ . ٢ - المقريزي ٧٧ ج ١ والاغاني ٣٠ ج ١١ .

بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل ، باسترجاع الضياع المغتصبة الى اهلها من النصارى او اليهود او المجوس ، فساء ذلك اهله فعجلوا به وعادت الاحوال بعده الى اشد مما كانت عليه كما تقدم .

فلما افضت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ هـ اعملوا السيف في بني أمية ، ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ، ولم يعدوا امتلاكها مخالفاً لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازماً لحياطة الدولة او حقاً من حقوق الملك ، اذ ليس من اوامر الدين او نواهيه ما يمنعهم من ذلك صريحاً . والانسان ميال بفطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلا. فالخلفاء العباسيون في اوائل دولتهم بذلوا الجهد في انصاف الناس وتأمينهم ، ليبينوا لهم الفرق بين حالهم في ايام بني امية وفي ايامهم ، فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالا ، ولكن بعض الذين دخلوا في خدمتهم او انتموا اليهم من الامراء او الكبراء كانوا يمدون ايديهم الى ضياع الناس . وكان الخلفاء ينصفون اصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم[١] على ان ذلك قلما كان يقلل من مطامع اهل الدولة في اموال الناس ، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق او بلا حق ، والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم او قبضوا اموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة ، وكان مبلغها ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠٫٠٠٠ درهم في اليوم[٢] وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التي سيأتي تفصيلها . فالضياع التي تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة او الدولة . فآل ذلك الى استكثار الخلفاء انفسهم من الضياع .

على ان اكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة واهله . وهذا طبيعي في الحكومات الاستبدادية ، وخصوصاً اذا كان الحاكم كريم الخلق او ضعيفا تؤثر عليه وساطة اهله ورجال حاشيته : ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها او ينعمون بها على الناس كجائزة على قصيدة او خطاب او نكتة او غير ذلك. وفي اخبار البرامكة كثير من امثال هذه العطايا . ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون ، فأنه كتب ضياعه في رقاع جعل اسم كل ضيعة في رقعة ونشرها على القواد فمن وقع له رقعة اخذ الضيعة المسماة فيها[٣]

---

١ – الماوردي ٨٧ ٢ – المسعودي ١٨٨ ج ٢ ٣ – أبو الفداء ٣١ ج ٢

وكان من ابواب اقتناء الضياع عندهم – حتى في صدر الدولة العباسية – كثرة ما كان من الأرض المهملة من عهد بني أمية . فكان الخليفة يعهد الى بعض اهله او خاصته في تعميرها وغرسها ثم تصير له – كما فعل المنصور بابنه صالح اذ امره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الاهواز[1] – ومن احيا أرضاً مواتاً فهي له .

الالجاء

ومن أسباب كثرة الضياع عند اهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء الاهالي ضياعهم ومغارسهم الى بعض اقارب الخلفاء او العمال تعززاً بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الارض يلتجيء الى بعض اولئك الكبراء فيستأذنه ان يكتب ضيعته او ضياعه باسمه ، فلا يجرؤ الجباة على العنف او الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج او ربعه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالي الاعوام ملكاً للملجأ اليه [2] ويصبح صاحبها الاصلي شريكاً في غلتها . ومثل هذا الالجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف اهلها سطوة الحكام واستبدادهم .

وقد بدأ الالجاء في الاسلام في ايام بني امية لما كان من ظلم عمالهم . فألجأ اهل السواد في ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة اخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززاً به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت في اعقابه حتى قامت الدولة العباسية ، فاستولى الخلفاء العباسيون عليها في جملة ما استولوا عليه من اموال بني امية وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن علي بن عبد الله بن عباس ، ثم صارت من الضياع السلطانية [3] وكذلك فعل بعض اهل المراغة في آذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى ارمينية فانهم الجأوا تلك الضيعة اليه فقبضت في جملة ما قبض من ضياعهم [4] .

وامتد الالجاء الى ايام بني العباس بالاستمرار فألجأ اهل زنجان ضياعهم الى القاسم بن الرشيد تقرباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الاشرية (اي كتبوا له صكوكاً ببيعها له) وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية [5].

---

١ – الفخري ١٥٧ ٢ – ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج ١
٣ – قدامة ٢٤٢ ٤ – ابن الفقيه ٢٨٤ ٥ – ابن الفقيه ٢٨٢

وحدث نحو ذلك ايضاً في فارس، فقد كانت فيها ضياع الجأها اربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق ، وظلت تجري بأسمائهم فخفف عنهم الربـــع وبقيت اجيالاً وهي في ايدي اهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها [١] واصبح اهلها مزارعين لهم .

ولم ينقض عصر الازدهار العباسي حتى اصبح في حوزة الخلفاء واقاربهم ورجـــال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع، واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه « ديوان الضياع » وهو غير ديوان الخراج . وقــد رأيت مقدار خراج الضياع فيما دونه علي بن عيسى في جريدة سنة ٣٠٦ هـ وكلها في بلاد المشرق في الري ودماوند وقزوين وزنجان وقم واصبهان وهمذان وماسندان وغيرها . وترى خراج الضياع في بعض الممالك يزيد على خراج الارض الاخرى. فخراج الضياع في ماه البصرة والايغارين مثلاً ٢٦٧ر٥٢٠ ديناراً ، وخراج سائر الارض هناك ١٨٥ر٦٣٦ دينــاراً . ولو عوملت الضياع في مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الأرض الاخرى لزاد خراجها اضعاف ذلك . لأن خراج تلك الضياع كان خفيفاً جداً بالنظر الى غيره ، وكثيراً ما كان يترك ولا يطالب به اعواماً على مقتضى احوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء ، وربمـا تراكم الخراج عدة اعوام حتى تتغير السياسة ويأتي من يطالب به [٢] .

الضياع السلطانية

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وارباب الثروة من الاهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهذه اقسام سميت بأسمـــاء تدل على انواعها وهي :

(١) الضياع الخاصة : وهي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه احد. وقد رأيت خراج هذه الضياع في جريدة علي بن عيسى — غير ما كان منها في نواحي واسط لأنــه أضيف الى اموال العامة — ٥١٦ر٤٤٧ ديناراً .

(٢) الضياع العباسية : وهي في الغالب لبني العباس اهل الخليفة ، وقد بلغ عددهم في ايام المأمون ٣٣ر٠٠٠ نفس [٣] وبلغ خراج تلــك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ، ١٤٤ر٧٦٠ ديناراً سوى ما هو منها في واسط .

---

١ — الاصطخري ١٨٥ ٢ — ابن الاثير ١٨٢ ج ٧ ٣ — أبو الفداء ٢٤ ج ٢

(٣) الضياع المستحدثة : قد رأيت خراجها في تلك السنة ٢٨٩٫٠٣٦ ديناراً .

(٤) الضياغ الفراتية : وسميت بذلك لأنها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها لذلك العام ٦١٧٫١٢٦ ديناراً .

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان [١] يضمنونها احياناً بأموال معينة في العام[٢] ولها دواوين وكتاب وعمال .

فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها اخصب الأرض ، لأن الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم[٣] وقد يتركونها لهم ، ومع ذلك فقد رأيت خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها في واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر ان ذلك طبيعي في الدولة المطلقة في تلك العصور فقد ذكرنا في هـذا الكتاب ان جباية الدولة العثمانية بلغت في ايام السلطان سليمان ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دوكات منها ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ من الضياع السلطانية وحدها [٤]

الايغار

وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه « ايغار » ، ومعناه في الاصل «استيفاء» فيقولون : « اوغر العامل الخراج اي استوفاه » ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الأرض مرة واحدة ولذلك قالوا : «اوغر الملك الرجل الأرض» جعلها له من غير خراج ، او هو ان يؤدي الخراج الى السلطان الاكبر فراراً من العمال ويسمى ضمان الخراج ايغاراً[٥] فكان اصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا . ومن الايغارات المشهورة في الدولة العباسية « ايغار يقطين » واصلها ان رجلا اسمه يقطين ، اوغرت له ضياع من عدة الطساسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين [٦] .

---

١ – ابن الاثير ٤٣ ج ٨ ٢ – ابن الاثير ٦٨ ج ٨ ٣ – Ein. Abb 80

٤ – Porter's Const. Hist. of Turkey MS.

والدوكة عملة ذهبية من عملات البندقية ducato نسبة الى الدوج وهو حاكم البندقية ، وهو لفظ محرف عن dux وكانت البندقية في تلك العصور هي مصدر النقود الذهبية الصحيحة ، ولا زال « العيار البندقي» في وزن الذهب مستعملا عندنا الى الآن .

٥ – محيط المحيط ٦ – قدامة ٢٤١

اسباب كثرة النفقات :

١ ـ اسراف الخلفاء ونسائهم

من الامور الطبيعية في العمران اذا كثرت الاموال في الدول ان يسخو الملوك في بذلها، وخصوصاً في الدول المطلقة وعلى الاخص في الدولة العباسية ، والخليفة مطلق التصرف في بيت المال[١] ودعاة الخلافة كثيرون لا يقعد فتنتهم غير استرضاء الاحزاب بالمال او كسر شوكتهم بالحرب، والاول اسلم عاقبة واقرب منالا اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون . فلا غرو اذا رأيناهما يبذلان الاموال في استكفاف الأذى عن الدولة ، او سد افواه اهل الفتن . لكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف ، فاقتنوا الجواري واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة[٢] وابتنوا المتنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف ، والتأنق في الطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي [٣] وأطلقوا ايدي نسائهم وامهاتهم وخاصتهم في الاموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة[٤] . وقبل ان يتوفى المنصور اوصى ابنه المهدي الا يشرك النساء في امره[٥] ومع ذلك فان الخيزران ام الرشيد كانت هي صاحبة الامر والنهي في ايام الهادي وايامه وكان وزيره يحيى بن خالد بن برمك تحت امرها [٦] فأفضى نفوذها الى حشد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام ١٦٠٠٠٠٠٠درهم[٧] وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة اعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال . فقد ذكروا ان ايراد روكفلر الغني الاميركي الشهير نحو ١٠٥٠٠٠٠٠ دينار . وقد بينا في غير هذا المكان ان قيمة النقود كانت تساوي ثلاثة اضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة روكفلر نحو ثلثي غلة الخيزران .

---

١ ـ الماوردي ٢٠٣ — ٢ ـ أعلام الناس ٩٨ — ٣ ـ ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢

٤ ـ اعلام الناس ٤٥ — ٥ ـ ابن الاثير ٨ ج ٦

٦ ـ ابن الاثير ٤٠ ج ٦ — ٧ ـ المسعودي ١٨٨ ج ٢

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغابة في الاستئثار ، فلما آنست في ابنهـا الهادي معارضة لأرادتها دست اليه من قتله [١] ولما ماتت توسع الرشيد بأموالهـا واقطع الناس ضياعها [٢] .

على ان الخيزران كانت من اهل العلم والرأي ، فلا غرابة في اقتنائها الاموال في ابان الثروة العباسية ، انما الغرابة في اقتناء امهات الخلفاء الاموال الكثيرة في عصر الاضمحلال وبيت المال فارغ . فان « قبيحة » ام المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار نقداً ومالا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت احمر مما قدروا قيمته ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من اجل ٥٠ر٠٠٠ دينار [٣] .

* * *

واغرب من ذلك شأن ام محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار [٤] في العام تنفقها في جواريهـا وهي نحو غلة الخيزران . واخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠ر٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك، ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله [٥] وقس على ذلك امهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام . فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند ، بما يتاح لهن من اطلاق الايدي في امـور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه اطلق يد والدته ويد اتامش وشاهد الخادم في بيوت الاموال وأباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الاموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة [٦] .

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد . وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت انه كان بين رياش ام المستعين بساط انفقت على صنعه ١٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيه نقوش على اشـكال الحيوانات والطيور واجسامها من الذهب

---

١ — ابن الاثير ٤٠ ج ٦ — ٢ — سير الملوك ٨٥
٣ — الطبري ١٧١٩ جـ ٣ — ٤ — الطبري ١٧٢٠ جـ ٣
٥ — ابن الاثير ٧ جـ ٧ — ٦ — ابن الاثير ٤٧ جـ ٧

وعيونها من الجواهر[١] . او اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درا فبـــاعه بعشرين ألف دينار[٢] او اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء[٣] .

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات ، اللواتي كن يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير او من ينوب عنه[٤] فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي اعمال الدولة — كما كانت تفعل ام موسى القهرمانة في ايام المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة[٥] ولم يكن لاولئك القهرمانات سبيل للانفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجواري والخدم وغيرهم .

الجواري والغلمان

وقد رأيت مما ذكرناه من مناقب المنصور انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله . لكن لم يمض على موته اربعون سنة حتى اصبحت دور الخلفاء مسرحاً للغنـــاء واللهو — قالوا انه كان في قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطيرية فضلاً عمن كان في قصره من الندماء والمضحكين كالشيخ ابي الحسن الخليع الدمشقي[٦] وابن ابي مريم المدني[٧] وغيرهما . وما من جارية الا وثمنها الف دينار او عشرة آلاف دينار[٨] الى مئة الف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الاخرى كالالبسة والحلي وهو شيء كثير . فقد اشترى الرشيد خاتماً بمئة ألف دينار[٩] وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١٫٠٠٠ خصي من الروم والسودان[١٠] غـــير ما يقتضيه ذلك من الابنية والقصور والرياش. فقد بنى المعز داراً في بغداد انفق عليها ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[١١] وبنى

---

١ — المستطرف ١٣٤ ج ١
٢ — ابن خلكان ١٩٩ ج ١
٣ — المستطرف ٤٦ ج ٢
٤ — ابن الاثير ٣٧ ج ٨
٥ — ابن الاثير ٢٤ ج ٨
٦ — اعلام الناس ٩٧
٧ — الطبري ٧٤٣ ج ٣
٨ — ترتيب الدول ١٢٦
٩ — ابن الاثير ٤٤ ج ٦
١٠ — الفخري ٢٣٤
١١ — ابن الاثير ٢١١ ج ٨

الامين قصوراً في الخيزرانية انفق عليها ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[١] واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على صورة الاسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس انفق عليها مالاً عظيماً وفيها يقول ابو نواس :

سخر الله للامين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً	سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس اذا رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه	كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ	ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما	استعجلوها بجيئة وذهاب

ومما يحسن ايراده مثالاً على بذخهم ان الامين امر يوماً ان يفرش له على دكان في الخلد ، ففرش عليها بساط ذرعي ونمارق وفرش مثله وهيىء من آنية الذهب والفضة والجواهر امر عظيم . وامر قيمة جواريه ان تهيىء له مائة جارية صانعة فيصعدن اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد[٢] ففعلت . وسنأتي على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم في الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب .

السخاء

على ان الاسراف كان اكثره فيما يبذلونه كرماً وسخاء ، ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً . فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته[٣] وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم[٤] فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها . فقد فرق المنصور في يوم واحد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم على اهل بيته[٥] وفرق المأمون في يوم واحد ١٫٥٠٠٫٠٠٠ درهم على ثلاثة اشخاص[٦]. وقد رأيت في هذا الكتاب انه فرق ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ورجله في الركاب . وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ

---

١ — ابن الاثير ١١٢ ج ٦ ٢ — ابن الاثير ١٢٠ ج ٦
٣ — الطبري ٧٤٠ ج ٣ ٤ — الفخري ٢٠٧ ٥ — ابن الاثير ١٣ ج ٦
٦ — ابن الاثير ١٦٧ ج ٦

١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم . وتصدق المعتصم في اثناء خلافته بمـا مجموعه ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم[١] وبلغ ما انفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الارزاق ٧٠،٠٠٠،٠٠٠ دينار[٢] — فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم ، وربمـا بلغت جائزة الشاعر مائة الف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة او اكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر انه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف انه لا يأخذ قيمتها الا مائة الف الف درهم (١٠٠،٠٠٠،٠٠٠) فأعطاه اياها — وفي ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء[٣] وكثيراً ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلاً عن الاموال[٤] .

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وامثاله يحسبه اهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على مـا يعلمونه من القواعد الاقتصادية . على اننـا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ما تبين لهم من مقدار الثروة العباسية ، ومقدار ما كان يبقى من الامـوال تحت تصرف الخلفاء ، او من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب — الا اذا شككنا في حقيقة تلك الثروة وهو شك في التاريخ على اجماله . لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما بيناه من هذا القبيل كما رأيت . ثم اننا اذا اعتبرنا نظام الهيئة الاجتماعية في تلك الايام على ما سنفصله في الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم في مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين اغنيائنا اليـوم من يبذل ٥٠،٠٠٠ جنيه ١٠٠،٠٠٠ جنيه ثمن صورة او قطعة من الآثار القديمة لا تنفع ولا تضر . وقرأنا بالامس ان مورجان الامريكي الشهير اشترى صوراً بمليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف .

وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم ايضاً من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدي وهو ولي عهد ، قال : قدمت على المهدي في الري وهو ولي عهد فأمر لي بعشرين الف درهم لابيات امتدحته بها ، فكتب اليه المنصور (ابوه) يعذله ويلومه ويقول له : « انما كان ينبغي لك ان تعطي الشاعر بعد ان يقيم ببابك سنة اربعة آلاف درهم » — الى ان قال — وبعث المنصور يستقدمني اليه

---

١ — الطبري ١٣٢٩ ج ٣ ٢ — ابن الاثير ٩٠ ج ٨
٣ — ابن خلكان ١٩٨ ج ١ ٤ — الطبري ١٤٦٨ ج ٢

حتى جئت ودخلت عليه فقال : « هيت ! اتيت غلاماً غراً فخدعته .. » فقلت : « نعم اصلح الله امير المؤمنين .. اتيت غلاماً غراً كريماً خدعته فانخدع » فقال المنصور : « انشدني ما قلت فيه » فأنشدته (ثم ذكر القصيدة ومطلعها :

هو المهدي الا ان فيه   مشابه صورة القمر المنير)

فقال : « والله لقد احسنت ، ولكن هذا لا يساوي عشرين الف درهم » وقال: « أين المال : » قلت : « ها هو ذا » قال : « يا ربيع انزل معه فاعطه اربعة آلاف درهم وخذ منه الباقي » فخرج الربيع فحط ثقلي ووزن لي اربعة آلاف درهم ، واخذ الباقي [1] . فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يقدرون الشعراء بآلاف الدراهم .

هل كان الخلفاء يسرفون من اموالهم الخاصة ؟

بقي علينا النظر فيما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها ، هل كانوا يؤدونه من اموالهم الخاصة ام من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولاً صريحاً . على ان سكوت المؤرخين عنه يرجح انهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال — ولا جناح فيه عليهم ، لان الامام هو ولي بيت المال ينفقه فيما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده ، وقد يرى في اجازة الشاعر او هبة العالم فائدة للدولة.

على اننا رأينا ذكراً لبيت مال الخاصة في ايام الهادي ،ويظهر من سياق بعض الحوادث التي وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا امروا لشاعر او غيره بمال انما يريدون ان يدفع له من بيت مال المسلمين ، وان الوزراء كثيراً ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون أمر الخليفة ، كما وقع لعيسى بن داب مع الهادي — وذلك ان عيسى المذكور كان من اكثر اهل الحجاز أدباً واعذبهم لفظاً ، وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن لاحد قبله ، فأمر له مرة بثلاثين الف دينار في دفعة واحدة . فلما أصبح ابن داب ارسل قهرمانه الى الحاجب في قبضها فقال الحاجب : « هذا ليس الي فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد الى ابن داب فأخبره فقال : « اتركها » فبينما الهادي في مستشرف له ببغداد رأى ابن داب وليس معه إلا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادي :

---

١ — الطبري ٤٠٦ ج ٣

« اري ثوبك غسيلاً وهذا شتاء يحتاج فيه الى الجديد » فقال : « باعي قصير » فقال : « وكيف وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك ؟ » فقال : « ما وصل الي » فدعا الهادي صاحب بيت مال الخاصة فقال : « عجل الساعة بثلاثين الف دينار » فأحضرت وحملت بين يديه[١] – فيظهر من سياق هذه الحكاية ان الخليفة اراد ان يدفع اليه المال من بيت المال العام ، فلما لم يدفعوا له أمر بدفعه من بيت ماله الخاص .

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خاقان ، اذ امره الرشيد ان يدفع ثمن جارية ١٠٠ر٠٠٠ دينار ، فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه ، فغضب الرشيد فأراد يحيى ان يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١ر٥٠٠ر٠٠٠ درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد اذا اراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما اخبروه انه ثمن الجارية ادرك اسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غل يديه فحفظ ذلك في نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة[٢] .

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره ان يدفع ضعفين ففعل[٣] .

وفي كتاب ابي سفيان الثوري الى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به الى بغداد مايشبه كلام ابي ذر الغفاري لمعاوية ، ويدل على ان الرشيد كان يهب ويجيز من بيت مال المسلمين . وذلك ان الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه في الكوفة ، واخبره ان الناس قدموا اليه ، وانه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه ابو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفي جملة ذلك قوله : « أما بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته في غير حقه وانفذته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك . فأما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك ، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم والعدل . يا هارون هجمت

١ – ابن الاثير ٤٣ ج ٦ وطبعة المطبعة المنيرية ٨١/٦ – ٨٢

٢ – الطبري ١٣٣٢ ج ٣ . ٣ – ابن الاثير ١٣ ج ٧ .

على بيت مال المسلمين بغير رضاهم .. هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في ارض الله ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ..؟ ام رضي بذلك حملة القرآن واهل العلم (يعني العاملين) ؟ ام رضي بفعلك الايتام والارامل ؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك .. ؟ » [١] .

فهذا وامثاله يدل على ان الخلفاء كانوا يهبون ويجيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال .

٢ — تكاثر أبواب النفقة في الدولة

بينا في الجزء الاول من هذا الكتاب كيف تدرجت الدولة الاسلامية في ادارتها منذ كان النبي (صلعم) هو الامير والقاضي والقائد حتى اصبح موظفو الحكومة في ايام الراشدين ستة ، وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع المملكة في ايام بني امية فبني العباس. وكانت تلك الادارات تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء ، فأصبحت في ايام الرشيد اكثر منها في ايام المنصور ، وفي ايام المأمون اكثر منها في ايام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها في ايام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت في جريدة المعتضد من أصناف المرتزقين في بلاط الخليفة من الغلمان والمماليك وأصحاب المطابخ والجلساء وأصحاب الركاب ، مما لم يكن له ذكر في صدر الدولة العباسية . وقس عليهم اصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء ، مما لا يقع تحت الحصر ، وكله قد اقتضاه الترف في حضارة الدولة .

وزد على ذلك ان بعض النفقات كانت تصرف اول الامر من غير بيت المال ، فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لاسبيل الى معرفتها ، اذ لم يرد نص صريح بشأنها ، وان كنا نستدل عليها ضمنا من نصوص كثيرة — مثل ما نراه من الفرق بين جريدة النفقات في ايام المعتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة علي بن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد في هذه نفقات لا ذكر لها في تلك ، مثل نفقات الحرمين ، ورواتب القضاة في الممالك ، وولاة الحسبة ، واصحاب البريد في جميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الابواب غير واردة في تلك لأن

---

١ — الدميري ١٨٨ ج ٢ .

العمال كانوا يقومون بها من خراج اعمالهم كما اشرنا الى ذلك ، فلما ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها .

وقد تقدم في الجزء الاول ان ارتفاع الثغور كان ينفق في مصالحها فلا يرد منه شيء الى بيت المال، على انهم كثيراً ما كانوا يحصلون منها على الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها في صدر الدولة العباسية[١] اما في ايام الاضمحلال فقلت الغزوات ، وبطلت الغنائم ، وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور ، وزادت عما كانت عليه في صدر الدولة حتى بلغت في ايام المقتدر نحو ٥٠٠،٠٠٠ دينار ، وكانت قبله ١٠٠،٠٠٠ دينار ، وهو مقدار ارتفاعها الذي ينفق في مصالحها[٢] ـ ناهيك بما حدث من نفقات الجند، وغيره .

٣ ـ زيادة الضرائب

ولم تقتصر زيادة النفقات على نشوء ادارات لم تكن من قبل ، ولكن الادارات القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في اوائل الدولة . وطبيعي انه اذا كثرت ثروة الدولة وسعت على رجالها وزادت رواتبهم وما يجري لهم من الارزاق فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على اساس ضعيف لا تلبث ان تنحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هي، فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطروا الى فرض الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها ، فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً .

كان المسلمون في أيام النبي (صلعم) وأبي بكر يرتزقون مما يقع في ايديهم من الغنائم ، فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم ، حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتباً معيناً في السنة وميزهم باعتبار أنسابهم وقرابتهم من النبي، او سابقتهم في الاسلام وليس باعتبار ما يؤدونه من الاعمال ، فقد يكون احدهم كاتباً او عاملاً او قاضياً على السواء . فلما تفرعت إدارات الدولة وتميزت لم يروا بداً من تعيين الرواتب باعتبار المناصب ، فجعلوا لكل من الجندي والعامل والكاتب والحاجب والقاضي وغيرهم راتباً معيناً . ولما حدثت الوزارة في الدولة العباسية جعلوا لها راتباً كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة . واختلف مقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف

---

١ ـ ابن الاثير ٢٧ ج ٦ .   ٢ ـ قدامة ٢٥٣ .

الدول والعصور ، فلننظر في تاريخ اشهر تلـــك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه .

رواتب العمال

كان راتب العامل في ايام عمر ٦٠٠ درهم في الشهر[١] ثم اختلف باختـــلاف العمال والاعمال ، فقد جعل عمر لمعاوية على الشام الف دينار في السنة[٢] ولما أفضى الامر الى بني أمية اصبحت ولاية الاعمال فوضى على ما تقتضيه الاحوال من اطماع العمال بنصرتهم او التوسيع لهم في النفقة لحرب الخوارج او العلويين او غير ذلك. فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً ، بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها — على ان ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار ، كعامل العراقين ، او مصر ، او خراسان . وقد بلغ راتب يزيد بن عمر ابن هبيرة امير العراق في ايامهم ٦٠٠ر٠٠٠ درهم في السنة[٣] ، وبلغت غلة خالدالقسري ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم [٤] ، وليس هذا الاخير من قبيل الراتب فلا يقاس عليه .

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم في اعمالهم ، كما كان يفعل الحجاج في العراق ، وعمرو بن العاص بمصر . فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لا تزيد عن ٣٠٠ درهم في الشهر [٥] ، وظلت على نحو ذلك في صدر الدولة العباسية الى ايام المأمون ، فزادها وزيره الفضل بن سهل في جملة ما زاده من الرواتب على اثر ما كان من تكاثر الثروة مع رغبـــة الخليفة في ارضاء نصرائه من اهل خراسان . اما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال ، لأن العمل قد يقتصر على ولاية صغيرة او يعقد له على عـــدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه واهميته ، وباعتبار رضى الخليفة عن عامله ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همذان الى التبت طولاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ، ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً الى الهند وجعل له عمالة قدرها ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم في السنة ، وعقد له لواء على سنان ذي

---

١ — سراج الملوك ٢٧٧ . ٢ — المقريزي ٩٥ ج ١ .
٣ — ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ . ٤ — ابن خلدون ٩٦ ج ٣ .
٥ — الطبري ٤٣٤ ج ٣ .

شعبتين واعطاه علماً وسماه ذا الرياستين : [١] السيف والقلم ، ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رياسة الحرب » ، ومن الجانب الآخر « رياسة التدبير »[٢] فعل ذلك له لما كان من نصرته اياه في خلافه مع اخيه الأمين ، فلا يقاس به العمال الذين يتولون الاعمال الصغرى ، ومنهم بضعة عشر عاملاً تحت راية الفضل بن سهل في المشرق . وعمالة هؤلاء تختلف ايضاً باختلاف الولايات ، ويظهر انها كانت تتراوح بين ٣٠٠ و ١٠٠٠ درهم قياساً على ما ذكره ابن حوقل من رواتبهم في ايام منصور بن نوح[٣] .

واما عمال الولايات الكبرى التي كانت علاقتها رأساً مع الخليفة ، فقد كانت رواتبهم كبيرة جداً كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين بن علي الماذراني على مصر في اوائل القرن الرابع للهجرة ٣٠٠٠ دينـار في الشهر [٤] او ٦٠٫٠٠٠ درهم ومقدار ذلك في السنة ٧٢٠٫٠٠٠ درهم ، وقس على ذلك .

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها فاحشة جداً . لأن الولايات في الدولة العثمانية ثلاث درجات : الدرجة الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية في الشهر ، والثانية ٢٠٠ ، والثالثة ١٥٠ . وراتب عامل انجلترا على الهند (نائب الملك في الهند) ٢٠٨٣٣ روبية في الشهر [٥] اي نحو ٢١٫٨٧٥ جنيه في السنة وهو اعظم رواتب العمال في هذا العهد . ومع ذلك فانه اقل من راتب الماذراني المتقدم ذكره — ناهيك بمـا كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه .

رواتب الكتاب

وكانت رواتب الكتاب الى ايام المأمون مثل رواتب العمال الصغار ، لا يزيد مقدارها في الشهر على ٣٠٠ درهم ، فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم نقف على مقدار تلـــك الزيادة . ولكن بالقياس الى غيرها يجب ان تكون كثيرة ، فضلاً عما كانوا يستولون عليه من الاخرجة اليومية وقد عدد المقريزي ما كان يستولي عليه كاتب من كتاب مصر على عهد الدولة الفاطمية في اليوم الواحد ، من البقولات والتوابل والحلويات والاثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ، ومن الالبسة والافرشة وما كان يجري من ذلك كله على

---

١ — ابن الاثير ١٠٣ ج ٦ . ٢ — الطبري ١٠٤١ ج ٣ .

٣ — ابن حوقل ٣٤٢ . ٤ — Ein Abb. 80 ٥ — ريتكر ٤٦٦ .

اولاده واهله ، فاستغرق تعداده نحو صفحتين او ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب — فاكتفينا بالاشارة اليه تفادياً من التطويل ، ومن اراد التفصيل فليراجعه هناك (١) .

رواتب الوزراء

الوزارة من محدثات الدولة العباسية ، واول من اشتهر من وزرائها البرامكة ، ولم نقف على مقادير رواتبهم ، والظاهر انها كانت كبيرة ، فضلاً عن اطلاق ايديهم في بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على اننا قد رأينا في قائمة النفقات في ايام المعتضد ان راتب الوزير ٣٣ ١/٣ دينار في اليوم او الف دينار في الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب في هذه الايام زاد هذا الراتب على ١٫٥٠٠ جنيه — وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير في الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية في الشهر ، إلا الصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة ، والوزير المصري راتبه ٢٥٠ جنيهاً في الشهر ، ورواتب اكبر وزراء انجلترا ٢٠٠٠ جنيه في العام (٢) .

على ان رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف العصور والدول — كان راتب الوزير على ايام الناصر الاندلسي ٨٠٫٠٠٠ دينار في السنة غير الهدايا (٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفى في اواسط القرن السادس للهجرة ١٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة (٤) وكان للوزراء ، فضلاً عن رواتبهم المشار اليها ، رواتب لأولادهم واخوتهم وخدمهم واتباعهم وارزاق ووظائف كثيرة ، وخاصة في مصر . فقد كان راتب الوزير في الدولة الفاطمية ٥٠٠٠ دينار في الشهر ، ولمن يليه من ولد او اخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ، ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ الى ٣٠٠ دينار ، ما عدا الاقطاعات (٥) وغير ما يجري عليه وعلى اهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار ايام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه واهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار في الشهر ، ومن الفاكهة سلة بدينار ، وعشرة ارطال شمع بدينار ، ونصف حمل بلح (٦) وكان راتب الوزير في الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد (٧) .

---

١ — المقريزي ٣٩٩ ج ١ . ٢ — ويتكر ١٧٠ .
٣ — نفح الطيب ١٦٨ ج ١ . ٤ — الفخري ٢٧٨ .
٥ — المقريزي ٤٠١ ج ١ . ٦ — المقريزي ٣ ج ٢ . ٧ — ابن خلكان ٧٣ ج ٢ .

رواتب القضاة

كان راتب القاضي في ايام الراشدين مائة درهم في الشهر ، ومؤونته من الحنطة [١] ، ثم ارتقى في ايام بني امية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة ٨٨ هـ الف دينار في السنة [٢] أي نحو عشرة اضعافه في ايام الراشدين. فلما افضت الخلافة الى بني العباس انزلت الرواتب فصار راتب قاضي مصر في ايام المنصور ٣٠ ديناراً في الشهر . ثم تصاعد في عهد من خلفه حتى بلغ في ايام المأمون (سنة ٢١٣ هـ) ٤٠٠٠ درهم في الشهر ، اي ٢٧٠ ديناراً ، ثم عاد في ايام ابن طولون الى الف دينار في السنة [٣] .

واما في بغداد فلم نطلع على راتب القاضي في اوائل الدولة العباسية ، ولكننا رأينا في جريدة المعتضد ان راتب القاضي ١٦ وثلثا دينار في اليوم او ٥٠٠ دينار في الشهر – بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي – ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام ، فان راتب شيخ الاسلام في الاستانة لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية في الشهر ، مع اعتبار الفرق في قيمة النقود بين تلك الايام واليوم .

رواتب الخلفاء واهلهم

قد رأيت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتاب ، فبالأولى ان يفرضوها لانفسهم واولادهم ، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال . لكننا لم نجد قولاً صريحاً في هذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من الضياع او الأموال ، واكثر ما كانوا يفعلون ذلك في اول الدولة اذا خافوا اهلهم من مناظرتهم على تلك ، فكانوا يشترون مبايعتهم بمال يرضون به اهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى اذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ ١١،٠٠٠،٠٠٠ درهم له ولأولاده [٤] او للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع اعمامه فانه امر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو اول من فعل ذلك [٥] . ويظهر انها كانت تدفع اليهم في كل عام . ولما توفي ابنه المهدي فرض لأهل بيته كل واحد ٦٠٠٠ درهم في السنة [٦] والظاهر انهم بقوا على نحو ذلك فضلاً

---

١ – سراج الملوك للطرطوشي (على هامش المقدمة) . ٢ – السيوطي ١١٥ ج ٢ ،
٣ – السيوطي ١١٩ ج ٢ . ٤ – ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥ .
٥ – الطبري ٤٢٠ ج ٣ . ٦ – سير الملوك ٦٥ .

عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة ، وخصوصاً أبناء الخلفاء وولاة عهدهم ، فان الهادي امر سنة ١٧٠ هـ لابنه الرشيد بمليون دينار ، وان يحمل اليه نصف الخراج (١) على اثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد .

والظاهر ان الرشيد زاد في رواتب اهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته . وكان اعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في ايامه ٣٣٫٠٠٠ نفس. ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما وأشهد عليهما بذلك ، وترك للمعتز ما يتحصل منه في السنة ٢٠٫٠٠٠ دينار ، وللمؤيد ما يتحصل منه ٥٠٠٠ دينار وحبسهما (٢) .

فلما كانت ايام ابن رائق امير الامراء في اوائل القرن الرابع للهجرة، كفت أيدي الخلفاء عن بيت المال ، وصار الى رجال الدولة – واول من كفت يده الراضي بالله الذي توفي سنة ٣٢٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة في الاموال وصار الخلفاء في حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتباً زهيداً (٣) .

ويظهر ان الخلفاء لم تكن لهم قبل ذلك رواتب معينة ، غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع – الا ابا بكر فقد فرضوا له ٦٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف (٤) ثم لم نر ذكرا لرواتب الخلفاء الى ايام ابن رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفي ٥٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ، ولكنه قلما كان يدفعها اليه (٥) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتي ذكره في حينه .

وفرض الأعطية للملوك واهلهم عادة جارية عند معظم الامم الآن ، والغالب في الدول المتمدنة ان تكون تلك الرواتب معينة في ميزانياتها . وهاك رواتب العائلة المالكة في انجلترا لعام ١٩٠٢ :

---

١ – ابن الاثير ٤٠ ج ٦ .　　٢ – الطبري ١٥٠٧ ج ٣ .　　٣ – الفخري ٢٥٤ .
٤ – المقريزي ٩٥ ج ١ .　　٥ – ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ .

رواتب العائلة المالكة في انجلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انجليزي	
١١٠٠٠٠	راتب الملك
١٢٥٨٠٠	راتب خدم القصر
١٩٣٠٠٠	نفقات القصر
٤١٢٠٠	نفقات اخرى وتبرعات
٤٧٠٠٠٠	(جملة مخصصات الملك)
١٦٠٠٠٠	رواتب سائر اعضاء العائلة
٦٣٠٠٠٠	

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصري	
١٠٠٠٠٠	مخصصات الخديو
٩٧٩٢٧	مرتبات العائلة الخديوية
٥٧٤٣٤	نفقات كابينة الخديو
٢٥٥٣٦١	

ولسلطان تركيا راتب مقداره في الشهر ٧٥٫٠٠٠ ليرة عثمانية ، او ٩٠٠٫٠٠٠ ليرة في السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢) .

رواتب حاشية الخليفة

ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة اعمالهم بشخص الخليفة ، وليس بأعمال الدولة كالاطباء والحجاب والحرس الخاص ، ورواتبهم من بيت مال الخاصة ، وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة ، وكانت كبيرة ، نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد ، ومنها رواتب نقدية كان يؤخذ بعضها من بيت مال العامة ، والبعض الآخر من بيت مال الخاصة . واليك راتب جبريل المذكور في السنة كما وجدوه مدوناً بخط كاتبة [١] :

مرتبات جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد في السنة

درهم		
		من بيت مال العامة
	١٢٠ ٠٠٠	راتب نقدي
١٨٠٠٠٠	٦٠ ٠٠٠	النزل
		من بيت مال الخاصة
	٥٠ ٠٠٠	راتب نقدي
	٥٠ ٠٠٠	ثياب قيمتها
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد صوم النصارى
	١٠ ٠٠٠	هدية على يوم الشعانين (ثياباً قيمتها هذا المبلغ)
	٥٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر نقداً
	١٠ ٠٠٠	هدية على عيد الفطر (ثياباً قيمتها ذلك المبلغ)
	١٠٠ ٠٠٠	لفصد الرشيد دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٤٢٠٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	لشرب الدواء دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠
٦٠٠٠٠٠	(المجموع)	

١ — طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ١٣٦ ج ١ .

		من أصحاب الرشيد نقداً وثياباً وأطياباً
	٥٠ ٠٠٠	درهم من عيسى بن جعفر
	٥٠ ٠٠٠	درهم من زبيدة أم جعفر
	٥٠ ٠٠٠	درهم من العباسة
	٣٠ ٠٠٠	درهم من ابراهيم بن عثمان
	٥٠ ٠٠٠	درهم من الفضل بن الربيع
	٧٠ ٠٠٠	درهم من فاطمة أم محمد
٤٠٠٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	كسوة وطيب ودواب
	١ ٠٠٠ ٠٠٠	(المجموع)
	من البرامكة	
	٦٠٠ ٠٠٠	من يحيى بن خالد
	١٢٠٠ ٠٠٠	من جعفر بن يحيى الوزير
٢٤٠٠٠٠٠	٦٠٠ ٠٠٠	من الفضل بن يحيى
٨٠٠٠٠٠		غلته من ضياعه
٧٠٠٠٠٠		من فضل مقاطعته
٤٩٠٠٠٠٠		(الجملة)

فجملة رواتبه فقط ٤٫٩٠٠٫٠٠٠ درهم في العام ، فاذا جمع ذلك في مدة خدمته كلها وهي ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢٫٧٠٠٫٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم في العشر السنين الأخيرة ، وهو ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فالباقي ٨٨٫٧٠٠٫٠٠٠ درهم ، وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام . وأما ما أنفقه فهو :

درهم	
٢٧٦٠٠٠٠٠	جملة نفقاته على نفسه وبيته في ٢٣ سنة بمعدل ٠٠٠ ٢٠٠ ١ درهم في السنة
٧٠٠٠٠٠٠٠	ثمن دور وبساتين ومتنزهات ودواب ورقيق وغيرها
٨٠٠٠٠٠٠	ثمن آلات واجر وصناعات ونحو ذلك
١٢٠٠٠٠٠٠	ما صار في ثمن ضياع ابتاعها لخاصته
٥٠٠٠٠٠٠	ثمن جواهر وما اعده للذخائر .
٣٠٠٠٠٠٠	ما انفقه في البر والصلات والمعروف
٣٠٠٠٠٠٠	ما كابره عليه اصحاب الودائع وجحدوه (أي أنكروه)
١٢٨٦٠٠٠٠٠	(والمجموع في الاصل ٠٠٠ر٩٠٠ر٩ دينار و ٠٠٠ر٦٠٠ر٩٠ درهم)

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الايام . فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٠٠٠و٣٠٠ درهم في السنة ، وغلة صاحب شرطته ٠٠٠ر٥٠٠ درهم، وغلة حاجبه ٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهم في السنة [١] .

رواتب الجند

بينا في باب الجند من الجزء الاول كيف كان المسلمون كلهم جنداً ، وذكرنا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة ، وكيف تضاعفت رواتبهم في اوائل بني امية ثم نقصت في اواخرها ، ثم زادت في اوائل بني العباس ، ثم نقصت حتى صارت في ايام المأمون ٢٤٠ درهماً في السنة للجندي الراجل (النفر) فضلاً عن حصته من الغنائم اذا غزا . ويظهر ان تلك الحصة من الغنائم ، كانوا يحبسونهـــا عن الجند في صدر الدولة العباسية ، حتى طلبوا من محمد الأمين سنة ١٩٨ هـ ان يردها عليهم اذا غزوا فردها فاصاب الرجل ستة دنانير [٢] .

---

١ ــ طبقات الاطباء ١٣٢ ج ١ .   ٢ ــ الطبري ٩٧٢ ج ٣ .

ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده فيه بالاعطيات ، فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) [١] اي انه اعادها الى ما كانت عليه في ايام السفاح . فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهماً .

الافشين وبابك

فلما افضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وكان ما كان من اقتنائه الاتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم ، وضعف الخلفاء للاسباب التي قدمناها ، اصبح مرجع القوة في كل شيء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال امر بابك الخرمي في ارمينيا واذربيجان . وكان بابك قد ظهر في ايام المأمون يدعو الناس الى دين جديد اساسه الحلول اي تقمص الأرواح [٢] فبعث اليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة ، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لأنه اصبح خطراً على ملكه فبعث اليه اتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الأفشين حيدر ابن كاووس سنة ٢٢٠ هـ ثم اردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال ، وآخر اسمه جعفر الخياط ثم انفذ اليه ايتاخ ومعه ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم لنفقات الجند ، وبعد حروب سنتين فاز الأفشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء ببابك الى سامرا فخرج الواثق بن المعتصم وسائر اهل المعتصم لاستقباله باحتفال ، وهم لا يصدقون انهم نجوا من بابك على يده ، لأنه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً ، فقتل في عشرين سنة ٢٥٥٫٥٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم — فلما قبض الأفشين عليه امر المعتصم ان يركبوه على الفيل ، فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم ادخلوه على المعتصم في داره فأمر سياف بابك نفسه ان يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وانفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه في سامرا . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله — وكان لا ينفك عن مواصلة الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلعة وفرساً ويدفع اليه في اثناء اقامته بازاء بابك (سوى الارزاق والانزال والمعاون) عن كل

---

١ — الطبري ٨٣٠ ج ٣ .   ٢ — ابن الاثير ١٣٤ ج ٦ .

يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه والبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم : عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره ، وعقد له على السند وادخل عليه الشعراء يمدحونه [١] .

فالافشين لم يثبت في محاربة بابك الا طمعاً في المال ، مع ما كان يواصله به المعتصم من الخلع والاموال في اثناء الحرب ، ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو في دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة او هدية بعث به رأساً الى بلده اشروسنة فيما وراء النهر بطريقة سرية ، فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم ، المعتصم يأمره ان يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالاً كثيراً جعله في اوساط اصحابه في الهمايين فبعث ابن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال « من أين لكم هـذا المال ؟ » قالوا : « للافشين » فأخذه واظهر ان الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه ، وقد تبين من محاكمته انه لم يعتنق الاسلام إلا طمعاً في المال وانه لا يزال على المجوسية [٢] .

* * *

وقس على ذلك سائر جند المعتصم ، فانهم انمـا كانوا يحاربون لمجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم في اقصى الشرق — فكيف تستقيم دولة هذا جندها ؟ — على ان الخلفاء لم يكونوا يجدون بدأ من استنصارهم ، ولا سبيل الى ذلك إلا بالمال .. فكانوا يبذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها ، اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم — لأنه بنى لهم سامرا ، واقطعهم فيها الاقطاعات، واشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ، ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا احداً من المولدين ، الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض . واجرى للجواري الاتراك ارزاقاً قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين ، فلم يكن يقدر احد منهم ان يطلق امرأته ولا ان يفارقها [٣] .

---

١ — الطبري ١٢٣٢ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ٢٠٩ و ٢١١ ج ٦ .
٣— اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٣ .

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع ارزاق الرجال ، وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيماً جداً .. قال الطبري في حوادث سنة ٢٥٢ ﻫ : « وذكر ان ارزاق الاتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة ، فكان مبلغ ما يحتاجون اليه في السنة ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » [١] . ونظن ان المراد ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (لا دينار) ، اذ يستبعد ان يجتمع هذا القدر من الخراج دنانير في سنتين ، لاننا لو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً — وهي قيمته في ذلك الحين — كان خراج المملكة في السنة ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، وقد رأينا خراجها في ابان ثروتها لا يزيد على ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم — فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند في سنة واحدة امر عظيم جداً ، وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في تلك الايام . ولكنه لا يعد شيئاً بالنظر الى نفقات الجند في هذه الايام (سنة ١٩٠٣) لأن التمدن الحديث اقتضى الاحتياط والتجنيد واعداد المعدات ، حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصاً اذا اضفنا اليها نفقات الاساطيل — فانجلترا مثلاً تنفق على جنديتها براً وبحراً نحو ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه في السنة ، وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ ، وكذلك روسيا . وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعفي ما كان ينفقه العباسيون تقريباً ، ولكننا اعظمنا ما انفقوه بالنظر الى ما كان من طرق انفاق الجند عندهم .

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسي من اغتصاب اموال الناس في منازلهم وحوانيتهم لأقل سبب يحدث ، والخلفاء لا يعدون ذلك ذنباً لهم بل ربما عنفوا الناس لانهم لم ينقلوا سلعهم وأمتعتهم الى مكان لا يعرفه الجند .

على ان الخلفاء كانوا ينشطون مطامع الجند فيهم ، بما كانوا يشرطونه على انفسهم من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الفلاني حتى في ساحة الحرب . فكانوا اذا احتدم القتال وخاف الخليفة او الامير ضعفاً صاح في جنده : « من جاء بأسير فله عشرة دنانير ، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ ﻫ [٢] .

اما رواتب الجند العباسي ، أي ما كانوا يتقاضونه قدراً معيناً في العام ، فقد تبين من قائمة نفقات الدولة في ايام المعتضد — على ما مر في هذا الكتاب — ان ارزاق الجند من

---

١ — الطبري ١٦٨٥ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ٩٠ ج ٨

الفرسان والمماليك ونحوهم لا تزيد على ١٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار او ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم . ثم استفحل امر الجنود الاتراك بتوالي الاعوام وتعددت فرقهم ، وتزايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره ، لأنه يختلف باختلاف الازمان والاحوال فضلاً عن سكوت المؤرخين في هذا الشأن إلا ما قد يتناولونه عرضاً .

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية (أي الحرس) الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ ﻫ ٢٠٫٠٠٠ رجل ، بلغت رواتبهم ١٢٫٠٠٠ دينار في الشهر ، اي ستة دنانير لكل واحد ، وكان عدد الفرسان ١٢٫٠٠٠ فارس رواتبهم في كل شهر ٥٠٠٫٠٠٠ دينار ، وذلك نحو ٤٢ ديناراً لكل واحد . او نحو ١٢٫٠٠٠ درهم في السنة للفارس ، و١٫٤٤٠ درهماً للراجل . وكانوا مع ذلك كثيراً ما يثورون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يجبهم [1] . وتداخلوا في منازل الخلفاء،ووضعوا ايديهم على الخلافة، وصاروا يولون من شاءوا واذا اتت الاموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة او الديوان إلا القليل ، كما فعل اتامش وشاهك في ايام المستعين بالله سنة٢٤٩ ﻫ [2] .

وكما كان القواد يطمعون في الخلفاء ويستبدون بهم كانوا ايضاً يستأثرون بالاموال دون افراد الجند حتى لقد ثار هؤلاء مراراً على قوادهم وطالبوهم بالاموال وهددوهم ، واذا لم يروا منهم اصغاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بالقائد وصيف سنة ٢٥٣ ﻫ فان الاتراك والفراغنة والاشروسنية شغبوا وطلبوا أرزاقهم لاربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما فكلمهم وصيف بالجفاء وقال لهم: « خذوا التراب، ليس عندنا مال ! » فوثب عليه بعضهم وقتلوه [3] وكثيراً ما تظلموا للخلفاء ، وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التي قد أجحفت بالضياع والخراج ، ومما صار الى كبرائهم من المعاون والزيادات في الرسوم القديمة بالاضافة الى ما كان ينفق في أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج [4] حتى طلبوا التخلص منهم وعرضوا أن يقود الجند أخو الخليفة .

رواتب الجند الان

على أننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامي على اختلاف عصوره من أيام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية ، وقسناها برواتب جنود هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد

---

١ — صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ١٤٢ ج ١٥١ .
٢ — الطبري ١٥١٢ ج ٣ . ٣ — ابن الاثير ٧٠ ج ٧ .
٤ — الطبري ١٧٩٦ ج ٣ .

عليها زيادة فادحة. فقد رأيت أن راتب الجندي في ايام الراشدين تراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ درهم في السنة ، ثم صار في أيام بني أمية الف درهم ، وتقلب في أيام العباسيين حتى صار في ايام المقتدر ١٤٤٠ درهم للراجل ، ٢٢٠٠٠ درهم للفارس في السنة – تلك رواتب أفراد الجند (الأنفار) عندهم مع أن رواتب النفر في الدولة الانجليزية للراجل شلن وللفارس شلن و٩ بنسات في اليوم ، ومقدار ذلك في السنة نحو ٤٥٥ درهماً (حوالى ١٩٩٠ قرشاً مصرياً) للراجل و ٣٥ جنيهاً مصرياً للفارس . على أن رواتب الجند عندهم تختلف في كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولكنها في كل الأحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند في الدول الاخرى . وأما بالنظر الى الدولة العباسية فانهـــا صغيرة وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في الحالتين .

ومن أسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم ، وان كنا لا نعلم مقدار رواتب ضباط تلك الايام وهم القواد . وهاك رواتب الجنـــد الانجليز من أكبر الضباط الى النفر (العسكري) في اليوم (١) ثم رواتب الجندين العثماني والمصري :

رواتب الجند الانجليزي في اليوم بالجنيه والشلن والبنس (سنة ١٩٠٣) .

	المشاة			الفرسان		
	جنيه	شلن	بنس	جنيه	شلن	بنس
الجنرال (المشير)	٨	–	–	٨	–	–
الفريق	٥	١٠	–	٥	١٠	–
اللواء	٣	–	–	٣	–	–
أميرالاي	١	١٨	–	١	١	٦
قائمقام	١	١٨	–	١	١	٦
بكباشي	–	١٣	٧	–	١٥	–
يوزباشي	–	١١	٧	–	١٣	–
ملازم أول	–	٦	٦	–	٧	٦
« ثان	–	٥	٣	–	٦	٨
النفر	–	١	–	–	١	٩

١ – ويتكر ٢٢٠ .

رواتب الجند العثماني في الشهر (سنة ١٩٠٣)

قرش عثماني	
٢٥ ٠٠٠	المشير
١٠ ٠٠٠	الفريق
٦ ٠٠٠	اللواء
٢٠٠٠	أميرالاي
١ ٨٠٠	قائمقام
١ ٢٠٠	بكباشي
٧٠٠	قولاغاسي
٥٠٠	يوزباشي
٢٥٠	ملازم أول
٢٠٠	« ثان
٢٠	نفر

رواتب الجند المصري في الشهر (سنة ١٩٠٣)

قرش مصري	
٠ ٠٠٠	المشير (لا يوجد)
٧ ٥٠٠	الفريق
٦ ٥٠٠	اللواء
٤ ٧٠٠	أميرالاي
٣ ٠٠٠	قائمقام
٢ ٥٠٠	بكباشي
١ ٥٠٠	صاغقولاغاسي (هو الصاغ اليوم)
٩٠٠	يوزباشي
٦٠٠	ملازم أول
٥٠٠	« ثان
٣٠	نفر

رواتب اخرى

كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم او السنتهم او احزابهم. لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لأنفسهم من العلويين او الخوارج او غيرهم — والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام. وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام اكثر مما للصحافة في هذه الأيام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالإحسان اليهم او الرفق بهم، فيقطعون السنتهم بالجوائز الوقتية او بالرواتب الجارية، كما يفعل ملوك هذه الأيام بالصحافة، فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى أرباب الصحف في مقابل سكوتهم عنه ، والبعض الآخر يبتاع مساعدتهم في انهاض الهمم او جمع كلمة الأحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم في تلك الأيام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الأموال لاسترضائهم .

وأول من فعل ذلك في الاسلام معاوية بن أبي سفيان . فكان يسمع التقريع بأذنه ولا يجازي عليه الا بالعطاء، ولذلك كانوا يعبرون عن اجازة الشاعر بقطع لسانه [١] وكان

١ — المستطرف ٣٤ ج ١ ، أي أنهم يقولون ان الخليفة أعطى فلاناً الشاعر كذا من الدنانير ليقطع بذلك لسانه عنه .

يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الأعطية لرؤساء الأحزاب من بني هاشم والطالبين ونحوهم ، وصاروا يهبون الأموال لمن يخافونهم على سلطانهم ، واكثر ما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لنحو ذلك الغرض .

وكانوا يفرضون الرواتب أحياناً لأناس يرجون نصرتهم على مناظريهم في الملك ، كما فعل العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨١ هـ بعلي بن الحسين من آل المغربي لما جاءه في بغداد، فانه جعل له ٦٫٠٠٠ دينار في السنة وسماه من شيوخ الدولة[١] ، وقد يفرضونها لطبقات الناس من اهل العوز ، كما فعل الأخشيد بمصر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، فانه فرض للضعفاء والمستورين من أبناء النعم وأجناس الناس (ليس فيهم احد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين بالأعمال) رواتب بلغ مقدارها في ايام كافور الأخشيدي ٥٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة [٢] ، فلا بد من ان يكون مثل هذه الرواتب في الدولة العباسية .

ناهيك برواتب الحاشية والأعوان ونحوهم ، ممن تندرج رواتبهم في نفقات الدولة ، فقد رأيت أنها كانت كبيرة . ومن هذا القبيل حواشي الأمراء والعمال والوزراء وغيرهم ، وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف [٣] او تزيد .

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب في ابان ثروتها ، ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الأموال الواردة الى بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الجباية تتناقص ولم يعد في امكانها انقاص الرواتب بعد ان تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداء بخلفائهم ، ولم يعد في الامكان كذلك اقالتهم خوفاً من غضبهم ، فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب مياومة ، فإذا ارادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الراتب الف دينار في الشهر مثلاً ، فبدلاً من ان يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون ايام ذلك الشهر فيجعلونها اربعين يوماً او خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عدد ايامه عن ايام اشهر الآخرين.

---

١ – المقريزي ٤٥٩ ج ٢ . ٢ – المقريزي ٩٩ ج ١ . ٣ – ابن الاثير ١٨٣ ج ٧ .

فقائمة نفقـــات المعتضد المنشورة في هذا الجزء يختلف شهر كل من اصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالغلمـان الذين اعتقهم الناصر كانت ايام شهورهم اربعين يوماً ، فأساءوا الأدب في مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين يوماً . ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوماً . والفرسان الاحرار والمميزون كانت شهورهم خمسين يوماً فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ، ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوماً . واشهر المختارين سبعون يوماً ، واشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوماً ، وكذلك المرتزقة برسم الشرطة بمدينةالسلام والسقايين وقس عليهم سائر الموظفين في هذه القائمة وغيرها . فالذي راتبه الف دينـــار في الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوماً كأنه تنزل الى الربـع . وكثيراً ما كان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهراً بعد شهر حتى يثور الجند ، فإمـــا ان يخلعوا الخليفة او يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال .

٤ ـــ النفقة على البيعة

رأيت فيما تقدم ان الخلفاء في اوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين ، وكانوا يحملون اليهم الاموال ويبذلون لهم الاعطية ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم ، وقوي جند الأتراك اهمل أمر الحرمين وصارت القوة اليهم او بالاحرى الى المال ـــ لأن الاتراك انما يحاربون مع المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى رضاهم ، او الى من يدفع المال اليهم . على ان الخلفـــاء كانوا من اوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ، ويسمون ما يدفعونه اليهم في هذا السبيل « حق البيعة » ، فلما تولى الامين فرق في الجنـد رزق ٢٤ شهراً [١] ولولا ذلك لم يحكم شهراً واحداً . ولما أراد المأمون ان يبايع لعلي الرضا صرف للجنـد راتب شهر على ان يصرف لهم الباقي اذا ادركت الغلة[٢] فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو امية يعطون في مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين ، كما فعل عبدالملك بن مروان مع عبدالله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبدالملك يحارب ابن الزبير في مكة ويخاف منه ، فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين [٣] .

---

١ ـــ ابن الاثير ٨٩ ج ٦ . ٢ ـــ الطبري ١٠٣ ج ٣ . ٣ ـــ ابن الاثير ١٦٨ ج ٤ .

وأما بعد ايام المعتصم ، فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال او صاحب الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً في المال لأنهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة اشهر او سنة او اكثر او اقل على قدر مطامعهم[١] وهناك من أمثال هذه المطالبات ما لا يعد ولا يحصى ، فتراجع في تاريخ الخلفاء العباسيين . فانشغل الخلفاء عن سياسة المملكة ، واختلت الأحكام ، واصبح همهم منصرفاً الى حفظ أرواحهم واستبقاء ضياعهم ، وصارت البلاد فوضى للجند ، او لمن يستطيع استخدامهم ، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة ، واهملت الاعمال بوجه الاجمال .

* * *

وزاد اهل البلاد شقاء ان قواد الجند كانوا اذا اعوزهم المال، ولم يكن في بيت المال ما يكفي ، استخرجوه من الاهالي . وكثيراً ما كان يحدث ذلك في اثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية احد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم اموال الناس في بغداد ، في أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ ﻫ ، بشأن الخليفة المطيع لله ، وكان مقدار ما نهبوه من اموال المعروفين فقط ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار [٢] ولما عين الخليفة المستكفي « شير زاد » امير الأمراء في تلك السنة ، زاد هذا اعطيات الجند زيادة كثيرة على جاري عادتهم عند كل بيعة ، لكنه لم يجد في بيت المال ما يعطيهم ، فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم ، وظلم الناس . فظهرت اللصوص في بغداد ، واخذوا الاموال نهباً ، ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى[٣] .

فآل ذلك وأمثاله الى تتابع الاحن على البلاد ، فتقاعد اهل المدن عن العمل ، كما تقاعد اهل القرى عن الزرع ، وغلت الاسعار ، وتوالى الجوع اعواماً على مدن العراق ، وخصوصاً بغداد ، فكثر اللصوص وصاروا طوائف عديدة ، لا عمل لهم إلا النهب عند سنوح الفرصة ، وخصوصاً في اثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء ما يستأجرون به جنداً لدفع الفتن او اخماد الثورات . على انهم كثيراً ما كانوا يمسكون عن دفع المال ، ولو كان في خزائنهم ، لأنهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمقتدر سنة ٣٢٠ ﻫ فانه امسك عن دفع الاموال وهي عنده وعند والدته ، حتى آل الأمر الى قتله

١ – ابن الاثير ٧٥ ج ٨ . ٢ – ابن الاثير ١٧٨ ج ٨ .
٣ – ابن الاثير ١٧٦ ج ٨ .

بمساعي مؤنس الخادم . فكان مـا فعله مؤنس سبباً لجرأة اصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم[١] حتى تجرأوا على نهبهم ومصادرتهم ، كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ، وسبوا واحرقوا ففر اهلها الى بغداد ، يستنجدون الخليفة وجنده واهل المدينـة ، فشغب الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الأمر يومئذ هناك) الى الخليفة ان يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربـة الروم ، فقال المطيع : « ان الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، وتجبى الي الاموال ، واما اذا كانت حالي هذه فـلا يلزمني شيء ، وانما يلزم من البلاد في يده ، وليس لي الا الخطبة فاذا شئتم أن اعتزل فعلت » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠،٠٠٠ درهم . فشاع الخبر ان الخليفة صودر . على أن المال المذكور لم ينفق في الغزاة وانما انفقه بختيار في مصالحه[٢] ، وما اشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الاتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية في القرن الثامن عشر وبعيده ، ولا ندري كيف كان يصير حالهم لو لم ينكبهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦ .

فلم يبق في الدولة العباسية ، والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها ، لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لا بد منه لحفظ السلطة ، فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد في خلافة المطيع شغب الجنـد عليه واسمعوه المكروه فضمن لهم ايصال أرزاقهم . ولما أعجزه ذلك من طريق الحلال ، اضطر الى ضبط النـاس وأخذ اموالهم من غير وجوهها فلم يغنه ذلك شيئاً ، فارتأى ان يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها ، فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع اصحاب الاملاك فبطل لذلك اكثر الدواوين وزالت ايدي العمال . وكانت البلاد قـد خربت للاسباب التي قدمناها ، فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الاتباع القرى الخربة فزادت خراباً فردوها وطلبوا غيرها ، واهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها ، فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطعين في تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد اكثر من اعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم في الاقطاع ، فحسدهم الديلم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما[٣] .

---

١ — ابن الاثير ٩٠ ج ٨ . ٢ — ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ . ٣ — ابن الاثير ١٧٩ ج ٨ .

٥ ـ استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها ، وانغمس الملك في الترف والقصف ، وتقاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه ، تحول النفوذ الى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه ، او يتوسطون بينه وبين الناس ، كالوزير ، والعامل ، والكاتب ، والحاجب ، والقائد ، واصبح الامر والنهي في ايديهم ، فيستأثرون بالاموال لانفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ، فيسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك الا في الدولة المطلقة التي ليس على اعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء او الكتاب او الحجاب في عصر الترف والتقاعد يكون له مثل ذلك من النفوذ ، وخصوصاً في مثل الدولة العباسية ، لان وزراءها وكتابها من امة لم تقم دولتهم الا بها ، ولم يزه تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء في هذه الحالة الكلمة النافذة ، والسيف القاطع ، حتى في ابان تمدنها .. اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في ايام الرشيد ، وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم ، حتى كان الرشيد يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه [١] فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد [٢] نكبهم على ماهو مشهور ، كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم اليه الامور ، وفوض اليه الدواوين ، وانشغل المهدي عنه باللهو وسماع الاغاني ، فعظم ذلك على الناس ، وخصوصاً العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم ... ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خلافة الله بين الناي والعود [٣]

ووشى بعض الناس الى المهدي بذلك فاستدعاه ، وقبض عليه وسجنه وظل في سجنه اعواماً طوالا .

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن اكثم القاضي عندما عهد اليه بتدبير مملكته واكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة [٤] ولكنه لم يكن راضياً عنه لاشياء لم تعجبه منه ، ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلاً « لا تتخذن وزيراً تلقي اليه شيئاً ، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكثم في معاملة الناس وخبث سيرته » [٥] . وكان العرب

---

١ ـ المسعودي ٢٠١ ج ٢ . ٢ ـ الطبري ١٣٣٢ ج ٣ . ٣ ـ الفخري ١٦٦ .
٤ ـ ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ . ٥ ـ الطبري ١١٣٩ ج ٣ .

يكرهون الوزراء خصوصاً لانهم في الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة .. قال اعرابي يصف وزيراً :

ومظهر نسك ما عليه ضميره　　يحب الهدايا بالرجـال مكور
أخـال به جبنا وبخلا وشيمة　　تخـبر عنه انه لوزير [١]

على ان الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين ان يذهب في الاسراف لا طمعاً فيه لانفسهم ، كما اتفق للواثق مع وزيره ابن الزيات ، اذ اعجبه صوت غنته اياه جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فمطل ابن الزيات في دفعها فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع اليه ١٠٫٠٠٠ دينار [٢] .

وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستئثاراً بالمال بزيادة ضعف الخلفـاء ، حتى صارت معظم الأموال اليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء او بيت المال في ايام الازدهار كأن الأموال تحولت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح انظـار اصحاب المطامع ، يبذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها. على أنها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند [٣] ولكن الغالب ان تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها اما رأساً الى الخليفة ، كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠٫٠٠٠ دينـار حتى استوزره الراضي في اوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٫٠٠٠ دينار [٤] ، او بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال. وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم انهم يسترجعون في اثناء وزارتهم اضعاف ما بذلوه ، بما تصل اليه أيديهم من الرشوة ، من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب مايحكى عن ارتشاء الوزراء : ان الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد ، تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من كل واحد

---

١ — الطبري ١٠٨٨ ج ٣ .　٢ — ابن الاثير ١٣ ج ٧ .
٣ — ابن الاثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩ .　٤ — الفخري ٢٥٣ و ٢٦٦ .

رشوة ، فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق ، فقالوا : كيف نصنع ؟ فقال احدهم : ينبغي ان اردتم النصفة ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير، فهو الذي ولايته صحيحة لانه لم يأتِ بعده احد . واتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الأخير نحو الكوفة وعاد الباقون الى الوزير ففرقهم في عدة اعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعه   يولي ثم يعزل بعد ساعه
ويدني من تعجل منه مال   ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا اهل الرشى صاروا اليه   فاحظى القوم اوفرهم بضاعه(١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ، ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم .

على ان بعضهم ، وهو نادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل الا بالحق ، مثل عبيدالله ابن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً — ذكر الفخري ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سفطاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما احضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر : «لا والله لا اقبلها ولا اثقل عليه بذلك» ثم فتح الأسفاط وأخذ منها منديلاً وضعه تحت فخذه وأمر بالمال الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر (٢) .

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علي بن عيسى وزير المقتدر ، وهو صاحب جريدة الخراج التي نشرناها في هذا الجزء . ولا يخلو ان يكون غيرهم قد اخلص الخدمة، ولكن يقال بالإجمال ان الوزراء في عهد التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعاً في اختزان الأموال . فان أبا الحسن بن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هـ بقي فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧٠٠٠٠٠٠ دينار أُخذت كلها مصادرة ، ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ ، وخلع سنة ٣٠٦ ، ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ ، وخلع سنة ٣١٢ ، فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع اخيراً ما يزيد على ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وضياع يستغل منها كل سنة ٢٠٠٠٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه وإحسانه. وكان إذا ولي الوزارة يغلو الثلج والشمع

١ — الفخري ٢٤١ . ٢ — الفخري ٢١٦ . ٣ — ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ .

والكاغد لكثرة استعماله له ، لأنه ما كان يشرب احد كائناً من كان في داره في الفصول الأربعة الا الماء المثلوج ، ولا كان احد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية . وكان في داره حجرة معروفة بحجرة للكاغد كل من دخلها واحتاج الى شيء منه اخذه [١] وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين الف درهم ، وللشعراء عشرين الف درهم ، ولأصحاب الأدب ٢٠٫٠٠٠ درهم ، وللفقهاء ٢٠٫٠٠٠ ، وللصوفية ٢٠٫٠٠٠ [٢] وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من اهل العلم والدين والبيوت والفقراء ، واكثرهم تبلغ نفقته ١٠٠ دينار في الشهر ، واقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك [٣] فغطى الكرم طمعه ، كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع ألسنة الشعراء وكسر اقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا اموالاً طائلة ، وانغمسوا في انواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الاموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق او في مصر او الاندلس . فقد خلف المادرائي وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه احد قبله إلا في النادر وارتفاعها ٤٠٠٫٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب واعطى وافضل وحج ٢٧ حجة انفق في كل منها ١٥٠٫٠٠٠ دينار [٤] . ويعقوب بن كلس اول وزراء الفاطميين كان في جملة املاكه اقطاع في الشام دخله ٣٠٠٫٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف املاكاً وضياعاً وقياسرة ورباعا وخيلا وبغالاً ونوقاً وغير ذلك ما قيمته ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، غير ما انفقه في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٫٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية [٥] وخلف الأفضل امير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار عينا [٦] و٢٥٠ اردب دراهم ، من نقد مصر و٧٥٫٠٠٠ ثوب ديباج أطلس ، و٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقي ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٫٠٠٠ ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير ، على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان ايما احب لبسه ، و٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد مما لا يحصيه عد [٧] .

---

١ — الفخري ٢٤ . ٢ — ابن الاثير ٥٧ ج ٨ . ٣ — ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ .
٤ — المقريزي ١٥٥ ج ٢ . ٥ — المقريزي ٦ ج ٢ . ٦ — وهو في الاصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولا بد ان خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل ان يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمائة سنة . فالارجح ان يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا . ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن اموال مصر قلما قدرت بالدراهم . ٧ — ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ .

وقس على ذلك احوال الوزراء في الاندلس ، فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقري وفصلها هذا الاخير تفصيلا حسناً في ثلاث صفحات كبيرة[١] .

وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في ابان ثروتها وبعيدها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون في استغلالها بأن يوقفوها على بعض المساجد بشرط ان يستولي ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا نفسهم من خراجها او عشورها[٢] .

واما الابواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون منها تلك الاموال فكثيرة ، من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم، وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ما شاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمدون اليه ايديهم من اموال الخراج الواردة الى الديوان ، وقد تقدم ان طرق دفاتر تلك الايام لم تكن تمنع الاختلاس او تظهره

ومن ابواب الكسب ايضاً ان بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم ، وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ، ولا سبيل لهم الى المال ، فكان بعض الوزراء يقيم من قبله اناساً يشترون توقيعات ارزاق اولئك الموظفين بنصف قيمتها، ثم يقبضها هو كاملة[٣] وكانوا يفعلون نحو ذلك ايضاً في رواتب الفقهاء وارباب البيوت ، فكأنهم يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين ، فضلا عن اتجارهم بالارزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً أو خراجاً على سبيل الرشوة او الاقتسام ، وما كانوا يغتصبونه من التجار بنفوذهم واغضاء الخلفاء عنهم[٤] وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين النـــاس . ومن مرافقهم ايضاً تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالا طائلا[٥] .

* * *

تلك كانت حال الوزراء وفي ايديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم بالخلفاء ومطالبتهم

---

١ – نفح الطيب ١٦٨ ج ١ . ٢ – Porter's Const. Hist. of Turkey Ms.

٣ – ابن الاثير ٨٤ ج ٨ . ٤ – الطبري ٣٠٧ ج ٣ . ٥ – ابن الاثير ١٤٩ ج ٨ .

بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم ، فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا الى ذلك الا بمطالبة الوزراء ، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو ما يعبرون عنه بالمصادرة . وكانت رائجة في عصر التقهقر ، اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ، ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعاً .

المصادرة

هي قديمة في الاسلام تتصل بعصر الراشدين ، وكان العمال أول من وقعت عليهم المصادرات ، فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة اخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال ـ كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين [1] وكانوا يسمون ذلك مقاسمة او مشاطرة . فلما أفضت الامور الى بني امية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم في اموال الجباية ، اصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يعزلون عاملا عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال ، واستخرجوا ما تصل اليه ايديهم ، وكانوا يسمون ذلك « استخراجاً » .

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال في اوائل الدولة من اخوتهم واعمامهم ، ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم ، فجنح العمال الى الطمع والعنف في استخراج الاموال ، فعمد الخلفاء الى مصادرة اموالهم لاسترجاع ما استولوا عليه من غير وجه الحق . حتى في أيام المنصور ، فكان لا يعزل عاملا الا قبض ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » [2] . وتكاثر تعدي العمال في ايام المهدي (سنة ١٥٨ — ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر في المظالم — وما هي الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالمأمون الى المهتدي في اواسط القرن الثالث .

ومما نبه الخلفاء الى مظالم العمال ان الوزراء كانوا يباشرون الاعمال نيابة عن الخلفاء ، وكان هؤلاء يستشيرونهم فيمن يولونه من العمال ، فربما استمعوا اليهم وربما خالفوهم . وخصوصاً البرامكة فانهم كانوا اذا استشارهم الخليفة في ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من امره ، ويتركون الامر للخليفة بعد ذلك يقضي فيه بما يريد . ومن هذا القبيل ان

---

١ ـ اليعقوبي ١٨١ ج ٢ والبلاذري ٨٣ و ٣٨٥ .
٢ ـ الطبري ٤١٥ ج ٣ .

الرشيد استشار وزيره يحيى بن خالد في تولية علي بن عيسى بن ماهان على خراسان فأشار عليه الا يفعل ، فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص علي اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيراً ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد اعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد : « يا أبا علي .. هذا الذي اشرت علينا الا نوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه فكان في خلافك البركة ! » فقال : « يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداءك ... انا وان كنت أحب ان أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي ، فأني أحب أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي .. إن لم يكن وراء ذلك ما يكره.. ان هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف ، وأخذ اكثرها ظلماً وتعديا . ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد : « وكيف ذلك ؟ » قال : « قد ساومنا عونا على السفط الذي جاء به من الجوهر فأعطيناه به ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ فأبى ان يبيعه ، فأبعث اليه الساعة بحاجبي يأمره ان يرده الينا لنعيد فيه نظرنا ، فاذا جاء به جحدناه وربحنا ٧٫٠٠٠٫٠٠٠ . ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك [1]». وفي كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب .

وقد رأيت ان الطمع تطرق الى العمال ، حتى في ايام الزهو العباسي ، ولكن البرامكة اخلصوا المشورة فغلوا ايدي العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان فيمن جاء بعدهم من الوزراء المخلص وغير المخلص ، فأطلقت ايدي العمال واحرزوا الأموال لأنفسهم ، وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم ، حتى استفحل امرهم واكتنزوا الأموال الطائلة .

العمال

وغنى العمال ميسور في تلك العصور بالنظر الى استقلالهم في ادارة شؤونهم . وخصوصاً عمل الاستيلاء الفوضوي في كل شيء . وابواب الكسب عندهم كثيرة : منها ان العامل اذا جاء فأول شيء يتوقعه ان يحمل اليه الناس الهدايا ، وفيها من الدواب والجواري والاموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً [2] وقد يترك ذلك في مقابل ما يقدمه

---

١ ــ الطبري ٧٠٢ ج ٣ .	٢ ــ ابن الاثير ٥١ ج ٦ .

العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة او الوزير او القهرمانة او الكاتب او الحاجب او غيرهم من حاشية الخلفاء[١] على انهم كانوا يكسبون من مصادر اخرى كالاتجار بأصناف البضائع والاخشاب وغيرها [٢] ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين او ثلاث مرات ، تبعاً لما تقتضيه حاجتهم الى المال في ارضاء الوزراء ، او لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن اوسع ابواب الضرائب كسباً لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسي ان ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السلطان [٣] وكانوا يأخذون على حمل الحنطة هناك نصف دينار .

ومن ابواب الكسب للمال ان ينفق العامل على بناء بيت او جسر او على حفر ترعة او نهر الف دينار مثلاً ، ويطالب بعشرة آلاف او مائة الف ، وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين الف دينار[٤] فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها[٥] وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التي يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب .. فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت اموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم ، سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يغل كل يوم ١٠٠٫٠٠٠ درهم[٦] وبلغت اموال علي بن عيسى بن ماهان ٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم [٧] ، فلم ير الرشيد إلا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة .

* * *

وكان الغالب في بادىء الرأي ان يقبضوا اموال العمال بعد موتهم ، كما فعلوا بمحمد ابن سليمان المذكور ، ثم صاروا يستخرجون اموالهم وهم احياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى ، فانه عزله واستصفى امواله المذكورة ، وحملها مع خزائنه واثاثه على ١٥٠٠ جمل ، غير ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ[٨] .

مصادرة الوزراء

على ان مصادرة العمال لم يطل أمرها لاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل ، فأصبح المطلوب

---

١ – Ein. Abb. 80 . ٢ – المقريزي ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١ . ٣ – المقدسي ١٠٤ .
٤ – Ein. Abb. 76 . ٥ – الماوردي ٧٨ . ٦ – المسعودي ١٨٨ ج ٢ .
٧ – الطبري ٧١٣ ج ٣ . ٨ – ابن الاثير ٨١ ج ٦ .

منهم لبيت المال في الغالب مالاً معيناً في العام على سبيل الضمان ونحوه . وتحولت الثروة المغتصبة الى الوزراء ، وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلاً لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم — وكان الخلفاء لا يرون في ذلك جوراً ولا شدة لاعتبارهم ما في أيديهم مختلساً من حقوق بيت المال .

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها ، ولكنها كانت في أول الأمر على سبيل النكبة ، والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو للتخلص منه لغرض آخر . ومن هذا القبيل مقتل أبي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس ، فبعد أن أيد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراساني بسيفه وشى الى السفاح أنه ينوي إخراج الدولة من أيديهم ، فأوعز إلى أبي مسلم فقتله ، ثم أصاب أبا مسلم من المنصور مثل هذه النكبة — ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام الرشيد ، والفضل بن مروان في أيام المعتصم. وفي نكبة الفضل هذا رغبة لقبض امواله لأن المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ وأخذ من داره ١٠٠٠٠٠٠ دينار ، وأثاثاً وآنية قيمتها ١٠٠٠٠٠٠ دينار [١] ولما تمكن الاضمحلال من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواز على أموالهم .

* * *

وبلغت المصادرة معظمها في أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) لأن الوزراء استخفوا به لصغر سنه وأفضى تدبير الأمور في صدر أيامه الى أمه ونسائه وخدمه . فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم، فخربت الدنيا وخلت بيوت الاموال وخلع واعيد ثم قتل [٢] وكثر تبديل الوزراء في ايامه وكثرت مصادراتهم . وأولهم ابن الفرات ، وزر له ثلاث مرات ، وقد تقدم ذكر ما احتشده من الأموال وقد صودر ، فأخذت كلها منه. وخلفه الخاقاني وكان سيء السيرة كما تقدم . ثم علي بن عيسى ، وكان فاضلاً ورعا حاول اصلاح الأمور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة ثم حامد بن عباس وكان قاسي القلب في استخراج الأموال. ووزر له أبو علي محمد بن عبيدالله الخاقاني وأحمد بن عبيدالله أحمد بن الخصيب . ومحمد بن علي بن مقلة صاحب الخط الحسن المشهور . وسليمان بن الحسن بن مخلد. وعبيدالله بن محمد الكلوذاني . والحسين بن القسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب [٣] وما من وزير الا وقبض او صودر فأخذت أمواله وسجن او قتل . وكثرت المصادرات في ايام

---

١ — ابن خلكان ٤١٥ ج ١ . ٢ — الفخري ٢٣٦ . ٣ — الفخري ٢٣٩ - ٢٤٩ .

المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدم . وربما زاد مجموع مـا قبضه من المصادرة على ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار – على انهم قدروا جملة ما انفقه من الاموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاو ٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار، سوى ما انفقه في الأمور غير الواجبة[١] وقس على ذلك احوال سائر الوزراء .

فأصبحت المصادرة بتوالي الأيام المرجع الرئيسي في تحصيل المال ... فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس عـلى اختلاف طبقاتهم.. على ان الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لأرزاق الجند او لغيرها من نفقات الدولة، كما تعمد دول أوربا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب او مشروع كبير .

وكان الخلفاء يعتبرون اموال اولئك الوزراء او العمال حقاً لبيت المال قد اغتصبوه ، فاسترجاعه لا يعد جوراً او إجحافاً . وقد نجاهم ذلك من اثقـال الدين الأهلي الذي تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم ، فيذهب نحو ربع دخلها او ثلثه في وفـائه او استهلاكه ، وتضطر إلى استنباط الضرائب من اجـل ذلك ، حتى اصبحت تلك الدول وخصوصاً انجلترا تـكلف الناس جعلا على كل عمل يرجون به كسباً .

الكتاب

وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالهـا ، ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً . وقـد كانوا يطمعون في تلك الأموال في ايام بني أمية فما بعدها . ولكنهم لم يشع امرهم ويفحش شرهم إلا في عصر التقهقر العباسي . فأمر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزامهم مـالا كثيراً استخرجه منهم بالعنف[٢] وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ[٣] . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت المادرائي بمصر[٤] .

ولم يكن الغنى خاصاً بكتاب الدواوين ، بل كان يتناول كل كاتب من كتاب اهـل الخلفاء وغيرهم . وكانت اكثر اموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس ، حتى اشتهروا بالظلم

---

١ – ابن الاثير ٩٠ ج ٨ . ٢ – الطبري ١٣٣٠ ج ٣.
٣ – ابن الاثير ٨٥ ج ٧ . ٤ – المقريزي ٣٣١ ج ١ .

كما اشتهر الوزراء وهجاهم الشعراء كما هجوا هؤلاء. من قول بعضهم وهو يمدح احد الامراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة :

هو ما علمت من الأمير فما الذي ... تزداد منه وفيـــه لا يرتاب
لا تتقى الاجناد في ايامـــه ... فقراً ولا يرجو الغنى الكتاب

وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفي يهجو الوزير والكاتب معاً :

ونجا خالد بن برمـك منها ... اذ دعوه من بعدها بالامير
أسوأ العالمين حـالا لديهم ... من تسمى بكاتب او وزير[١]

وكان من ابواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال او سواهم، كما فعل احمد بن ابي خالد الاحول كاتب المأمون في توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان، وقد شرط له على نجاحه في ذلك ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم[٢] وكان كتاب الدواوين في الولايات يشاركون العمال فيما يأتيهم من الهدايا، او من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف[٣] .

الحجاب

وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة او وساطة لدى ولاة الأمر، وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فإنهم من أكثر الناس دالة عليهم، فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة واكتساب الأموال من تقديم الداخلين او تأخيرهم والإذن لهم او منعهم، فكانوا يرتشون للتعجيل في الإذن بالدخول على الخلفاء، وكان ذلك شأنهم حتى في عصر الراشدين — قال المغيرة بن شعبة : « ربما عرق الدرهم في يدي أرفعه ليسهل اذني على عمر »[٤] وكثيراً ما كانوا يتوسطون في تولية المناصب بالرشوة، كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب بن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠٫٠٠٠ دينار[٥]، ويقال نحو ذلك في كل من يتوفق الى دالة على الخليفة او الامير ولو كان خادماً .

---

١ — الفخري ١٥٨ . ٢ — اليعقوبي ٥٠٤ ج ٢ . ٣ — المقريزي ٩٩ ج ١ .
٤ — الاعلاق النفيسة لابن رستة ١٩٥ ج ٧ . ٥ — الفخري ١٦٦ .

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم أن الدولة العباسية لما غلب الجند على امرها واستبد قواد الاتراك بها، تحولت ثروتها من بيت مالها الى ايـــدي رجالها ممن ينوبون عن الخليفة او يتوسطون بينه وبين الرعايا ، كالعمال ، والوزراء ، والكتاب ، والحجاب ، ونحوهم . وأصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتصاب أموال أولئك الموظفين ، فكانوا كالذي يغتذي بأكل لحمه فآل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد ان بلغت غاية الضعف .

وقد يتبادر الى الاذهان أن لثقل الضرائب دخلا كبيراً في سقوط الدولة العباسية ، وقد رأيت أن الضرائب كانت ثقيلة في عصر الازدهــار العباسي — عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلا ، بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب — ولم يكن ذلك لأن تخفيض الضرائب يسوء الناس ، ولكن تخفيضها في تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة اصحاب المطامع من رجال الدولة ، وكانت الاحوال قــد اختلت بفساد النيات للأسباب التي ذكرناها ، فزال الأمن واختل النظام العام ، فتقاعد الناس عن العمل وقلت ايراداتهم وعجزوا عن اشباع مطامع رجال الدولة ، فعمد هؤلاء الى العنف في استخراج الأموال ، فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق في النـــاس حتى سئموا الحياة في دولة لا يأمنون فيها على أرواحهم ولا أموالهم .

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انجلترا من اقرب الدول الى الخراب ، لما فيهـــا من أصناف الضرائب التي لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لأنها فضلاً عن ضرائبها على المحصولات والواردات على اختلاف اصنافها ، تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلا على أية مهنة يريد الناس تعاطيها حتى المحاماة والطب في مقابل الاذن لهم في الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقيل يختلف فيمن ينال اية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيهاً الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيادلة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ ، وهناك ضرائب اخرى على معاملات المصارف وعلى اوراقهـــا وعقودها وعلى الزواج والطلاق ، وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم اموال كثيرة .

وأما ضرائب الايراد عند الانجليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء ، فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها ؟ والدولة الانجليزية

كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصاً على الايراد ، واكثر ما تكون حاجتها الى المال في حالة الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ في أثناء حرب الترنسفال ، فقد قدرت دخلها لذلك العام بمبلغ ١١٧،٠٠٠ر٠٠٠ جنيه وخرجها بمبلغ ١٥٤ر٠٠٠ر٠٠٠ والفرق بينهما ٣٧ر٠٠٠ر٠٠٠ سددت معظمه بزيادة الضرائب ، وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أي نحو ٣ وثلث في المائة ، فجعلتها شلناً في كل جنيه أي خمسة في المائة ، فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه . وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت حصيلتها ١ر٧٥٢ر٠٠٠ جنيه ، وضريبة على سائر الخمور وحصيلتها ١ر٠١٥ر٠٠٠ جنيه ، وعلى التبغ ١ر١٠٠ر٠٠٠ وعلى الشاي ١ر٨٠٠ر٠٠٠ جنيه وغير ذلك ، فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات ، فخفضت ضريبة الايراد اربعة بنسات اي انها أرجعتها الى ما كانت عليه ، فقلت حصيلة الحكومة من الايراد ٨ر٥٠٠ر٠٠٠ جنيه ، وخفضت ايضاً ضرائب القمح وغيره .

وجملة القول ان انجلترا مع كثرة ضرائبها وما أثقل كاهلها من الديون ، فانها تعد من اثبت الدول قدماً وأوفرها ثروة . فتخفيض الضرائب لا شك انه رحمة للناس ، ولكن زيادتها لا تدعو الى الخراب ، وانما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » .. فانه يقوض اركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدي عن العمل فيقعد الزارع عن زراعته ، والتاجر عن تجارته ، والصانع عن صناعته – ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ، ولذلك قالوا : « العدل أساس الملك ! »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للأجناد الغرباء يحملون أموالها الى بلادهم ، وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال ، وامسى الخليفة لا سلطان له حتى في قصره ، وبين غلمانه وجواريه ، تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية ، لأن الجباية منهم ، فطالبوهم بها بدون أن يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت . أما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية ، والمبادىء الاقتصادية ، فلا يطالب احد من الناس الا بما يقتنع هو انه حق صريح ، والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة – وسنعود الى هذا البحث في بعض الأجزاء التالية .

ثروة المملكة العبّاسيّة

اي البلاد واهلها

فرغنا من الكلام في ثروة الدولة (الحكومة) العباسية ورجالها ، وبقي علينا النظر في ثروة المملكة ، وهي البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من اهـــل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين : المدن ، والقرى :

المدن

كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى ، عملاً بقاعدة التمدن في تلك الايام ، وهي ان تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاة الامر ، ومن يلوذ بهم ، من الخليفة وآل بيتـه فرجال بلاطه فعماله ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقومون في المدن وخصوصاً العواصم،ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها، وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها ، ولا تكاد تجد اثراً من آثار ذلك التمدن في غير المدن .

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية ، وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ، ينالون جوائزهم وهداياهم ويبيعونهم السلع والجواهر ، والاقمشة وما اليها . وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بمـــا يجود به الخليفة او امراؤه او رجال دولته .

ويمثل طبقات الناس في تلـك الايام قول الفضل بن يحيى : « الناس اربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي ، وعليـــة انهضهم اليسار ، واوساط الحقهم بهم التأدب . والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء،لكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ... هم احدهم طعمه ونومه ! » [1] .

---

١ – ابن الفقيه ١ .

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة ، وعـلة كثرة جبايتها ، لاعتباره ان الدولة او السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران ، قـال : « فاذا احتجن السلطان الاموال او الجبايات او فقدت فلم يصرفها في مصارفها ، قل حينئذ مـا بأيدي الحاشية والحامية ، وانقطع ايضاً مـا كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلت نفقاتهم جملة ، وهم معظم السواد ، ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق ممن سواهم ، فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك ، لان الخراج والجبـاية انما يكونان من الاعتمار ، والمعاملات ، ونفاق الاسواق ، وطلب الناس للفوائد والارباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج . فان الدولة كما قلنا هي السوق الاعظم ام الاسواق كلها ، واصلها ومادتها في الدخل والخرج ، فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بمـا بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلـك واشد منه » اهـ .

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من : الملوك وهم الاصل ، ثم رجال الدولة ، وانمـا يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم ، ثم الاغنياء ، واخيراً الاوساطوهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء اولئك . وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية في هـذا العصر ، عصر الحرية الشخصية ، فالناس فيه مستقلون باعمالهم كل منهم يعد نفسه عضواً من اعضاء ذلك المجتمع لا يستغنى عنه ، سواء كان صانعاً او كاتباً او تاجراً او موظفاً .

اما في العصر العباسي فقد كان اهل المدن عالة على الخلفـاء والامراء فتحوم آمالهم حولهم – يلتقطون ما يجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون بمـا يصل اليهم من اموال الجباية ، فإذا كثرت أكثروا وإذا قلت أقلوا . والجباية من الخراج ، والخراج على الأرض والأرض إنما يعمل بها الفلاحون وهي القرى فالثروة العباسية مصدرهـا من القرى وتجمع من عرق الفلاحين – والفلاح أساس الثروة في كل العصور ، وخصوصاً في البلاد الزراعية . وهو في الغالب اقل الناس حظاً منها ، وخصوصاً في عهد التمدن القديم او مـا نسج على منواله ، اذ كانت الثروة والقوة في أيدي فئة الحكام او من ينوب عنهم او ينتمي إليهم ، ويبقى سائر الناس أعواناً أو أتباعاً أو خدماً أو عبيداً ، يشتغلون إما بالصناعة لصنع ما قـد يحتاج إليه أولئك من أصناف الأبنية والألبسة والأثاث والجوهرات او لخدمتهم في قصورهم بالتطبيب او الكتابة او لإمتاع سمعهم وبصرهم بالغنـاء والعزف او لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما ، واما بالفلاحة في الارض واستغلالهـا . والفلاحون هم

الفئة الكبرى من الناس في كل زمان ، وسنفصل ذلك في الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب .

فالثروة في المدن تابعة لثروة الحكومة او رجالها للأسباب التي قدمناها . فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود وبيت ماله حافلاً بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والألوف ، كان تجار بغداد في نعمة وثروة وخصوصاً باعة الجوهرات والرياش ، لانها مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ . فقد رأيت في بعض ما تقدم ان جوهرياً بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٧ درهم فلم يبعه [١] وهو جزء مما في حانوته ، فما قولك بسائر ما فيه ؟ وهناك جوهري آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ ، فكان ما اخذوه من بيته من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠ دينار [٢] وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ درهم في السنة [٣] . وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها . فقد كان في أصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة احدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره انه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ درهم . ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه [٤] . وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يزيد مال احدهم على ٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها [٥] . ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها ٠٠٠ر٣٠ دينار [٦] واوصى احدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته [٧] ، وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، او خدمهم في بلاطهم في إبان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال ، فانهم جمعوا اموالاً طائلة حتى المغنون والشعراء . فقد توفي ابراهيم الموصلي مغني الرشيد عن ثروة مقدارها ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٤ درهم [٨] وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوي ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود كما تقدم .

---

١ — الطبري ٧٠٢ ج ٣ . ٢ — ابن الاثير ٣٣ ج ٨ . ٣ — ابن الاثير ٢٠ ج ٩ .
٤ — الاصطخري ١٤٢ . ٥ — الاصطخري ١٥٤ .
٦ — ابن حوقل ١٩٨ . ٧ — ابن حوقل ٢٠٧ . ٨ — سير الملوك ١١٣ .

واعتبر ذلك في سائر البلاد والاحوال ، فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء ، او من ينتمي اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولي الأمر .

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من اهل البلاد الأصليين ، ويسمونهم « اهل الخراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة او شركاء لاصحاب الأملاك من الخلفاء او الأمراء ، او من ينتمي اليهم من الأعيان ، وخصوصاً الدهاقين في العراق وفارس ، وهم اصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام .

فلما كان الاسلام تقرب اولئك الدهاقين من الحكومة بأموالهم [1] ونفوذهم في اهل بلادهم . ويندر ان يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدم بيانها .

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجري مجراهم ، وكانوا يقنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، ويغلب فيهم الفقر المدقع . وربما كان بينهم من لم يرَ الدينار طول عمره ، فكان اهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئات وآلافاً ، واهل القرى في فقر مدقع لو رأى احدهم الدينار لقبله مثنى وثلاث . ولو دفعت اليه عشرة دنانير او عشرين لأصابه خبل او مات لساعته ، كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون أمير مصر في اواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه ، بما أنشأه من القصور والغياض والاصطبلات . وكان ينفق كل شهر الف دينار على الفقراء ، وهو الذي جاء وكيله يوماً وقال : «اني تأتيني المرأة وعليها الأزار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني فأعطيها» فقال له : « من مد يده اليك فاعطه » [2] ومع ذلك فان هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط ، فاصاب بشاطىء النيل صياداً عليه خلق لا يواري منه شيئاً ، ومعه صبي في مثل حاله وقد القى الشبكة في البحر ، فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال : يا نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً ، فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له الغلام : « هذا (واشار الى

١ — ابن الاثير ١٠١ ج ٥ ٢ — ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ .

نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً » فقال : « فتشه يا نسيم » فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصبي ان يأخذها فأبى وقال : « هذه قتلت أبي وان اخذتها قتلتني ! » فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وأمرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون لها غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه من اصحاب الجرايات وقال : « انا قتلت اباه لأن الغنى يحتاج الى تدريج وإلا قتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه »[1] .

فاذا كان هذا حال رجل من اهل ضواحي العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم ، وهي غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديدة في العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ، ومنها ما لم يزل عامراً الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ، ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط بمصر والزهراء بالاندلس وسنذكر اشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها في ابان التمدن الاسلامي تتمة لموضوع هذا الجزء . ولكننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية فيما حمل العرب او المسلمين على انشاء تلك المدن .

كان المسلمون في صدر الاسلام عرباً اهل خيام وماشية وخيل ، يكرهون الاقامة داخل الاسوار وينفرون من الانحصار في المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار في العراق والشام ومصر ، كانوا في بادىء الرأي اذا ساروا الى غزو او فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فاذا فتحوا بلداً اقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم ، وجعلوا هذا الموضع معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الامصار الا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه ، حتى اذا اراد ان يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط ، وسعد بن ابي وقاص في الكوفة والبصرة ، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة او المعسكر ،

---

١ — المقريزي ١٢٣ .

فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة .

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تثبيتاً لفتوحهم كما فعل عقبة بن نافع عندما اختط القيروان في افريقية (تونس الحالية) تثبيتاً للفتح الاسلامي لهذه الناحية ، او تحصنا بها من اعدائهم – كما فعل المنصور باختطاطه بغداد فانه بناها حصناً له ، وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة . وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها والابتعاد عن الغوغاء ، مثل سامرا والمتوكلية والزهراء وغيرها مما يطول بنسا ايراده – فلنأت الى وصف اشهر المدن الاسلامية في ابان ثروتها .

كثيراً ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية ، كما يصف السائحون اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ، ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن او مساحتها إلا نادراً . وانما كان همهم تعداد ما في تلك المدن من الجوامع والحمامات ، والغالب ان يبالغوا في ذلك الى مايتجاوز طور التصديق كما سترى وإليك وصف أشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها :

البصرة

هي من اقدم المدن التي بناها المسلمون او هي اقدمها ، ولا تزال باقية الى الآن. مصرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة [١] وقد اتخذها العرب في بادىء الأمر معسكراً في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة ، فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينها نهر . وبنوها أولاً بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها باللبن بإذن عمر كما سيأتي في الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل لكل قبيلة خطة ، وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعاً ، وهو مربدها ، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً. وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا بالمنازل [٢] ونظراً لموقعها التجاري فرضة

١ – ابن الفقيه ١٨٨ . ٢ – الماوردي ١٧١ . وانظر عن اختطاط البصرة وتنظيمها كتاب الدكتور الصالح أحمد العلي : التنظيمات السياسية والاقتصادية في البصرة » – بغداد ١٩٥٢ .

للعراق ووسطاً بين الشام وفارس ، اسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لامارة العراق في ايام بني أمية . فعمرت البصرة في ايامهم واتسعت عمارتها ، حتى بلغت مساحتها في امارة خالد بن عبدالله (القسري) فرسخين في فرسخين أي ٣٦ ميلا مربعاً في ارض منبسطة لا جبال فيها ، وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم (سنة ١٩٠٣) .

وكاثرت ثروة البصرة في ايام العباسيين لاجتماع التجار فيها ، وتجاراتهم تمتد شرقاً الى الهند والصين ، وغرباً الى اقصى بلاد المغرب ، وجنوباً الى الحبشة . وكانت السفن ترسو في ميناها وتحمل اصناف التجارات من الاقمشة والاطياب وغيرها ، وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للاتجار أو الاقامة ، فابتنوا فيها القصور والحدائق وأنشأوا الميادين والبرك . قال ابن حوقل : « وهي موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الانيقة ، والميادين العجيبة ، والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتطرفين منحدرين ومصعدين .. »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية . وقد ذكرنا في مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠٠٠٠٠ دينار في العام ، فقس عليهم التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير .

واشتهر اهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات ، حتى ضرب المثل في ذلك فقالوا : «وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي ، ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الاقصى (في الغرب) ، فلا بد من ان يرى بها بصرياً او خوزياً (من اهل خوزستان) أو حيرياً (من اهل الحيرة) » [١] وشأنهم في ذلك شأن السوريين اليوم ، او هو دأبهم من عهد الفينيقيين .

وقد نقلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ما قاله الاصطخري عن سعة مدينة البصرة وعدد انهارها على ايام بلال بن ابي بردة (سنة ١١٨ هـ) [٢] وانها زادت على ١٢٠٠٠٠ نهر ، تجري بها الزوارق ، وان الاصطخري نفسه شك في صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه ، فذهب بنفسه لمشاهدة المكان في القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال : « وقد كنت انكر ما ذكر من هذه الانهار في ايام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع ،

---

١ ابن الفقيه ١٩١ . ٢ — ابن الاثير ٩٣ ج ٥ .

فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الانهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذي احتفره او الى الناحية التي يصب فيها ، فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » وقال نفس هذا القول ابن حوقل في عرض كلامه عن البصرة [١]. ومع ذلك ما زلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا عالماً دقيق الملاحظة اقام في البصرة اعواماً طوالا وخبر أرضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة في تلك الايام وحفر الانهار ، وامكان اشتباكها بحيث تتحول الى مجار قصيرة هم يسمون كلا منها نهراً ، ويؤيد ذلك انهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التي ذكرنا أن مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً ، وانما يضمون اليها ما يتبعها من المغارس الى عبادان عند بحر فارس ، مع ما كانت عليه من الخصب وكثرة الغرس . قال ابن حوقل والاصطخري : « ولها نخيل متصلة من عبدسي الى عبادان نيفا وخمسين فرسخا متصلة لا يكون الانسان بمكان منها الا وهو في نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » . فاعتبر هذه المسافة طولا في مثل نصفها عرضا على الاقل أي ١٥٠ ميلاً في ٧٥ وذلك ١١٫٢٥٠ ميلاً مربعاً ، فيعقل ان يكون في الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله اعلم .

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة اشهر ، بناها سعد بن ابي وقاص . ويقال في سبب بنائها ان سعداً بعد ان فتح العراق وتغلب على الفرس نزل في عاصمتهم المدائن ، ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة وفداً يخبره بذلك الفتح ، فلما وصل الوفد الى عمر رأى الوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدلت ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : وخومة البلاد غيرتنا . فأمرهم أن يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين لان العرب لا يوافقهم من البلاد الا ما يوافق ابلهم وكتب الى سعد : « ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر » [٢] ففعل سعد ذلك فاختاروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الحيرة ، وبنوها اولا بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فأحرقت ، فاستأذنوا عمر في البناء باللبن فأجابهم الى ذلك على شرط ألا

---

١ ـ الاصطخري ٨٠ . ٢ ـ ابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ .

يزيد احدهم على ثلاثة ابيات ولا يطاولوها . وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لأن الامام عليا جعلها عاصمة ملكه الى ان قتل .

الفسطاط

هي اول مدن المسلمين في القطر المصري ، بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، فيما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بقاياهـا جامع عمرو والاطلال والخرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكراً للعرب لما جاءوا لفتح حصن بابليون ، وهو المعروف اليوم بدير النصارى ، او دير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه ساروا الى الاسكندرية لفتحها ، فأمر عمرو بنزع فسطاطه (أي خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فاخبروا عمرا بذلك فقال : « لقد تحرم بنا بمتحرم » فأمر بالفسطاط فأقر كما كان واوصى بـه من بقي هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحهـا وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشيره في السكنى فيها . فسأل عمر الرسول الذي ارسله عمرو : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ » قال : « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فكتب الى عمرو : « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً ، فمتى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت » (١) فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابليون . فلمـا بلغوا فسطاط الامير رأوه لا يزال منصوباً وفيه الطيور ، فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم ، ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش ، فاختط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط ، فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً ، واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم .

ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البـلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه . وبلغ طولهـا على ضفة النيل ثلاثة اميال (٢) وذكر مؤرخو العرب عن مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٫٠٠٠ مسجد ،

---

١ — يزي ٢٩٦ ج ١ .   ٢ — ابن حوقل ٩٦ .

و٨٠٠٠ر٨ شارع مسلوك ، و١٧٠ر١ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احن الى الفسطاط شوقاً وانني ... لادعو لها الا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها ... وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر[١]

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط ان جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع ، وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من الناس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠ر٠٠٠ وهي دار الحرم لخمارويه [٢] .

واشتهر من تلك الأبنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبدالعزيز » ، كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٫٠٠٠ سطلة مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ . وذكر رجل دخلها في اوائل القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي ، وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمها وثلاثة ، فسألت كم فيها من صانع فأخبرت ان بها سبعين (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج » [٣] .

وفي ذلك دليل على غنى اهل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني احدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة ، وذكروا رجلاً من اهل الفسطاط عندة ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ــ وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم ــ قال القضاعي ان قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير ، فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنقهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه ، وقد فصله المقريزي وغيره في كلامهم عن الفسطاط .

---

١ – المقريزي ٣٤٠ ج ١ . ٢ – المقريزي ٣٣٠ ج ١ .
٣ – المقريزي ٣٣٠ ج ١ .

بغـــداد

هي عاصمة العباسيين ، بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم ، وقد تغير موضعها مراراً . والسبب في بنائها : ان السفاح لما بويع بالخلافة واكثر انصاره في العراق وفارس ، نزل الكوفة ومعه اخوه المنصور . ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماهـا الهاشمية اشارة الى ما يجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها[١] وبها مات السفاح وقبره فيها. واقام المنصور في الهاشمية بضع سنين، ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكناها وخرج يبحث عن مكان يبني فيه مدينة حصينة ، فدلوه على مكان بغـداد وحسنوه له ، فبنى فيه مدينة سماها بغداد ، وعرفت بمدينة المنصور .

بناها في الجانب الغربي لدجلة بشكل مستدير، وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه . فلما كانت ايام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي من دجلة ، وسمى ذلك المكان عسكر المهدي . ثم انتقل اليها الوجهاء واهل الدولة وبنوا فيه ، وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور ، وامتدت ابنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر . ويسمى جـانب بغداد الشرقي الرصافة والجانب الغربي الكرخ .

وبلغت بغداد معظم عمارتها في ايام المأمون ، حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٫٧٥٠ جريباً، منها ٢٦٫٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي، و٢٧٫٠٠٠ في الجانب الغربي [٢]، والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع، ونسبته الى الفـدان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ ١/٢ ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٫٠٠٠ فـدان ، وهو شيء كثير . ولكن يظهر أنها كانت عبارة عن مدن متلاصقة — قال الخطيب البغدادي في تاريخه انها اربعون مدينة ، وان الحمامات بلغ عددها في ايام المأمون ٦٥٫٠٠٠ حمـام [٣] وقد اراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال: «وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين الف حمام ، واقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيم وزبال ووقـاد وسقاء ، يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل . وذكر ان يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجـد يكون ذلك ثلاثمائة الف مسجد ، وتقدير ذلك ان اقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان » [٤] .

---

١ — ابن خلكان ١٥١ ج ١ . ٢ — سير الملوك ٥٥ .
٣ — ابن خلدون ٢٨٧ ج ١ . ٤ — سير الملوك ٥٥ .

ولا ينطبق هذا التخريج على مـــا نعلمه من احوال هذه الايام ، فلا نسلم به كما هو ، ولكنه يدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة في عهد ذلك التمدن العجيب وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في اثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥ ﻫ قال : «وقيل انه عبر الجسرين من العامة في ذلك الوقت ١٠٠،٠٠٠ انسان في الزواريق..» (١) فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا ؟ فلا نبـــالغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك نحو مليون ونصف او مليونين .

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد ، قـــال ابن حوقل وقد رآها في اثناء القرن الرابع للهجرة : «وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه انهار من الفرات .. الخ» (٢) .

وهناك مدائن اخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقيروان في بلاد المغرب ، وواسط في العراق، وغيرهما في مصر والشام وفارس. ناهيك بالمدائن التي كانت عامرة قبل الاسلام، وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتهـا ، مثل دمشق الشام ، وقرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، والاسكندرية . وسنأتي على شيء كثير من حضارة هذه المدن وغيرهما فيما سنذكر من حالتها الاجتماعية في بعض الأجزاء الآتية ان شاء الله .

---

١ – الطبري ١٧٣٠ ج ٣ .   ٢ – ابن حوقل ١٦٦ .

فهرس

من مؤلفات جرجي زيدان التي نشرتها دار مكتبة الحياة :

- العرب قبل الاسلام .
- تاريخ آداب اللغة العربية (أربعة أجزاء)
- تاريخ التمدن الإسلامي (خمسة أجزاء)

ثم روايات تاريخ الاسلام

وهي سلسلة من الروايات التاريخية تصور مراحل التاريخ الاسلامي منذ ظهور الاسلام .. روعي فيها عنصر التشويق مع التزام الحوادث التاريخية التزاما دقيقاً من حيث الزمان والمكان والاشخاص مع وصف ما يتخللها من عادات واخلاق. وهذا بيانها حسب العصور التاريخية :

— فتاة غسان :

تشرح حال الاسلام منذ ظهوره حتى فتوح العراق والشام مع بسط عادات العرب وأخلاقهم في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم .

— ارمانوسة المصرية :

تتضمن تفصيل فتح مصر على يد عمرو بن العاص مع بسط سائر أحوال العرب والأقباط والرومان في ذلك العصر .

— عذراء قريش :

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي ، وما نجم عن ذلك من الفتنة ، ووقعتي الجمل وصفين.

٤ — **١٧ رمضان :**
تفصل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج وقيام الفتنة واستئثار بني امية بالخلافة وخروجها من أهل البيت .

٥ — **غادة كربلاء :**
تتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامـام الحسين وأهل بيته في كربلاء ، ووقعة الحيرة وغيرها .

٦ — **الحجاج بن يوسف :**
تتناول حصار مكة على عهد عبدالله بن الزبير الى فتحها وخلوص الخلافة لعبد الملك ابن مروان ، مع وصف مكة والمدينة .

٧ — **فتح الاندلس :**
تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف احوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط .

٨ — **شارل وعبد الرحمن :**
تشرح فتوحات العرب في بـــلاد فرنسا وما كان من تكاتف الافرنج بقيادة شارل مارتل وأسباب فشل العرب في اوروبا .

٩ — **ابو مسلم الخراساني :**
تشتمل على سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية الى مقتل ابي مسلم ويتخلل ذلك وصف عادات الخراسانيين .

١٠ — **العباسة اخت الرشيد :**
تشتمل على نكبة البرامكة وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفـاء وملابسهم ومواكبهم ، وحضارة الدولة في عصر الرشيد .

١١ — **الأمين والمأمون :**
تفصل الخلاف بين الأمين والمأمون ، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتحوا بغداد ، ودخائل السياسة بين العرب والفرس .

١٢ — **عروس فرغانة :**
تتضمن وصف الدولة العباسية في عصر المعتصم بالله وقيام الفرس لارجاع دولتهم ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية .

١٣ — **احمد بن طولون :**
فيها وصف جامع لمصر وبلاد النوبة وعلاقاتها السياسية في اواسط القرن الثالث للهجرة على زمن احمد بن طولون .

١٤ — عبدالرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها في زمن الخليفة عبدالرحمن الناصر الاموي وخروج ابنه عبدالله عليه .

١٥ — فتاة القيروان :

تتضمن ظهور دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر ، وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية .

١٦ — صلاح الدين ومكايد الحشاشين :

تتضمن انتقال مصر من الفاطميين الى الايوبيين على يد السلطان صلاح الدين، مع وصف طائفة الاسماعيلية .

١٧ — شجرة الدر :

تتضن مبايعة شجرة الدر ، وسيرة الأمير ركن الدين بيبرس وحالة الخلافة العباسية وقتئذ وانتقالها من بغداد الى مصر .

١٨ — الانقلاب العثماني :

تشرح احوال العثمانيين وما قاسوه في طلب الدستور ، ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبدالحميد وجواسيسه .

١٩ — اسير المتمهدي :

تتضمن وصف مصر والسودان في الربع الأخير من القرن الماضي ، ودسائس الدول الاجنبية التي أدت الى الثورة العرابية في مصر والثورة المهدية في السودان، والاحتلال البريطاني لوادي النيل .

٢٠ — المملوك الشارد :

تتضمن حوادث مصر وسوريا وأحوالها في النصف الاول من هذا القرن، ومن ابطالها الأمير بشير الشهابي ، ومحمد علي باشا ، وابراهيم باشا ، وأمين بك .

٢١ — استبداد المماليك :

تشرح احوال مصر وسوريا في اواخر القرن الماضي، وحكم علي بك الكبير ومعاصريه من مماليك مصر وأمراء الشام ، والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الامور السياسية والاجتماعية .

٢٢ — جهاد المحبين :

تصور مأساة من مآسي المحبين وما يقاسونه في سبيل الحب ، ثم يجزون على صبرهم ووفائهم ، وتدور الدوائر على اهل البغي والعدوان .

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٢١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠